

# مقاربات فكرية راهنة

د. أحمد قطامش

# الفهرس

4.....	تمهيد مكثف.....
11.....	<b>الفصل الأول: تحولات ومتغيرات</b> .....
12.....	مقدمة.....
23.....	الوضع الراهن أرضية استخراج الرؤية البرنامجية.....
41.....	تجديد حركة التحرر الفلسطينية.....
47.....	<b>الفصل الثاني: حول اليسار</b> .....
48.....	المشروع التحرري اليساري الفلسطيني بين الأزمة البنيوية وفرص النهوض.....
109.....	في الأخلاقيات اليسارية والأخلاق الجنسية.....
141.....	الماركسيّة - اللينينيّة في تجربة سياسية فلسطينية.....
149.....	الحزب و الحركة الاجتماعية.....
158.....	<b>الفصل الثالث: ولادة جديدة</b> .....
159.....	هل ثمة نموذج نظري للنضال الفلسطيني وماذا عن المستقبل القريب؟.....
183.....	هل من الممكن إعادة إنتاج الانتفاض الكانوني عام 1987؟.....
200.....	سردية واستخلاصات: فلسطين على أبواب ولادة جديدة.....
234.....	"الكونفدرالية" مشروع سياسي جديد لما بعد أوسلو.....
244.....	حق العودة جوهر الصراع.....
256.....	<b>الفصل الرابع: اقتصاديات</b> .....
257.....	مداخلة في علم الاقتصاد.....

278	قراءة في الخطة الاقتصادية للحكومة الفلسطينية.....
294	المرأة والعمل والتنمية في الأراضي الفلسطينية عام 1967.....
313	<b>الفصل الخامس: قانات عالية</b> .....
314	في ذكرى رحيل الحكيم: الدكتور جورج حبش.....
321	شذرات عن الحكيم الدكتور جورج حبش.....
335	كلمة في ذكرى استشهاد مصطفى الزبري (أبو علي مصطفى).....
339	<b>الفصل السادس: بين السياسة والإعلام</b> .....
340	هل فنزويلا ذاهبة لحرب أهلية؟.....
354	هل الميادين منصة لمشروع تنويري مناهض للهيمنة والاستنقاع؟.....
365	<b>الفصل السابع: في الثقافة</b> .....
366	هل ثمة ثقافة شعبية نقدية فلسطينية؟.....
381	جدلية الذاكرة والممارسة بين الاشتباك الميداني والانتفاض الشعبي.....
388	أين تتجّه السفينة الفلسطينية في ضوء صفقة القرن وفوز نتياهو؟.....



## تمهيد مكثف

بين دفتي هذا الكتاب طائفة مقاربات اصطفتيتها من بين سلسلة طويلة من المقاربات التي لم أعرضها من قبل أو عرضتها في مؤتمرات أو محاضرات في السجن أو في أوساط أكاديمية. وقد راعيت في اختيارها أنها لم تنفك تحافظ على راهنتها مثلها أنها تضيء زاوية تساعد في الإحاطة بمسألة فكرية أو ترصد متغيرات جديدة.

وهي وإن بدت نصوصاً منفصلة غير أن ثمة خيط ناظم يوحدنا هو انطلاقها من عقل نقدي إنتاجي من جهة وتكاملها في بنية متسقة من جهة أخرى في سعي لخلق تلاحم جمعي من جهه ثالثة. فهي تبدأ بالتنوير وتنتهي بالتثوير. وإن لم تتفاعل الثقافة وتستخرج من الممارسة، فما أهميتها إذن؟!

"السياسة هي ممارسة مجتمعة شاملة"، "تهدف إلى التحرير الشامل من كل الاعترابات" (ماركس). سواء تشكلت فواعلها الطبيعية في عام أو عقد وسواء بلغت أهدافها في قرن أو قرون، فهذه فلسفتها عندما تتجاوز التعريف الأرسطوي للسياسة (إدارة الحكم والناس) والتعريف الليبرالي (فن الممكن والإصلاح) فهي تذهب إلى "ما تحت السطح" (مهدي عامل)، بغية حل التناقضات وإنهاء "الاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي والديني والجنسوي ... والتخلص من مخلفات القرون الوسطى" (لينين) عبر عملية تركيبية تحتضن التاكتيكي لبلوغ الاستراتيجي وتتكئ على الإصلاح للوصول للجذري. "ولا ينبغي أن ينتهك التاكتيك الاستراتيجية ولا أن تنتهك السياسة الإيديولوجيا" (د. جورج حبش) في انسجام مع نصيحة ماركس "إياكم والمساومة على المبادئ، إياكم والتنازل النظري" طالما أن الهدف النبيل هو "الخير العام" (غرامشي) والسير بالتاريخ للأمام وعدم صلبه في قيود التخلف وتحت نعال شمال ينهب الجنوب بينما يسيطر 5% على 90% من ثروة الكرة الأرضية.

و"لأن النظرية رمادية وشجرة الحياة خضراء" (إنجلز) يتعين القبض على المستجندات وفهم الشروط الملموسة "لو أتاني شيوعي صيني وحدثني عن الماركسية دون ربطها بالخصائص القومية الصينية أعتبر كلامه فارغاً" (ماو تسي تونغ). "النظرية مرشد للعمل وليست عقيدة جامدة" (لينين).

\*\*\*\*\*

وما أصبحت عليها الوضعية الفلسطينية حيث تتضافر ديناميات تفكيكية مع مشروع عنصري استعماري تصفوي يعملان بدأب ليس لشطب القضية الوطنية فقط بل ويذهبان إلى انهاء الشعب وتحويله لمزق وشظايا تفتقد لمقومات الكيانية السياسية أيضاً. هذا كله وما يتصل به إنما يقتضي تحريض عوامل الصمود الشعبي والقواسم المشتركة وخلق مقدمات النفي الارتقائي للأدوات والأداء ونمط التفكير ومستوى التخطيط كعوامل ذاتية أفضت للحالة المأزومة، كشارط ومشروط لشق طريق جديدة تنتقل بالسياسة من الأخلاق (التضحيات) إلى صنع التاريخ (الانتصار) في إطار مشروع عربي نهضوي تقدمي. "إذ ما فائدة الركض على الدرب الخاطئ" (مثل ألماني).

"الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض" جاء في وثائق الخارجية الإسرائيلية بعد النكبة والتطهير العرقي عام 1948 ولكن الفلسطيني الذي كان أقل من 1.2 مليون نسمة بات اليوم 13 مليون نسمة، يضم مليوناً من حملة الشهادات الجامعية. أما مقولة "الكاريموتون والصغار ينسون" ففي استبانة شاركت في إعدادها في السجن عام 2013 و 2017 تبين أن 65% من الأسرى أعمارهم دون 25 سنة ومن مواليد ما بعد الانتفاض الشعبي الكبير أواخر 1987.

ورغم الإخلالات "والأخطاء والخطايا" (د. حبش) لم تنضب الروح الكفاحية المعمدة بالدم وحافظت على حالة الاشتباك مع المشروع الاستعماري الاقتلاعي الإحلالي الذي استحوذ على معظم الجغرافيا دون أن يفلح في إزاحة الفلسطيني من التاريخ، وبنوالم من بين ثنياه طاقات تتقدم الصفوف، بصرف النظر عن الأسماء والمسميات، وبكلمات الشهيد عبد القادر الحسيني النبوية "شعب فلسطين سيبقى يثور جيلاً بعد جيل إلى أن تحرر فلسطين". وأكثر من 60 مشروع سياسي لتسوية أو تصفية القضية الوطنية كان مصيرها الدروج، ذلك

أنها حاولت تفريع الجوهري وجوهرة الفرعي، مرة تحتزل الشعب ومرة تحتزل الجغرافيا ومرة تقسم إقليمياً غير قابل للتقسيم. أما الجوهري فهو اقتلاع ثلثي الشعب وسرقة ثلاثة أرباع وطنه عام 1948 والفرعي هو احتلال أراضي 67.

والثقافة الطاغية هي الثقافة التحررية التي تشبث بالذاكرة والحقوق ووحدة الشعب والأرض والمصير بما يشكل عائقاً كبيراً أمام المؤامرات وتربة خصبة لإنتاج سياسة مناظرة. كتب الكثيرون عن الأزمة الفلسطينية والمشهد الفلسطيني، وثمة إشارات هنا وهناك في هذه النصوص أيضاً، وهذا يتطلب ضروري للإحاطة بالواقع، بما يشكل تحد نظري هو مقدمة لاستخراج رؤية وأدوات صنع المستقبل، وهو المهمة الأصعب. وليس غرض هذا التمهيد تقديم برنامج، إذ حسب سوق قبضة أفكار موجهة ترشد المستقبل القريب.

ولأن السياسة في بلادنا هي العنصر الحاسم، اتصالاً بالتطهير العرقي عامي 1948 و1967 واستعمار عموم فلسطين، خلافاً لقانون التاريخ الذي يقوم على أن الاقتصاد هو العامل الحاسم، يتعين سياسياً:

(1) العودة إلى حقائق الصراع، بأنه صراع وجود لا صراع حدود، لا يجد حلاً جذرياً له إلا بتحرير الوطن " وإقامة دولة ديمقراطية وعلمانية" للجميع (د. جورج حبش) في إطار عربي تقدمي، سيما وأن مسار أوسلو والدولتين قد وصلا نهايتهما دون سيادة فلسطينية على شبر واحد، بل ولم يتوقف الاستيطان الاستعماري القافر وتهويد القدس والاعتقال اليومي وخلق مقدمات التطهير العرقي واستباحة كل ما هو فلسطيني بما يعيد الاعتبار للعمل المشترك بين شطري الوطن، أراضي 67 و48.

(2) لا فائدة من أي موقف انكاري، فثمة تراكيب سياسية - اجتماعية - اقتصادية سارت على نهج أوسلو ولن تغادره، وثمة تراكيب سياسية-اقتصادية-اجتماعية مناهضة لهذا النهج ولن تغادره. وسياسة شيطنة الآخر وتحشيد بطارية حجج وأبواق ضد الآخر لن تفيده أيضاً ولا الاتفاقات الوحدوية ولا طيبة الأشخاص.

فالتجسير بين النهجين بإيجاد برنامج سياسي واحد وخط كفاحي واحد وقيادة واحدة هو أقرب للتمنيات طالما أن الشروط التي أنتجت الانقسام مستمرة. حتى عقد المؤتمرات الخاصة بكل فصيل أو فصائل فلن تفضي إلا إلى إعادة إنتاج نفس النهج ونفس النخب تقريباً.

والفرصة المأمولة، أن ينهض الشعب، وهذا أقرب للحمية طالما أن محركات الصراع مستشرية. ويكفي تذكر ولادة الفصائلية الفدائية في أوسط الستينيات وولادة الإسلام المقاوم في أواخر الثمانينيات، وحينها فن ينبري لقيادة النهوض هو الأقدر على توحيد الساحة. وإلى تلك اللحظة فالمتاح فقط هو القواسم الميدانية وما أكثرها (القدس، الأسرى، حماية ما تبقى من أرض، تحسين ما أمكن من قطاعي التعليم والصحة، تخفيض ما أمكن من بطالة، تدعيم الصمود المجتمعي)، والاصطفافات الجزئية ولو على موقف واحد (تظاهرة، إضراب، انتخابات محلية...) بغض النظر عن الموقف السياسي. ويمكن أيضا الذهاب لتشكيل مجلس وطني توحيدي (انتخاباً وتوافقاً) كمرجعية شاملة للشعب بكافة مركباته وتجمعاته، كخطوة مفتاحية يليها خطوات.

3) تعميق الوشائج مع حركة التحرر العربية والقوى والدول الصديقة التي تدعم الكفاح الفلسطيني، آخذين بالحسبان الصراع الجيو سياسي في الإقليم والعالم، وتراجع النفوذ الإمبريالي وأحادية القطبية. فالصراع الجيوسياسي محتدم ضمن خنادق جديدة، ليس بين "الاشتراكية والرأسمالية" غالباً بل بين الهيمنة والمناهضين للهيمنة السياسية-الاقتصادية-الثقافية، فالشعوب تسعى لسيادتها وثوراتها رفضاً لـ 30 احتكار معولم يسيطرون على 70% من السوق الدولية و90% من الأخبار والأفلام ووسائل الاتصال الجماهيري... إلخ. ولن نتورع في زمن إدارة اليمين المحافظ الأنجليكاني في البيت الأبيض من الذهاب لأبعد المديات وإشعال أشبع الحروب. الإقليم غير مستقر وعلى أبواب مواجهات انعطافية "والذي ينزل السوق يتسوق" أو غيره يرسم مستقبله. وأفضل رؤيا هي تركيب مقومات النهوض الشعبي بكافة نماذجه.

### ثقافيا وتعليميا:

بعد اقتلاع ومصادرة وسيلة الإنتاج الأساسية (الأرض) والإجراءات الاستعمارية المثابرة لحجز تطور الشعب واستنزاف قدراته، ففرص التنمية الاقتصادية محدودة، بما يعطي التعليم والثقافة أهمية مضاعفة، وهذا يقتضي أولاً إعادة النظر في المنهج التلقيني - الحفظي والحشو الآلي المنفصل عن متطلبات قضايا الواقع والذي لا ينتج عقولاً نقدية وتحليلية وبحثة، أما أن يتوجه 97% من خريجي المدارس للتعليم الأكاديمي والنظري و3%

للتعليم المهني والتقني فهذه وصفة أكيدة لبطالة مستدامة لـ 50% من حملة الشهادات النظرية بينما المطلوب والممكن ضبط العملية التعليمية على أسس جديدة ارتباطاً بمتطلبات السوق والصمود والنضال الوطني.

وهنا يمكن أن تبيري الأصوات والأقلام الثقافية لربط إبداعها بالعملية الصمودية والتحريرية. فئات المراكز الثقافية والبحثية والإعلامية والفنية والورش متشظية شرسطة لا يجمعها جامع بل ومعظمها يتفاخر بنأيه عن النضال الوطني.

وتاريخياً، الثقافة هي التي مهدت للسياسة سواء في عصر العقائد القديمة أو الديانات أو عصر الثورة الصناعية والبرجوازية وصولاً للثورات التحررية والاشتراكية. ومهما كان حال السياسة الفلسطينية، فالثقافة هي الحصن الأول. وحجر الزاوية هنا هو بلورة مشروع ثقافي تحرري معادل للمشروع السياسي التحرري، وإطلاق العقل وعدم تكبيله بثقلات الخرافات والترهيب والعقل الجري.

وخليقُ الإشارة أن "الثورات تنتصر بقدر مشاركة النساء فيها" و"ان تحرر المرأة هو معيار تحرر المجتمع" (لينين)، بما يقتضي جهد مناهجي لا يتوقف خدمة لتحرر ومساواة المرأة جنباً إلى جنب مع العمل لتكريس المواطنة دون تقسيمات دينية وتقليدية.

### اقتصاديا وتنمويا:

سوف تتقلص المساعدات الخارجية أكثر، فقد انتهى زمن أن تشكل المساعدات الخارجية 30-50% من موازنة السلطة، فلم تزد في العامين الأخيرين عن 10%، وسوف تغلق المزيد من أبواب المنظمات غير الحكومية (أغلق أكثر من 600 من أصل 2700 في الضفة وغزة). وصفقة القرن تستوجب استنزاف الفلسطيني إلى أن يرفع الراية البيضاء. والحصار على قطاع غزة لن يُرفع طالما استمرت قواعد الاشتباك الحالية إلا إذ أسقطت البندقية. وعليه، لا مهرب من تفكير إبداعي وتشفني على كل الصعد.



فالأسمال الفلسطيني يستثمر أكثر ما يستثمر في القطاع الخدمي والبورصة والمؤسسات البنكية، وأقوى شرائح البرجوازية هي الشريحة الكومبرادورية في تواشجها مع نخب من البيروقراطية السياسية، الأمر الذي جعل الميزان التجاري 5,5 مليار دولار استيراداً سنوياً و1 مليار دولار تصديراً سنوياً!!

وهذا لا ينبغي أن يستمر بينما الاستثمار في قطاع الإنتاج هو منصة التنمية المستدامة الذي يوفر فرص عمل وخطوة في طريق فك الارتباط بالسوق الاستعمارية. وما نجاح بعض المشروعات الاقتصادية الإنتاجية إلا دليل على الفرص المتاحة.

والبطالة التي ناهزت نصف مليون أكثر من نصفهم من خريجي الجامعات من أصل 1,5 مليون هم قوة العمل في الضفة وغزه ونحو 20% في أراضي 48 تحت على أن إنشاء مشروعات صغيرة ومتناهية الصغر هو أحد المخارج. أي خلق فرصة عمل لا انتظار فرصة عمل. وهذا حال ضفر الإمكانيات لإقامة تعاونيات زراعية وخدمية تتلائم مع حاجة السوق.

### العمل الشعبي:

لقد تهقر وزن الفصائل المنظمة، وإن ما برحت اللاعب الأول. وغير استطلاع أشار إلى أن نصف المجتمع قد انفض عنها سيما في لحظة تراشق الاتهامات، فيما يرتفع تأييدها إلى 90% في زمن المواجهات الوحشية. وتشير إحصاءات أن حجم التأيير يصل 16% للذكور و1% للإناث، ونحو 60% من الشباب لديهم الاستعداد للهجرة.

وبقطع النظر عن صحة هذه الأرقام فعالية الشعب غير مؤطرة، مما يستدعي إطلاق سيل من المبادرات تبدأ ولا تنتهي لتأطير أوسع قاعدة في كافة الميادين الشبابية، الثقافية، النقابية، النسوية، الفنية، الرياضية، الاجتماعية، السياسية، الزراعية، التعليمية... إلخ. وكل ما من شأنه أن يخدم الوطن والمواطن في أراضي 67 و 48 على حد سواء، تقوم على ثلاثة ركائز: 1. الاعتماد على الذات والمصادر المحلية جهداً ومالاً وأولويات، 2. أن تنسج أوسع العلاقات فيما بينها ومع التنظيمات المجتمعية القائمة على أساس وحدة الإرادة والعمل المشترك، 3. أن تبني لها امتدادات قاعدية.

وفي الميدان الشعبي يمكن التقاطع والاصطفاف على موضوع واحد أو مواضيع دون كبير اهتمام للتباينات في الحقل السياسي. فروح الشعب وحدوية أما الانقسام السياسي فهو بين النخب لأسباب عديدة. ويحظى الأجر المتساوي للعمل المتساوي وتطبيق الحد الأدنى للأجور ورفعته والتأمين الصحي والتعليم المجاني بأهمية معيشية وصمودية في آن.

# الفصل الأول:

## تحولات ومتغيرات



## مقدمة

إن رصد الواقع عملية ليست سهلة، وكل العلوم والثقافة في أحد أركانها الكبرى محاكاة الواقع. وهذه العملية ضرورية ولا مهرب منها سواء للأحاطة والقبض النظري على المعطيات أو لاستخراج المهام والمقاريات بغية إصلاح الواقع، أو الذهاب بعيداً لتغييره لمن يسعون "للتحرير الشامل للإنسان" (ماركس) الذي أضاف "الفلسفات القديمة فسرت الواقع بينما المطلوب تغييره". ويمكن الاجتهاد بالقول أن للتحوّل طابع كميّ في إطار نفس الماهية، أما التغيير فطابعه كميّ يتجاوز الماهية لماهية جديدة.

وتشهد الوضعية العالمية تحولات، وهذا ينسحب على الوضعية الإقليمية والعربية كما الفلسطينية. فالتحوّل قانون موضوعي قد يتباطأ أو يتسارع أو يراوح مكانه لبعض الوقت أما وقد شاخ القديم فإنما يمهّد لا محالة لانبثاق الجديد.

وهذه المفردة "التحوّلات" شأن مفردة "المتغيرات" هما أداة تحليلية أساس في هذا النص المفتاحي، يليه نصوص ينظمها جميعاً جهد ومحاولة لتبيين وتوطين الفكر وإنتاج نظري يلامس الخصوصية، أي "تحليل ملموس للواقع الملموس" (لينين) و"لو جاءني شيوعي صيني يتحدث عن الماركسية دون ربطها بالوضع الصيني اعتبر كلامه فارغاً" (ماو تسي تونغ).

وبعض هذه النصوص محاضرات ألقيتها في السجن أو كلمات ألقيتها في مؤتمرات محلية أو دولية أو في أوساط أكاديمية، ولكنها جميعاً تحافظ على راهنتها فلم يتجاوزها الزمن.

تعدد قراءات الواقع ويتباين رصد التحوّلات واتجاه حركتها، وهذا أمر طبيعي. فالفكر الاجتماعي ليس إيديولوجية واحدة ولا يعبر عن مصالح واحدة، كما أن أهل الفكر ليسوا طبعة واحدة في منطلقاتهم وثقافتهم وذكائهم وعمق بصيرتهم ناهيك عن التناقض في أهدافهم، عوضاً عن الفوارق التي تنشأ بين قراءة مرتبطة بالممارسة وصنع التاريخ وقراءة أكاديمية منفصلة عن الممارسة وبالكاد (تتلوث) أيادي أصحابها بتضحيات صناعة التاريخ.

وحركة الحياة في التحليل الأخير كفيلة بالتمييز بين الغث والسمين وهي "قادرة على الإجابة عن الأسئلة وتصحيح الأخطاء" (إنجلز). والمهم إطلاق أجنحة الاجتهاد والعمل الفكري "فلمجتهد إن أصاب ثوابان وإن أخطأ ثواب واحد" (نبي الإسلام محمد). فأحد إخلالاتنا البنيوية هو استثناء الاستهلاك واجترار الأمس وانلحوض في شرح الشروحات، بينما الأجدر هو الانطلاق من الراهن وقضاياها بالإفادة من إرث الأمس ودروسه. إننا أبناء هذا الزمن الذي يفور كالبركان وتتسارع دورته العلمية فتتضاعف النظريات والمعارف العلمية كل ستة أو سبعة أعوام. ولهذا كانت بصيرة كهات علي بن أبي طالب "لا تعلموا أبناءكم ما تعلمتم، فزمانهم ليس زمانكم" ممسكاً ببذرة الجدل (الديالكتيك) التي ابتكرها الإغريق.

\*\*\*\*\*

خليق التنويه أن عدداً من هذه النصوص مستاة من الممارسة أو على صلة بها، من "البراكسيس" (غرامشي) حيث تفاعل الإرادة الواعية مع الفعل الثوري. فهذه النصوص ليست مستقاة من الكتب والوصفات الجاهزة وبكلمات الدكتور جورج حبش "علينا إلباس النظرية عقلاً وكوفية" وموقفها الأخلاقي صريح "كل الوعي إنما لخدمة النضال" (لينين)، فهي ليست ترفاً فكرياً وألعاباً ذهنية.

والثقافة فاعل من فواعل التاريخ وتخلق التلاحم في أوساط قوى التغيير، وهي "تبصر وتوجه السياسة" (د. دراج)، وبلغة د. حبش "الفكر يحدد السياسة تحسم". والإيديولوجيا الثورية كمنظومة نظريات عندما تصارع إيديولوجيات أخرى تتحول لسياسة، ذلك أن السياسة هي "الصراع الطبقي والقومي" (لينين) إضافة للصراع مع مخلفات القرون الوسطى والبطيركية والعقل الجبري الذي يقهر حرية العقل والإبداع، وتسعى للتحرر من كل الاعتبارات التي نشأت ما قبل الثورة الصناعية وما بعدها.

وجلي أن بعض النصوص هي محاولات لتوطين الفكر وربط المقاربات بلوحة التناقضات فلا تخلط بين التناقض الأساس والتناقض الرئيس، بين التناقض الرئيس والتناقض الثانوي أو الفرعي وما تقتضيه من حلول وتحالفات وأشكال نضال. وبالتالي فهي ليست تحليلاً فكرياً في سماء التجريد، و بكلمات أرسطو "الصورة والمعنى" بل حضور الصورة في المعنى والملموس. وبلغه معاصرة تأمين التوافق بين البنية الفوقية والبنية التحتية.

ولأنها كذلك فهي تربأ عن التخويض في جدالات عقيمة اجترتها الفلسفة في بواكيرها آلاف المرات، وراحت إلى أبعاد فلسفية جديدة تتابع دور البشر في تغيير شروط حياتهم بحثاً عن الحرية والازدهار من جهة، والنأي عن معارك فكرية تهرب من موجبات التناقض الأول إلى الثانوي، ومن الجوهري إلى الفرعي والهامشي على طريقة حكاء القسطنطينية "أيهما أسبق الدجاجة أم البيضة وما عدد الشياطين على رأس دبوس" أو الانشغال بمعارك لا قيمة لها مع مركبات لا قيمة لها، وعلى الدوام الحرص الثابت على شحن المعنويات بالإيجاب والمضنيء وحماية رموز وأبطال الشعب من المحاولات المعادية لتفكيكهم والافتئات عليهم طمساً للتاريخ الذي أنتجهم. "أنتم بلا تاريخ ومجرد قبائل متناحرة وجواري" تقول الدعاية المعادية و"لا أبطال ورموز لكم وكل رواياتكم كاذبة" دون أن يغيب التواضع الحقيقي الذي ينطلق من قاعدة أن العمل والإنتاجية هما معيار قيمة الفرد والجماعة، وأن "الثورة عملية حوارية" (باولو فريري) لا أحد فيها يحتكر الحقيقة أو جوبيتر إله المعرفة.

"الاغترار أحد الأمراض" (ديمتروف) كما "نرجسية المثقف" (د. بلقرينز) وفي الحالتين ثمة نسيان لمفارقة مؤلمة، أن الكتاب فيما عدا الاستثناءات، يوزع عربياً بمعدل 2000-3000 نسخة، وأنه لو اجتمع كل كتاب ومثقف فلسطين في قائمة انتخابية واحدة، لن يفوزوا على كادر لا مزايا له سوى أن فصيلاً وازناً يدعمه ولديه إمكانيات المال والنار. مثل هذه المفارقة الصادمة تقتضي أن نقرب أكثر من حقائق الملموس.

وكلمات ماركس موحية هنا "للإطاحة العملية بالشروط التي أنتجت الخرافات ليس النقد هو القائد للتاريخ بل الثورة". وللثورة في مسيرتنا العربية والفلسطينية حكاية ليس مثلها حكاية إذ "عندما تشيخ قوى إنتاج وعلاقات إنتاج وتعجز قوى الإنتاج الجديدة عن التغيير يصبح المجتمع مريضاً" (غرامشي). فقد شاخت علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج التابعة للمركز الإمبريالي، وأخفقت نظم البرجوازية القطرية سواء كانت قومية أو ممحوظة منذ زمن. فالمشروع القطري استنفد طاقته التقدمية منذ عقود ولا منجزات حقيقية له، بل وارتدت الشرائح الحاكمة في مصر وذهبت لكامب ديفيد الذي عبد الطريق لوادي عربة وأوسلو. والنظم العربية بمجملها، وإن بتفاوت، ارتهنت لإملاءات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والليبرالية الجديدة وهي بمجملها أيضاً، وإن بتفاوت مرة أخرى، أثبتت عجزاً في حقل التنمية، فزادت البطالة وارتفع الفقر، الهدف الأول للتنمية، مثلما ارتفعت المديونية العامة والخلل في الميزان التجاري، وقالت الحياة كلمتها عن اخفاقات القيادات الرسمية في

مواجهة الإمبريالية والصهيونية، وأكثر من ذلك فأخفاها مدو في التجربة الديمقراطية. فلا مواطنة تحققت ولا دولة مدنية ولا حرية تنظيم وتعبير، إلا في أضيق الحدود، بما جعلها مكشوفة أمام المخططات المعادية. وبدل تجاوز ذلك، ولدت الداعشية وأخواتها والعثمانية وتطلعاتها، حيث تحالفت مخبرات دول المركز مع مخططات أنقرة وأموال الرجعية النفطية وقوى محلية، وانطلق شيطان التدمير والمذابح الجماعية وصب الزيت على تقسيمات طائفية ومذهبية خامدة.

وفلسطينياً، أفضى مسار مدريد - أوسلو لاستباحة استعمارية إسرائيلية لفلسطين أرضاً وشعباً وأمناءً، وأمام الالتزامات الأمنية والسياسية تقدمت الصفوف قوى الإسلام المقاوم التي غدت منافساً جدياً لمنظمة التحرير وفصائلها التي تراجع وزنها وفعالها وما أعقبه ذلك من تحولات في الخارطة السياسية والهوية الفلسطينية.

لقد انتهت ثنائية فتح - الشعبية وباقي الفصائل وحلت ثنائية حماس - فتح وباقي الفصائل، وتراجعت مساحة الهوية العلمانية وتقدمت مساحة الهوية الدينية والتقليدية بل وانقسم التمثيل الفلسطيني.

مثل هذا لم يحصل في تاريخ الثورات. فقد عرفت فرنسا في القرن الثامن عشر شيخوخة في النظام الإقطاعي بأركانه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، فولدت الثورة البرجوازية وسلطة مركزية واحدة وقانون واحد ومدينة صناعية معاصرة وطبقات اجتماعية جديدة رأسمالية وعمالية وطبقة وسطى وحرية ليبرالية، ولاحقاً استعمار وغزو.

ولم يحدث في الصين في النصف الأول من القرن العشرين. إذ أمام عجز النظام الإمبراطوري الإقطاعي وحرب أمراء الإقطاع والمجاعات الدورية والأمية التي وصلت 99% حاولت البؤر البرجوازية التي تزعمها صنيات صن مشدودة إلى التحولات العاصفة في اليابان وما أصبحت عليه أوروبا، لكنها لم تحرز سوى القليل، فتقدم إلى الساحة الحزب الشيوعي الصيني الذي ذبح في انتفاضة شنغهاي فتوجه صوب الحرب الشعبية طويلة الأمد تحت قيادة ماوتسي تونغ. ومنذ الانتصار العظيم عام 1949 تشهد الصين تحولات ديمقراطية برجوازية وأخرى اشتراكية وقفزات تنموية لم تعرف البشرية لها مثيلاً.

وشيء مشابه في روسيا القيصرية حيث أطاح تحالف عريض بالنظام القيصري في شباط عام 1917 ولأن الحكومة المؤقتة لم تنجز إصلاحاً زراعياً وواصلت الحرب العالمية الأولى، استولدت ثورة جديدة عمالية في أكتوبر

1917 بقيادة لينين صاحبها سياسات برجوازية ديمقراطية (النيب) وكهربة للبلاد وتأميمات وتشريك جزئي لوسائل الإنتاج، ومضت في طريق التطور إلى أن أصبح الاتحاد السوفياتي دولة عظمى انتصر على النازية في الحرب العالمية الثانية وحرر الجيش الأحمر أوروبا الشرقية ... صحيح أن النظام قد سقط بعد سبعة عقود وتفككت سبيكة الدولة غير أن ما أنجزه من مدن عصرية وتطور علمي وثقافي واجتماعي حافظ على استمرارته وكذا الجيش التكنولوجي والنووي الذي جعل من روسيا دولة عظمى تأبى الانصياع للهيمنة الأمريكية وتحرز انتصارات عليها في الأزمة السورية في إطار الصراع الجيو سياسي.

وهذا ما يدور في أمريكا اللاتينية اليوم التي كانت تسمى "الحديقة الخلفية لأمريكا وجمهوريات الموز" فانتقلت في العقود الأخيرة من الحكم العسكري والمحوطة العميقة للإمبراطورية الأمريكية حسب التوصيف اللاتيني إلى بلدان لا تخلو من متنفسات ديمقراطية وبعض التنمية التابعة إلى وثبات تنمية استقلالية وحكومات في عدد من البلاد لا تخفي مناهضتها للسياسة الإمبريالية والليبرالية الجديدة. إنها تتحرك للأمام. حتى البرازيل التي تفوق مساحتها نصف مساحة القارة اللاتينية وعدد سكانها يناهز ثلث سكان القارة، باتت تسمى المعجزة البرازيلية بعد أن كانت عشرات العوائل تطبخ بصورة جماعية وتوزع الطعام على الجميع في سان باولو وبرازيليا، خشية أن تهاجها العوائل الجائعة فيما المخدرات والعنف والدعارة تضرب نخاع الأحياء الشعبية.

وحتى فوز ممثل "الليبرالية الجديدة والإنجيل" الذي فاز بـ 55% من الأصوات على ممثل اليسار الذي فاز بـ 45% وعدد 47 مليون صوت، لم ينسحب من محور البريكس بعد، ولم يهاجم مكتسبات الطبقات الشعبية بعد.

أما عربياً، فالتاريخ مرتبك ومشوه ويتخلله الجمود والتكلس والمراوحة في المكان والأنكى من ذلك تكتسحه مظاهر ارتدادية وأحياناً السير للوراء وتدمير التراكم المحدود، "وكلما خفقت بدايات مدينية حاصرتها الصحراء ودفنتها" (إنجلز)، وهذه العبارة الأخيرة أحد محركات عواصم الخليج في عدائها للحدثة والعلمانية في سوريا.

وفي مصر أطاحت الساداتية بالحقبة الناصرية، وانتفاض الشعب العارم الذي أطاح بحكم مبارك لم يتحول لثورة تكس علاقات الإنتاج ويتصدرها قوى اجتماعية تسير بمصر على طريق التنمية الاستقلالية والديمقراطية والمشروع القومي العربي، وسواء مبارك أو مرسي أو السيسي كلهم كسبوا ود البيت الأبيض ولم يتقدموا



ببرنامج يؤسس لمرحلة تاريخية جديدة على غرار الثورات الظاهرة. ولم يرفعوا الحصار عن غزة وأغلقوا الأنفاق التي كانت رئة تنفس لـ 2 مليون فلسطيني وتغطي 70% من حاجات القطاع دون أن يفتحوا بوابة رفح الدولية بصورة دائمة كما لم يلغوا اتفاقية كامب ديفيد المذلة التي فصلت مصر عن فلسطين والأمة العربية.

أما نظام صدام فقد أسقطته الإمبريالية بالغزو دون مقاومة حقيقية من الشعب، وصبت الزيت على جمرات التقسيمات الطائفية والمذهبية الخاملة فاشتعلت ناراً ودواعشية لم يعرف التاريخ الحديث لها مثيلاً. ويتملح العراق اليوم باحثاً عن وجهته المستقبلية. وليبيا استهدفها الإمبريالية والرجعية وقوى محلية، فأصبحت دولة فاشلة ومجزأة، ولم يتبلور ما يكفي من قوى داخلية ورؤى لإنقاذها ووضعها على سكة تجاوز الفوضى الحالية.

بداية لا يمكن إغفال الجدلية المتسارعة في مصر والعراق وليبيا وما تحملها من فرص تتطلب إرادة شعبية منظمة قادرة على الإمساك بالدفة والانطلاق للأمام، إذ ينتظر التاريخ "الكلمة التاريخية" (غرامشي) التي تكون في معمعان الصراع تطوراً وتعظيماً وللنويات التحررية الفاعلة تجاوزاً لسايكس بيكو وكامب ديفيد وأوسلو والتبعية والتخلف والتجزئة والأوتوقراطية. صراع يحمل فاعلية ومردوداً "إن الجانب المثير في الحرب أنها تمتحن الأمة، وكما المومياوات الاجتماعية التي لم تعد تملك قوة الحياة" (ماركس) "فتساقط التيجان" (إنجلز) ويلد جفراً جديداً هو نفي ارتقائي لما سبقه.

لقد توافرت فرصة في المرحلة الناصرية التي خاضت معارك متنوعة مع الإمبريالية والصهيونية والرجعية والتخلف وراكت مقومات ربع أو ثلث دولة عصرية، غير أن خللها الأساس كان في غياب الحزب الطليعي القادر على حماية المسيرة والمضي قدماً دون السماح للتحويلات الطبقيّة لنخب حاكمة بالحق والارتهان للبيت الأبيض وكامب ديفيد. ولأن الحياة لا تعرف فراغاً، ساد التكاثر والأزمات واقتسام كعكة السلطة في عهد مبارك إلى أن تم الإطاحة به.

ومصر لها الثقل الأول في الوطن العربي، فهي ليست مجرد دولة، وما يصيبها يترك بصمات ثقيلة على العرب. ومثل هذا الدور لن يضعف إلا إن توحدت بلاد الشام. ولأن مصر لم تنهض وبلاد الشام لم تتوحد نهضواً أتيحت الفرصة للسعودية وبلدان الخليج لمضاعفة تأثيرهما، ولكن ماذا لدى السعودية والخليج سوى البترودولار!

وفلسطين بما لها من مكانة سياسية جعلت منها القضية القومية الأولى على امتداد عقود، لم تعد كذلك اليوم إلا شعاراتياً، ذلك أن أولويات مصر ليست كذلك رغم كل ما يقال عن أن "الخطر على الأمن القومي المصري تاريخياً يأتي من الشرق" (هيكل) والمعارك في سوريا والعراق ولبنان لإسقاط المشروعات المعادية هي أكبر من فلسطين وتحظى بالأولوية اليوم. ودون أن تواجه فلسطين وتتجدد حركة التحرر الفلسطينية من الصعب أن تنبأ أو أن تستعيد مكانتها بوصفها القضية القومية الأولى. ففلسطين ليس لديها لا نفط ولا ثروات جوفية ولا تطور اقتصادي ولا نجاحات علمية واجتماعية مميزة، ومسيرة م.ت.ف بما خاضته من معارك وتضحيات إنما كرس وجود شعب له هوية كفاحية وقضية وطنية عادلة. ولكنها لم تحرر وطناً ولا قدساً ومعضلات الشعب هي أكثر من أن تحصى. وهذا حال الإسلام السياسي المقاوم الذي جعل من غزوة غابة بنادق لم تنكسر أمام ثلاثة حروب وقوة رفض يتعذر احتواؤها، ولكن ماذا أيضاً؟

إن إعادة إنتاج مسيرة م.ت.ف أو تعظيم الإسلام السياسي المقاوم، إنما هو إعادة إنتاج لتجربة بطولية وأخلاقية استشهادية بما اعتورها من "إخلالات وخطايا" (د. حبش) وذلك لم يحقق مجازاً "نصراً فيتنامياً ولا نمواً صينياً ولا درجة من الليبرالية الفرنسية ولا تجربة كوبية (تعتمد على ذاتها)" (كا سترو) ولا إرادة لبنانية مبدعة، بينما تحرير فلسطين والفلسطينيين يتطلب كل ذلك في إطار عربي تقديمي.

إن تجديد حركة التحرر الفلسطينية استناداً إلى إيجابياتها ودروسها هو الحلقة المركزية يعزز هذا الاستخلاص النهايات التي وصل إليها اتفاق أوسلو، والسياسة الاستباحية الاستعمارية لكل ما هو فلسطيني والتطهير العرقي الذي "ما زال على طاولة القيادة الإسرائيلية" (إيلان بابيه) والنزعة الانعزالية الخائفة في قطاع غزة، وتبدد وهم "المساواة في 48" الذي وجه له قانون القومية اليهودية الضربة القاضية.

ثمة الكثير لدى الفلسطيني لكي يفخر به، فهو لم يندثر ("سيتحول الفلسطيني لغبار الأرض") (وثائق الخارجية الإسرائيلية 1950)، ولم يستسلم ويشكل عقبة كبرى أمام المخطط الإمبريالي الصهيوني ولديه طاقة كامنة يحسب لها ألف حساب كما قوة ردع ما، ولكن لا مهرب من الإقرار أن مسيرة الأمس بعجزها وبجرها لم تحرر وطناً ولا مواطناً بل ولم تحافظ على قواسم مشتركة لتوحيد الشعب وقواه كدليل على فقر العقل السياسي القيادي وفقر الثقافة والديمقراطية.

لقد توحدت 17 قوة وعرق في إطار الفيتكونغ ولولا ذلك لما انتصرت فيتنام. وكان يقال في مرحلة الصراع بين المعسكرين الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفياتي والرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية أن التقسيم العالمي للعمل لا يتيح الفرصة للتنمية في البلدان النامية من العالم الثالث والرابع. وهذا صحيح بقدر ما. غير أن ما تشهده الصين والبرازيل والهند وجنوب أفريقيا وماليزيا يشكك بهذه المقاربة، حتى أن روسيا نهضت بعد الكبوة التي أصابها جراء انهيار النظام السوفياتي وتفكك شبكة الدولة بما أهلها للعب دور حيوي في السياسة الدولية.

وسواء كانت التنمية على أسس رأسمالية أو أسس انتقالية ممزوجة بطابع اشتراكي، وبلغة تنغ هيساو بينغ الزعيم الشيوعي الصيني الأسبق "لا يهم أن يكون القط أسوداً أو أحمرأ، فالهم أن يصطاد الفئران" أي غير مهم أن تكون التنمية رأسمالية أو اشتراكية وإنما المهم أن تتغلب على التخلف.

فهل لا زال ثمة شرائح برجوازية عربية تحمل تطلعات تنمية استقلالية وأهداف قومية وحدوية؟

يمكن الجزم نعم، وإن غلب على البرجوازية العربية اليوم الشريحة الكومبرادورية والطفيلية المرتبطة بالسوق الإمبريالية والمتماهية مع البيروقراطية السياسية والنخب العسكرية والعوائلية.

وما على البرجوازية القومية إلا أن تتقدم في تحالف مع القوى الشعبية التقدمية التي تصطدم مصالحها وكرامتها ورغيف خبزها مع الليبرالية الجديدة وهذا حال التيارات الشعبية من يسارية وتحررية وتقدمية وكل الأصناف وإن تراكم عوامل وجودها وفعالها وإن تبلور رؤاها التي تعبر عن الخندق التقدمي في لوحة التناقضات ارتباطاً بالملحوس الحي وحركته ومشروعات الهيمنة الأمريكية والنظم الاستبدادية؟

والفرصة مهيأة اليوم، وعنوانها المشروع النهضوي العربي وفلسطين. والتيار الأكثر فاعلية هو الأكثر استجابة لاستحقاقات المرحلة الجديدة.

وحرى التنويه إلى زاويتين. الأولى تتصل بالبرجوازية القومية التي قادت عدة أقطار عربية في العقود الأخيرة. فهي رغم معاركها ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية، والشوط الذي قطعت على صعيد التنمية، فهي أيضاً عنوان الإخفاق في حرب 1967 وما نتج عنها، مثلها أنها عنوان إخفاق في المسألة الديمقراطية والأثني من ذلك أنها تحوصلت في الإطار القطري بما شكل تربة ملائمة لمؤامرت خارجية الأمر الذي يقتضي

أن تتجاوز نفسها، إذ لم يعد كافيًا القول أننا في حرب ولا متسع للديمقراطية، فسقوط الوحدة المصرية السورية كان أحد عواملها غياب الديمقراطية، وانكفاء الجماهير وعدم مواجهتها للغزو الأمريكي (الثلاثيني) في أسابيع اجتياح بغداد كان غياب الديمقراطية، وتوقيع أوسلو كان في أحد عوامله نفس السبب.

وهذا حال التيارات اليسارية والتحررية التي تتفاخر بالتجربة الكوبية والفيتنامية والصينية بأنها لم تردت ووصلت معركة التحرر ضد الإمبريالية بمعركة التحرر ضد التخلف والاستغلال الطبقي "لم يعد ممكناً فصل المعركة القومية عن المعركة الديمقراطية" (د. حبش). فلم يعد مقنعاً أن تلوك عبارات إيديولوجية عن انتهاء الدور القيادي للبرجوازية مع استمرار دورها التاريخي، وإن الطبقات الشعبية وطلعتها اليسارية هي المؤهلة للدور القيادي. فمثل هذه الرؤيا تفتقر لشرطها السياسي، أي القاعدة الوازنة والطلبة القائدة، فالتاريخ لا يقدم الدور القيادي لقوى هامشية أو محدودة، بل لمن ينغمس في معمعان الكفاح والممارسة الثورية فيصبح قائداً للجماهير فعلاً وقولاً.

فالذي تصدى لمعركة تحرير الجنوب اللبناني وتجاوز سايكس بيكو كشرىك حقيقي في الميدان السوري هو حزب الله.

والذي صمد أمام مؤامرة دولية لتقسيم سوريا وإنهاك سوريا وتسليم دمشق لأشرس الطبقات دموية وانغلاقاً إلى حد التفاخر بالمقابر الجماعية وهدم الآثار والمتاحف ... وبالتالي حماية سوريا وموقفها وموقفها هو النظام والجيش بإسناد من الحلفاء. ولكن لولا القيادة السورية ورئيسها لانقلبت الطاولة وجاءت النتائج معاكسة.

وعليه لن يفيد اليسار ولا أهدافه الاعتصام بعبارات خشبية عن مزايا اليسار وطابع الطبقات. فقد غاب بقدر كبير عن صناعة أهم انتصارين عريين في العقود الأخيرة. فالتاريخ "لا يصنعه التقدر بل الثورة" (ماركس). ومن حقه أن يتفاخر بدوره في حقبة سابقة في ثورة الجنوب اليمني وفي السودان والعراق ولبنان وفلسطين غير أن هذه الحقبة لم تتواصل ولم تمتد للحاضر واستحقاقاته.

وبالتالي عليه أن يبرهن عن مزاياه وعن طابع الطبقات التي يمثلها وعن البرنامج الذي يتسلح به في الممارسة الثورية التي تسهم في مسيرة التحرر والتقدم الفلسطينية والعربية وحينها يصطف بجانب التجارب اليسارية الظاهرة في كوبا وفيتنام والصين.

وبأفق تاريخي، خسارة أن يتراجع دور وموقع أية قوة تحررية عربية وفلسطينية سواء كان عنوانها برجوازي قومي أو يساري اشتراكي أو إسلامي مقاوم. وريح صاف أن يتوضع الجميع في كحلة تاريخية لتحقيق أهداف الثورة الوطنية الديمقراطية العربية وتحرير الأراضي العربية المحتلة.

وربما من الصائب التذكير "أن الطبقة العاملة طبقة في ذاتها لا طبقة لذاتها" (ماركس). فأغلبتها غير مؤطرة نقائياً وغير معبأة اشتراكياً، وهنا يأتي "دور الطليعة السياسية في تعبئتها وتنظيم صفوفها" (لينين) بل والقطاعات الواسعة للعمال سواء عربياً أو فلسطينياً، الذين يفترض أن يكونوا القاعدة الاجتماعية الأساس لليسار الاشتراكي، إنما منحازون لقوى سياسية غير اشتراكية. ودون معالجة هذا الخلل نثار أسئلة عديدة عن يسارية اليسار وعن فرصة لتأدية وظيفته التاريخية.

والأمر نفسه يمتد ليشمل الفلاحين، الحليف الأول للعمال، فخالهم أقل تنظيمياً ووعياً وخبرة طبقية ويمكن قول الأمر نفسه عند البرجوازية الصغيرة والطبقة الوسطى من خريجي الجامعات التي لليسار بعض الجيوب والأصوات فيها. أما المظهر الرئيسي فهذا الوسط غير يساري أو يتبنى مقولات يسارية دون أن يعرف أنها يسارية (حق تقرير المصير، رفع الأجور، العدالة الاجتماعية، الحريات و نقد تغويل الأجهزة الأمنية وصولاً إلى الدولة المدنية...)، ودون تنظيم الصفوف وبرنامج فكري - سياسي لا يتحقق التضامن الطبقي الذي يجعل من الطبقة طبقة تعرف مصالحها وأهدافها وأعداءها وصولاً إلى الاضطلاع بدورها.

ولا ينبغي نسيان الاتساع المضطرد، في فلسطين والوطن العربي، للطبقة الوسطى من خريجي الجامعات، فثمة قفزات في إنشاء الجامعات وملايين من العرب يلتحقون بالدراسة الأكاديمية النظرية، أما الدراسة المهنية والتقنية فهي محدودة. وعلى سبيل المثال ثمة أكثر من ثلاثة أرباع مليون خريج وخريجة في الضفة الفلسطينية وقطاع غزة و48 والشتات، وفي الضفة وغزة وحدهما أكثر من نصف مليون، حيث 97% من طلبة الثانويات يلتحقون بتخصصات أكاديمية نظرية، فيما أقل من 3% يلتحقون بمعاهد مهنية وتقنية، ونرى حجم الكارثة عندما نعلم أن نسبة الذين يلتحقون بالدراسة المهنية والتقنية في بلدان كأوروبا وروسيا يتراوحون بين 40-50%.

ومثل هذا الخلل التعليمي البنيوي أفضى بأن تكون أعلى نسبة بطالة هي بين خريجي الجامعات سيما الإناث وفقر إمداد الطبقة العاملة بعمال مؤهلين مهنيًا.

ومهما يكن من أمر، جدير الملاحظة أن فئات من الطبقة الوسطى هي المهيمنة على وسائل الإعلام والتعليم والشركات الخدمية والبنكية... وأحياناً يتقدمون الصفوف في الحقل السياسي. فالنقابات المهنية في تونس والسودان والأردن لها ثقل، وكادرات الطبقة الوسطى نافذة في الحركة السياسية الفلسطينية بما يسمح بالقول أن يساراً مهمشاً في الطبقة الوسطى إنما يفقد نفوذه في قوة اجتماعية صاعدة. وهذا الصعود سوف يستمر في الزمن المنظور طالما تغيب التنمية الإنتاجية، الصناعية والزراعية.

وارتباطاً بغياب التنمية الإنتاجية، فهجرة الريف إلى المدينة، أي تريف المدينة حمل معه تعظيم الاقتصاد الهامشي بوتائر تفوق كثيراً نمو الاقتصاد الرسمي. فالملايين وعشرات الملايين من قوة العمل العربي، والمبدأ نفسه ينسحب على فلسطين، إنما يخترطون في أعمال هامشية بالكاد توفر أو لا توفر الحد الأدنى من الدخل فيصبح معظم هؤلاء من الفئات الفقيرة والأشد فقراً، دون أي شكل تنظيمي يجمعهم بما يجعلهم فريسة لآفات اجتماعية عديدة.

## الوضع الراهن أرضية استخراج الرؤية البرنامجية

جرت العادة أن يتم استعراض الوضع الدولي ومنه إلى العربي وصولاً إلى فلسطين، أو بالعكس من الفلسطيني فالعربي فالدولي. وفي مقاربتني سوف أخالف المؤلف، فأبدأ من العربي والإقليمي مروراً بالدولي وصولاً إلى فلسطين، أما مسوغ ذلك فالإقليمي والعربي باتا العامل الأول في تقرير مستقبل المنطقة في ضوء ما آلت إليه العملية الصراعية في سوريا والعراق ولبنان من جهة، وتأثيرات إيران على هذه العملية بما جعلها مستهدفة بحق من المخططات الأمريكية - الإسرائيلية وما يتوالد عن ذلك من مناخات سوف تدفع لا محالة لحرب مباشرة من جهة أخرى، ناهيك عن وزن تركيا وتطلعاتها.

### سوريا عنوان الشيفرة

كانت بؤرة المواجهة الأولى والعدسة المقعرة التي تتجمع فيها كل الصراعات في السنوات الأخيرة، بما يسمح بالافتراض أنها ستكون أيضاً قوة الدفع الأهم لمغادرة المرحلة الحالية والانطلاق لتأسيس مرحلة جديدة.

سوريا ليست دولة عظمى، مثلها أنها ليست دولة هامشية، فهي مكونة من 26 مليون نسمة وتقع في قلب المشرق العربي فيما تتوضع في الجبهة الشمالية الشرقية للوطن العربي، وما يدور فيها له اسقاطاته الأكدية على العرب والإقليم، علاوة على أنها في حالة حرب مع عدوها الإسرائيلي الذي يحتل جزء من أرضها (الجولان) وأصابعه عبثت في جراحها النازفة على امتداد ثمانية أعوام ولم يتردد في التمر عليها وقصف العديد من أهدافها في انخراط وثيق في مخططات تقسيمها وإنهاكها وتحويلها لدولة فاشلة.

والجيش العربي السوري وقوات الدفاع المدني، بدعم من الحلفاء، سجلوا انتصارات كبرى فاختل ميزان القوى الميداني بعد تحرير حلب امتداداً لدير الزور والبوكمال ... بما بسط نفوذ الدولة على الغوطة الشرقية والغربية وصولاً إلى مشارف الجولان والحدود الأردنية. والمعركة الانعطافية المنتظرة هي محافظة إدلب وما عدا ذلك هي جيوب إرهابية هامشية.

أما الاحتلال التركي لعفرين وسواها فهو ملف مؤجل وعلى اتصال وثيق بالملف الكردي والمهاجرين السوريين الذين لجأوا لتركيا، وثمة احتمالات عديدة هنا، الخيار السياسي والديبلوماسي ومنها الخيار العسكري. ولكن من المقطوع به أن لا مساومة على شبر واحد من الأراضي السورية.

ولئن كان للکرد مطالب عادلة وخصوصية لا يمكن تجاهلها، غير أن ذلك يقتضي أول ما يقتضي فك ارتباطهم بالسياسة الأمريكية والسلاح الأمريكي، والكف عن الحديث من الفيدرالية. وهناك مساحة واسعة رمادية يمكن التوافق عليها مع دمشق بما يحفظ سيادة الدولة وكرامة مواطنيها.

إن قرار ترامب بسحب قواته من سوريا دليل دامغ على هزيمة المشروع الأمريكي الإسرائيلي الخليجي، علماً أن هذا القرار لم ينفك حبراً على ورق، ويحاول استثمار الوقت لخلق بيئة لمصادمات عسكرية سورية - تركية وتركية - كردية استمراراً لنهج الاستنزاف والانهاك دون إتاحة الفرصة للحلول السياسية.

إن شمس أمريكا غاربة في سوريا وشمس محور المقاومة هي الساطعة. صحيح أن خسائر سوريا تناهز 200 مليار دولار، وأن نحو خمسة ملايين مهاجر خارج الحدود وما يعادلهم نازحون داخل الحدود، غير أن الاتحاد السوفياتي الذي خسر أكثر من 25 مليون وأكثر من 20 ألف مدينة في الحرب العالمية الثانية، كان بجاهه لعشرين عام ريثما يعود إنتاجه القومي كما كان قبل اندلاع الحرب حسب التقديرات الغربية، بيد أنه عاد بعد خمسة أعوام مصحوباً بجيش ظافر ونووي دون مساعدة من أحد.

أما سوريا فلها أصدقاء لديهم قدرة هائلة على الاستثمار، وبشكل أخص الشركات الروسية والصينية والإيرانية... ليس الحكومية فقط بل والخاصة أيضاً. وللدولة التي لم ينقطع دورها في مناطق سيطرتها، إمكانيات، وهناك المزيد من آبار النفط والغاز المكتشفة، في تضافرها مع إمكانيات الشعب المتنوعة، إنما هي قادرة على الخروج المتدرج من آثار الحرب الكونية التكفيرية عليها وإعادة اللحمة والتجانس للأهلين. وما المصالحات التي ناهزت 120 مصالحة وأجواء الوثام والمسامحة وبدء عملية إعادة الإعمار وطوابير اللاجئين العائدين سوى مؤشر على المستقبل.

قد يطول الحديث عن سوريا ولكن ما يستدعيه السياق هو التنويه أن نظامها قومي من جهه وعلباني يتسع للتعددية من جهة أخرى. ومنذ رفض الرئيس بشار الأسد شروط كولن باول قائد الجيوش الأمريكية عام



2005 بإشراك أحزاب دينية في الحكم، ومن قبل التمسك بالعودة لشواطئ طبريا "كنت أسبح في طفولتي على شواطئ طبريا" (الرئيس الراحل حافظ الأسد)، وتشكيل حاضنة للمقاومة العراقية التي قتلت قوات الغزو الأمريكي، وظهرت فاعلاً لمقاومة حزب الله، وعدم الخاق بركب كامب ديفد - أوصلو - وادي عربة "دون كامب ديفد لم يكن ممكناً توقيع أوصلو، وأوصلو مهدت لوادي عربة، أما دخول العواصم العربية فيقتضي السلام مع دمشق" (بيرس). ومن هنا كانت دمشق مستهدفة منذ وقت مبكر.

بدأت الحركة الاحتجاجية في درعا ورفعت مطالب مشروعة، وبسرعه لجأت للخطف وامتشقت السلاح، وجاءتها النصيحة من وزيرة الخارجية الأمريكية الأسبق هيلاري كلينتون بعدم إلقاء السلاح. وتدافعت الأموال والأسلحة (اعترف وزير الخارجية القطري السابق بإنفاق أكثر من 300 مليار دولار) ناهيكم عن السعودية، وزحفت الدبابات والمصفحات ومحافل المجاهدين عبر الأراضي التركية بدعم مكشوف من أجهزة مخبرات العواصم الغربية وساد منطق "إدارة التوحش" فاكسحت القطعان المنفلتة نصف سوريا وحاصرت دمشق وقضمت بعض أحيائها.

كان التصميم عالياً لكنه قوبل بتصميم منقطع النظير من الجيش العربي السوري مشحوناً بصلاية لا تلبين من القيادة السياسية، وجاء انخراط حزب الله بثقله الوزن وخبرته وبسالة مقاتليه، ومن ثم الدخول الروسي فتفرملت اندفاعة المؤدلجين والحالمين والمضللين الذين امعنوا في صب الزيت على نار التقسيمات الدينية والمذهبية والعرقية الخالدة.

وسجل التاريخ دروسه بأن صمود النظام والقتال للنهاية دون لين أو تردد هو أساس الانتصار على المخطط المعادي وأدواته الدموية. أما الدولة القطرية فوحدها لا تستطيع الانتصار على حلف دولي - إقليمي - داخلي، مثلها أنها وحدها عاجزه عن تحرير أراضيها المحتلة، وأبعد من ذلك، لقد استنفد المشروع القطري نزعاته التقدمية منذ زمن، فذهب السادات إلى ما ذهب إليه وأصاب العراق ما أصابه، وكذا المسيرة الفلسطينية، وجاء الدور على سوريا وليبيا... وأن غياب دولة المواطنة والحريات، والتنمية المستقلة يشكل تربة خصبة لحصان طروادة والطابور الخامس كما لاحتجاجات شعبية مشروعة.

وعليه، ليس أمام سوريا سوى خيار واحد، إنه خيار الاضطرار لا خيار الترف الذي لا مهرب منه، بأن نتقدم سوريا الجديدة الصفوف لبناء دولة المواطنة دون تمييز، ودولة الحرية دون استبداد، والتنمية الشاملة وبشكل أخص الاقتصاد الإنتاجي بعيداً عن الليبرالية الجديدة، في إطار مشروع قومي نهضوي، يبدأ بتوسيع العلاقات وتعميقها مع الجارتين لبنان والعراق وحمل راية فلسطين. وسوريا هي المرشحة قبل غيرها أن تكون المحرك الأول للمشروع القومي النهضوي.

لقد فصلت اتفاقات كامب ديفيد مصر عن العروبة وفلسطين "سيصبح لكل عائلة مصرية منزل وحديقة" (وعد السادات)، واتفاق أوسلو وصل نهاياته دون أن "تصبح الأراضي الفلسطينية من النور السبعة" ودون إقامة سيادة فلسطينية على شبر واحد أو مجرد وقف الاستيطان الاستعماري القافر وتهويد القدس والاستباحة اليومية لكل ما هو فلسطيني.

ولم تحصل تنمية موعودة للأردن، ووادي عربة لم يعد للسيادة الأردنية بعد، وكادت أمريكا أن تورط عمان أكثر في الحرب على سوريا، وهي تحتفظ في الدروج بملف توريطنها في "كونفدرالية" مع مناطق سكنية فلسطينية لضرب الوطنية، الفلسطينية وخدمة صفقة القرن.

وسوريا لا يمكن أن تضطلع بدورها المنشود، أو يصوره أدق أن دورها مشروط أولاً بطابع الحكم، أي أن تكون النخب الحاكمة وطنية سيادية قومية، من جهة، وديمقراطية من جهة ثانية، هذا على الصعيد السياسي، ولأن السياسة اقتصاد مكثف، فالقاعدة الطبقية - الاقتصادية القادرة على إنتاج حكم من هذا القبيل هي البرجوازية الإنتاجية أولاً، والكتلة التاريخية الشعبية المنظمة والتي لها حضور وتأثير في الحكم ثانياً، والتنمية التي تخدم الطبقات الشعبيه ثالثاً، دون السماح للاحتكار بالسيطرة ولا البرجوازية الطفيلية والكومبرادورية المرتبطة بالسوق الإمبريالية.

وحضور الثقافة التحررية والديمقراطية التي لا تنعكس في الدستور فقط، بل وفي التعليم ووسائل الإعلام والحريات السياسية والنقابة والمواطنة المتساوية بما تستلزمه من محاربة الفساد والمحاسبة على عدم الكفاءة والمحسوبيات، ناهيك عن احترام حريات الإنسان وكرامته.

فهل سوريا مقبلة على هذا الخيار، سوريا الجديدة، بعد انتصارها العظيم على ما تبقى من الإرهاب الدموي والحرب الكونية وقوات احتلالية؟ هل هي سائرة في هذا الاتجاه متخطية تحديات إعادة البناء وعودة ملايين السوريين إلى وطنهم الأم؟ فعركة البناء لا تقل صعوبة عن معركة المدافع، وهناك متربصون كثير في الساحة الداخلية وأصابع كثير في الساحة الخارجية، كلها تحاول تجيير المرحلة الجديدة بما يخدم مصالحها ورؤيتها.

## محور المقاومة

لم يحصل الدمار الرهيب فقط في سوريا والعراق وما نتج عن العدوان الكثيف على لبنان وحصار وتجويع وقصف غزة واستباحة الضفة وشعبنا في 48 ومحاولة تدمير مقومات الحياة في اليمن، وما صاحب ذلك من تراجيديا إنسانية وندوب عميقة، فهذا هو الوجه الأول للعملة، أما الوجه الثاني، فهو الانتصار النوعي الكبير في العراق وسوريا ومن قبل لبنان وتحرير جنوبه بفضل مقاومته التي غدت اللاعب الأول وما أصبحت عليه غزة من غابة بنادق وبرميل بارود يمكن أن ينفجر في أية لحظة دون أن تجرؤ العسكرية الإسرائيلية على اجتياحه كما كان الحال قبل إعادة الانتشار عام 2005، وتبخرت طرفه "إذا ذهب للحرب مع العرب تسلم بالورود". وفي اليمن يبدو أن تحالف الحوثيين مع تيارات وهيئات محلية بات يسيطر على العاصمة ويستطيع إغلاق باب المنذب الشريان الدولي والأهم للنفط وسواه، فضلاً عن كتمه شعبية مسيسة تهتف بالملايين "الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل نعم لفلسطين ولا للتطبيع"، إنه شعب جائع ولكنه يتهياً أن يكون ضمن محور المقاومة.

وفي العراق ثمة اتجاهات وازنة في الحشد الشعبي الذي تضافرت جهوده مع الجيش الرسمي لدحر الدواعش، تنسج هذه الاتجاهات علاقات متنامية مع محور المقاومة. أما الخارطة السياسية فأغلبية الحكم في بغداد مناهضة للوجود العسكري الأمريكي والتركي ولها صلات وثيقة بطهران ودمشق.

هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الثقافية فقوى المجتمع المدني والمواطنة في عدّ تصاعدي وكذا الدعوات لحكومة عابرة للمذاهب والطوائف وإن كان يطغى على المربكات السياسية الطابع المذهبي والعرقى، أما محاولة سلخ الكيان الكردي عن العراق فقد أخفقت.

ويطلق محور المقاومة على الحكم في دمشق وطهران وأوساط حكومية عراقية على صعيد رسمي وحزب الله وقوى لبنانية متحالفة معه ومروحة واسعة من الحشد الشعبي وفصائل فلسطينية عديدة، على الصعيد شعبي. وهناك من يضيف الحوثيين في اليمن أيضاً.

وكان الاختبار الكبير "الأزمة السورية" حيث تظهر المحور على نحو ساطع من خلال القتال الذي لم يعرف الهوادة للجيش العربي السوري والدفاع المدني بمشاركة واسعة من حزب الله فامتزج الدم السوري بالدم اللبناني، ومساعدة فاعلة من خبراء إيرانيين. دون نسيان أن معمودية النار بما لها من أثمان قد انخرط فيها قوى فلسطينية ولبنانية ومجموعات أخرى أيضاً. وقادة المحور يصرحون أنهم سيردون مجتمعين على أي عدوان إسرائيلي. أي أن المحور بعد انتصاره على الإرهاب التكفيري والمخطط الدولي، سيوحد قبضاته ضد الغطرسة الإسرائيلية.

أما الدخول الروسي وما اتصل به من استخدام هائل لسلاح الجو والصواريخ بعيدة المدى وحشد الأساطيل في البحر المتوسط، فضلاً عن الجهد المرموق الدبلوماسي والسياسي الحيوي والمتعدد الأشكال فيندرج في إطار الصراع الجيو سياسي في الإقليم والعالم من جهة والتصدي للإرهاب بما له من انعكاسات على الأمن الروسي من جهة أخرى، إضافة للتطلعات الاستراتيجية والاقتصادية الروسية من جهة ثالثة وإسقاط أحادية القطبية من جهة رابعة التي ينظر لها العلماء الروس كأولوية.

وهذا موضوعياً، كان له أبعاد الأثر في حماية وحدة سوريا وسيادتها ونظامها نقيضاً للأهداف الأمريكية والإسرائيلية، وإن لم يرتق الموقف الروسي إلى العداء الصريح للكيان الصهيوني فضلاً عن علاقاته الإيجابية معه على أكثر من مستوى سواء في العهد السوفياتي أو ما بعده.

وبالتالي فروسيا ليست طرفاً في محور المقاومة، وإنما تقاطعت رؤيتها ومصالحها مع رؤية ومصالح هذا المحور وحسب. ومن غير المستبعد أن تتعاضد التقاطعات السياسية والعسكرية والاقتصادية في الزمن المنظور ارتباطاً بصفقات السلاح والسوق الإيرانية الضخمة وكذا السورية، أما السوق الإسرائيلية فهي مجرد قزم صغير، رغم وجود أكثر من مليون روسي في "إسرائيل" ثلثهم من غير اليهود (الأم ليست يهودية). علاوة على الحاجة المتبادلة لموسكو وطهران ودمشق لمواجهة الهيمنة الأمريكية والعقوبات الأمريكية وتصعيدات اليمن المحافظ الانجليكاني في البيت الأبيض.

ويقف في مقدمة محور المقاومة سوريا بما لها من موقع وموقف والتي تعاضمت خبرتها العسكرية في الأعوام الأخيرة وزاد تسليحها بما في ذلك الدفاعات الجوية التي باتت قادرة على إسقاط معظم الزخات الصاروخية التي تقصفها الطائرات الإسرائيلية من الأجواء اللبنانية... أما بطاريات س 300 فما انفكت في أيدي الخبراء الروس.

وسوريا لا تنازل عن شبر واحد من الجولان المحتلة منذ العام 1967 وهي متمسكة باستعادتها بكل الوسائل. وهذه قضية متفجره ويمكن أن تشعل وحدها حرباً جديدة سيما وقد أعلن ترامب السيادة الإسرائيلية عليها.

وثمة تحديات لا محيد عن التصدي لها بالتتابع أو التزامن: (1) بسط سلطة الدولة على ما تبقى من مناطق ما برحت في أيدي الإرهابيين وقوات قسد بما يصل إلى أكثر من ثلث البلاد (2) طرد قوات الاحتلال التركي والأمريكي والغربي (3) الملف الكردي (4) عودة المهجرين والنازحين (5) إعادته الإعمار (6) المصالحة السياسية وبناء سوريا الجديدة (7) رفع راية المشروع النهضوي العربي.

ولدى سوريا من الإمكانيات الذاتية ما يؤهلها للتصدي لهذه التحديات باقتدار. صحيح أنها مثخنة بالجراح، ولكن من الصحيح أيضاً أنها لم تعد بمفردها. فهي ركن في محور المقاومة، بل الركن الأهم. فهي دولة عربية وقادرة أن تكون قوة جذب لحركة التحرر العربية، وهي دولة علمانية تتسع مظلتها لحرية المعتقد جنباً إلى جنب مع المواطنة المتساوية وحرية الفكر، وهي سائرة لا محالة في طريق استقلالية القضاء وتغليب الوطني والقومي على أية تقسيمات تقليدية، وهذا يشترط بداهة أن تكون سوريا الجديدة ديمقراطية من جهه وبعيدة عن الليبرالية الجديدة من جهة أخرى.

وفي خندق القتال لها حليف موثوق يتمتع بصداقة عالية وإمكانيات كبيرة هو حزب الله الذي انتصر مرتين بتحرير الجنوب اللبناني عام 2000 والصمود الأسطوري في حرب 2006، ويعلن جهاراً نهاراً أن صواريخه ستشمل كل بقعة في الكيان الصهيوني في الحرب القادمة، الأمر الذي يصدقه الإسرائيليون على مضض خلافاً لما اعتادوا.

وليسند سوريا مركبات شعبية عربية تتأهب للانخراط في المواجهات المقبلة سواء كانت عراقية أو فلسطينية سيما في قطاع غزه الذي خاض ثلاثة حروب في عقد واحد دون أن تحرز الترسانة العسكرية الإسرائيلية أياً من أهدافها واشتراطاتها.

وأخيراً إيران، الدولة التي تتجاوز 82 مليون نسمة وثالث دولة منتجة للغاز وسادس دولة منتجة للنفط، علاوة على ما أصبحت عليه من إمكانات عسكرية وصواريخ بالستية تصل القواعد الأمريكية في الشرق الأوسط والعمق الإسرائيلي... ناهيكم أنها أصبحت قوة إقليمية باعتراف القاصي والداني. أما العقوبات عليها فلم تنوقف منذ عقود ولكنها لم تكبح تطورها أو تطوع إرادتها. والثورة الخمينية يغلب عليها الطابع الثيوقراطي والمذهبي، غير أنها أدركت منذ زمن أن الأولوية للخيار السياسي المقاوم دفاعاً عن مصالحها القومية كدولة ونظام، ولحماية الجبهة الداخلية، وهي مدعوة لإصلاحات سياسية وديمقراطية واسعة.

وهذا المحور مثلها أنه مستهدف من المخطط الإمبريالي الصهيوني الرجعي العربي، فهو أيضاً يرى نفسه منتصراً وعليه رسم مستقبل الإقليم خالياً من الهيمنة الأمريكية والعريضة الإسرائيلية، وتذهب تصريحات بعض قادته إلى التهديد بحو "إسرائيل" من خارطة المنطقة.

وإسرائيل دولة نووية بلا شك، وأمريكا هي الدولة العظمى الأولى اقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً وتكنولوجياً، وهما يسعيان لإقامة حلف معاد لمحور المقاومة، غير أن المشروع الأمريكي قد هزم في سوريا والعراق وأفغانستان ولبنان، وهو لا يعثر على مجرد نخبة فلسطينية وازنة تقول نعم لصفقة القرن، بل والنفوذ الأمريكي تراجع في الشرق الأوسط عموماً وإن لم يستسلم رموز اليمين المحافظ بنزعتة الدينية في البيت الأبيض لهذه النتيجة ويسعون لاتباع تكتيكات هجومية تعيد لهم دفعة المبادرة.

## مصر الملتبسة

لم تعد مصر حجر الرحي منذ وقت، إذ تراجع دورها وانكفأت وهي مثقلة بهموم اقتصادية وإرهاب نشط سواء في عهد مبارك أو السيسي أو ما بينهما. لقد أطاحت انتفاضة شعبية عارمة بحكم مبارك وقامت بتخليع العديد

من رموزه، غير أنها لم تتحول لثورة اجتماعية تعيد النظر بعلاقات الإنتاج والبناء الفوقي ويتولى الدفة فيها قوى جديدة، على غرار الثورات التاريخية التي عرفتها البشرية سواء كانت رأسمالية أو تحررية أو اشتراكية.

إنها تمر بمرحلة انتقالية وتخللها جدلية عاصفة. فالفقر يزداد كما البطالة، والمديونية العامة ناهزت 82 مليار دولار وعجز في الميزان التجاري لا يقل عن 25 ملياراً بين استيراد سنوي يصل 60 مليار دولار وصادرات تصل 35 مليار دولار، والذين انتفضوا أصابهم الخذلان وأصبحوا من (حزب الكنبه). ومن جانب آخر ثمة مشروعات تنموية لم تحصد ثمارها بعد.

ولبعض الوقت كادت "العثمانية" أن تهدد وجود الدولة، وإرهاب سيناء شديد البأس مسنوداً بحاضنة قبائلية. وبدل أن يعثر النظام على مقاربة تلهم الوضع المصري أفرط في استعداد التيارات اليسارية والإسلامية ومختلف الأوساط الثقافية، ويتجه أكثر فأكثر نحو ما يشبه الحكم العسكري بما يضيق من قاعدته الاجتماعية ويؤزم الجبهة الداخلية المأزومة أصلاً.

وفي السياسة الخارجية، يجمع بين المتناقضات، فهو يجري مناورات عسكرية مشتركة مرة مع أمريكا ومرة مع الروس، ويتتبع صفقات عسكرية من هنا وهناك، وقد تبين أن أربعة عقود من ارتباط مبارك بأمريكا لم تزود جيشه المكون من ثلاثة أرباع مليون عسكري بطائرات من دون طيار!! إلى أن حصل على بعضها من موسكو مؤخراً.

أما تدخلاته في الأزمة الليبية فهي باتجاه محاصرة الإرهاب الذي يتسلل إلى أراضيه، وإعادة بناء الدولة الليبية مستفيداً من صعود قوة الجنرال حفتر. وفي سوريا لم يتخبط موقفه فهو مع الدولة ووحدة البلاد واجتثاث الإرهاب وجذوره الفكرية، وببطء السلاحفة يتحرك لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع دمشق. وفي اليمن لم يشارك في تدمير البلاد والعبادة، مجرد قوارب حربية تضمن عدم إغلاق باب المندب.

وتحت ضغط ملايين المصريين الذين يعملون في الخليج وعشرات المليارات (من بينها 28 ملياراً للسعودية) والخليجية المستثمرة في مصر وأقل منها مساعدات وقروض يتهاون في إستعادة دور مصر إلى درجة التذيل للخليج. وهنا لا تستقيم المعادلة بأن يتقدم تأثير البترودولار والنزعة الاستهلاكية على ما يتوجب من نصف دولة عصرية هي في مقدمة "الدول" العربية، بل أكبرها أيضاً.

وبين الوقت والآخر يطلق تصريحات (أن أمن الخليج من أمن مصر) دون أن يبادر بدناميكية لجسر التناقض مع إيران التي لا يفيدها تسخين العلاقات مع السعودية.

وفي فلسطين يتصرف كوسيط بين الفلسطينيين والإسرائيليين أي ليس ظهيراً، بل ويغلق بوابة رخ الدولية رثة التنفس لقطاع غزة ويكلف فريقاً من الضباط النشطين لتجسير التناقض الفلسطيني - الفلسطيني والحيلولة دون اشتعال جبهة غزة بلا أي نجاح، فالانقسام يتعمق والهدوء على جبهة غزة أكثر هشاشة من جناح بعوضة طالما لم يرفع الحصار التجويعي وتستباح فلسطين من الرأس إلى الكعب.

لماذا لم يحتضن النظام القضية الفلسطينية كما احتضنها عبد الناصر، ولماذا يصادر حق الشعب الفلسطيني في فتح معبر رخ المشترك ضمن ترتيبات ممكنة ومرغوبة. فالشعب هو الذي يدفع الثمن، كما أن الشعب الفلسطيني موحد في كل مكان ويتطلع لوطن وحرية وكرامة ورغيف خبز، أما التنازع فهو بين النخب السياسية التي يتغدر تجيعها على برنامج سياسي اليوم. أن المقاربة المصرية حيال فلسطين تزيد الطين بلة وفي أحسن الأحوال إبره مخدر. وعليه، ففصر النظام الحالي غير مؤهلة لقيادة الأمة العربية.

## تركيما المزدوجتا

شأن إيران فهي بلاد واسعة وتعداد سكانها يعادل تعداد سكانها. وقد انتقلت من صفر مشاكل إلى سلسلة متناصلة من المشاكل نتيجة وهما أن الأمة العربية بلا حول ولا قوة وآن أوان "عثمنتها" من جديد، فأصبحت حدودها مفتوحة للجهاديين ومصفحاتهم، كما للقواعد العسكرية الأمريكية. وبعد فشل كل ذلك أرسلت قواتها العسكرية إلى شمال العراق وشمال سوريا ووترت علاقاتها مع روسيا لفترة، وبالوكالة مع إيران، إلى أن انشغل النظام بحاربة منافسه الإسلامي "غولن" فأعلن الحرب على أنصاره بفصل مئات آلاف الموظفين واعتقال واستجواب عشرات الآلاف غالبيتهم من أجهزة الدولة، المؤسسة الدينية والجيش.

وأردوغان حالياً على مفترق طرق. فأمریکا تسعى لبناء "ناتو" ضد إيران ومحور المقاومة، فأين سيقف؟ وبالتالي ضد روسيا، بينما علاقات تركيا الاقتصادية تتعاضد مع إيران بتبادل تجاري يصل 30 مليار دولار سنوياً



وأكثر من ذلك مع روسيا إضافة لصفقات عسكرية نوعية س 300 و س 400 وممرات نفطية روسية عبر تركيا إلى أوروبا تسد حاجة السوق التركية وتعود عليها بالمنافع.

وكل الصراخ عن الإطاحة بالأسد ذهبت أدراج الرياح. فهل سيكرس أردوغان وضعية احتلالية في الشمال السوري والشمال العراقي أم التوافق مع بغداد ودمشق، ومتى سيكف عن تأمين شبكة حماية لقوى مسلحة تقاوم السيادة السورية وتآليب الإخوان المسلمين المصريين وتسهيل تفاهمهم مع القاهرة؟

وطالما أنه مصطفى بجانب فلسطين ويطلق التصريحات النارية بين الوقت والآخر عن نتيهاهو، لماذا يوسع العلاقة التجارية والأمنية مع جلااد فلسطين شعباً ووطناً وذاكرة ومقدسات؟

أما مهارته في الرقص على التناقض الأمريكي - الروسي، فهذا حبله قصير مهما طال واستطال. فالروس يعظمون من المصالح المشتركة مع تركيا، وأمريكا تحرص على علاقاتها مع عضو الحلف الأطلسي، بل الجيش الثاني بعد الجيش الأمريكي. ولكن الوقت ينفذ في اللعب بين كرسيين أو على كرسيين.

فالبلهوانيات السياسية لا تنجح دائماً، ولنا في فلسطين تجربة إلى درجة أن تراجعت ثقة بعض الدول بنا. قال السفير الصيني "أنتم العرب غير صادقين، ساعدكم السوفييت وارتبطتم بالأمريكان." وقال لافروف وزير الخارجية الروسية للدكتور شعث "كيف تريدون أن نساعدكم وأنتم تفاوضتم تحت المظلة الأمريكية. تعالوا إلى الأمم المتحدة."

وأكثر ما يهيم العرب أن تغادر القوات العسكرية التركية شمال سوريا وشمال العراق، وأن يكف أردوغان عن بيع الأوهام لتيارات سياسية سورية ومصرية ومجموعات إرهابية بما يورطها في صراعات مع حكومتي البلدين. وقد ثبت بالتجربة التاريخية أن التدخلات الخارجية في الأزمة السورية والأزمة العراقية وكذا المصرية والليبية، وصولاً إلى الانقسام الفلسطيني إنما عادت بالوبال والدمار دون فائدة لا للأطراف الداخلية ولا للقوى المتدخلة.

فماذا ربحت تركيا من تدخلها في سوريا والعراق ومصر؟ لا شيء. وإذا لم تستمع لصوت المنطق بإتاحة الفرصة للدولة السورية بحسم معركة إدلب وبسط نفوذها على المناطق التي تغادرها القوات الأمريكية وصولاً إلى معالجة الملف الكردي، سوف تتحول لقوة احتلال في مواجهة الدولة السورية، وبالتالي إطلاق حرب عصابات

ضد امتداداتها. فالكرد ليسوا قطعة أجبان ليسهل التهامهم وكذا الترسانة العسكرية السورية التي من واجبها أن تستमित لأحكام قبضة الدولة على الحدود الشمالية، سيما ومجاميع عربية وكردية تستحث الدولة على هذا الخيار. وبداية أن الدبلوماسية الروسية الحصيفة والحيوية على نحو فريد تدأب على تسوية المعضلات الواحدة تلو الأخرى، ودون إراقة دماء، ولكن لا مهرب من تحرير إدلب وهذا متفق عليه سورياً وروسياً وإيرانياً. وهنا لا يفيد كثيراً الموقف المتقلب والمراوغ لأردوغان.

وقصارى القول، لقد كانت السياسة التركية في العراق وسوريا جزءاً من المخطط الغربي والخليجي، وهذا المخطط يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفي المشهد تتراكم عناصر تجاوزه وإطلاق مرحلة جديدة.

### المشروع الأمريكي - الإسرائيلي

ليست هناك سياسة أمريكية بمعزل عن السياسة الإسرائيلية، فهما في تحالف بنيوي إلى درجة أن تكون السياسة الأمريكية مرآة عاكسة للسياسة الإسرائيلية بشأن فلسطين والشرق الأوسط. وإدارة ترامب اليوم تتماثل مع إدارة نتنياهو إن لم تكن على يمينها وقادرة على فعل ما لم تفعله حكومة نتياهو.

وأهم مفصل في السياسة الأمريكية اليوم بعد فشلها في سوريا والعراق هو محاصرة وإسقاط الخيارات الإيرانية. لأن ذلك يفضي إلى سقوط سوريا وتحويل إيران إلى قاعدة أمريكية تحاصر روسيا وسواها، وتقطع طريق الحرير الصينية التي تمر عبر موانئها وأراضيها، وتغطيس محور المقاومة في المزيد من الأزمات وصولاً إلى تمرير صفقة القرن لتصفية حركة التحرر العربية والقضية الفلسطينية.

وإيران لا تعوزها أدوات حماية خياراتها، أما محور المقاومة فهو في صعود ويتطلع لمزيد من الانتصارات. وصفقة القرن وإن لم تعلن بالجملة في وثيقة رسمية غير أن مجلتها تدور بالمفروق. ومن ملامحها تطبيع علي لمزيد من العواصم العربية مع "إسرائيل" والسعي لتمهيد المقدمات لنتو عربي - إسرائيلي وتشجيع الأتراك للتمدد في سوريا، (سوريا لك) خاطب ترامب في مشهد هولويدي أردوغان، فضلاً عن نقل السفارة الأمريكية للقدس والضغوط لتجوير وكالة الغوث وقضية اللاجئين الفلسطينية والزيارات المكوكية لكوشنر وأحد عناوينها

(الكونفدرالية الأردنية - الفلسطينية) دون إقامة دولة فلسطينية أو انسحاب الاستعمار من أراضي 67، وإطلاق بالونات اختبار لتحسين الحياة الاقتصادية في غزة لمحاصرة المقاومة، هذه الاسطوانة المشروخة التي تحدث عنها نتنياهو منذ عقدين ومن قبله بيرس في كتابه (شرق أوسط جديد) تحت عنوان السلام الاقتصادي، ومؤخراً بسط السيادة الإسرائيلية على الجولان.

فلا سلام سياسي تحقق ولا مشروعات تنموية انطلقت ولا انسحاب من أراضي فلسطينية تم، وتشهد الخارطة السياسية الإسرائيلية جنرالات وسواهم يتحدثون عن انسحاب أحادي الجانب بما لا يشكل جديداً أيضاً. كلها أوهاام فاسدة تباع لأناس فاسدين تحركهم طموحاتهم الشخصية التي تصطدم بجدار صلب هو الانزياح نحو اليمين اليمين شارعاً وحكومة في الكيان الإسرائيلي إلى درجة الترويج بضم مستعمرات الضفة وأرياف الضفة. لا أحد يستطيع خداع الشعب الفلسطيني. فطالبه بالحرية والوطن هي ضرورة وجودية، وأي نخب تجرؤ على التفريط بحقوقه مآلها الانطفاء.

ويمكن القول أنه تحت وقع الخطط الأمريكي للهيمنة كصفة ملازمة للاحتكارات الأمريكية إنما ينقسم الإقليم إلى محورين: محور المقاومة وتحالفاته والمحور الأمريكي - الإسرائيلي وتوابعه. والحكم السعودي لا يخفي اندفاعه بهذا الاتجاه مرتعباً من تعاضم القوة الإيرانية، غير أن فشل السياسة السعودية في سوريا والعراق وبقدر كبير في لبنان وإخفاقها المدوي في اليمن، وعدم وجود طرف فلسطيني وازن متساوق مع صفقة القرن والتبدلات في رأس العائلة الحاكمة، سيكون له اسقاطاته على هذا الاندفاع. كما أن أية مرونة تبديها إيران لمد يد التفاهم سيكون لها تأثيرها أيضاً.

ومصر تقف على مفترق طرق كما الأردن، وثمة عقبات تنتصب في درب التحاقهما بالناتو العربي - الأمريكي - الإسرائيلي. فلا يبدو أن الدرب مفروش بالحليب والوعسل. فترامب تاجر بكل معنى الكلمة وينتظر الربحية من أي خطوة ولا يفتح محفظة نقوده لمن يذنب له، دون نسيان أن الدَّين الأمريكي العام ناهز 22 تريليون دولار. فالفيل الأمريكي الأضخم مشخن بالجراح. وفي اللحظة الحالية تتجه البوصلة الأمريكية إلى فنزويلا وأمريكا اللاتينية وإلى جنوب آسيا، بما لا يجعلها سخية في رشوة التوابع.

وليس مبالغة القول أن النفوذ الأمريكي في إقليم الشرق الأوسط في تراجع فيما الخيار المناهض والمتردد في عدّ تصاعدي.

## فلسطينيا

ما سقناه أعلاه له إسقاطات أكيدة على فلسطين:

فأصحاب المزاج السوداوي لا يرون إلا نصف الكوب الفارغ، فينوحون ويخبطون أقدامهم بالأرض، ويترحمون على نظام مبارك، أو انقسام سلطة أوسلو إلى سلطتين، يرتعبون من فوز ائتلاف يمين اليمين بالحكم في تل أبيب ويكون حجم الدماء المخيف في سوريا والعراق واليمن، ويولولون على الاستباحة الاستعمارية الإسرائيلية لكل ما هو فلسطيني وحصار وتجويع غزة... وفي ذلك كله بعض الوجاهة.

ولكنهم يغمضون عيونهم عن تحرير جنوب لبنان عام 2000 ووصود المقاومة في حرب 2006 والانتصار النوعي الكبير لمحور المقاومة في سوريا والعراق وتعاضم إمكانات الجبهة الشمالية والفرص المتاحة في اليمن وتحول قطاع غزة لغابة بنادق وقدرة على الرد، ووصول مسار التسوية إلى نهاياته بما يمهّد لما بعده، وتقدم الدور الروسي في الإقليم كصديق إن لم يكن كحليف وصعود محور البريكس سيما التحالف الصيني - الروسي وما أصبحت عليها السياسة التركية من ازدواجية بعد أن كانت بوجه أطلسي واحد وأوتوستراد لمجاميع الإرهابيين من مئة دولة ويزيد، وانعكاسات ذلك على العالم وبشكل أخص كبح العريضة الأمريكية التي لم تعد القطب الأوحده. أما الجانب الذي لا ينبغي إغفاله، فهو وصول القاطرة العربية لمحطة توجب عليها المزيد من التنمية المستقلة والمزيد من الحريات والمزيد من السيادة والمزيد من التقارب البيئي على طريق مشروع نهضوي قومي. وحركة الحياة تجرف لا محالة عناصر الشيخوخة والعفن مثلما تفعل البكتيريا بالمومياءات حال تعرضها للهواء، مفسحة المجال للجديد والإيجابي.

ولم يكن صدفة أن تنتصر سوريا الدولة والسيادة والحدّات، وأن تطغى نبرة رفض التطبيع في اجتماع البرلمانين العرب، وأن يرتفع الصوت الجريء لرئيس البرلمان الكويتي، وأن يتخالف حزب الله المقاوم بهويته الفكرية مع تيارات ليبرالية وقومية ويسارية، وأن يتغلب في إيران شعار المقاومة على الشعار المذهبي والثيوقراطي، وأن

تطبع حماس علاقتها مع القاهرة بعد صفحة تحالفها مع الإخوان المسلمين، وأن يطالب رأس المال العربي الاستثماري بحريات أوسع في السوق العربية، وأن تتقدم درجة الدولة المدنية العلمانية في تونس، حتى أن ولي العهد السعودي يباشر خطوات تحديثية وحادثية تزامناً مع فشل مغامرته المفجعة في اليمن والتراجع عن الدور التدميري السعودي في سوريا، وأن تصبح فتح التي كانت ثلثي الخارطة السياسية قبل أوصلو إلى مجرد ثلث جراء خيارها السياسي بما يرتبط بذلك من جدلية داخلية لم تفصح عن نهاياتها بعد، وأن يتقهقر اليسار إلى مجرد نسبة لا تتعدى 6% بعد أن كان 30% نتيجة أزماته وهامشية فعله وهذا يعادل نقد التاريخ وعقابه للتيارات الرئيسة اليمينية الوطني واليسار التحرري اللذان قادا مسيرة الثورة المعاصرة. وأيضاً تنامي تيارات عراقية مختزقة التقسيمات المذهبية والطائفية والعرقية، ناهيك عن الهوى المتعاضد في بغداد باتجاه دمشق وطهران، وفشل الترويكات في تونس وأزمة إعادة إنتاج النظام السابق، وذهاب الإسلام السياسي للتحالف مع اليسار الماركسي في المغرب.

ليس علينا كفلسطينيين أن نلبس السواد حداً على مشهد الأمس. فالغد أفضل وفلسطين على أبواب مرحلة جديدة تتحرر فيها من الثياب القديمة التي سيكون مالها متحف العاديات بما يفسح المجال لتجديد حركة التحرر الفلسطينية تناغمًا مع التحولات الإقليمية والعالمية من جهة وتجاوزاً لمرحلة أوصلو من جهة ثانية والاستجابة لمتطلبات الصراع مع العنصرية من جهة ثالثة.

فلسطين الجديدة تتخفز للانطلاق بما يذكرنا بولادتها بعد هزيمة حزيران 67 تجاوزاً للخارطة السياسية السابقة والأردنة وكرت الإعاشة وافتقارها لمشروع وطني واضح المعالم. "ولأننا لا نعترف إلا بالتاريخ وعلم التاريخ" (ماركس)، فالسياسة الإسرائيلية شارعاً وحكومة وخارطة تنزاح باتجاه اليمين الذي هو مزيج من العنصرية التوسعية والفوييا دون أن يحضر فيها مقولة الانسحاب إلى حدود 67 أو من القدس. وبرنامج الليكود صريح "سيادة إسرائيلية واحدة من البحر إلى النهر" وهناك من يتطلع إلى الترانسفير والتطهير العرقي، وعموماً إن مسار تسوية أوصلو لم يحم أرضاً فلسطينية ولا مياهاً ولا قدساً ولا أمناً فردياً أو جمعياً.

وهناك انقسام داخلي عمودي بين نهج أوصلو والمناهضين لأوصلو، ونخب اقتصادية متحالفة مع سلطة الضفة ومثلها متحالفة مع سلطة غزة، ويكاد الانقسام السياسي بين الفريقين الكبيرين يصل حد الانفصال بين الضفة وغزة، وبالتالي تنافس حقيقي بين النخب القيادية هنا وهناك، وكل فريق يستخدم أوراقه دون قدرة على

جسر التناقض، إضافة للانقسام العمودي الثاني في الساحة الفلسطينية بين قوى أقرب للعلمانية والمواطنة وقوى أبعد عن العلمانية والمواطنة.

وفي ظل معطيات الخارطة السياسية ونخبها من المتعذر التوصل لوحدة وطنية لها برنامج سياسي واحد وخط كفاحي واحد وقيادة واحدة، وأكثر ما هو متاح هو تشكيل مجلس وطني توحيدي (انتخاباً وتوافقاً) كتركيبة تجمع المتناقضات ووحدة ميدانية على المشتركات الأمر الذي لم تجربه عقلية النخب القيادية.

بيد أن اللوحة ليست استاتيكية، بل هي حافلة بتبدلات متعددة داخل الفصائل وبين الفصائل وبين الشعب ومركباته وفي الفواعل الاقتصادية والاجتماعية والجيل الشبابي الواسع والمتعلم ناهيك عن جدلية المحيط وانعكاساته على فلسطين. وفي حالة نهوض وطني، فالذين يصنعون النهوض هم المرشحون لقيادته وتوحيد صفوفهم على قاعدة المواجهة. أما أن نتوحد قوى الشعب على رفع الراية البيضاء فهذا مستحيل. وأكثر الفئات البراغمية كما أكثر الفئات إيديولوجية قلت لا لصفقة القرن. فالوطنية الفلسطينية عميقة الجذور في الشعب ومكوناته وقياداته كما أن عوامل الحياة دفاقة في شرايين الشعب (إذ كيف لم يندثر) قال أحد المفكرين الفرنسيين ومجرد سخافة ما جاء في وثائق الخارجية الإسرائيلية بعد النكبة بأعوام ("الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض"). فهو يحافظ على مقومات حياته واستمراره وما يخطط لقطاع غزة من تسهيلات لقاء التهذئة، سواء دعم مالي قطري لا يغني ولا يضمن من جوع، ومشروعات اقتصادية وصولاً إلى ميناء ومطار هو مجرد حبر على ورق. فلن تحصل غزة على شيء إلا بعد التخلي عن البندقية، وهذا حلم من أحلام اليقظة.

ولا ينبغي نسيان أن الشعب ناهز 13 مليون نسمة نصفهم على أرض الوطن والنصف الثاني في دول الطوق والشتات توحدهم جميعاً ذاكرة تاريخية ومسيرة معقدة بالتضحيات وأحلام مشتركة وحنين للعودة لأرض الأجداد. وجاء الإضراب العام في الداخل ولبنان رفضاً لقانون القومية اليهودية بما يحمله من مخاطر التطهير العرقي، علامة فارقة تعيد الاعتبار لوحدة الشعب والأرض والمصير، ومن قبل عبرت الوطنية الفلسطينية عن تضامنها مع قطاع غزة وهو يتحدى آلة الحرب الإسرائيلية، وفي هبة القدس لإسقاط البوابات الإلكترونية، وفي الصوت الثابت في كل مكان لإنهاء الانقسام بما يعكس روح الشعب الوحديّة. فالانقسام هو بين النخب لأسباب عديدة وليس في روح الشعب.

لم تعد صالحة مقولة غوالدا ماثير "أين هو الشعب الفلسطيني" فشعبنا مكون من مركبات هي أقرب لطبقات اجتماعية وبنية فوقية وبنية تحتية وأية تشوهات إنما تنصل باقتلعه من وطنه والمؤامرات التي تحاك ضده دون توقف. غير أنه عصبي على الذوبان وعصي على الانكسار ولا يعوزه سوى الشرط السياسي لتجسيد نفسه في وطن حر والسير في طريق التطور.

وليس استعمار الغزاة عاجز عن شطب الشعب فقط، بل ولم يعد فصيلاً مهما بلغ من القوة والوصولان قادر على التفرد بالقرار وتجريح الشعب سياسته. فوازن القوى لا تسمح بذلك. فن زاوية الفصيلين الأكبر فتح وحماس فلكل منها بين 32-34% حسب استطلاعات متكرره ومن زاوية فصائل م.ت.ف فهي مجتمعة بالكاد تناهز 50% من الخارطة ومن زاوية اتفاق أوسلو، فالكفة متعادلة بين المؤيدين والمناهضين، وربما المناهضون أكثر، ومن زاوية ثقافية فالذين يخازون للحدثة والمواطنة يصلون 50% أو أكثر... وهذا ينطبق على حال شعبنا في أراضي 48. لقد انتهى زمن القوة القائدة والفكرة القائدة والزعيم الأوحده، ولا مندوحة من قبول التعددية بأشكالها والتوافقات بأصنافها ودون ذلك لا يمكن إيجاد صيغة جامعة. وغياب الصيغة الجامعة هو أحد عوامل هدم المشروع الوطني واستنزافه، أي خسارة الجميع وفي المقدمة الأجيال الصاعدة والذين في بطون أمهاتهم.

وعليه فأفضل ما يفيد الشعب اليوم هو ذهاب فاعلياته نحو القواسم الميدانية والاصطفافات القاعدية دون انتظار التفاهم بين النخب السياسية. فالنخب تشهر السيوف ضد بعضها البعض وتنطلق من عقلية الإملاء، الأمر الذي لا يمكن بلوغه، بصرف النظر عن مضامين ومواقف هذه النخب، وهي لا تبحث عن المشترك بل عن الهيمنة. أما الشعب فهو موحد في قضايا القدس والأسرى وحقوق اللاجئين ومواجهة انفلات المستوطنين المستعمرين والاستياء من البطالة والفقر والتشبث بالثقافة التحررية ومسيرات العودة والنضال المشترك والحياة اليومية. ومثل هذه المنصة من المشتركات يمكن الاتكاء عليها والانتقال لطور أعلى من الوحدة، أما الذهاب للوحدة الوطنية على قاعدة سياسية وكفاحية وقيادة واحدة، فهي أقرب للعقل الإنكاري الذي يتجاهل حقائق الانقسام.

ومثلها سمح انتصار المشروع الصهيوني عام 1948 بتطهير عرقي لثلاثي الشعب وعام 1967 بتطهير عرقي لنصف الضفة وغزة، فضعف الحلقة الفلسطينية اليوم يفتح شهية الأعداء لتكرار ذلك. وإلا ما معنى قانون القومية، وما معنى الكونفدرالية التي تعبد الطريق لهجرة واسعة، وما معنى خطة برافر في النقب وما معنى الضغوط

المتنوعة على الأهلين في القدس، وما معنى غير استطلاع يشير إلى استعداد 60-70% من الشباب الفلسطيني للهجرة؟



## تجديد حركة التحرر الفلسطينية

عرفت المسيرة الفلسطينية في نصف قرن تجديدين كبيرين:

(1) ولادة الفصائلية الفدائية في الستينات التي أصبح يطلق عليها الثورة الفلسطينية بمعاركها وبطولاتها وما تعرضت له من مذابح عسكرية وسياسية، لم تمنعها من اجتياز مرحلة تأكيد وجود الشعب وهويته الكفاحية في سنواتها الأولى، واعتراف معظم العالم بالممثل الشرعي والوحيد م.ت.ف في السبعينات وخوض حرب طاحنة في 1982 وإشعال انتفاض شعبي حقيقي في أواخر الثمانينات على امتداد أربعة أعوام تخلله التجديد الثاني (2) ولادة الإسلام السياسي المقاوم (حماس والجهاد) ودورهما المتنامي في مرحلة أوسلو، فضلاً عن مزيج من انتفاض شعبي وحرب عصابات في بدايات الألفية الثالثة وثلاثة حروب على قطاع غزة لم تحصد منها العسكرية الاستعمارية أيّاً من أهدافها السياسية أو الميدانية، وحرب السكاكين والدهس بين عامي 2015-2016 في القدس ...

إن الرواية متشعبة وفصولها عديدة وصفحاتها لا حصر لها، بما جعل أساطير الأدب الإغريقي تعيش حياة واقعية من لحم ودم وتضحيات وعذابات وبطولات الفلسطينيين.

وحسبنا تذكر معركة تل الزعتر والشقيف وحصار بيروت عام 1982 أو تراجيديا إربد والزرقاء وبطولة مخيم جنين والشاطيء وعصيان بيت ساحور وهبة القدس وجبال الخليل ... وصمود الشعب في أقصى الشروط مبدعاً في تأمين شروط الحياة والتواصل والتعاضد...

هذه المحطات وسواها هي صفحات لا تحصى. غير أن المسيرة بإيجابياتها وسلبياتها لم تحرر وطناً ولم تراكم تنمية (الهدفان الكبيران للتنمية هما تخفيف البطالة وتخفيف الفقر) ولم تفك تبعية وإحاقاً بالسوق الاستعمارية، بل ولم تحافظ على وحدة شعبية منظمة، ناهيك عن جبهة وطنية عريضة هي أحد قوانين انتصار حركات التحرر، وبدل السير للأمام على الصعيد الثقافي عدنا للوراء (أنظروا ما يحصل في الصين أو أمريكا اللاتينية أو ما حصل في فرنسا بعد ثورة عام 1789 واليابان منذ أواخر القرن التاسع عشر أو الهند في أعقاب الاستقلال عام 1947) أما في الحالة الفلسطينية فالهوية مرتبكة تخزها هويات محلية وتقليدية.

صحيح أن المسيرة حافظت على حالة اشتباك مع المشروع العنصري الاقناعي، بصرف النظر عن اخلالاتها وتبدلات القوى الفاعلة في العملية الصراعية، غير أن أدوات الأمس وأداء الأمس غير كافيين لقطف ثمار الانتصار والسير بخط تصاعدي وطيد كما جرى في الثورة الجزائرية والفيتنامية أو المقاومة اللبنانية، وبطبيعة الحال لا ينبغي إغفال الشروط الموضوعية المجافية واسقاطاتها.

"والشروط الموضوعية مجافية دائماً" (غيفارا)، وهذا ما يوجب التجديد القادر على التعامل مع الشروط الموضوعية وإحراز التركيم الذي يفضي في النهاية لقفزة كيفية، وإلا بقيت المسيرة مصلوبة في ملزمة التضحيات التي لا تبلغ أهدافها الظاهرة. وما أصاب المسيرة منذ عقدين ونصف يوجب مضاعفة التعمل الفكري والجهد العملي على طريق التجديد.

والهدف الأعظم للتجديد هو التغلب على عجز الأدوات في استجابتها لمتطلبات الصراع ومتطلبات التنمية والصمود ومتطلبات توحيد الإرادة الجمعية التي تتعذر طالما استمرت الزعاماتية والإقصائية والانفصال عن الجماهير، وبالتالي تكريس القدرة على التركيم التصاعدي، الأمر الذي يقتضي تجديد الفصائل، تجديد القيادات، تجديد الفكر السياسي، تجديد الفكر النظري، تجديد التلاحم مع قوى الشعب وتجدد الارتباط القومي، تجديد المهارات والعقول، تجديد كل شيء.

التجديد ليس انقلاباً عسكرياً ولا يبدأ من الصفر، بل هو نفي ارتقائي يفضي لولاده نوعية جديدة. ينطلق من المنظومة القديمة ويستثمر كل ما هو إيجابي فيها ويتخلى عن كل ما هو شائع؛ وتأمين الشروط المواتية لتعظيم الإيجاب وولادة الماهية الجديدة، بجوهرها الجديد.

ومن الملاحظ أن التجديدين السابقين الذين حملوا همّ الوطن وتجشما ما تجشما من أثمان لم يشكلا طريق الخلاص، في نهاية المطاف، وإن لم يفقدا أهميتهما ودورهما التاريخي، بينما المطلوب وضعية سياسية تؤدي إلى طريق الخلاص، وليس فقط الاشتباك وطريق التضحيات. ولأن "السياسة هي الصراع القومي والطبقي" (لينين) وكل أوجه الصراع تجاوزاً للرحلة الحالية وحلول مرحلة جديدة روحها انتصار الأهداف التحريرية، بلغة فرائز فانون، وعلى أقل تقدير تحرير الوطن وعودة الشعب لدياره التي اقتلع منها، وصولاً إلى "التحرر الشامل

للإنسان" (ماركس) من كل الاستلابات، فالتجديد في عداد ضرورة مركزية وفق هذا المنظور، عوضاً أن الشعوب التي خاضت نضالها الوطني إنما ذهبت هذا المذهب.

وبداهة إن للرؤى الإيديولوجية والطبقية بصمات دامغة على عملية التجديد، لكن المعيار الأهم هنا أن يقود التجديد إلى الانتصار وبلوغ الأهداف التحررية والتنموية والديمقراطية، ففي هذا المعمعان إنما تتقارب الرؤى والمصالح وتدير ظهرها للمقولات الخشبية التي لا فائدة منها. لقد اتحد الشعب الفيتنامي بأعراقه وقبائله ولغاته وقواه في جبهة الفيتكونج بقيادتها السبعة عشر، واتحد ثانية بعد الانتصار لتوحيد شطري الوطن، واتحد ثلاثة في معركة القضاء على التخلف وبقايا القرون الوسطى ورفع مستوى المعيشة والكرامة، وهو يتخذ من جديد للنهوض بالوطن وإحداث المزيد من المكاسب على درب الاشتراكية الطويل.

#### الآليات المتخيلة للتجديد:

1. الجدلية الداخلية وآليتها الأعظم العملية الديمقراطية، من خلال المؤتمرات والمحاسبات للفاشلين وإطلاق المبادرات الناجحة وعدم إغلاق البوابات أمام الكادرات المميزة الصاعدة "الرهان على القوى الصاعدة" (لين يياو) ... وهذه الآلية فرصها أضيقت من ثقب إبرة، إلا لماماً، ذلك أن أية حراكات إنما يتم ضبطها والتحكم فيها بعد أن استوطن الفشل وتبقرت على نحو مريع المستويات المتجلدة التي تعيق عملية التجديد، دفاعاً من مواقعها وألقابها وامتيازاتها، وصولاً أن البعض من هؤلاء لا يتقنون سوى "المهنة" التي يؤدونها وبعيداً عنها بالكاد يخترق تأثيرهم جدران بيوتهم.

2. مبادرات قاعدية وكادرية ناجحة ثبت اقتدارها بالممارسة مهما واجهت من تحديات. وفي تجربة الشعوب درس، سواء ماوتسي تونغ عندما انتهج خطأ مخالفاً لنهج قيادة الحزب الشيوعي الصيني بعد فشل انتفاضة شنغهاي عام 1927 أو تيتو الذي صعد للجبل بعيداً عن رؤية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وكلاهما كتب له التاريخ النجاح. ولكن هذا النموذج فرصه محدودة ضمن الشروط الفلسطينية، ولم تزيه الحياة بعد، وإن كانت الحياة لا تعرف ضفافاً أو حدوداً.

3. أن تنشأ حركات جديدة، وهذه فرصها شبه معدومة ارتباطاً بتقليدية المجتمع الفلسطيني غير الدينامية التي تثبتت بالقديم وتتهيب من الجديد، ناهيك عن تعقيدات ولادة الجديد والمصاعب التي تنتصب أمام قدرته على الجذب والإقناع وما يستوجبه ذلك من إمكانيات، سيما أن الساحة الفلسطينية حافلة بكل التلاوين من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ومن أكثر الناس انفتاحاً إلى أكثر الناس انغلاقاً، ومن الكفاح المسلح إلى اجترار البيانات والتصريحات، فهي لا تشكو من فراغ بل من تخمة، إضافة لأجهزة القمع المتنوعة.

وفيما لو نشأت حركة جديدة فهي ليست منصبة لتجديد حركة التحرر القائمة بل مجاورة لها. وبقطع النظر إذا كانت أفضل أو أسوأ فهي لن تكون وازنة ومحدودة التأثير أو مجرد يافطة.

4. النهوض الوطني، أي أن تترامم عوامل النهوض وتأتي أحداث ومنعطفات قادرة على إيقاظ الضمير الجمعي وكسر نسغ الارتخاء والانتظارية، كما حصل في الوطن المحتل في أواخر عام 1987 حين فقدت السلطة الاستعمارية الكثير من قبضة السيطرة على المجرى اليومية، فانخرطت قطاعات واسعة جغرافية وديموغرافية في الميدان، وتأبجت العاطفة الاقتحامية والأحلام بالحرية في كل مكان، وإن بتفاوت، فصنع جيشاً انتفاضياً دام سنوات.

ومن وفي بالاستحقاقات تقدم خطوات ومن راوح في المكان تقهقر خطوات أو تجاوزته الأحداث "تأتي لحظات في التاريخ إما أن تنخرط فيها أو تبقى في معزل" (إنجلز) وتألّق جيل الفعل وشاخ جيل المتفرجين.

وهذه الآلية ربما فرصها أفضل من غيرها، وعلى الأرحم أن تكون العمود الفقري للآليات الأخرى.

ولأن القضية الفلسطينية قضية حقيقية وأصيلة، ومن المتعذر تصفيتها، فهي جديرة بشرط ذاتي قادر على قيادتها نحو الشواطئ الظاهرة، بما يستدعي دحر عوامل العجز والخذلان "والأخطاء، والخطايا" (د. حبش) والارتقاء بدرجات التطور والتلاحم بما يؤهلها لقهر جلاذيتها وشتى أشكال التخلف.

لقد غلب العجز والبلبلّة على اللوحة السياسية المعارضة لنظام باتيستا، فانبثقت حركة 26 تموز التي قادها كاسترو وخاض حرباً غوارية انتصرت بعد عامين، وراحت السلطة الثورية تطور برامجها وممارستها ففشلت الإمبريالية الأمريكية في إطاحتها.

وانتقلت اتجاهات في الحركة القومية الفيتنامية إلى مواقع الماركسية اللينية فولد حزب الشعب بقيادة هوشي منه الذي تحول لمركز استقطاب للعملية النضالية التي انخرطت في حرب شعبية طويلة الأمد تكلفت بالانتصار. وانطلق تشافيز في فنزويلا ولولا في البرازيل ومورليس في بوليفيا والساندنست في نيكاراغوا وهاركوخا في الأوروغواي في نهج جديد هو بناء حركات اجتماعية على رأسها شخصية كرزمانية أو نوية يسارية فبلغت السلطة "والسلطة هي الهدف المركزي لكل ثورة" (لينين).

لا حدود للتجديد ولا حدود للنماذج الثورية، ولكن الشيء المشترك هو الخواتيم الظاهرة.

□

### هل يستطيع الشعب الفلسطيني تجديد حركته التحريرية؟

سواء انتمت تياراته للبرجوازية الوطنية أو لليسار التحرري أو الديني المقاوم أو توليفة أو مجرد مقولات قليلة لا تشغل نفسها بدراسة الفلسفة والاقتصاد وعلم السياسة والثورات أو جيل شباني يلاحظ انفضاضة عن الخارطة السياسية بمختلف تلاوينها، فهل هو قادر على تجديد حركته التحريرية؟

من المقطوع به أن التناقض مستحکم ومستعص بين التطلعات الوطنية الفلسطينية والاستعمار الصهيوني. وهذا ما استشرفه ببصيره الصحافي الفلسطيني نجيب نصار منذ بدايات القرن العشرين، وكل من حاول تجسير التناقض أخفق، وكان هذا حال عشرات المشروعات السياسية التصفوية للحقوق الفلسطينية، فيما لم يختبر التاريخ مقاربة "دولة ديمقراطية علمانية" (د. حبش). أما "مبادئ أوسلو" فلم تكن أكثر من حبة مخدر لأوساط واسعة من الشعب الفلسطيني وغطاء لتصعيد الهجوم الاستعماري الاستيطاني الذي استباح كل ما هو فلسطيني، ولم يحجب ما في دروجه (تهويد وضم القدس، إزاحة الأغوار بمساحة 27% من الضفة عن طاولة المفاوضات، مستعمرات تناسل وأصبح بعضها أقرب لمدن، حصار وتجويع غزة، قصف وقتل واعتقال، دولة قومية لليهود... وبالتالي عدم اعتراف سياسي بكيانية الشعب الفلسطيني واقتلعه من وطنه الأمر الذي دفع الصحفي جدعون ليفي لوصف مقولة "فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض" بالسخيفة وتعكس (مأزقاً) بنفستي، فالشعب الفلسطيني رغم إخلالاته شب عن طوق التبديد والاحتواء والطمس، وإن وهن ذراع له استنبت ذراعاً أخرى، وإن غادر أو هرم جيل استولد جيلاً جديداً، ويتمتع بإرث غني في

حقل النضال والتضحية، ولا يعوزه الوعي المرتبط بالممارسة الثورية. ومخرجات العلم الأكاديمي، حيث يناهز الخريجون والخريجات المليون. ويكفي إلقاء نظرة على وسائل الإعلام العربية والجامعات العربية والأجنبية وبيئة رجال الأعمال في كل مكان وتعاضم نسبة الشباب والعمال بما يناهز الثلث لكل منهما، وحركة أسيرة تملأ سجون الاحتلال، لنعرف حيوية الشعب الفلسطيني، وأنه وجد ليبقى.

لقد اربكت مرحلة أو سلو المسيرة الفلسطينية وكشفت عيوبها وزجتها في انقسامات ومعضلات أزموية، غير أنها لم تضع حداً للتناقض المركزي والأساسي بين المشروعين التحرري والاستعماري كما لم تنجح في إطفاء جذوة الكفاح الفلسطيني.

ولما هبطت هزيمة حزيران 67 بليلها الطويل "خازوق دق ولن يقلع من شرم الشيخ إلى سعسع" (نزار قباني)، وتفكك الجيش الأردني وتقهقر الجيش المصري، اندفعت نويات المقاومة الفلسطينية كالإعصار وفي غضون عامين اشتد ساعدها، ولما أعاد جيش الاحتلال الانتشار في قطاع غزة 2500 لم يمض أكثر من عام إلا والظاهرة القتالية منتشرة في طول القطاع وعرضه فما بالكم لو تقهقرت القبضة الأمنية في الضفة الفلسطينية، وهي التجمع الفلسطيني الأكبر والأعلى منسوباً على صعيد مقومات الشعب اقتصادياً واجتماعياً ومؤسسياً؟

إن الإرادة الوطنية تموج كالبركان في صدور وأفئدة الشعب الفلسطيني، والوشائج تتعمق بين فلسطيني الوطن في 67 و 48 والشتات عموماً، وأزمة النخب السياسية تتفاقم أكثر فأكثر، فيما المشروع المعادي يتطرف أكثر فأكثر، والصوت النقدي للحالة القائمة يرتفع ويتمظهر بألف شكل وشكل. إن مرحلة الأمس تلفظ أنفاسها، ومرحلة جديدة تشكل في الأفق يحرضها جدليات داخلية كما تأثير تحولات إقليمية وضعت فلسطين على جدول أعمالها لدوافع عديدة أما كيف يتحقق التجديد، من ناحية التصور العملي فهذا سؤال إضافي يتعدى اهتمام هذا النص.

# الفصل الثاني:

## حول اليسار

## المشروع التحرري اليساري الفلسطيني بين الأزمة البنيوية وفرص النهوض □

أسوق هنا سلسلة محاضرات ارتجالية ألقيتها داخل قلاع الأسر ولاحقاً في أوساط أكاديمية، وقد أجبت فيها عن أسئلة مفصلية من نوع، هل المشروع التحرري اليساري ضرورة تاريخية أم إسقاطات ذاتية لمثقفين وثوريين حاملين؟ وما هي أهم معالم الفكر السياسي للمشروع اليساري التحرري؟ وما هي أدواته الكامنة؟ وما الأركان الرئيسة للحركة أو الحزب اليساري؟ ولماذا حصلت الأزمة وهل من فرص لتجاوزها؟ وما متطلبات النهوض ثانية في المرحلة الراهنة، وصولاً إلى التطرق لمكونات الهوية الإيدولوجية لليسار وحضورها في الممارسة اليسارية الفلسطينية؟



## مقدمة

أهلاً وسهلاً وأصوبحة طيبة:

فنياً، العنوان جدي ويلزمي بتقديم الجديد، مثلما يلزمكم بالانتباه واستنفار كامل الحواس.

وأؤكد أننا سنحصد فائدة جوهرية تترك بصماتها على التفكير والاهتمامات والعلاقات. وهي محاضرات مترابطة ومتكاملة ينظمها سياق واحد كما عمل مسرحي أو فيلم أو رواية، لا يجوز مشاهدة أو قراءة فصل والغياب عن فصل آخر، بل وتختلف عن ذلك بأن الدارس ليس متلقياً بل وفاعلاً متفاعلاً من خلال الأسئلة والمداخلات فثمة مساحة للحوار.

ونظرياً، يتوجب الإمساك بعمق بخلاصة أن التاريخ في حركة دائمة، في صيرورة، وهو بداهة بلا نهاية.

وقد اعتقد البشر أن مرحلة ما قبل الثورة الصناعية منذ قرن ونصف وأكثر سواء أطلقنا عليها مرحلة إقطاعية أو تقليدية أو نمط إنتاج آسيوي أو سوى ذلك، حيث سادت الزراعة البدائية والعمل اليدوي والأسواق المحلية والحكومات المحلية. والإمبراطوريات الدينية سيما في الشرق الأوسط وأوروبا والعقائد القديمة من هندوسية وبوذية وكنفوشية وشتوية في جنوب شرق آسيا ومعتقدات لها بداية دون أن يكون لها نهاية في أفريقيا وفي القارة اللاتينية، وهذه المرحلة استمرت مئات الأعوام في مناطق ألفين وثلاثة في مناطق أخرى.

اعتقد البشر أن هذه المرحلة دائمة بما ارتبط بها من بنى اقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية. غير أن القرنين الأخيرين شهدا تحولات جذرية أرسها الثورة الصناعية واكتشاف الكهرباء بما ارتبط بها من علوم بل قفزات علمية فولدت المدن المعاصرة بمكوناتها الجديدة من صناعة حديثة و زراعة حديثة وطبقات رأسمالية وطبقة عاملة وعلم جامعي وطبقة وسطى وبالتالي دولاً قومية حيث توحدت فرنسا التي كانت 72 ولاية وألمانيا 51 ولاية وإمارة وأكثر من ذلك في إيطاليا. وفي الدولة القومية سوق واحدة وعملة واحدة وجيش واحد ونظام سياسي واحد وقوانين واحدة وبالتدرج عرفت البشرية الانتخابات والبرلمانات وحرية التعبير والتعددية السياسية والمواطنة المتساوية ... وكان شعار الثورة الفرنسية عام 1789 (حرية إخاء مساواة) ملهماً ومنازة.

غير أن الطبقة التي حكمت البلاد والعباد هي البرجوازية التي استحوذت على وسائل الإنتاج وهيمنت على الدولة والمجتمع المدني فنشأت طبقتين رئيسيتين هما البرجوازية والعمال وشرائح وفئات أخرى بينهما بل وأطلقت الرأسمالية مشروعها الاستعماري فاحتل الشمال قارات الجنوب ونهبها لعقود وصادر سيادتها وأعاق تطورها.

وهنا نشأ تناقض كبير: تناقض العمال والشغيلة الذين يكسحون وينتجون الخيرات وهم المحكومون، وأصحاب وسائل الإنتاج من البرجوازيين وهم الحاكمون والمهيمنون.

وجاء الفكر الماركسي كأفضل معبر عن قضايا العمال والشغيلة، وميزة ماركس أنه أهم وأعظم مفكر حلل المرحلة الرأسمالية وتناقضاتها ناهيك عن مساهماته في حقل الفلسفة، بل واستخدم منهجه لقراءة مراحل التاريخ وتعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية فهو فيلسوف وعالم اقتصاد واجتماع إضافةً أنه أديب من طراز رفيع وهذا سر شهرته. ومثلها عرفت مراحل التاريخ السابقة رموز كبيرة لم ينفك تأثيرهم لهذا اليوم فقد عرف العصر الرأسمالي الخطاب الماركسي النقدي الذي لا يمكن تجاوزه طالما أن الرأسمالية قائمة.

طبعاً لقد أضاف ماركسيون هنا وهناك والمعهم لينين قائد الثورة الروسية عام 1917 الذي عاش زمناً جديداً هو زمن الإمبريالية الذي لم يعرفه ماركس إلا كبدايات. ولينين هو امتداد دياكتيكي ماركس، استند ماركس وقرأ الواقع الروسي والإمبريالي وكانت إضافاته نوعية إلى درجة أن أصبحت اللينينية تنعت بماركسية عصر الاستعمار والإمبريالية والثورة الاشتراكية.

وكان ماركس إشارات عن عصر الاحتكارات والاستعمار أما لينين فقد قبض على هذا الزمن الجديد مثلما قبض ماركس على زمن الرأسمالية، أما الإضافة البارزة الأخرى فلينين قائد سياسي نجح مع رفاقه في بناء حزب ثوري قاد أول ثورة اشتراكية ظافرة في التاريخ.

ولينين أفرد حيزاً واسعاً للمسألة الوطنية ونضال حركات التحرر ضد الاستعمار ومن هنا قام بتعديل شعار "يا عمال العالم اتحدوا" الذي اختتم به ماركس البيان الشيوعي فأصبح "يا عمال العالم وشعوبه المضطهدة اتحدوا". وعليه فماركس ركز على الثورة الاجتماعية أما لينين فركز على الثورة الاجتماعية التي ترجعها في ثورة أكتوبر وعلى الثورة الوطنية التي اندفعت بزخم قوي بعد الحرب العالمية الثانية.

وجاء غرامشي وركز على مفردات الهيمنة والكتلة التاريخية والثقافة العضوي والبراكسيس وماو على حرب الشعب طويلة الأمد اعتماداً على الفلاحين الذين كانوا يشكلون 99 بالمائة من الشعوب الصينية والجهة الوطنية وتنمية بلد متخلف، ولوكاش الذي ربط الوعي الطبقي بالممارسة. وكاسترو وغيفارا أضافا نظرية البؤرة وحرب العصابات وهناك عشرات ومئات المنظرين الذين أضافوا مقاربات تواكب متغيرات الحياة.

فضفاف الماركسية ليست محدودة والنظرية ملزمة باستيعاب كل إنجاز كبير في سبيل إنهاء الاعتبارات كافة. والاعتراب مفردة مركزية في الماركسية وأقرب تعريف عربي لها هو الاستلاب حيث تستلب الإمبريالية المحيط والجنوب واستلاب البرجوازية القيمة الفائضة من العمال والشغيلة. استلاب الرجل أي البطيركية للمرأة، واستلاب النصوص والمرجعيات للعقل فلا تعترف بحقه في الاختيار والإبداع وصولاً إلى عدم الاعتراف بالمواطنة المتساوية. ولا أنسى هنا أن المشروع الماركسي يسعى للتخلص من مخلفات القرون الوسطى وتحقيق التنمية المستقلة وإنتاج العلم. وأفضل نموذج اليوم هو النموذج الصيني لبلد يناهز عدد سكانه 1.4 مليار نسمة. "أما الهدف الاستراتيجي فهو التحرير الشامل للإنسان" (ماركس).

ولم تعد الماركسية أو الماركسية - اللينينية مجرد أحلام رومانسية لثوريين غاضبين كما يروج الإيدولوجيون الرأسماليون ولم يعد مشكوكاً فيه أن هذا الفكر كبراكسيس حيث جدلية العلاقة بين الإرادة والوعي والممارسة قد أدى دوراً مرشداً لأعظم ثورات القرن العشرين وبناء أحزاب في كل مكان، ومنها من أثبتت مقدرته على الانتصار وتأسيس تجارب ثورية تجاوزت الأمس وأرست قفزات هائلة على كل الأصعدة. وما علينا سوى مراجعة ما كانت عليه روسيا في العهد القيصري وما أصبحت عليه في العهد السوفييتي أو بلدان أقل وزناً كفيتنام وكوبا حيث كانت هافانا مرتعاً للمغامرين والمقمارين على غرار مونت كارلو اليوم، فأصبحت كعبة للثوريين لا تبخل في تقديم المساعدات لعشرات البلدان، أو مدن كشنغهاي وبكين فأين كانتا منذ عقدين من الزمن وأين أصبحتا!

ولا تصدقوا ما ينشره الإعلام الغربي عن كوريا الديمقراطية، فقد صمدت أمام الغول الأمريكي وهي تحافظ على سيادتها وكرامتها وفي ذاكرتها أن أمريكا مسؤولة عن مقتل أكثر من 2 مليون كوري في أوائل خمسينيات القرن الماضي الأمر الذي يجعل كوريا تبني جيشاً قوامه 1.1 مليون جندي في بلد لا يتجاوز عدد سكانه 16 مليوناً. وفي النقاش أضيف:

دعوني أروي لكم الطرفة التالية، وقد قرأتها في جريدة موسكو عندما كان عمري 17 عاماً. زار وفد أمريكي من الكونغرس كازاخستان في أواسط السبعينات فأعرب عن تشككه في منجزات الاشتراكية. فما كان من رئيس الدولة وأظن اسمه عليف أن قال: سأجيبك في المساء، وفي المساء حملتهما مروحية طافت بهما على حدود أفغانستان وباكستان وسأله: ماذا ترى؟

رد عضو الكونغرس فهمت المغزى هنا يوجد نور وكهرباء وهناك عتمة وظلام. فالإقليم كله خضع للحكم العثماني ولكن التنمية حصلت في الجانب السوفيتي.

ومفيد هنا أن أذكركم أن النظريات الأكاديمية التي تدرس في الجامعات ومفادها أن الجنوب الذي خضع للكولونيالية هو عاجز بنيوياً ولا يمكن أن يحقق أي تنمية إلا بوصفات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والخبراء الرأسماليين قد سقطت سقوطاً مدوياً في ضوء القفزات التنموية في الصين ومن قبلها في الاتحاد السوفيتي وأقل منها في الهند والبرازيل، وبصورة أساسية بالاعتماد على النفس وفك التبعية، وإن بتفاوت.

\*\*\*\*\*

أصبوحة طيبة:

في اللقاء الثاني اسمحو لي أن أتحدث عن أركان ومعايير الحزب اليساري. وفي اعتقادكم ما هو الركن الأول؟

(1) طبعاً إنها الهوية الفكرية الماركسية اللينينية. وهناك من اهتزت سيقانه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي فتحلل من اللينينية تحت شتى الذرائع وخصوصاً في المنطقة العربية وأوروبا الغربية. أي في البلدان الأقل نجاحاً. ولا حاجة للقول أن اليسار العربي بما يتميز به من تضحيات وبطولة على امتداد نصف قرن ويزيد، هو الأكثر ارتباطاً، وهو ينتقل من الضد إلى الضد بسهولة وهذا أتعرض له لاحقاً.

مرة تلقيت دعوة من النادي الأرثوذكسي، أو بصورة أدق فاعلية ثقافية عقدت في هذا النادي بمناسبة حضور مفكر فرنسي أسمعننا مقاربة غنية، وفي مداخلتي وضحت له لماذا نجد لينين أقرب إلينا، والمفكر لم يتردد في نقد اللينينية. فمن جهة موضوعه الحزب السري ومن جهة أخرى الثورة، فهو حزب غير إصلاحية ومن جهة

ثالثة موقفه من المسألة اليهودية وهذا كله يتلائم مع رؤيتنا وشروط نضالنا. واختتمت مداخلتى بالإشارة لكتاب لينين الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية وأنها متعفنة وأكثر وحشية في زمن العولمة، وأن العولمة تكريساً لثنائية مركز ومحيط وفي واقعنا الفلسطيني محفور على جلودنا الإمبريالية والصهيونية ولا حاجة لنا للتحليلات وأن الثورة التقنية محتكرة من قبل الرأسمال المعولم الذي ينهب البشرية ويغلق آفاق تطورها إلا من تتمردها، وأن الثورة التقنية والاحتكارات المعولمة لن تمنع انفجار الأزمات الاقتصادية، هذا كان قبل أزمة عام 2008.

ذكرت هذه البداية لأقول أن أعظم ثورات القرن العشرين وأكبر الأحزاب الثورية في العالم وأسرع البلدان في وتأثر تطورها، هي التي استرشدت وتسترشد بالماركسية اللينينية، وفي رأسي مقولة للحكيم الدكتور جورج حبش أن الماركسية اللينينية منهجها وموضوعاتها الرئيسة وجدلية علاقتها مع الممارسة ومتغيرات الحياة وليس تفاصيل ولّى زمانها ارتبطت بالتجربة الروسية والأوروبية.

إن أول ركن ومعيار للحزب اليساري هويته الفكرية. وقد تكون كلمة يساري ملتبسة أو تحمل معاني عديدة، ففي أوروبا مثلاً هناك أحزاب شيوعية وأخرى ماركسية لينينية وثالثة يسارية ورابعة تروتسكية وخامسة اشتراكية ديمقراطية تأخذ من هنا وهناك ومن الإيدولوجية الرأسمالية أيضاً. أما في بلادنا فيقصد باليسار القوى الماركسية اللينينية، وهناك من تراجع عن اللينينية أو تراجع جزئياً عنها وهناك من لم يفهم بعد مفردة براكسيس. فالهوية الفكرية اليسارية ليست مؤلفات ماركس ولينين ومئات المفكرين الذين صاروا على هذا النهج فقط، بل وهذه النظرية على صلة بنيوية بالممارسة تتطور معها والممارسة تغنيها وتصوبها ولتصوبها، والفكر يوجه الممارسة، أي ليس منظوراً دينياً بتطبيق ما جاء في الكتب المقدسة وهذه نقطة منهجية مفصلية. فالماركسية "تحليل ملموس للواقع الملموس" (لينين) ولكن بالاسترشاد بالخلفية الفكرية اليسارية. فهي ليست تطبيقاً بل استرشاداً وبكلمات ماركس "من المجرد العام إلى الملموس الخاص." بما يوجهه ذلك من إنتاج فكر وفن وخطط وعلوم وتنمية وبناء حزب يلائم شروط النضال.

فهل تعتقدون أن ماركس أو لينين أو ماو أو كاسترو أو غيرهم كتبوا عن الملموس الفلسطيني أو العربي؟ طبعاً لا وإن كان هناك إشارات سريعة. فهذه المهمة مهمة القبض النظري على الملموس الفلسطيني والعربي وإنتاج قوة التغيير والتحرر هي مهمة فلسطينية وعربية.

الفكر الماركسي اللينيني يساعدنا ويرشدنا إذ هناك إنجازات وإرث فكري خصب بل ونظريات في الموسيقى والرواية والمسرح والحرب ولم يعد الفكر الماركسي اللينيني حزمة مؤلفات. بل مكتبة ضخمة مرتبطة ارتباطاً جديلاً بالممارسة الثورية وبناء دول كبيرة وصغيرة بمكوناتها كافة. هل تستطيعون تصور بلد أو العالم دون فنون وأغاني ومسرح؟ هل تستطيعون تصور بلد أو العالم دون علوم وقفزات علمية ينتجها البشر وماذا لو لم يكن الشعب الكوبي مسلحاً ومعاً؟

ولاحقاً أتحدث عن المنظومة الفكرية للماركسية، سوف أخصص لها عدة محاضرات، وهذا أهم ما في الأيام الدراسية، ولكن بربط ذلك بالتجربة اليسارية الفلسطينية. أي كيف فهمنا الفكر وكيف تفاعلنا مع شروطنا الخاصة. وهنة ثمة تباينات بين القوى اليسارية في فهم الفكر وفي فهم الخاص الفلسطيني والعربي. وإن كان هناك تقاطعات أيضاً وبالنسبة لي ثمة مساهمات ومقاربات أضيفها.

وأول ما يميز الحزب اليساري عن سواه هو هويته الفكرية، فهناك هويات فكرية يسارية وأخرى رأسمالية وهي الأقوى عالمياً اليوم وهوية دينية في الإقليم لها خصائصها وإن كانت تتقاطع هنا أو هناك مع الرؤية الرأسمالية دون استثناء وتقاطعات سياسية بين بعض القوى الدينية واليسارية.

والفكر الديني متجذر عموماً في إقليم الشرق الأوسط، وما عدا ذلك مجرد هوامش. ولا يجوز أن أغفل نزعات تحررية لبرجوازيات قومية مناهضة للهيمنة الإمبريالية سواء سياسياً أو اقتصادياً أو إقصاء لهويتها الوطنية، وهي خليط من الأفكار وإن كانت في محصلتها العامة تدور في فلك الرأسمالية. ويمكنني أن أجازف بالقول أن هذه النزعات مؤقتة تدوم عقداً أو عقوداً ريثما تتمحوظ البرجوازية المحلية وترتبط بالمركز الإمبريالي.

وفي البرجوازية المصرية في عهد السادات نموذجاً كما شرائح برجوازية فلسطينية وأندونيسية ولايتينية وهندية. أما البرجوازية القومية التي تصارع بثبات اليوم فهي التي تقود روسيا وسوريا على نحو أخص رغم الفوارق بينهما. والحديث هنا يطول.

وبتكثيف تجمع الهوية الفكرية اليسارية الإرث الماركسي - اللينيني وهو بلا ضفاف كما أشرت من قبل وإضافات الملموس المحلي من برامج وإبداعات. ولكن مهما بلغت الحقيقة في هذه المراجع الفكرية ومهما تعاضمت غزارة هذه المراجع، فهي دون حاملها التنظيمي تبقى مجرد نشاط ثقافي ونظري. وهنا يأتي الركن الثاني:

(2) الركن التنظيمي، وهو مهمة المهمات وأصعب المهمات، والبدايات مجرد نوية لكنها تنمو بتدرج وتنتشر ويتشكل هيكلها ومستوياتها الكادرية والقيادية إلى أن تصبح وازنة وقادرة على تأدية كل المهام التي تستوجبها التناقضات، والحزب اليساري ليس مجرد حلقة أو بنية هامشية لا فعل ولا فاعلية لها، تجتر خطاباً معزولاً من قبل اناس معزولين، فهذه حالة دعاوية أكثر منها حركة سياسية. أما "السياسة فهي الصراع القومي والطبقي" (لينين) وما يتصل بذلك من اغترابات. ولكيما تمارس سياسة عليها أن تملك القدرة على الصراع وترسيم النجاحات بالسير خطوة وراء خطوة نحو الانتصار الحاسم. فاليسار ليس عملية أخلاقية من التضحية والبطولة والجماعية فالأخلاق جزء من الإيدولوجية، والإيدولوجية تتحول سياسة وبالتالي لفعل، بل أفعال صراعية من أجل تحقيق أهداف جزئية وآنية نحو هدف استراتيجي كبير.

ولكيما يمارس اليسار سياسته ويصنع أفعالاً عليه أن يملك القدرة والثقل في كافة الحقول. أي أن يكون قادراً وهذه مفردة مفصلية في الحزب اليساري الحقيقي. مثلاً اندلعت حرب حزيران 1967 وانهمزت برامج الأنظمة العربية واشتد ساعد الفصائلية الفدائية، بينما أحد الأحزاب المحسوبة على اليسار يلوك القرار 242 فمئات المشهد الفصائل الفدائية يبسارها ويمينها، وبقي الحزب المذكور في معزل "تأتي لحظات في التاريخ إما أن تنخرط فيها أو تبقى في معزل" (إنجلز)، علماً أن ذاك الحزب كان لديه من الخبرة والقيادة والكادر ما يفوق بدايات أي فصيل.

شأن فصائل اليسار التي تراجع دورها راديكالياً في مرحلة أوصلو فمئات الفراغ فصائل الإسلام السياسي المقاوم الذي أصبح اليوم بوزن فتح والشعبية معاً.

ومثلها لم يسعف تكرار المطالبة بتطبيق القرار الدولي 242 ذاك الحزب فلم يحافظ على وزنه، فتكرار حديث الفصائل اليسارية اليوم عن تداخل المهام الوطنية والمهام الديمقراطية في مرحلة أوصلو لم يحافظ على وزنها وذلك أنها لأسباب محددة لم تؤد دورها إلا لماماً.

الحزب ليس هدفاً بذاته، بل وسيلة وجسر لتحقيق هدف. وطالما أن القارب صغير أو بلا مجاذيف فلن يستطيع السباحة بجمولة كبيرة، والجمهير لن تنخرط في صفوفه، علاوة على أن عدم فاعليته تدفع الكثيرين لمغادرته.

السياسة صراع ومن يفتقد أدوات الصراع يغيب عن الصراع فيبهت ويستقيل من السياسة. وإن كان يحافظ على بعض الحيز في المشهد الثقافي والسياسي.

وإذا ذهبت لمقولة غرامشي (هيمنة ثقافية، هيمنة سياسية) فالثقافة هنا تمهد للسياسة وتبصر السياسة وتسليحها. أما إن بقيت ثقافة، فحيزها ثقافي وحسب. وهذا له شأن بلا شك ولكنه لا يصنع أحداثاً سياسية.

إنني لا أستصغر شأن الثقافة والفكر وأنا واحد من هؤلاء الذين لهم باع في هذا الميدان، ولكنني أميز بين الثقافة والسياسة وحسب آخذاً بالاعتبار منظور لينين وغرامشي عن ترابط الفكر والسياسة، الثقافة والنضال "ليس النقد ما يصنع التاريخ بل الثورة" (ماركس).

ودون الإسهاب حول الحزب وبنيته التنظيمية، فأهم شرط هو تراكم الشرط القيادي متعدد المواهب والقدرات التي تغطي كافة مجالات العمل التي تستوجبها لوحة التناقضات والتي تثبت مقدرة عملية على بناء امتدادات تنتشر في كافة تجمعات الشعب وشرائحه الاجتماعية، وأحد سماتها تفرينها للكادر والمقصود صفوف من الكادرات التي هي صلة الوصل بين القيادة والقاعدة بل هي التي تؤسس المنظمات المحلية الحزبية والديمقراطية والصيغ الاجتماعية، أي ما يسمى اليوم الحركات الاجتماعية. أو تنخرط في هذه الحركات وتمارس دوراً بناء فيها وسوف أفرد حديثاً منفصلاً لعلاقة الحزب بالحركات الاجتماعية.

وسمة أخرى للقيادة هي كفاءتها ليس العملية فقط بل والفكرية، فهي تنتج فكراً وإعلاماً ونشرية داخلية تتخلق تلاحماً في صفوف الحزب. أما الصفة التي لا يجوز القفز عنها فهي سمها الحوارية فقوتها هي حوارها مع المراتب الأدنى منها وليس أوامريتها الفجة التي تطفش الناس. "فالثورة عملية حوارية" (باولو فريري) وهذا حال طبيعتها السياسية. فالحوار يخلق قنوات أعمق ويغني التفكير الجمعي ويجعل من الجميع شركاء. وهنا ثمة قانون عام وهو قانون المركزية-الديمقراطية وهذا يستحق حديثاً منفصلاً لاحقاً.

وبطبيعة الحال القيادة هي قيادة جماعية جنباً إلى جنب مع المسؤولية الفردية وفي العمل السري نتعقد الأمور كثيراً. وقيادة لا تحمي جيشها ليست قيادة، وقيادة لا تطور جيشها ليست قيادة، وقيادة لا تتخلق أملاً وثقة وانتماء للحزب الذي تقوده ليست قيادة. وعليه فتقييم القيادة له معايير أكثر تطلباً من معايير تقييم الكادرات أو القاعدة. "والحزب قيادته" بلغة الدكتور جورج حبش، فهي العامل الأكثر حسماً "والأخطاء الكبرى هي



أخطاء القيادات" (جورج حاوي) ويقع على عاتقها أن تكون أسفنجة امتصاص في الجسم فهي تمتص كل الآراء والإيجابيات وترصد الثغرات والسلبيات وتحاسب وتتابع "المتابعة جوهر العمل الحزبي" (لينين) وتعالج أولاً بأول، كما أنها تنقي الدم من الشوائب كما الكلى والكبد وتحرص على الارتقاء به إلى مستوى أنظمتها وتنفيذ قراراته "الصدق في السياسة هو مطابقة الأقوال بالأفعال" (لينين). كما يقع على عاتقها أن تلعب الدور الأول في اشتقاق:

(3) الفكر السياسي والبرامج والخطط الناظمة والموجهة للحزب. في البدايات يبادر حفنة من الثوريين والثوريات لوضع توجهات أو برنامج أولي ومع التوسع وتكون كادرات جديدة يمكن أن يعقد مؤتمر أو كونفرنس تأسيسي حيث تتحقق مقولة العقل الجماعي وما ينبثق عنه. ويتكرر عقد المؤتمرات كما اجتماعات ودورات الهيئات المركزية، والحوار بين أعلى وأدنى، وتفتح البوابات للمبادرة. ولا يجب أن ننسى المبادرة فالتاريخ بجملة مبادرة والصناعات مبادرة والصحافة مبادرة وبناء أحزاب ثورية مبادرة؛ مبادرات لها بداية دون أن يكون لها نهاية، وعلى كافة الصعد، استناداً إلى القرارات العامة والسياسات العامة. "الكادر يبادر" (غيفارا) وحزب لا يبادر ليس حزباً، وكادر لا يبادر ليس كادراً.

ومن خلال براكسيس الفكر والممارسة، والحزب الثوري هو "جسر التوسط بين النظرية والممارسة" (لوكاش)، تتجلى أعظم وأغنى صيرورة نظرية - علمية، تتجلى أكثر ما تتجلى في البرنامج السياسي والتنموي والإنتاج النظري والثقافي والقرارات والخطط وصولاً إلى النظام الداخلي.

وللبرنامج السياسي أهمية استثنائية، فهو خط السير بما يستوجه من تكتيكات وهنا تجتمع الرؤية الاستراتيجية مع التكتيك. الرؤية الاستراتيجية التي تكشف الهدف والقوى الطبقة الثورية والاحتياطية والتحالفات وأشكال النضال وطابع الحزب. والتكتيكات التي ستحمل على أكفائها تنفيذ مهام وخطوات تراكمية نحو تحقيق الهدف الاستراتيجي. ويتربط هنا الفكر بالسياسة والتنظيم والخطوات العملية. ومن هنا قال الحكيم حبش "لا ينبغي أن ينتهك التكتيك الاستراتيجية، ولا أن تنتهك السياسة الأيديولوجيا" فن تحرير فلسطين إلى برنامج مرحلي، ومن برنامج مرحلي إلى دولتين حسب مبادرة بريجنيف عام 1981 إلى كادوك وإلغاء مواد أساسية في الميثاق الوطني الفلسطيني إلى "الحكم الذاتي الإداري المحدود" حسب مبادئ أوسلو والاعتراف والتنسيق الأمني وبالتالي إسقاط شرعية المقاومة، وهذا خط سير انتهك فيه التكتيك الاستراتيجية وانتهكت فيه السياسة

الإيدولوجيا التي كانت تقول الإمبريالية عدو والمستعمر العنصري عدو فأصبحت الأولى رهاناً ووسيطاً والثاني شرعياً وجاراً، والتشوش هنا أربك الساحة الفلسطينية والوعي التحرري.

وليس غرضي محاكمة أو تقييم المسار السياسي الفلسطيني، فمثل هذا التقييم والمراجعة لا يتّان إلا في إطار عقل جماعي. ولكن مغزى كلامي أن الحزب اليساري الحقيقي، وإن كان يتبع تكتيكات لا حصر لها من القتال إلى الانتفاض إلى التظاهر، والنضال الإعلامي والدبلوماسي، ويتعاطى مع الأحداث بتقدير مواقف سياسية، غير أن ذلك كله محكوم ببرنامجه وإيدولوجيته وليس على حسابها أو اختراقاً لهما وإلا أصابه التخبط. فالبراغماتية امتحان حقيقي وميزان القوى المحتل لجهة معسكر الأعداء امتحان. كيف يتم الفكك منهما وتحديد مواقف فاعلة دون السقوط فيهما وفي نفس الوقت الحفاظ على الوحدة الداخلية؟

فأن يكسب الحزب الثوري وأن يحقق نجاحات أمر طبيعي أما أن يكون ذلك على حساب المبادئ والبرامج فهذه مصيدة لا ينبغي السقوط في براثنها، كما أن التلعغ بشعارات استراتيجية دون إبداعات تكتيكية له نتائج عكسية أيضاً.

انظروا إلى التجربة الفيتنامية وتفكير قائدها هو تشي مينه، لقد كان مرناً جداً وخلاقاً جداً ورجل تكتيك ولكن دون المساس قيد شعرة بأهداف تحرير فيتنام ووحدة الشعب الفيتنامي. من المؤكد أن اللوحة أكثر تعقيداً في التجربة الفلسطينية. فالقائد العسكري للثورة الفيتنامية فونجوين جياب الآن هو رئيس البرلمان وربما توفي) زار سوريا ولبنان بعد حرب أكتوبر عام 1973 حسبما تسعفني الذاكرة صرح بما معناه "كانت الصورة واضحة في التجربة الفيتنامية، شعب يثور على الاستعمار الذي نتعاون معه الفئات الإقطاعية، أما أنتم فهناك عوامل عديدة عربية ودولية لها تأثيرات على وضعكم" فما بالكم بعد مبادئ أوسلو وما نتج عنها من تحولات في المشهد الفلسطيني. وهذا تحدي علي وتكتيكي وبرنامجي لمن هو في موقع القرار.

ومرة صرح الحكيم "أن القبض على المبدأ كالقبض على الجمر" ومثل هذا التصريح لم يكن بلاغة لغوية، بل لأن ميزان القوى مختل وشركاء الساحة يحنون رؤوسهم هنا وهناك، حتى أن بعض الرفقاء يسعون لتدوير الزوايا... وبالعودة للتباينات بين مختلف الاتجاهات السياسية الفلسطينية سيما الوازنة، وما صاحبها من مساجلات وتراشق اتهامات، وأحياناً صدمات وهي في معظمها باتت في ذمة التاريخ والحياة قالت كلمتها بشأنها وهتكت الستار

عن الأخطاء. العودة لذلك اليوم يظهر بجلاء أن "أخطاء وخطايا" بلغة الحكيم قد عرفتها المسيرة الفلسطينية وكثير منها كان يمكن تفاديها وأكثرها سطوعاً مسار أوسلو واللجوء للعنف في تسوية التناقضات الداخلية، والتعبئة القصوية بلغة التخوين والتكفير "كلما ضرب الكوز الجرة" واستبدال التحليل المبني على المعطيات الذي يضيف شيئاً للوعي إلى مجرد كيل الاتهامات والشتائم والشيطنة.

وأختم هذه النقطة بالقول لا تكفي البرامج ولا التاكتيكات رغم عظمة شأنهما وإنما يتطلب الأمر أيضاً تفكيراً مبادراً لا ردة فعل من جهة ورسم خطط وجاهزية أدوات لتحويل القرارات لأفعال. فالحركة السياسية ليست محلاً سياسياً ولا أكاديمياً يسبح في سماء الأفكار وإنما هي فعل صراعي بما يتطلبه من إمكانات وخطط لمواجهة خطط وتاكتيكات من يقف في الخندق المقابل.

(4) التركيب الجنسوي. تقوم الرؤية اليسارية على المواطنة المتساوية دون تمييز ديني أو جنسوي، وتقوم أيضاً على تحرير ومشاركة النساء في الثورة، مشاركة على أوسع نطاق. "وتنتصر الثورات بقدر مشاركة النساء فيها" (لينين). وهي "تحوض غمار كل المهام" (غيفارا) وتولى كل المناصب. ومشكوك بيساريتها حزب نسبة المرأة فيه منخفضة أو قيادته ذكورية، وفاشل في تربية كادرات نسائية أو نظرتة للمرأة نظرة دونية أو يعقد تحالفات على حساب المرأة وتحررها ومساواتها.

ومنذ البدء ينبغي أن تكون المرأة شريكاً كاملاً في تأسيس الحزب اليساري، لا أن تعلقو المداميك دون النساء وبعدها يتدارك هذا الخلل. فالأساس الخاطئ يتبعه صرح خاطئ، بل ويتوجب تكريس جهود إضافية لبناء امتدادات في أوساط النساء، بتكليف الجميع وتكريس جهود مضاعفة في التثقيف وتربية كادرات نسائية. أما المنظور الفكري للحزب اليساري فهو مناهض للبطيركية بكل صورها. وعموماً إن لم يتصدى الحزب اليساري للمسألة الوطنية والمسألة الطبقية والمسألة النسوية، فما هي وظيفته التاريخية والحال هذه؟ وإذا جرى المنظورات التقليدية للمرأة بفرض الوصاية عليها ومنعها من حق الاختيار والعمل وحرية الحركة والنضال فهو لم يبلغ مستوى المنظور البرجوازي بعد.

(5) التركيب الطبقي والنوعي. المسألة المركزية في الفكر الماركسي - اللينيني هي المسألة الطبقةية بتحرير العمال والشغيلة من استغلال رأس المال أي الثورة الاجتماعية الاشتراكية. أما في الحالة الفلسطينية فالمسألة المركزية هي التحرر الوطني، يليها المسألة الطبقةية أو البطيركية أو حرية العقل والاختيار والمواطنة ...

طبعاً لقد اتسعت المساحة الطبقةية في مرحلة أوصلو وتفشى الفساد وزادت البطالة والفقير. غير أن المسألة الوطنية تبقى في الصدارة. ولكن اليسار لا يؤدي مهمة وطنية فقط بل وطبقةية وسواهما. فهو يتصدى لكل التناقضات. وبنيتة التنظيمية بالتالي تضم "كلمة تاريخية" (غرامشي) من عمال وطبقة وسطى وفلاحين وشغيلة ومهمشين وعناصر برجوازية...

والحزب اليساري الحقيقي أكثر جذرية وأكثر ثبات في النضال وهو لا يتوقف عند المسألة الوطنية بل يذهب للمساحات الأخرى. ولكيما يستجيب لذلك عليه بناء قواعده في أوساط الطبقات الشعبية والخيميات، وفي المقدمة العمال والطبقة الوسطى من خريجي الجامعات، فهذا يخلق توازناً ويتيح له تجنيد قطاعات حيوية وواسعة، وفي مقدمة الفئات الأكثر حيوية الجامعات حيث يدرس في الضفة وغزة هذه الأيام ليس أقل من ربع مليون ورقم مشابه في صفوف الثانوية، ومن المتوقع أن ترتفع الأرقام في الأعوام المقبلة. بل وأكثر من نصف خريجي الجامعات الذين يصلون نصف مليون عاطلين عن العمل نهايكم عن أكثر من 100,000 خريج في الـ 48 وأكثر من نصفهم على مقاعد الدراسة الجامعية.

وللعمال صفة الثبات وعدم التردد بعد توعيتهم وتنظيم صفوفهم وهذا له صلة بواقعهم الطبقي فلا فرصة أمامهم للانتقال للطبقة العليا بخلاف البرجوازية الصغيرة. وتغلب عليهم الجماعية، وذلك أنهم في الورشة أو المصنع يتكاملون في إنجاز العمل، بخلاف طبيب أو مهندس أو معلم إذ تغلب عليه الروح الفردية.

واليسار بحاجة للثبات والجماعية بل هما من صفاته الأخلاقية. والعمال دون وعي يساري وتأطير تنظيمي تنطبق عليهم كلمات ماركس "طبقة في ذاتها لا طبقة لذاتها" بل وقد يكون العامل دون تأهيل علمي أو مهني وهنا يأتي دور الطليعة السياسية "التي تنقل الوعي والتنظيم لصفوف العمال" (لينين).

أما التركيب النوعي فيمكن أن يفهم منه أن يضم اليسار علاوة على الشرائح الطبقةية، الأجيال، من شباب وجيل أقدم. والشباب على نحو خاص "إن حزبنا حزب الشباب والمستقبل ملك الشباب والشباب أول من

يبادر إلى التضحية" (لينين) وهم القطاع الأوسع في شعبنا. و هنا يتجلى التكامل بين الجيل الأقدم والجيل الشبابي.

فضلاً عن انتشاره في كل التجمعات الفلسطينية وانتشاره الجغرافي سيما في المخيمات بما لها من خصوصية وأهمية مضاعفة في الحالة الفلسطينية كون اللاجئون ثلثي الشعب وجوهر القضية الوطنية عودة اللاجئين لديارهم وأملاكهم، والشباب يتركزون في أرياف الضفة الفلسطينية التي يقطنها أكثر من نصف الشعب أما في غزة فالريف مجرد شريط محدود، وفي المدن حيث تلبور بتدرج التركيبة الطبقية - الاقتصادية وفي الأحياء الشعبية وفي كل مكان. وفي الـ 48 لم يتبق في أيدي الفلسطينيين سوى 3% من الأرض فيما يستهلكون 2% من المياه وغالبية قوة العمل تكدح في المشروعات الاستعمارية وتعود للنوم في قراها.

(6) الركن الميداني. كل البنية وكل التعبئة والأدلة وكل الفكر السياسي وكل الأركان الأخرى من أجل تفعيل الممارسة الميدانية وأخص بالذكر مجمل النشاطات العملية. وهذه النشاطات غير محدودة ومن الواضح أن اليسار الفلسطيني قد شارك في مسيرة المقاومة منذ انطلاق الثورة وخاض المعارك في الأرض المحتلة ودول الطوق وسقط له آلاف الشهداء. مثلما كان طرفاً رئيساً في انتفاضات شعبنا سيما الانتفاضة الكبرى الكانونية في أواخر الـ 87 والتي استمرت أكثر من أربع سنوات، وهناك سيل من الدوريات الفدائية التي عبرت الحدود. كما في الاعتصامات والتظاهرات والاضرابات الجماهيرية العامة والمحلية. وهي أحد خطوط ممارسته.

وهناك الممارسة النظرية والثقافية أيضاً بإصدار مطبوعات وصحف ونشريات وتعاميم ومراسلات ومؤلفات. منها ما هو داخلي ومنها من هو جماهيري، ومنها السري ومنها العلني. "ولكل طبقة قيادة نظرية" (لينين). والقيادة النظرية في الحزب اليساري هي أشبه بعقله.

ودون إنتاج نظري يعالج أهم القضايا يصبح اليسار فقيراً يرقى إلى جفاف روحه وعدم اقتناع الناس به، بل تتفكك بنيته. فالفكر بمثابة الأسمت الذي يوحد مداميك البناء وبالفكر يساجل الأعداء والخصوم. فليسار روايته وخطابه.

وعمله الثقافي يشمل أيضا إنتاج الأدب والفن وفي مرحلة متطورة العلم. وإلى اليوم يقرأ الناس أدب الشهيد كنفاني ويشاهدون لوحات الركوعي واسماعيل شموط ويتعبأون بلوحات الشهيد ناجي العلي ويتمتعون بعروض فرقة الفنون وسواها ويستمعون لأغاني مارسيل وزيد الرحباني.

وهناك ككّابات فكرية تطبع ويعاد طباعتها من جديد لعدد من الأقلام النظرية اليسارية. وقد لاحظت أنكم تدارسون ثلاثة كتب لي (مداخل والطربوش والتنظيم السري) رغم أنه قد مضت سنوات على إصدارها، والأول والثاني يحظيان بقراءة قوى سياسية أخرى.

وكون اليسار منحاز لتحرير المرأة يندفع لخوض نضال قانوني وثقافي وسواهما ضد البطيركية، وكونه منحاز للعمال والشغيلة فهو لا يغيب عن نضالاتهم النقابية.

وعموماً، أفضل أن أخصص محاضرة للممارسة كيف يفهمها الفكر الماركسي؟

(7) الركن الأخلاقي، وهذا خصصت له من قبل مساحة منفصلة نظراً لأهميته وما يحيط به من إلتباسات في زمن الليبرالية الجديدة وإسقاطاتها.

(8) الركن المالي:

حجر الزاوية هنا هو اعتماد الحزب اليساري على نفسه من اشتراكات وتبرعات ومبيعات فهذه رغم جمعها بالمفرق، فهي مصدر ثابت ولا ينبغي الاستهانة بها. ولكن أحيانا قد يحصل على مساعدات من دول صديقة يتقاطع معها في مواقف معينة على ألا يكون لذلك أية اشتراطات. وفي التجربة الفلسطينية حصل يسار المقاومة على مساعدات لفترات من القذافي وصدّام والجزائر، وغير مرة انقطعت. ويوجد تفاصيل ليس هنا مكانها.

كما يمكن أن يحصل على مخصص من م.ت.ف كونه فصيلاً فيها. وغير مرة جرى معاقبة الشعبية، تحديداً، لأنها اختلفت مع رئاسة المنظمة.

لكن هناك أيضا الخط الاستثماري، فيمكن ادخار مبلغ واستثماره سواء لأهداف اجتماعية لمساعدة الجماهرة أو بهدف الربح لتغطية بعض المصاريف. وهنا ثمة نجاحات من جهة وإخفاقات أكبر من جهة أخرى.

وفي كل الأحوال الحزب اليساري الثوري ليس منظمة غير حكومية يتلقى المساعدات من عواصم المركز الرأسمالي، فهو ينأى عن ذلك مثلها ينأى عن العواصم الرجعية انسجاماً مع رؤيته لمعسكر الأعداء. وأكبر عامل ضغط على الحزب الثوري إذا كان جزءاً من برنامج الكفاح المسلح، فالمصاريف والاحتياجات هنا هي عشرات أضعاف ما ينفقه على أنشطته الأخرى. وسهل على قوة يمينية وطنية أو يمينية دينية الحصول على مساعدات من بعض العواصم العربية والإقليمية، أما اليسار فنراه محاصر على هذا الصعيد، بل وعلى صعيد حركته بجمعها.

ولم أدرج الركن المالي في آخر الأركان لهامشيته، فهو له مكانته في مقدمة الأركان. فالمال شأن بنزين السيارة دونه نتوقف السيارة. والحكيم كان يقول المال قوة، ويمكن إضافة أن المال حياة، فدون توافر حد أدنى أو ما دون الحد الأدنى لا يمكن أن يخفق قلب الحزب. ولأنه يعتمد على نفسه ومصادره الذاتية أولاً فثمة إمكانية متوافرة دائماً ولكنها تبقى محجماً في شروط النضال الفلسطيني.

وأوجه صرف المال عديدة أهمها المحترفون والمتفرغون رأس الحزب والكثير من فقرات عموده الفقري، والجانب اللوجستي والجانب العملي والجانب الإعلامي ... إنخ.

واسمحوا لي أن أضعكم بمعطاه، أن إنفاق عدة عوائل برجوازية تفوق إنفاق حزب له آلاف الشهداء والجرحى، في مرحلة الجزر. شيء مؤسف ولكن هذه حقيقة. ومهما يكن فأصحاب المبادئ لا تحركهم الأموال بل القناعات والأهداف والإخلاص للشعب، حتى لو تطلب الأمر شطب بند الاحتراف والتفرغ، إذ على الثوري أن يشق طريقهما وأن يؤديا مهامهما بما لذلك من نتائج أهمها ضعف قوة الدفع والفاعلية. علماً أن نسبة الاحتراف والتفرغ بالكاد تصل 1-2% بمبلغ لا يتعدى متوسط الدخل في المجتمع. ولكن لا خيار آخر طالما أن الصندوق فقير، واليسار عموماً فقير. وبالمناسبة كان التفرغ متساوياً في الثورة الفيتنامية قبل انتصارها من هوشي مينه حتى أي مقاتل مجرد 10 دولار فضلاً عن ما تزرعه العائلة من ذرة أو تربية دجاج وخنازير.

## التحول من ديمقراطية ثورية إلى ماركسية- لينينية

تأسيساً على ما سبق، ما هي الأسباب التي أفضت إلى أزمة اليسار، وبشكل أخص الشعبية.

دار نقاش عام 1989 حول موضوعة التحول، أي التحول من ديمقراطي ثوري إلى ماركسي لينيني، وهذه الموضوعة هي القاعدة النظرية - السياسية التي على أساسها جرت التحولات والنقاشات ورسمت التوجهات منذ أواخر عام 1969 وما تلاه من أعوام. في السبعينات اشتد وطيس الجدل والحجج واصطدمت القناعات.

فالشعبية هي امتداد أو أحد أجنحة حركة القوميين العرب، وهؤلاء ليسوا حركة ماركسية في الأساس. إنهم حركة تقدمية مناهضة للإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية، وكان لهم امتدادات في عدة أقطار عربية، ولا تخلو صفوفهم من كادرات يسارية وتحليلات يسارية. ولكنهم اصطدموا بالأحزاب الشيوعية في قضية الاعتراف "بإسرائيل" كما اصطدموا بحزب البعث الذي لم يعتبر فلسطين قضيته الأولى بينما هم اعتبروا فلسطين القضية الأولى.

وبطبيعة الحال تناسلت الخلافات والتباينات مع مرور الأحداث والسنين. وهذه القوى بمجموعها من بعث وشيوعيين وقوميين هم المعسكر العلماني الذي يفصله بون شاسع عن الإسلام السياسي سيما الإخوان المسلمين. ولست بصدد تقييم تجارب كبيرة من هذا القبيل ولا السؤال عن لماذا لم يبحث الجميع عن قواسم مشتركة الأمر الذي وجدناه لاحقاً في المؤتمرات القومية والإسلامية.

المهم أن أحد إنجازات القوميين العرب الذين كان يقودهم الدكتور جورج حبش هو تحرير الجنوب اليمني من نير الاستعمار البريطاني وكذا تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

"من أراد أن يفهمنا عليه أن يفهم أننا نفكر" ( د. حبش) وهذا التفكير هو الذي دفع رموزاً قيادية في الحركة سيما في المشرق العربي وفي التجربة اليمنية إلى مواقع فكرية جديدة. وكان لذلك عدة محركات، فمن جهة القراءات النظرية والفكرية والحكيم يعطي أهمية خاصة لفترة اعتقاله في السجن السوري، ومن جهة أخرى



انتصارات المعسكر السوفييتي والثورة الفيتنامية ومن قبلها الثورة الصينية، وإسقاطات ذلك على الوعي الإنساني عموماً.

ومن جهة ثالثة تحول حركات ديمقراطية ثورية إلى المواقع الماركسية - اللينينية وأخص بالذكر حزب العمل الكوري الذي قاد الثورة في كوريا الشمالية بقيادة كيم إيل سونغ وحركة 26 تموز التي قادت الثورة في كوبا بقيادة فيديل كاسترو، وهاتين الثورتين كانتا تتألقان شعاعاً في الستينات وبعدهن.

ومن جهة رابعة لوحظت الفوارق بين الأوساط البرجوازية في الحركة والأوساط العمالية، بل وظهرت قضايا طبقية عمالية تتطلب انخيازاً لها، ونفس الحال في الواقع الاجتماعي. إذ هناك برجوازية عربية وأخرى عمالية بصرف النظر عن مدى تبلورهما، أي ثمة قضية طبقية فضلاً عن القضية القومية التحررية، ناهيكم أن المفصل من أصول برجوازية لم تعتمد أو تؤيد الذهاب للاشتراكية، وحتى اشتراكية عبد الناصر الذي باتت علاقته تتوطد بالحكيم في لقاء فصلي منذ عام 1963.

وأحاديث الحكيم الصحافية ومجلدات هاني الهندي هي خير مرجع هنا. وأذكر أنني قرأت العدد الأول من مجلة "الثوريين العرب" الصادرة عن حزب العمل الاشتراكي وفيه تناول لموضوعة التحول.

واستدرك هنا ليس كل برجوازي صغير يتحول للماركسية، بل شريحة معينة، أما معظم البرجوازية الصغيرة فلا تتحول، إذ تبقى لديها طموحات شخصية للإرتقاء الطبقي الفردي، هذا طبيب وذاك محامي وثالث أكاديمي ورابع إعلامي ومدرس. دون أن تصل لتحليل أن المطلوب إزالة الاستغلال الطبقي من جذوره وبناء علاقة إنتاج جديدة وبالتالي التحرر الكلي من التبعية للسوق الرأسمالية العالمية التي تستحوذ عليها احتكارات الغرب أي أن المسألة الطبقيّة مرتبطة بالمسألة القومية، وصولاً إلى حماية الثروات الوطنية من نهب هذه الشركات، وأن جتمعة وسائل الإنتاج تفضي لوتائر نمو قومي أعلى من وتائر نمو وسائل الإنتاج الرأسمالية، كما كان ملحوظاً في تلكم السنوات وحالياً في الصين العملاق الذي استيقظ.

ولكسر الجمود، استيقظ، هذه مفردة استخدمها نابليون عندما اجتاحت أجزاء من أوروبا وموسكو، فسألوه لماذا لا نذهب للصين؟ رد "دعوا هذا التنين نائماً ولا توقظوه إذا استيقظ تزلزل العالم من تحت قدميه."

وبالفعل استيقظ هذا التنين بمعدلات نمو قومي تصل إلى 8-10%، وشخصياً لقد قرأت العديد من التقارير التي زودني بها السفير الصيني الذي التقيته في وقت سابق مرات عديدة. وأظن أن الإمبريالية لن تسكت على الصين طويلاً (بعد سنوات بدأت الحرب التجارية).

أعود للسياق. إن أهم مصدرين للمعرفة هما القراءات النظرية من جهة وما يرتبط بها من حوارات، وقراءة الواقع وتناقضاته وحركته والثوره عليه من جهة أخرى. وهذه وتلك أفضت بالحكيم للانتقال للماركسية - اللينينية، بما له من كاريزما وثقل وكذا رفاقه الآخرين.

غير أن جناحاً متعجلاً انشق عن الشعبية في شباط 1969 ظناً منه أنه الجناح اليساري. وهذه قصة يطول شرحها ولست بصددتها إلا من ناحية واحدة، أن على اليسار أن يتعلم إدارة تناقضاته وتسوية تناقضاته بما يدفع مسيرته ورؤيته للأمام دون عنف أو تشنج أو نرجسية. والتجربة المصرية على نحو أخص النموذج الأكثر سلبية منذ الأربعينات والخمسينات وحتى اللحظة فعلى الجميع أن يتعلم الحوار، الحوار بالمفهوم الماركسي والهجلي الذي ينتج عن الحوار بين "أ+ب" كيفية جديدة وهي "ج". "الثورة عملية حوارية" (باولو فريري). أما أن المعرفة تصدر فقط من رأس جوبيتر، فهذه نزعة فردانية جذورها برجوازية صغيرة ولا تفيد اليسار في شيء، بل والكثير من هؤلاء اليسارين غير مرتبطين بالنضال كشرط من شروط المعرفة حسب الفهم اللينيني والبراكسيس الغرامشي.

يبدو أنني أسهب هنا، أما عذري، فهو أن التحول مسألة مفصلية. وفي صلبه مسألة حل التناقضات الداخلية ومسائل أخرى عديدة.

وهنا أعود لجدلية الثمانينات على أبواب المؤتمر العام للشعبية. رأي اعتبر أن التحول استكمل وأن الشعبية ليست أقل من حزب لينين في زمن البلشفية، الأمر الذي سيجد صداه في التقرير التنظيمي وبالتالي المهام اللاحقة. ورأي اعتبر أن التحول لم ينجز، وما أنجز هو درجة دون اسنادها بدرجة أخرى فالتجربة الحزبية برمتها مهددة. لم تكن الأمور واضحة كما اليوم، فهي استشراف للمستقبل وهذا في العادة لا يحمل يقينية، وأقصى ما يمكن هو الإحاطة باتجاه الحركة وبعض العناوين المحتملة.

وكان هناك حيثيات تدعم الاستنتاج الأول سيما مسيرة الكفاح في لبنان والانتفاضة الكبرى في الداخل وتجربة السجون بما اتصل بها من أدلجة وتعبئة وخبرات صمودية، وأتم جزء من هذه التجربة. فضلاً عن دورات متنوعة في البلدان الاشتراكية، ودور مركزي للقيادة وعلى رأسها الحكيم، وعناصر أخرى عديدة تدعم هذا الاستنتاج.

ولو لم يدهم المسيرة الفلسطينية مرحلة أوسلو، بما لها من وطأة ثقيلة على القضية وقواها المناضلة، ومن قبلها انهيار التجربة السوفيتية بإسقاطاتها لما عاشت الشعبية امتحانا انعطافيا عسيراً. ولتدبرت أمورها في خط تراكمي دون هزات. أي لمنحها الزمن مُتسعاً لحماية وجودها. أما هذين التحوّلين فقد وضعها أمام تحد كبير. وهنا يجب التمييز بين ما حصل في الشعبية في الخارج وما حصل معها في الداخل. إذ لكل منهما خصوصية وملحوس رغم المشتركات والقوانين العامة الناظمة.

واسمحوا لي ألا أسهب هنا. إذ لم تصدر وثيقة رسمية تعكس حواراً جماعياً، وما أستند إليه هو رسالتي للدكتوراه التي أعدتها كطالب يستند لوثائق ويجري مقابلات بصورة أساسية. وحديثي استطرادي لما سقته أعلاه.

#### (1) الهوية الفكرية:

صحيح أن الهوية الفكرية انتقلت من التبنى إلى الاسترشاد وتمت التعبئة على نطاق واسع، غير أن الإنتاج الفكري والأدبي بقي محصوراً بأفراد بما يعكس ندرة القيادة النظرية. وهذا انعكس فقراً إنتاجياً بعد أن تعرضت هذه الندرة للمرض والاعتقال من جهة، وعدم ثبات على الماركسية - اللينينية في سنوات الأزمة من جهة أخرى. فمرة الاسترشاد بالمنهاج، ومرة الماركسية دون اللينينية والأهم هو جفاف التعبئة واهتزاز الثقة بالمرجعية والأنكى من كل ذلك، بل وانعكاساً لكل ذلك هبوط مستوى الإصدارات الرسمية الإعلامية والداخلية، بل وتباعدها، وكأنه لا يوجد بوصلة موجهة، وبهتان الاهتمام بهذه الإصدارات، أما تحليل مرحلة أوسلو فقد غلب عليه الخطاب السياسي والشعار السياسي دون إمساك بالتحوّلات الاقتصادية - الاجتماعية إلا شذرات هنا وهناك.

ربما يعتقد الذين قادوا الشعبية المأزومة أنها أكبر من الحزب الشيوعي الصيني أو الروسي أو الفيتنامي أو الكوبي الذين ثبتوا على الماركسية اللينينية أو أنهم ينتجون فكراً وثقافة وفناً يفوقون هذه التجارب.

إن هذا لعمرى كما أراه يدل على سطحية لدى الكثيرين الذين انتقلوا من الشغف إلى الفتوى وهذا الارتباك أدى لارتباك في الفكر السياسي. فمرة تم مقاطعة انتخابات التشريعي عام 1996 ومرة الانخراط في هذه الانتخابات عام 2006 والتصويت لمرشح ينتمي لخندق آخر بعيد عن آراء الشعبية ورؤيتها. ومرة التشديد على التحرير ومرة الهدف المرحلي المرتبط بالتحرير ومرة التركيز على الهدف المرحلي وصولاً إلى المبالغة في شعار الدولة حتى يندر وجود دراسة أو تعميم أو تحليل يتحدث عن وحدة الشعب والأرض والمصير، ذهاباً إلى الجهد التنظيمي الذي تراجع كثيراً في الخارج وغاب عن أراضي 48 وتمزقت أراضي 67 إلى "فرعين" في الضفة وغزة وحصر العمل في حزب أردني في الساحة الأردنية كل هذا يستدعي وقفة لتبيان الغث من السمين. لكن ليس هذا هو العامل الحاسم في الأزمة وتفاقمها.

(2) الركن التنظيمي:

هذا هو الأهم ذلك أن الخلل الإيديولوجي والفكر السياسي يمكن معالجته وتصويبه "الحزب يخطئ كالفرد" (لينين)، أما أن يتفكك ويختل التنظيم وينكمش إلى مجرد "فروع" هي أقل من منظمات مناطقية مبعثره شر تبعثر وغابت الروح الجماعية والثقة بالمشروع، هنا حصلت الكارثة التي انتشرت ولم يتم تجاوزها بعد.

"الحزب قيادته أولاً" (د. حبش) و"الأخطاء الكبرى هي أخطاء القيادات لا الكادرات والقواعد" (جورج حاوي)، والعديد من التجارب في العالم برهنت على هذا الاستخلاص ولا بأس من التذكير بكلمات نابليون "الهزيمة يتيمة والنصر له مئة أب" ومن الطبيعي والحال هذه أن تلقى أسباب الأزمة على العامل الموضوعي سيما انهيار الاتحاد السوفيتي ومعسكره وعلى الأزمة المالية، ولكن دعونا نفحص الأمور:

مثقف عربي سأل الحكيم عن أثر انهيار الاتحاد السوفيتي وأجابه "أقل مما تعتقد" وأضيف أيضاً لو أن سقوط التجربة السوفيتية هو سقوطاً تاريخياً للمشروع الاشتراكي، وبالتالي لم يعد لهذا المشروع فرصة في المستقبل أي أن التاريخ نبذه وتجاوزته حينئذ يكون مضبعة للوقت والجهد السير على هذا الدرب.

لكن انظروا إلى الصين فهي تهض بقياده حزب شيوعي قوامه 92 مليون ويقول بصراحة "لا مستقبل للصين دون اشتراكية" وانظروا للقارة اللاتينية التي تشهد تحولات تنموية وصعود للخط اليساري رغم المؤامرات عليه والمصاعب التي تعترض طريقه دون أن أنسى صمود القلعة الكوبية ودورها الأهمي وانظروا لصمود التجربة

الفيتنامية وتحدي كوريا الشمالية الديمقراطية للتهديدات الإمبريالية والأمثلة عديدة لكن مغزاها أن المشروع الاشتراكي ما زالت أعلامه خفاقة رغم تراجعهم.

لماذا تصمد كوبا ولا يصمد اليسار الفلسطيني؟ لماذا نتقدم القوى اليسارية اللاتينية وتراجع القوى اليسارية الفلسطينية والعربية؟ لماذا يشق اليسار الهندي بطبعاته المقاتلة والبرلمانية الطريق ويتعثر اليسار الفلسطيني بطبعاته؟ الإجابات تتطلب التمهيد والدرس والحوار مع الذات ومع الآخرين ومع الواقع، ولكنني في محاضرة غير متخصصة بهذه الأسئلة اكتفي بالقول "ما فائدة الركض على الطريق الخاطئ" حسب المثل الألماني، لن نصل النبع مهما عدونا. فليسار الفلسطيني وكل فريق يساري على حدة إيجابيات. ولكنها غير كافية لمنع نشوب أزمه في بنيانه أدت لتهميشه وغير كافية لإرساء الخطوات الأولى لإطفاء هذا الحريق والنهوض ثانية. هذا هو الكلام الصحيح دون طلاء. وهو كلام صريح من قلب التجربة لا من خارجها ومن استحقاقاتها التضحية لا من ثمرات غير مدفوعة الثمن. والهدف في كل الأحوال هو البحث عن الإجابة الصحيحة ليم الاسترشاد بها من قبل الزنود القوية التي تقبض على راية المشروع اليساري التحرري وليس جمعيات من بعيد لا يهمها النتائج.

طيب لماذا صعد اليسار في مسيرة تراكمية سنوات وسنوات وخاض نضالات متعددة وسقط له آلاف الشهداء وعشرات آلاف الأسرى وكيف أنتج فكراً وأدباً وفناً ورموزاً وامتد في أربع جنات الدنيا حيث التجمعات الفلسطينية؟ هل يمكن تصور ذلك دون قيادات لامعة؟

هذه القيادات أو التي أصبحت قيادات من كل الأطراف اليسارية عبر آلية البراكسيس، في الشتات والوطن هي التي أسست وتابعت وأنتجت وعبأت ودربت وعالجت آلاف المشاكل وصمدت تحت قصف المدافع وأقبية التحقيق وقلاع الأسر، هل يمكن تصور مخاض عظيم ومسيرة متشعبة محاطة بالأعداء دون دور مركزي للقيادات؟ أي المحرك الصغير الذي يضخ الروح وقوة الدفع في المحرك الكبير؟ والعكس صحيح أيضاً فالعامل القيادي عندما يفقد الشروط الكافية والطاقة الكافية والموهبة الكافية والمقدرة الكافية للحفاظ على بنية اليسار وتفعيل هذه البنية وتطويرها وتعظيمها يكون هو السبب الأول أيضاً. تصوروا قيادة فاشلة مرة ومرات وعلى كل الأصعدة، سنة وراء سنة ولا تنتحي ولا تتوافر شروط لتنجيتها، هل يبقى تنظيماً أو يساراً أو مجرد مدماك

واحد؟ تصوروا قيادة لا تصدر تعميمات ولا ترد على التقارير من المستويات الأدنى ولا تحاسب على الأخطاء ولا يوجد من يحاسبها، وتباطأ في كل شيء، فهذه أسباب كافية لتفكك البنية التنظيمية والفكرية. وتصوروا قيادة تجتمع ولا تلمس بالحلقة المركزية في الاجتماع وتصرف الوقت في الثانوي وبنود أخرى حينها يتشتت الاجتماع القيادي ويغيب العمود الفقري، ويتكرر ذلك ألا يضعف الدور القيادي الناظم والموجه وتفقد بالتالي السيطرة على الأوضاع فيصيبها التفكك! وتصوروا قيادة لا تعالج القضايا الهامة والساخنة ألا تتفاهم الإخلالات. وفي حال استمر ذلك ألا تتفكك البنية ويصبح "كل مين إيداه إله" حسب تعبير حسني البرزان!

وتصوروا قيادة تتأخر وتباطأ في اتخاذ القرار الضروري ويفوتها الزمن ويغيب القرار الضروري، ألا تبادر الامتدادات كل حسب خبرته وتفكيره فيتضاءل التفكير الموحد والأداء الموحد ويعم التفكك. تصوروا قيادة واجهت صعوبة مالية وهذا يحدث ولا تدير أمورها ألا يعلو صوت الشكاوى ويلغى الكثير من المهمات وتفقد القيادة هيبتها. وفي حالة تكرر ذلك ألا تتوقف السيارة وتصدأ تروسها وتفرغ بطاريتها ويصبح تفكك أجزائها سيد الموقف. و"قيادة" متخثرة وبدواعي الأمن لا تؤدي دورها وكل من على علاقة بها يلحظ ذلك بينما يكون في مسيس الحاجة لها، ألا يصبح الجسم دون رأس ويتفكك. و"قيادة" تصدر القرارات ولا تتابع تنفيذها ألا تصيب العمل بالشلل والتفكك؟

وبعد أن يسري تيار التفكك، تصبح تلك القيادة عاجزة عن ملمة الوضع، وتفقد عامل الثقة بها، ويتدرج تحلل الكثير من الامتدادات المحلية ويخبو وهجها وتتوقف الإصدارات الإعلامية الصوت المعلن للجماهير، والمواقع النشطة تفتت، والتي تصمد دون ضخ "الحرارة" القيادية تتراجع فعاليتها بتدرج، ويرتفع اللغظ المحلي والانتقادات المحلية، بينما سيف الاعتقال لا يتوقف وليس هناك من يعيئ ويشحن، ويحاول المبادرون الاستجابة للمتطلبات المحلية بما في ذلك المتطلب المالي من جيوبهم الخاصة، لعل الغيث يأتي ويلتئم الاتصال بهم وفي السجن يجتروا مراراتهم واتهاماتهم.

إن قوة الحزب الثوري من قوة قيادته، وضعفه من ضعف قيادته، وإذا تفكك يكون السبب الأول قيادته وإذا تحلل يكون السبب الأول قيادته، كما إذا تعاضمت فاعليته وتعاضم تماسكه وارتقى تفكيره وتعبئته يعود ذلك أولاً إلى الشرط القيادي. وأخيراً تصوروا "قيادة" مرة تقاطع انتخابات التشريعي" وتعلل ذلك، لكنها تغير قرارها بنسبة 180 درجة وتعلل ذلك، فما هي إسقاطات ذلك على "جيشها"؟ و"قيادة" تقرر التحالف مع

قوة معينة ودون بروز أي معطيات جديدة تتحالف مع نقيضها، وفي الحالتين تجد مسوغات فهل هذا يعمق الثقة أم البلبلة؟ و"قيادة" تقرر الحوار مع الكثير من المستائين منها ولكن لا أحد يستجيب لها دلالة عدم الثقة بها، ويتكرر ذلك وتزداد أعداد المستائين فما هي النتيجة برأيكم؟ النتيجة أن ترجح كفة المستائين على الحالة الرسمية ويذهب كل واحد في طريقه وتحلل البنية في مظهرها الرئيس بما ينتج عن ذلك من ظواهر وإخلالات ويضمن ذلك فقدان الثقة وفقدان الدافعية. والألعن أن من يحاول التصدي للخلل يتسرب اسمه ويجد نفسه في السجن.

لكن يجدر بي التذكير أن تحولاً جماعياً أو مجرد جماعات إلى فصائل واتجاهات أخرى لم يحصل. ربما هناك أفراد لا أكثر وما حصل هو الاعتكاف في البيت لجموع لا حصر لها من أعلى المستويات إلى السياج الصديق. كل واحد يؤدي واجبه الوطني بطريقته دون قدرة على فهم ما حصل أو قدرة على وقف التدهور أو قدرة على إنقاذ الموقف. ومع مرور الوقت عمت الشيوخة، أي عناصر الضعف وعدم القدرة على تفريخ وبناء عضلات جديدة إلا ما ندر، وكبادات محلية وحسب. وأصبح الغياب، أي الغياب عن تأدية الوظيفة التاريخية هو العنوان الأبرز، كما شاخ جيل ما قبل أوصلو الذين صنعوا القطار من دمائم وتضحياتهم في أقصى شروط النضال والتضحيات، شاخوا بيولوجياً ولم تعد عافية الشباب الفوارة قريبتهم، وازداد الخذلان على كل الصعد. خذلان داخلي وخذلان محلي، خذلان الجماهير، والكل يتساءل أين ذهبنا، وأين ذهبتم، ألا يوجد من يعلق الجرس. وفي هذه المناخات حصلت اختراقات شتى.

إن ما ذكرته هو غيض من فيض، ويمكنني الاسترسال سواء كأكاديمي أو غير ذلك. وما عدا هذا الخلل النوعي هو مجرد عناصر كمية يمكن معالجتها لو توافر الشرط القيادي، كما يمكن تفاديها لو توافر الشرط القيادي أيضاً.

أقصد الأركان الأخرى، فهذه الأركان لم تستوف مرحلة التحول غير أنها كانت قادرة على الفعل والنمو، بل وملاأت أربع جنبات الدنيا "ضخجاً" وكانت مستهدفة من كل الأعداء، ولكنها صمدت وتعاضم دورها وقطعت شوطاً كبيراً في أن تكون يسار المقاومة، اليسار الذي يعطي الثورة بعدها الطبقي والقومي، أو دعوني أقول الثقل الأول لليسار الفلسطيني في مرحلة ما قبل أوصلو. أما على امتداد ربع قرن فأحوال اليسار بمختلف أطيافه لا تسر صديقاً وطراًت تحولات على الخارطة السياسية الفلسطينية إذ أصبحت الثنائية فتح وحماس بعد أن

كانت فتح والشعبية، وانتقلت الهوية الوطنية من أقرب إلى العلانية إلى أقرب إلى الدينية، وهذا يستحق حديثاً منفصلاً.

واختتم مداخلتني في ما يلي: في الحديث عن الماهية ينبغي الامساك بجوهر الماهية الذي يجعل منها ماهية مختلفة عن الماهيات الأخرى، وفي تشخيص أي ظاهرة يتوجب رصد مظهرها الرئيس الأهم إذ على الدوام هناك صفات أخرى للماهية ومظاهر أخرى لكل ظاهرة. وقد حاولت الإمساك بالسبب الأساس الذي أفضى للأزمة التي تلقي بظلالها على أحاديثنا وعلى علاقاتنا أينما حللنا وذهبنا سواء في قلاع الأسر أو خارجها.

وأظني مصيب بالقول أن فرصة المشروع التحرري اليساري الفلسطيني كما المشروع القومي العربي النهضوي التقدمي، وهما متداخلان، قد ازفت رغم الدمار وبحر الدماء في السنوات الاخيرة. إنه مشروع العقود المقبلة، وجيلكم لديه متسع من الوقت أن يشهد ويصنع هذا المشروع، أما كيف يمكن أن ينهض اليسار الفلسطيني، فهذه قصة أخرى، وفي النقاش أضيف.

## إضاءة سريعة على اليسار العالمي

المقصود هنا الأحزاب اليسارية الماركسية - اللينينية، أو الماركسية التي لم تتشوش خياراتها الاشتراكية. ولا أسعى في محاضرة تقديم جردة شاملة، وإنما أكتفي بإشارات وازنة وحسب:

(1) في آسيا، هذه القارة الأكثر كثافة، وتقدم الصفوف هنا الصين الشعبية، وآخر الإحصاءات أنها باتت 1.4 مليار نسمة بإنتاج قومي يناهز 20 تريليون بأسعار عالمية، ومعدلات نمو قومي تتراوح بين 6-8% سنوياً واحتياط تخطى 3.3 تريليون ومشروعات ضخمة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً سيما طريق الحرير الذي سيمتد إلى أكثر من 70 دولة في آسيا وأوروبا وشمال أفريقيا، موانئ، سكك حديدية، منشآت ... وبالتالي انتقال مركز ثقل الاقتصاد العالمي والاستثمارات العالمية لجنوب شرق آسيا، الأمر الذي يجعل من الصين منافساً قوياً لأمريكا التي تنتج رقماً قريباً للإنتاج الصيني ولكنها مديونة بمبلغ يساوي ذلك أيضاً ومعدلات



نمو سنوية بين 1-2%. الصين تصعد وأمريكا تراوح، وإن كانت أمريكا هي الأكثر تطوراً والأقوى حتى اللحظة. والصراع العالمي في العقود المقبلة سيكون أولاً بين هذين العملاقين. صين بقيادة حزب شيوعي ومشروع تنموي يمهّد للاشتراكية وأمريكا بقيادة حزب - حزبي الاحتكارات سواء غلب عليهما المجمع العسكري أو البنية المدنية. أما الحزب الشيوعي الصيني فقد تجاوز 90 مليون عضو وأكثر من 150 مليون منظمات شبابية، وهناك ستة أو سبعة أحزاب أخرى مجموع عضويتها مليون عضو. وقد باتت الصين دولة نووية وجيش تقلص من 4.6 مليون إلى أقل من 4 مليون مع خطط لرفع مستواه التكنولوجي، وجعله أكثر ردية.

يلي الصين الدولة المجاورة فيتنام بملايينها المائة وثورتها التي سجلت صفحات لا تنسى ويقودها حزب شيوعي راسخ الجذور ومتلاحم مع شعبه بقوميته وأقليته ويضم أكثر من 5 مليون عضو وضعفهم شيية. وقد انتعشت البلاد تنموياً في العقدين الأخيرين وتحسن مستوى المعيشة على كل الصعد بمعدلات نمو سنوية تصل 6-7% وعلاقات فيتنام بدول الجوار بناء وإيجابية، وأولوياتها التغلب على آثار المرحلة الكولونيالية والسير في طريق التنمية.

والتنمية في الصين أو فيتنام هي خليط من نموذج اشتراكي ونموذج رأسمالي، ورأسمالية دولة واقتصاد تعاوني وملكات صغيرة، غير أن النموذج الاشتراكي هو القائد، وعلى رأس الدولة حزب ماركسي - لينيني يجاهر بتوجهاته الاشتراكية وأن المستقبل هو للاشتراكية والثقافة تتناغم مع ذلك كما مناهج التعليم.

وهناك أيضاً كوريا الديمقراطية بملايينها الـ 16 بقيادة حزب العمل الكوري الماركسي - اللينيني وعلى رأسه كيم الذي يتحدى الغطرسة الأمريكية دأباً على نهج أبيه وجده الذي قاد الثورة بتحرير الشمال في بدايات خمسينات القرن الماضي. أما الحصار والعقوبات الأمريكية ومقتل نحو 2 مليون كوري في الحرب الأهلية والغزو الأمريكي فلم تنل من عزيمة الثورة.

وبخلاف ما يصوره الإعلام الغربي عن شعب كوريا الديمقراطية بأنه جائع ومقموع، فهو شعب يفخر بنفسه ويلتف حول قيادته ويحرز درجات تنمية تحميه من الأزمات. والحزب متماسك والجيش قوي بتعداد 1.1 مليون بأسلحة صاروخية تصل شواطئ أمريكا. الأمر الذي خفف من عدوانية أمريكا، فراحت تبحث عن صفقات وتسويات مع كوريا. وهناك أيضاً 6 مليون كوري في الشريط الحدودي الصيني، كعامل قوة

لكوريا التي ترتبط بعلاقات تجارية واقتصادية واسعة مع الصين وعلاقات مماثلة مع روسيا. ومن جهة أخرى هناك أحزاب ماركسية - لينينية في الهند، هذا البلد الذي يلي الصين في حجم سكانه بما يناهز 1.3 مليار نسمة. فحزب العمال الممتد في ولايات عديدة سيما في ولاية كيرالا يتجاوز مليون عضو، والحزب الماركسي - اللينيني المقاتل ينتشر في شرق الهند شمالاً وجنوباً، وأحزاب أخرى عديدة محلية ولها ثقل في النقابات العمالية. وفي البرلمان المركزي كما البرلمانات المحلية هناك تمثيل ملحوظ لهذه الأحزاب.

(2) القارة الأوروبية: لقد انهار الاتحاد السوفيتي وتفككت سبيكة الدولة، غير أن الكثير من المنجزات بقيت على حالها في روسيا وجمهوريات أخرى من ناحية التأمينات الاجتماعية والقطاع العام، وما أصبحت عليه المدن من تطور وتعليم أكاديمي ومستوى اجتماعي.

ومفيد التذكير أن الحزب الشيوعي الروسي قد حصل على نحو 14% في الانتخابات البرلمانية، وهو يدعم سياسات بوتين المتحدية للإمبريالية والهيمنة الأمريكية وفي الأزمة الأوكرانية والسورية، وهناك تيارات يسارية أخرى لها تأثيرها أيضاً.

أما في جمهوريات أواسط آسيا من كازاخستان وأوزباكستان وطاجكستان وسواها، فالحضور اليساري لا يستهان به ويحكم أحياناً، دون أن ننسى أن نحو 50 مليون من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق إنما يعيشون خارج وطنهم الأم، أي ينتشرون في هذه الجمهوريات مما يجعل بعض الروابط إلزامية وهذا انعكس أكثر ما انعكس في الأزمة الأوكرانية (50 مليون بينهم أكثر من 10 مليون روسي) واستقلال جمهوريتين في شرق جنوب أوكرانيا، أي في المناطق الصناعية والعلاقات المتينة بين روسيا وكازاخستان (40 مليون منهم 8 مليون روسي).

ومعروف أن العلاقات قد تطورت بين روسيا والصين وباقي دول محور البركس، وهذا سيكون له اسقاطاته على مختلف شؤون العالم، ولا يوجد بلد أوروبي بلا حزب شيوعي وأحزاب ماركسية أخرى تروتسكية وغير تروتسكية. وذكرت التروتسكية لأنها تنامت في العقدين الأخيرين سيما في فرنسا.

وتمثيل اليسار الماركسي في البرلمان الفرنسي يصل 12% وهذا حاله في الكثير من المدن وأحياناً أكثر، شأنه في ألمانيا وولاياتها الشرقية على نحو أخص. أما في إيطاليا فهو أكثر قوة ويتراوح بين 15-20%. وفي بريطانيا

يلتف حول جيرمي زعيم حزب العمال البريطاني الجديد بسماته اليسارية. وشيء مشابه في البرتغال وبلجيكا والدول الاسكندنافية. واليسار يتبادل الحكم في بلاد التشيك وبولندا وبلغاريا.

وعموماً إن للشيوعية الأوروبية سماتها الخاصة وهي لم تحكم يوماً ولكنها تشكل قاعدة ضغط على الحكومات اليمينية التي يتعاطم انحيازها لليبرالية الجديدة وانقضاضها على مكاسب الطبقة العاملة في مرحلة الرفاه الاجتماعي.

ويمكنني أن أستخلص هنا أن مركز ثقل اليسار كان في أوروبا في زمن الاتحاد السوفيتي أما اليوم فهو في آسيا مع صعود قوة الصين الشعبية.

(3) في القارة اللاتينية، على خلاف المروجين لمقولة لقد انهار اليسار مع انهيار الاتحاد السوفيتي، فاليسار اللاتيني شهد نهوضاً قوياً في تلاحم بين الحركات الاجتماعية والأحزاب اليسارية أو البور اليسارية أو الزعامات الكرزماتية، فقد فاز في عدد من البلدان وهو لم ينفك يحكم في فنزويلا والأوروغواي ونيكاراغوا وبوليفيا مع ثقل يتجاوز 45% في الانتخابات الرئاسية البرازيلية، وفوز رئيس يساري لأول مرة في المكسيك، وحضور وازن في البيرو والأرجنتين وغواتيمالا.

والنكسة حصلت في البرازيل بعد أن خان يسار الوسط تحالفه مع اليسار العمالي فسقطت حكومة اليسار وبعدها فاز ممثل اليمين المتطرف في بلد مساحته أكثر من نصف مساحة القارة اللاتينية وثلث السكان.

(4) القارة الأفريقية: لا يوجد الكثير للحديث عنه سوى أن جنوب أفريقيا قد تحررت من الأبارتهايد وكذا زيمبابوي وناميبيا، وأن الحكم في هذه البلدان أقرب للييسار أو يسار بطبعة أفريقية. والأكثر أهمية هو متابعة ما يستجد في جنوب أفريقيا، فهي البلد الكبير والمتطور صناعياً وكذا في الكونغو وأنغولا فالقارة غنية بالثروات الجوفية ولكنها الأكثر فقراً وتخلفاً وهذه معادلة قلقلة ولا تستمر طويلاً.

يلاحظ أن الصين توسع علاقاتها التجارية والاستثمارية مع هذه القارة التي تتأهب لمخاض جديد دون أن ننسى انتشار اتباع الدواعش في نيجيريا ومالي وتشاد.

(5) الوطن العربي: لقد خصصت له بنداً علماً أنه يمتد في القارتين الآسيوية والإفريقية. والأمانة تقتضي مني القول أنه وأفريقيا يأتیان في آخر القائمة على صعيد وجود اليسار وفاعليته.

ولا أريد التحدث عن فترة الستينات والسبعينات، إذ كان أكثر حضوراً في السودان ولبنان وفلسطين واليمن. أما اليوم فأفضل ساحة له هي تونس، هذا البلد الجميل والمحدود عدد السكان (10 مليون). إذ أن الجبهة الشعبية وهي ائتلاف لمجموعة قوى يسارية ليس لها حضوراً في البرلمان فقط بل في اتحاد الشغل بثقله الحاسم وخطهما يقترب من رؤية لينين "هذا نهجكم وهذا نهجنا" في تمايز واضح عن حركة النهضة ونداء تونس. ومهم تتبع التجربة التونسية لأنها شهدت انتفاضاً شعبياً من جهة ولم تلجأ لحل التناقضات بوسائل دموية تدمر الأخضر واليابس من جهة أخرى وتعامل مع إحدائيات المجتمع ومعضلاته بذكاء وفطنة وتخوض في التفاصيل والمواقف التكتيكية دون أن تحصر نفسها بالشعاراتية من جهة ثالثة.

وهناك أيضاً الجزائر والمغرب، والاتجاه اليساري الأقوى في الجزائر هو تروتسكي وله تمثيل برلماني، وفي المغرب عدة قوى لا يستطيع الإسلام السياسي، القوة البرلمانية الأولى، أن يحكم دون التحالف معها بما يدفع الجميع للتفكير الواقعي الذي يعالج قضايا الدنيا لا قضايا ما وراء الطبيعة.

وعموماً إن جدل الأفكار والقضية القومية نتفاعلان أكثر في المغرب العربي، على غرار ما كانت عليه في المشرق العربي ومصر في عقود ما قبل الحقبة "الساداتية".

أما في بلاد الشام والعراق واليمن فقد تراجع اليسار وزناً وفاعلية، ولكن مع نشوء مرحلة تاريخية جديدة فهي تتحداه لإثبات وجوده ودوره سيما مع إخفاق أو انسداد أفق المشروعات الأخرى.

والعبارة الأخيرة تحتاج لتعليل مستقل، ولدي ما أقوله هنا. والآن سوف أذهب للنظريات:

\*\*\*\*\*

اسمحوا لي قبل التطرق المباشر للأيدولوجية أو الفكر الماركسي - اللينيني سيما في حقل الفلسفة والاقتصاد والسياسة... إلخ، أي تلك المنظومة الفكرية التي بات لها وزنها وتأثيرها في حياة البشرية، ليس في بقعة من الكرة الأرضية أو إقليم أو قارة بل أربع جنبات الدنيا وكان لها الدور الأكبر في ثورات القرن العشرين وفي أعظم المشروعات التنموية، وبالتالي في الصراع العالمي بين الرأسمالية والاشتراكية وحركات التحرر الوطني.

ودعوني أطلق على هذه المحاضرة (إنتاج نظري) كمقدمة للتوغل في النظرية. وما أعرضه لا يتعدى رؤوس أقلام وحديث مقتضب وفي النقاش أضيف، كما يمكنني أن أتخيل عودتي لهذه النقاط لاحقاً.

سألني أحدهم لماذا لا استخدم ملاحظات مساعدة كما يفعل البعض. جوابي أنني لست بحاجة لذلك، إذ حسبي أن أفكر مسبقاً وما بلغت من مراس وثقافة كافيان أن أطلق ما في جعبتي بتسلسل ومنطق، وأنا في ذلك اقتدي وأتعلّم من الجبار (لينين، كاسترو، الحكيم، ...) وقد شاركت في ندوات ومؤتمرات كان يستفزني ويستفز الكثير من الحضور أن يقوم هذا الأكاديمي وذاك بقراءة ورقته على امتداد ربع أو ثلث ساعة وأكثر، بينما آخرون يلجأون للملاحظات المساعدة وهذا لا بأس به.

علينا إغناء ثقافتنا وتطوير أداءنا سواء من الناحية التحليلية، وهذا ما يشدني، أو الخطابة عندما تستدعي الضرورة. وعموماً إن في رأسي مخزون بمئات ومئات الأرقام والمقولات، فقابليتي على هذا الصعيد عالية، ولهذا تلحظون أن محاضراتي حافلة بالأرقام والمقولات التي تدعم أفكارتي ومقارباتي. وفي زمن ما كان رأسي هو الأرشيف والكمبيوتر وبذلك تفاديت أخطاء مدمرة.

## (1) العنوان الأول: المجرد والملبوس

وهذه نقطة منهجية نلخصها ماركس بالقول "من المجرد العام إلى الملبوس الخاص" أي أن ما ندرسه من نظريات ومؤلفات تفيدنا ونسترشد بها في قراءة الملبوس والقبض النظري على الملبوس الخاص.

فالقوانين العامة والأفكار العامة في النظرية تحضر في الملموس ضمن شروط الملموس. فقانون الصراع الطبقي وهو أساسي في الماركسية يحضر في فرنسا بطريقته وفي الصين بطريقة أخرى ويتجلى في فلسطين بطريقة ثالثة وهكذا.

ولن أملّ من الاستشهاد بمقولة لينين "تحليل ملموس للواقع الملموس" وهو الماركسي بانسجام مع كلمة الحكيم "علينا إلباس النظرية عقلاً وكوفية" أي أن نسترد بالنظرية من أجل إنتاج فكر ورؤى وخطط مستقاة من الواقع الملموس وبالتالي بناء أدوات التغيير الثورية والمشروع التنموي الذي يقارب الواقع الخاص. فلا يوجد تطبيق للنظرية، بل استرشاد بها لفهم الواقع الخاص وتغييره بما يتطلبه هذا التغيير من متطلبات.

ولتبسيط المسألة إن المسيرة الثورية الفلسطينية هي رد على قضايا الواقع الفلسطيني، ولكن بالاسترشاد بالنظرية بما يوجهنا لمعالجات تستند لخلاصات علمية وخبرة تاريخية في بناء أدوات الثورة وتحالفاتها ووسائل النضال ونماذجها، وأساليب العمل... إلخ، فلا نبدأ من الصفر وبعيداً عن التخطيط.

وشأن الطبيب الذي يدرس في روسيا أو أمريكا ويعود بحصيلة علمية تساعده وترشده في تشخيص أمراض بلاده، أو الفنان الذي درس في إيطاليا وبنفس المنهجية. فاسماعيل شموط، مثلاً، درس في إيطاليا وقد استخدم حصيلته العلمية لرسم لوحات فلسطينية من الرأس إلى الكعب، لذا يعتبر مؤسس المدرسة التشكيلية في فلسطين.

## (2) العنوان الثاني: القانون الاجتماعي الأول والثاني

هناك العديد من القوانين التي يسري مفعولها في تاريخ البشرية فهي موجودة وموضوعية. وفي كل مرحلة هناك قوانين خاصة. المرحلة الرأسمالية والمرحلة الاشتراكية والمرحلة الاقطاعية. أما القانونان اللذان يسريان في كل المراحل فهما قانون توافق علاقات الإنتاج مع مستوى تطور قوى الإنتاج، وقانون توافق البناء الفوقي مع البناء التحتي.

ويقصد بالأول أن نمط العلاقات بين الناس في العملية الاقتصادية تتوافق مع مستوى تطور أدوات العمل ومهارات العاملين، فاقْتصاد زراعي إقطاعي ما قبل الثورة الصناعية كانت العلاقات الإنتاجية بين الإقطاعيين أصحاب الإقطاعات والأطيان والأقنان، عبيد الأرض، فالإقطاعي يستأثر بإنتاج إقطاعيته، أي الربح العقاري، فيما يعطي بعضها للأقنان لكي يستمروا بالحياة ويؤمنوا الدورة الاقتصادية. أما إذا باع مزرعته فهو يبيعها مع الأقنان لإقطاعي آخر، وهذا يتناسب مع مستوى تطور أدوات العمل من أنظمة ري وزراعة بدائية وقوة عمل يدوية... إلخ. وهناك بدهاء الفلاحون الذين يملكون استثماراتهم ويعتمدون عليها في مصدر رزقهم.

وبالمناسبة كانت فلسطين في ثلاثينات القرن الماضي نموذجاً لإقطاع يسيطر على ثلث الأراضي بما عليها من أقنان ونسبة مشابهة للفلاحين، بينما كان المجتمع يتوزع على 20% في البادية و20% في المدينة الخدمية و60% في الأرياف. أما إذا كانت علاقات الإنتاج رأسمالية، وهذه تكتسح العالم اليوم، أي أقلية تملك القاعدة الاقتصادية من صناعية وبنكية وشركات ومؤسسات إعلامية وأكاديمية وطبية وأغلبية من العمال والعاملين الذين يكادون في وسائل إنتاج الأقلية، وهذا لم يكن ليسود لولا تطور الصناعة والتكنولوجيا، وبالتالي تطور مهارات قوة العمل وتنظيم صفوفها في نقابات واتحادات فيتأمن لها حد أدنى من الأجور التي يمكن أن ترتفع بفعل النضال النقابي، على نحو أخص، وفائض القيمة الناتج عن يوم العمل الإضافي، أي ساعات العمل اليومية التي يصرفها العامل ولكنه لا يتلقى عليها أجراً بل تذهب لجيوب الرأسماليين أصحاب وسائل الإنتاج.

وتستطيع قوة العمل أن تغادر أماكن العمل وتذهب لأماكن أخرى بل وتستطيع تنظيم صفوفها وخوض نضالات نقابية لتحسين شروط عملها وإجازات سنوية وأخرى مرضية وصندوق ضمان اجتماعي... وهذا كله لم يكن في الزمن الإقطاعي. وإن الثورة الصناعية والتكنولوجية وما أصبحت عليه الطبقة العاملة والشغيلة من مهارات وعلم وتنظيم صفوف، وبالتالي الرأسمالية التي تعتبر قفزة للأمام قياساً بالإقطاع أفضت لعلاقات إنتاج جديدة هي العلاقات الرأسمالية.

وعرف التاريخ توافقاً بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، أي ليس تطابقاً في كل لحظة، إذ قد تتقدم قليلاً قوى الإنتاج، أو العكس.

وينطبق هذا على قانون التوافق بين البناء التحتي والبناء الفوقي. أي بين أسلوب الإنتاج الذي يجمع قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، فيكون مثلاً أسلوب إنتاج رأسمالي أو اشتراكي، والأول يقوم على سيطرة واستحواذ الأقلية، أما الثاني فيقوم على التملك الجماعي والاجتماعي، أي التعاونيات الجماعية وملكية الدولة الاجتماعية، وبالتالي يزول فائض القيمة أي استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. وفي أي دولة اشتراكية لا يملك أمين عام الحزب أو رئيس الدولة أو الوزراء على سبيل المثال أية ملكيات خاصة من مصانع وشركات ومزارع ربحية، ودخلهم يقتصر على رواتبهم وحسب وهذه ملكية فردية شأن بيت السكن أو حديقة صغيرة حول البيت أو سيارة خاصة، شأن أي موظف أو عامل. وهناك نظام للأجور يقوم على قانون "من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله" أي لا يوجد فائض قيمة ولا استثمار واحتكار على الطريقة الرأسمالية.

والبناء الفوقي، أي الحقوقي والسياسي والثقافي فيأتي متماشياً مع البناء التحتي. فلئن كان البناء التحتي الاقتصادي - الاجتماعي رأسمالياً حكمت البلاد الطبقة الرأسمالية وقوانينها التي تنص على الملكية الخاصة و مطاردة من يثرون على هذه الهيمنة، وبالتالي نشر الثقافة الرأسمالية في وسائل الإعلام والتعليم والفن. أما إن كانت البنية التحتية اشتراكية، فالطبقة العاملة وجماهير الكادحين هم من يتبؤون سدة الحكم، وبالتالي تزول الملكية الرأسمالية بتدرج، من خلال تأميم الملكيات الكبيرة ولاحقاً المتوسطة وبالتالي تتعاضد قوة الملكيات التعاونية والاجتماعية، أما الملكيات الصغيرة فلا أحد يستهدفها ذلك أنها مهما كان عددها فهي لا تشكل سوى نسبة ضئيلة في الاقتصاد الوطني، وحسبنا التذكير أن 30 احتكاراً عالمياً تسيطر على 70% من السوق الدولية، وأن صاحب ملكية احتكارية واحدة في أميركا أو اليابان يملك ما يملكه الملايين من أصحاب الملكيات الصغيرة.

هذا في المجتمعات الرأسمالية الأكثر تطوراً وتقاطباً. وطالما يتحقق نمط الإنتاج الاشتراكي بتدرج، فالبناء التحتي يتناغم معه بالضرورة البناء الفوقي الذي يسوغ ذلك قانونياً بإلغاء الاستغلال بتدرج وتأميم الملكيات الكبيرة بتدرج وبناء تعاونيات بتدرج ونشر ثقافة تتوافق مع ذلك.

فمثلاً اشترعت حكومة عبد الناصر قانون الحد الأعلى للملكية الأرض ووجد ذلك صداه في سياسة الدولة وإعلامها، واشترعت حكومة لينين قانون التعليم المجاني والعلاج المجاني بما تطلبه من تأميم الملكيات الكبيرة من مصانع وبنوك وتجارة بالجملة وقام الحزب بدوره بتعبئة الجماهير وتبيان أهمية وصوابية هذه الخطوات.



وفي السياسة الخارجية هناك سياسة رأسمالية إمبريالية وعدوانية، وأكثر النماذج سطوعاً ما تفعله أمريكا في العالم وهناك سياسة أممية بروليتارية، أي اشتراكية، حيث كان يذهب 17% من الإنتاج القومي السوفييتي لدعم أوروبا الشرقية وحركات التحرر الوطني. وحتى اللحظة يتكلم السد العالي ومصانع حلوان في مصر عن فوائد الدعم السوفييتي. وتكلم عشرات المشاريع التعليمية والطبية وآلاف الخبراء الكوبيين في عشرات الدول، بل ودورات متنوعة للفلسطينيين مما يثبت أهمية الدعم الكوبي.

### (3) العنوان الثالث: التشكيكة الاقتصادية - الاجتماعية

لكل مرحلة تاريخية تشكيكة اقتصادية - اجتماعية، يسري فيها القانونان سالف الذكر وسواهما من القوانين. أي ثمة بنية هنا مترابطة المكونات، ولا يمكن تقديم فهم أو تحليل صحيح أو رسم برنامج للإصلاح أو التغيير دون الإمساك بذلك، فالتشكيكة هي الأرضية التي يتم فيها الفعل شأن الزراعة التي لا تتم دون ماء وأرض، أو السكن الذي لا يتم دون أبنية وحيز للسكن. ويفهم من التشكيكة الاقتصادية - الاجتماعية مجموع المكونات لتلك المرحلة التاريخية من بناء تحتي وفوقي وقوى إنتاج وعلاقات إنتاج وأية عناصر أخرى كاللغة والعائلة ومختلف الأنشطة الترويحية والتراثية.

وقد عرف التاريخ خمس مراحل تاريخية، وبالتالي خمس تشكيكات اقتصادية واجتماعية، هي مرحلة المشاعات والجماعيات الأولى ولم تنفك بقاياها موجودة في قبائل استرالية وبرازيلية وأفريقية، ومرحلة الرق وهناك بقايا هامشية أيضاً. هل تصدقوا أن موريتانيا قد ألغت الرق منذ أقل من عقدين فقط. والمرحلة الإقطاعية والمرحلة الرأسمالية الأوسع انتشاراً والمرحلة الاشتراكية التي بدأت تخطو خطواتها الأولى.

هذا من ناحية التجريد العام وتعاقب المراحل، ولكن التاريخ ليس مثلثات هندسية، إذ عرف أيضاً نمط الإنتاج الآسيوي حيث تداخلت مرحلة الرق بالمرحلة الإقطاعية وبدايات المرحلة الرأسمالية. وثمة كتابات عن مصر والهند وإيران ومساحات قليلة في أوروبا عرفت هذا النمط (هذا أوضحه في النقاش). وحتى اللحظة ثمة بقايا العصر الإقطاعي في بلدان رأسمالية في أميركا اللاتينية.

والشيء المقطوع به أن التاريخ صيرورة ولا نهاية له، وأن الرأسمالية ليست خاتمة، وقد تم اختراقها هنا وهناك مثلما فعلت الرأسمالية قبل قرنين حينما اخترقت المرحلة الإقطاعية إلى أن باتت سائدة في معظم العالم سواء رأسمالية إنتاجية أو رأسمالية محوطة في الجنوب.

وقيمة ما سبق تحديد طابع التشكيكة الاقتصادية - الاجتماعية الفلسطينية استناداً إلى البنية التحتية والبنية الفوقية وقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ولكن قبلئذ، وهذا اجتهاد مني أن للسياسة الكلمة العليا في بلادنا. إذ أن الخلاصية الفلسطينية (الملموس والخاص) تضي بأن شعبنا اقتلح جراء عملية تطهير عرقي عنصري عامي 1948 و1967، وهذا العامل هو الأهم وقد ترك بصمات حاسمة على تشكيلته وتركيبته وعلى حياته اليومية وعلى مستقبل أجياله. فلسنا دولة عادية ليجري استخدام المعايير سابقة الذكر في رصدها وتحليل بنيتها. وإن كان لا مهرب من تحليل الواقع وما أصبح عليه حال شعبنا. وهنا يتجلى (التحليل الملموس للواقع الملموس) وهذا تحدي إبداعي بكل ما في الكلمة من معنى، بل وسوف نجد مقاربات عديدة ومتناقضة تعكس نفسها على البناء الفوقي سيما الثقافي والسياسي.

والماركسية هي الإيدولوجية الوحيدة التي من خلال منظورها المادي التاريخي رصدت التعاقب التاريخي والتشكيكات الاقتصادية - الاجتماعية بأركانها. فهي قد أضافت هنا، مثلما أضافت تشخيصها للقوانين العامة لمختلف مراحل التاريخ، والقانون الأساسي الخاص بكل مرحلة وما يتصل به من قوانين أخرى، ناهيكم أنها حلت تناقضات المرحلة الرأسمالية وشروط تجاوزها والانتقال لمرحلة أخرى بدأت راياتها بالخفقان فعلاً. ولأن حديثي سيطول عن الوضعية الفلسطينية سوف أرجئ ذلك لمناسبة أخرى، أما الآن فسوف أستأنف سياق المحاضرة.

#### (4) العنوان الرابع: الشمال والجنوب

وبصورة أكثر تحديداً ما نتج عن الحقبة الكولونيلية، أي استعمار الشمال الرأسمالي للجنوب من نهب الثروات وتدمير لمقومات الحياة وتقتيل وإذلال، وقد استمرت هذه الحقبة عشرات السنين حيناً وقرناً وقرناً حيناً آخر. ويقع العرب في هذه الخانة، وكذا فلسطين. وأنت موجة الاستقلال الوطني بعد الحرب العالمية الثانية الحقبة

الاستعمارية، أي الاحتلال العسكري، غير أن الشمال خرج من الباب وعاد من النافذة في المرحلة الإمبريالية من خلال أنظمة تابعة له دون سيادة أو حماية للثروات أو مشروع تنموي استقلالي في الجنوب. وتأسس مركز ومحيط والبلدان التي ربطت أهدافها الاستقلالية السياسية بالأهداف الاقتصادية بالأهداف الثقافية، سواء بصورة جزئية أو جذرية. ويمكن تصنيف تجربة عبد الناصر في مصر وتجربة نهرو في الهند والتجربة الجزائرية والتجربة الأرجنتينية والتجربة في جنوب أفريقيا بعد دحر نظام الأبارتهايد بأنها جزئية. أما روسيا لينين التي كانت نصف مستعمرة فذهبت لاستقلال جذري ومشروع تنموي ضخم، وهذا حال الصين اليوم والتجربة الكوبية، وفيتنام وكوريا الديمقراطية، ناهيك عن إرهابات في أمريكا اللاتينية، الأمر الذي ارتبط بخيارات النظم اليسارية - الاشتراكية. فالقوى اليسارية الاشتراكية لا تتوقف في منتصف الطريق، بل تبني الثورة مستمرة من الاستقلال السياسي إلى الاقتصادي والثقافي والتنمية في مصلحة الطبقات الشعبية وصولاً إلى تحقيق تحولات اشتراكية تؤسس لمرحلة اشتراكية مهما طال الزمن.

ولأن الجنوب خضع لمرحلة كولونيالية، وغالبيته لهذا اليوم تدور في الفلك الإمبريالي، انعكس هذا على بناء الاقتصادية والاجتماعية وبناء الفوقية، فالأمر يتطلب تحليل هذه الوضعية بالاسترشاد بالفكر الماركسي حول التشكيكة والبنية، ولكن على قاعدة قراءة الملموس والخاص في كل بلد. ومن هنا برز مصطلح الثورة الوطنية - الديمقراطية أي استكمال عملية التحرر من الإمبريالية والإطاحة بالنظم التابعة للمركز الإمبريالي والسير بتواتر للتحرر الاقتصادي وبناء قاعدة صناعية إنتاجية وسياسة التأمينات للشركات الأجنبية (قام تشايفز بتأميم خمس شركات نفطية أجنبية أصبحت عائلاتها 70% من الموازنة بعد أن كانت مجرد 3%)، فيما قام عبد الناصر بتأميم أراضي الإقطاعيين وتوزيع معظمها على الفلاحين مثلها أمم بنوك وشركات رأسمالية وقناة السويس... وبطبيعة الحال إنفاذ قفزات تعليمية وعلمية وثقافية وتطور اجتماعي ينتقل من العشائرية والمذهبية والطائفية إلى المواطنة والدولة المدنية والحريات السياسية، والاقتصاد الحديث تجاوزا للاقتصاد البدائي وتحرير ومشاركة المرأة على قدم المساواة مع الرجل، وخوض معارك مثابرة ضد التدخلات الأجنبية وأي وجود أجنبي استعماري ومن أجل الديمقراطية بشكلها السياسي والاجتماعي. وفي الحالة العربية لقد تحدثت سابقاً عن المشروع النهضوي ولا حاجة للتكرار.

وما ينبغي لفت النظر إليه أن الجنوب بحاجة لمشروع استقلالي تنوي، وهذا لا يشكل مطلباً للشمال الذي أنجز ذلك منذ وقت، أما مطلبه فهو تجاوز الرأسمالية والسير في طريق الاشتراكية، ودون ذلك يبقى يراوح مكانه، وهذا مؤقت لأن التاريخ في صيرورة دائمة.

وملخص الكلمة، يستدعي التطور التاريخي إنجاز ثورة اجتماعية في الشمال، أما في الجنوب فيستدعي التطور التاريخي إنجاز ثورة وطنية - ديمقراطية تمهد الطريق، ومتداخلة مع مهمات اشتراكية تمضي لمستويات أعمق فأعمق وتطور تكنولوجي أبعد فأبعد نحو إزالة كافة أشكال الاغتراب.

##### 5) العنوان الخامس: الحوار والمركزية الديمقراطية

قد يكون هذا العنوان نافرأ عن السياق ولكن تتجلى أهميته بالآتي: "أن الثورة عملية حوارية" (باولو فريري) والحواري يعني أن "أ" تحاور "ب" فتلد "ج" ، و"ج" هي التطور. وكل شيء مكون من "أ + ب" كما هناك "أ" كإهية تصطم وتناقض مع "ب" كإهية. مثلاً، التناقض بين حركة التحرر والإمبريالية أو الطبقة العاملة والكثلة التاريخية التقدمية ورأس المال المهيمن. وبعد الانتصار يولد الاستقلال وتولد الاشتراكية أي "ج" وهي عادة أرقى من "أ+ب". ودون حوار وولادة الجديد لا يحصل التطور. ولهذا السبب بقيت الأفكار التنويرية والنهضوية العربية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين دون حامل اجتماعي وازن. وبقي المجتمع العربي محبوساً في تلك المرحلة ولم تلد ثورة صناعية ودولة قومية وتطور علمي واجتماعي ولا ديمقراطية إلا في أضيق الحدود، فاستباحنا الاستعمار ومن بعده الإمبريالية، أي المشروع الغربي، ولا زلنا نناقش أسئلة أثارها النهضويون العرب!

ومغزى كلامي أن علينا جميعاً، دون استثناء، إطلاق عملية حوارية لا نتوقف مع الذات ومع الغير ومع المتغيرات، وأن تكون عقولنا مفتوحة دون عصبوية أو تحجر. لا أحد يحتكر الحقيقة "وكل إنسان لديه طاقة البناء الحكيمة" (مكسيم غوركي). وكثير من النقاشات لا قيمة لها وكثير من الخلافات ليست حقيقية وناجحة عن عدم الإمساك بالمشترك والانشغال بالثانويات. ويعيدنا هذا للوحة التناقضات، فالتناقض الأول هو الأساس الذي يستمر باستمرار المرحلة وفي حالتنا الفلسطينية هو مع الكولونيالية العنصرية الاقتلاعية، والثاني

مع الفساد والاستغلال الطبقي، والثالث مع البطيركية وقهر المرأة والرابع مع النصوص التي تمنع حرية الاختيار والابداع والمواطنة المتساوية، والخامس هو التحرر من مخلفات القرون الوسطى شديدة الوطأة في الوضع العربي وقد تحرك التناقضات فيصبح الثالث ثانياً أو الخامس ثالثاً... إلخ.

طالما أن الحوار مشدود لذلك، فالتفكير في مجمله صائب على ألا يزعم أحد أنه نسيج وحده وفهلوي يعرف كل شيء. فالفهلوية إحدى الإخلالات التي قادت لهزيمة عام 1967 حسب الدكتور صادق العظم.

وعن المركزية الديمقراطية يمكن القول أن هذا القانون هو ابتكار ماركسي - لينيني، ولينين كقائد حزبي مرموق ترجمه في شروط النضال السري. وكما أظن أنه لا يوجد جماعة لا يسري فيها هذا القانون، سواء كانت سياسية أو نقابية أو حتى فرق رياضية أو شركة، ولكن ضمن خصائص وطابع هذه الجماعة. فهل تستقيم جماعة وتستمر إن لم تنفذ قراراتها، وهل تحافظ جماعة على حيويتها دون نقاش واقتراح مثلاً. لكن الأهم من ذلك هو سريان هذا القانون، وهو قانون مركزي في الحركات الثورية، الأمر الذي أثار لغطاً في العقود الأخيرة.

وملخص المركزية أن تلتزم الجماعة بقرارات القيادة وأن يلتزم الجميع بالوثائق المقررة مركزياً سواء تقارير مؤتمر أو نظام داخلي أو... وصولاً إلى التزام الأقلية برأي الأغلبية والمستوى الأدنى بالمستوى الأعلى. ولولا هذا الالتزام لما بقي حجر على حجر ولأصبحت كل ثلة وفرد حزباً وانشق عن الآخرين ولما التزم بما هو جماعي. أما الديمقراطية فهي الحوار وحق التفكير والتعبير والمبادرة في إطار النواظم الجماعية، فذلك يؤمن الحيوية ويطلق الطاقات. ومن جهة أخرى النقد، فالنقد مكفول للجميع، "الحزب يخطئ كالفرد تماماً" (لينين)، بما يتطلبه من إصلاح وكذا الانتخاب، سواء انتخاب مسؤول الهيئة أو اللجنة، أو الانتخابات الأوسع لأعضاء المؤتمر وعقد المؤتمر دورياً حسب اللوائح الداخلية وبالتالي التجديد دون السماح للتخثر والفشل بالاستمرار، وأحياناً محاسبة المسؤول من قبل الهيئة أو على أقل تقدير تقديم توصية معللة لمحاسبته من الهيئة الأعلى، دون أن ننسى الرقابة كمحكمة قضائية تفض المنازعات وتستقبل الشكاوى وتقرح المحاسبة على أي خلل فكري أو سياسي أو تنظيمي أو مالي ولا تسكت لحظة واحدة على الإخلالات. فهي العين البصيرة والضمير الحارس.

وهناك جبال من القرارات والوثائق في التجربة السوفيتية ولكنها لم تمنع انهيارها، ذلك أن البقرطة استشرت والنقد جف، ولم يتم عزل من ينبغي عزلهم في الوقت الصحيح فتفشى السوس والأمراض إلى أن استفحلت وأفضت إلى ما أفضت إليه.

أي لا يكفي القول يجب الانضباط، فالانضباط ضروري ولكن انضباط لمن؟ فلولا تمرد ماو تسي تونغ على اللجنة المركزية لما اشتق طريق الحرب الشعبية ولما انتصرت الثورة.

أي أن الانضباط ضروري، على أن يكون لسياسات صحيحة وقرارات صحيحة وقيادة حقيقية تدفع العمل للأمام... هذا من الناحية الموضوعية. أما خرق الانضباط فهو أكثر ضرراً من الانضباط لقرار خاطئ حسب غرامشي. وطالما أن هناك دافعية ثورية بعيدة عن المصالح الشخصية والفساد والكذب واللصوصية والتغطية على الفشل والشكليات، يسهل تصحيح الأخطاء والتخلص من الثغرات، وبصورة أكثر تحديداً طالما تؤدي القيادة دورها المنوط بها.

والخطر الأكبر يكمن في الأخطاء القيادية، قيادة فاشلة تتمسك بمواقفها أو قرار قيادي خاطئ لا يتم تصويبه بسرعة، أو قيادة لا تحاسب بنزاهة المخطئين والمسيئين ولا أحد يحاسبها. وعدا ذلك هو أقل ضرراً.

## 6) العنوان السادس: لماذا الفكر اليساري الماركسي - اللينيني

ما فائدته؟ ولماذا هذه القصة التي يصنعها اليسار في العالم، بما في ذلك في الوطن العربي وفلسطين؟

ويبيجاز شديد ولكن بوضوح أيضاً، للأسباب التالية:

1. سبب تاريخي: فالفكر الاشتراكي الماركسي هو المعبر عن التطلعات لتجاوز المرحلة الرأسمالية. فالرأسمالية بعجزها وبجرها ليست نهاية التاريخ وإن استوتنت لبعض الزمن، بل إنها أكثر وحشية في زمن العولمة. واليسار يقرأ التناقضات ويسعى لتعبئة الجماهير ومئات الملايين لحلها بالانتقال لمرحلة جديدة خالية من الاستغلال وكل أشكال الاغتراب وهذه مهمة دائمة له حتى لو تطلب الأمر مئة عام أو مئتين. فالرأسمالية لم تترسخ إلا بعد قرنين وثلاثة، وهذا حال المشروعات الدينية والعقائد القديمة في زمن سابق منذ ألف

وألفين سنة وفي كل الأحوال ما قبل الثورة الصناعية والمدينة المعاصرة وثورة العلوم والديمقراطية والدولة القومية. واليساري/ة إنما ينتميان لهذا المشروع شأن الذين اتموا للمشروعات السابقة. بل ويناضلان بدأب وتضحية وفعالية وإبداعية أيضاً من أجل ذلك.

فلا يوجد فكر آخر ناقد للرحلة التاريخية الجديدة التي تمر بها البشرية وقادر على تسليح الجماهير، فالجماهير والشغيلة هم بمثابة الجسم أما النظرية فهي بمثابة العقل، في تواشجهما وتفاعلهما، من أجل تجاوز هذه المرحلة لمرحلة جديدة تتخلص من الاعترايات بتدرج ودأب سوى الفكر الماركسي - اللينيني. فهذا الفكر هو النظرية النقدية الكبرى والثورية للنهية ولم تنتج البشرية سواه بما يتطلبه من تطوير دائم.

2. مرجعية وخلفية وموجه: فالفكر اليساري عموماً وترجماته المحليه خصوصاً هي مرجعية وموجه للعمل اليساري بمجمله، يتم الاسترشاد به في تحليل الظواهر والأحداث وفي اشتقاق المهام والتاكتيكات والبرامج وفي النضالات العملية. فهو ليس ترفاً أو عملاً أكاديمياً بل هو فكر سياسي، أي يرتبط بالممارسة ونتاج عن الممارسة ومهمته توجيه العمل الثوري التغييرى. فهو ليس للتسليه والفضلكة بل مرتبط بالتناقضات وتسويتها وهو ليس نازلاً من السماء ولا من أجل السماء بل من الأرض وإنسان هذه الأرض، وتحديدًا المستغلين والمقهورين والمهمشين، وسعادة الإنسان عموماً ولغاية "تحرير الإنسان تحريراً شاملاً" (ماركس).

3. إنه ناظم ورايط جماعي وفي عداد الأسمت الذي يوحد مداميك البناء. وبالانتماء الواعي له بناء على حرية الاختيار، فهو ليس وراثياً "لكي تؤمن يجب أن تفهم" (لينين)، ليس على مستوى الأفراد فقط بل على مستوى الجماعة الثورية أيضاً فيصبح ناظماً وجامعاً، على الأقل في المسائل البرنامجية والجوهرية والقرارات العامة، دون الغوص في تفاصيل التفاصيل، إذ هناك مساحة خاصة وحریات خاصة أيضاً، بل إن المرجعيات الفكرية لا تمس بالخصوصيات والكثير من تفاصيل الحياة الإنسانية، فهذه ليست من شأنها. وعليه فاليساريون ليسوا طبعة واحدة، وإنما هناك مشتركات وحسب تقتضيها العملية الثورية.

4. مصدر إغناء ومخزون ثقافي وعلمي: فالفكر اليساري الاشتراكي من أغنى المرجعيات الفكرية، بل الأغنى، في الزمن المعاصر في حقول الفلسفة والاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والفن، فهو مستقى من الحياة المعاصرة المتشعبة والمتطورة، وبلا ضفاف إذ يمتثل المتغيرات والمنجزات الجديدة، وثبتت فاعليته في قيادة ثورات عظيمة في بلدان كبيرة وصغيرة، كما ثبتت فاعليته في بناء مجتمعات جديدة ومشروعات

تموية ضخمة، مثلما ثبتت فاعليته في توعية وتعبئة مئات ومئات الملايين الذين انتقل بهم من مستوى إلى مستوى يجمعهم التضامن الإنساني والتضامن الثوري التغييرى ناهيك عن إطلاق إبداعات ملايين وملايين من الكُتاب والمفكرين والمنظرين والفنانين والأكاديميين والقادة الثوريين الكبار والقادة العسكريين الكبار الذين انغمسوا من الرأس إلى الكعب في معمعان مقارعة الظلم والطغيان على امتداد حياتهم دون أي منفعة شخصية، بل ولم يتركوا لعوائلهم سوى سمعتهم وبصماتهم على التاريخ.

هنا أتوقف، وأنظر لما سبق كقدمات أو تسخين لسلسلة محاضرات تناول الفكر مباشرة.

\*\*\*\*\*

أهلاً وسهلاً،

ما قبل الدخول في منظومة النظريات الاشتراكية، الماركسية-اللينينية، وكيف حضرت في تجربة يسارية فلسطينية، وكيف فهمت التجربة هذه المنظومة وبالتالي كيف فهمت خصوصيتها الفلسطينية، جديرٌ التذكير هنا بمقولتين هامتين إحداهما لماو تسي تونغ قائد الثورة الصينية والثانية للدكتور جورج حبش القائد الفلسطيني المعروف، الأمين العام لحركة القوميين العرب والجبهة الشعبية وكلاهما ترك إرثاً نظرياً وتجربة سياسية متشعبة، مع الفارق بين الصين وفلسطين وبين ثورة انتصرت وراحت ترسي مجتمعاً جديداً وقفزات هائلة، وبين ثورة لم تنفك تقاوم وتمر بمرحلة الدفاع الاستراتيجي. وبالمناسبة، إن ماو تسي تونغ هو الذي استخلص مراحل حرب الشعب طويلة الأمد، أي دفاع استراتيجي وتوازن استراتيجي وهجوم استراتيجي. أما حرب العصابات كما دارت في التجربة الكوبية فقد استخلص كاسترو وغيفارا بأنها مرت بمرحلتين فقط، هما الدفاع الاستراتيجي والهجوم الاستراتيجي. ومثل هذه الاستخلاصات إنما هي انعكاس لمسيرة الثورة المرتبطة بالخصائص القومية والشروط الخاصة لكل ثورة. وأظن أنني حضرت من قبل حول المسيرة الفلسطينية ونماذجها وصولاً لليوم.

أما ملخص مقولة ماو تسي تونغ فهو "يجب على الماركسية أن تأخذ شكلاً قومياً في ترجمتها، ولو أن ماركسياً صينياً يتحدث عن الماركسية دون خصوصيات صينية يكون محض تجريد فارغ" ولهذا علق ماو على الكُتاب الذي أرسله ستالين حول الانتفاضة والمستقى من التجربة الروسية "من أراد أن ينتحر فليقرأ هذا الكُتاب."



وكلمة الدكتور حبش هي "أن فهمي منذ الستينات أن الماركسية دليل عمل ومنهاج بعلاقة جدلية مع الممارسة التي تغني النظرية وتجعلها في حال نمو وازدهار" وشيء مشابه كتبه غرامشي "على السياسة أن تتحول لممارسة فلسفية" ولينين عن النظرية كمرشد لا عقيدة جامدة ... وكلهم انطلقوا من قاعدة ارتباط النظرية والفكر بالممارسة والنضال، وهذا تعرضت له في محاضرات سابقة في سجن آخر عن الأخلاق اليسارية.

والآن ما أهمية النظرية الاشتراكية بشكل عام؟ أي لماذا يدرسها البشر في أرجاء العالم من أصدقاء وأعداء، ولماذا تسترشد بها الأحزاب الماركسية - اللينينية؟

وهل لها فوائد حقيقية وما انعكاس ذلك على الثورات التي قادها اليسار الماركسي، وما دورها في بناء دول وتجارب أسست لتشكيلة اقتصادية اجتماعية اشتراكية أو تحولات اشتراكية، أي مرحلة تاريخية جديدة؟ وما أثر ذلك على الأفراد الذين انحازوا لهذه المنظومة الفكرية؟

"إننا نزيد العنب لا مقاتلة الناطور" فالمسألة ليست انحيازاً أعمى وهي بطبيعة الحال ليست وراثية كما حال الدين، أنت مسلم لأن عائلتك إسلامية وأنت مسيحي لأن عائلتك مسيحية، وهي ليست انتماءً وطنياً - جغرافياً، فلأنك ولدت في فرنسا فأنت فرنسي، ولأنك ولدت في روسيا فأنت روسي وولدت في بلاد العرب أو في فلسطين فأنت عربي وفلسطيني.

إنها ليست كذلك، فهي اختيار وانحياز واع "لكي تؤمن يجب أن تفهم" على رأي لينين، هذا يتطلب الدرس والممارسة معاً.

وأنت تعرفون أن الواحد فيما لم يختر جنسه امرأة أو رجلاً ولم يختر عائلته ولم يختر جنسيته ولم يختر قرار ولادته أو موته، فهذه كلها لم يصنعها وإنما ارتبطت بحركة الحياة وسياقها الموضوعي. وعلى أقل تقدير له الحق أن يختار قناعاته، فهذا حق له كإنسان، أي بصفته كائن يفكر، بصرف النظر عن وجهة اختياره، يسارياً كان أم يمينياً، علمانياً كان أو دينياً ... وهناك عموماً قوانين سواء كان اسمها الشرعية الدولية أو قوانين الدولة القومية تنظم حياة البشر، أو توصل لها جماعات من الناس، وهي متحركة فقد صنعها البشر، فالبشر ينظمون صفوفهم وحياتهم وليسوا في حالة فوضى عارمة. والفكر اليساري أتى لنقد الواقع وإعادة صياغته بما يزيل الاعتبارات كافة.

وعليه، صحيحة تماماً كلمات لينين "لا حركة ثورية دون نظرة ثورية" أي لا تغيير تاريخي كبير دون موجه فكري، سواء في مراحل الثورات الدينية في عصر العبودية والرعي والإقطاع أو في مرحلة الثورة الرأسمالية أو الثورة التحررية أو الثورة الاشتراكية، وفي كثير من الأحيان تتداخل الثورتين الأخيرتين كما حصل في فيتنام. وصحيحة أيضاً كلماته "إن حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة" أو بالنظرية الطليعية، والفارق هنا في الترجمة فقط. فقد استرشد حزب البلاشفة بالفكر الماركسي - اللينيني، وهذا حال الحزب الشيوعي الصيني إضافة لفهم الخصوصية الصينية، وكلاهما قاد ثورة عظيمة غيرت وجه روسيا والصين بل وتركت بصمات هائلة على البشرية.

والثورة الروسية والثورة الصينية هما الأعظم والأكثر تأثيراً في التاريخ في القرن العشرين ولا يمكن فصل الحزبين اللذان قادا الثورتين كما لا يمكن فصل الثورتين وإنجازتهما عن الفكر الماركسي - اللينيني الذي أرشدهما وتفاعل جدلياً معهما في براكسيس حي، نتذكرون مفردة براكسيس ومعانيها، فالفكر أرشد والممارسة أغنت وأضافت على الفكر. بل لا يوجد فكر سياسي ثوري بمعزل عن النضال الثوري. فالثورة وفكرها ليسا عملاً أكاديمياً، بل صناعة حية ووجهان لعملة واحدة.

والمناهج الماركسي - اللينيني يبدأ بقراءة لوحة التناقضات في الملموس الخاص، أي يحضر المجرد في الملموس الخاص، وتبدأ عملية نقد الواقع، فالماركسية هي النظرية النقدية الكبرى، وبالتالي بناء الأدوات القادرة على حل التناقضات سيما الطبقة والقومية والتحرر من البطيركية الذكورية ومن مخلفات القرون الوسطى وإطلاق العقل الفردي والجمعي للإبداع في كافة الميادين على قاعدة المواطنة المتساوية دون تمييز ديني أو جنسي أو عرقي، بما يستوجه ذلك من تحديد طبقات الثورة وتحالفاتها ارتباطاً بطابع المهام المحدده في الملموس المحدود "تحليل ملموس للواقع الملموس" (لينين).

فالثورة التحررية طبقات وتحالفات ومهام وأشكال نضال وهذا كله ينعكس في البرنامج والتاكتيكات والاستراتيجية، ويلعب الفكر دور الأسمت الذي يخلق التلاحم الجمعي في الحركة الثورية الطليعية وروابطها الوثيقة بال جماهير.

أي بناء قلعة مترابطة وكتلة تاريخية ثورية نقدية قادرة على إطاحة الطبقات الاستغلالية والاستعمار والإمبريالية  
... إنلخ.

"الحزب يخطئ كالفرد تماماً" (لينين) ولكنه يراجع أخطاءه ويحلل أسبابها ويضع لها العلاج دون مساومات  
ومراوغات وتوزيع حصص، ولهذا يسهل عليه تجاوز عيوبه. فقد الذات الثورية الجمعية والمراجعة الدورية هما  
جزء من الفكر النظري، وعزل الفاشلين وتجديد القيادات هو جزء من الفكر التنظيمي، ودون ذلك يتعفن  
الحزب ويتقرط ويتقلص ويهبط إلى الحضيض مستوى فعله وأداءه.

ويبرز للمقدمة هنا الشرط القيادي الكفؤ والقادر والاستراتيجي والمؤمن، والإخلالات الكبرى تبدأ هنا  
"الحزب قيادته أولاً" (د. حبش).

من الجدير ذكره أن البشرية لم تنتج فكراً ثورياً أو حركات ثورية في المرحلة الرأسمالية، أي المرحلة التي تعيشها  
البشرية منذ قرنين سوى الفكر الماركسي - اللينيني والأحزاب الماركسية اللينينية. وما عدا ذلك هي مقاربات  
جزئية إما تسعى لإصلاح جزئي للرأسمالية أو تحلم بالعودة بالتاريخ لما قبل الرأسمالية، وأحياناً تكون هذه وتلك  
مناهضة للإمبريالية ومعادية للهيمنة الأمريكية، وهذه نقطة تقاطع مع الماركسية وأحزابها سيما في الشرق  
الأوسط.

وهذا موضوع من الأفضل أن أفرد له جلسة خاصة، أي أين تتقاطع حركات التحرر أو حركات المقاومة غير  
الماركسية مع الماركسية أو الاشتراكية، وأين تفترق، ليس على صعيد سياسي فقط بل واقتصادي وثقافي  
 واجتماعي.

ولكن من المفيد التذكير أن الثورات التي قادتها قوى ماركسية مثل الصين وكوبا وفيتنام على سبيل المثال  
قد انتقلت عبر صيرورة تاريخية من المرحلة ما قبل الرأسمالية إلى تحولات ديمقراطية وبالتالي إرساء خطوات  
اشتراكية دون أن ترتد وتعود للدوران في الفلك الإمبريالي، بعكس الثورات التي قادتها قوى اجتماعية  
وأحزاب غير ماركسية على غرار ثورة عبد الناصر والثورة الجزائرية وثورة الهند بقيادة غاندي، فقد خرج  
الاستعمار من الباب ليعود من النافذة بقدر أو بآخر وهي قلما تنتقل لتحولات عميقة في الحقل الاقتصادي،

وتحديداً علاقات الإنتاج، وفي الثقافة وفي البنية الاجتماعية، وبقيت أسيرة المرحلة الرأسمالية ولكن كمحيط وليس كمرکز، أي تحوطت.

وهذا سببه من ناحية جوهر الطبيعة الطبقيّة - الفكرية للقوى القائدة. وفي مرحلة تاريخية تهيمن الاحتكارات المعولة على معظم الاقتصاد العالمي وعلى الإعلام وسطوته، لا يوجد من نظرية قادرة على إطاحة هذا الاحتكار سوى الفكر الماركسي الذي يدعو إلى تشريك وسائل الإنتاج وجمعة الاقتصاد بما يتطلبه من تأميمات واسعة المدى للرأسمال الكبير، حيث مئات الأشخاص يملك الواحد مليارات وعشرات المليارات و 70% من السوق الدولية بل وتتفق موازنات الدول الرأسمالية التريليونات على الجيوش. فالميزانية الأمنية الأمريكية هذا العام بلغت 716 مليار دولار، وكأنه لا يكفي قدرة أمريكا النووية على تدمير الكرة الأرضية عشرات المرات!!

كل ذلك للسيطرة على العالم وتكريس استغلال الطبقات الشعبية ونهب ثروات قارات الجنوب ومخوطها.

أعرف أنني أنتقل من فكرة إلى أخرى بسرعة، ولعلي في النقاش أضيف وأشرح، وأعرف أن بعضكم يهياً للخروج للفورة (إلى ساحة السجن).

غني عن التكرار، فأنتم تعلمون أن التجارب الاشتراكية، أو بصورة أدق البلدان التي أحرزت تحولات اشتراكية، كالسوفييت أو الصين أو كوبا قد أنجزت الكثير في بناء اقتصاد اشتراكي، سواء شكل القطاع العام والقطاع التعاوني 30% أو 50% أو أكثر أو أقل فهي قد شركت وسائل الإنتاج وعالجت التناقض بين جماعية الإنتاج وخصوصية التملك، هذا القانون الذي تقوم عليه الرأسمالية وبالتالي تحررت بقدر كبير من فائض القيمة القانون الأساسي للمجتمع الرأسمالي الذي سمح للأقلية باحتكار معظم الاقتصاد والحكم واستغلال الأغلبية وقهرها.

وحققت سياسة اجتماعية في مصلحة الطبقات الشعبية وكل المواطنين، وأقصد تعليماً مجانياً وعلاجاً مجانياً وأسعاراً رمزية للكهرباء والماء وأجور المساكن وأسعاراً منخفضة للسلع المختلفة، وبطبيعة الحال فكثرت ارتباطها وتبعيتها للسوق الرأسمالية، مع الحفاظ على قانون النفقة البديلة والتبادل المتكافئ.

ولم يعد من هم أسفل وسلالاتهم أسفل ومستغلين ومحرومين من الفرص المتكافئة والمنافع العامة.

ويكفي التذكير أن حملة الشهادات الجامعية في روسيا القيصيرية كانت نسبتهم 3% أما عندما انهار الاتحاد السوفيتي فكانت النسبة 97% وقفزات شهدها الصين لا أحد ينكرها. وهل يمكننا تصور انتصار الثورة الصينية وقفزاتها دون الحزب الشيوعي (92 مليون عضو) وانتصار الثورة الفيتنامية أو صمود كوبا وأمية نهجها ووتائر النمو السريعة في هذه البلدان حيث يتراوح نمو الإنتاج القومي بين 6-9% سنوياً وكانت الأقل تضرراً من أزمة 2008.

إن هذا العصر هو عصر التحرر من الإمبريالية وعصر الثورات الاجتماعية التي تتجاوز الرأسمالية، وعصر التطلعات القومية التي تناهض الهيمنة الأمريكية وحلفائها، وهذه السمة سوف تطبع العصر في العقود المقبلة آخذين بالحسبان أن مرحلة جديدة تشكلت مع انهيار المعسكر السوفيتي، وهي مرحلة انتقالية بما تتطلبه من إحاطه وتحليل وتحالفات لا نثقيد بثنائية اشتراكية - رأسمالية وسوفيت - أمريكا، وتذهب لثنائية هيمنة الإمبراطورية الأمريكية ومعسكرها وفي المقابل مروحة واسعة تناهض الهيمنة. والإفكيف اجتمعت بقيادة الحزب الشيوعي الصيني مع موسكو بقيادة القومية الروسية بزعامة بوتين مع طهران بقيادة ثيوقراطية؟

وأحد تجليات هذه المرحلة محور البريكس ومحور المقاومة في الإقليم والمد اليساري في القارة اللاتينية وما يمكن أن ينتج عن الحرب التجارية الترامبية على العالم وبشكل أخص على العملاق الصيني.

وختاماً، لأن للأفراد أهمية، سواء كانوا عظاماً يتجاوزون مع تطلعات الجماهير التقدمية ولديهم من المزايا والخصال المؤهلة لهذا التجاوب، أو دعونا نقول أن ذلك براكسيس يتكون في الصيرورة، ولكن بكل تأكيد ليس كل فرد يمتلك المواصفات المطلوبة أو يجزو للتجاوب مع الاستحقاقات لما فيها من تضحيات ومخاطر وسجاياء، أو كان الأفراد أقل من ذلك أو أناساً عاديين، فهم يتحولون عشرات المرات في غمرة انتمائهم للفكر الماركسي - اللينيني والعملية الثورية.

ومن جديد ليس ثمة ماركسية - لينينية دون ممارسة ثورية، فالوجهان لعملة واحدة، وأكبر وأعظم نظرية هي في انتقالها لمعمعان الممارسة كما أشرت غير مرة، وهذا حال الثوري أو الثورية، فهما لا يكونان كذلك إلا بالسلاح بالفكر والانخراط في العملية الثورية بما لها من استحقاقات.

هل يستطيع كل واحد فيكم استذكار ما كان عليه قبل التحاقه بالقاطرة اليسارية التحررية، بل التحريرية بلغة فراز فانون. كان أقرب لإنسان عادي أو إنسان عادي تحركه نزعة وطنية كما حال ملايين الفلسطينيين، لا يملك من الفكر الثوري والنظريات الفلسفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية شيئاً يذكر، أما اليوم فأنتم بتفاوت حصلتم على زاد فكري واطلعتم بتفاوت على تجارب ثورية يسارية في غير بلد، ومنكم من قطع شوطاً يؤهله لأن يحرّض وأن يشرح عدداً من المقولات.

ناهيكم أنكم تزودتم بخبرة تنظيمية معينة، ومنكم العضو ومنكم الكادر ومنكم ومن بين صفوف الأسرى اليساريين سوف نتألق كوكبة متقدمة من القيادات. وهذا حصل من قبل وبلغوا مستوى الهيئات المركزية بما يرتبط بذلك من مهام ودور، أي وظيفة تاريخية. وهناك من نجح في بناء تجارب تنظيمية جدية وكان له الدور الأول في قيادة الانتفاضة والإنتاج الفكري... إلخ، وكان على الدوام يردد كلمات غرامشي "تشاؤم العقل لا يلغي تفاعل الإرادة" فلم يهتز أو يحبط في مراحل الجزر، وكان أشبه بكور الحدادة، حسب التعبير اللينيني الذي يضح الحرارة وشرارات التفاعل ويزرع الوعي الذي يجيب عن أسئلة الحاضر. ومثل هذا الطراز هو المطلوب اليوم للخروج من الأزمة البنوية التي اجتاحت اليسار منذ وقت. أي أن يتقدم الصفوف جنباً إلى جنب مع القدرة على الإنجاز. فهو ليس جعجاع ولا يخدع نفسه وغيره، بينما الفشل يغطيه من رأسه إلى كعبه. فدلالة وجود الفطره أن تأكلها حسب المثل الألماني، أي إثبات ذلك عملياً وعلى نطاق واسع. فمثل هذا الطراز أكثر من مطلوب، إنه الجواب على سؤال الأزمة.

ومن ناحيتي أرى في الجيل الشباني الرهان الأول. أما الرهان الثاني والثالث فهناك فئات أخرى وأدوار أخرى. تذكروا كاسترو المحامي ابن العائلة الإقطاعية واعتقاله وصعوده الجبل، أين كان وأين أصبح. فهو الوحيد الذي دخل قاعة مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي ووقف له الجميع مصفقاً، والدكتور جورج حبش ابن العائلة التجارية المسورة خريج الجامعة الأمريكية الذي انتقل كما كاسترو من الديمقراطية الثورية البرجوازية الصغيرة والفكر القومي إلى مواقع الماركسية - اللينينية المقاتلة بما تميز به من رؤية استراتيجية ومقاربات نظرية تحاكي الملموس وأخلاقيات مرهفة عالية.

ولينين ابن العائلة المتعلمة والثرية والمحامي الذي احترف كما حال الثورين الحقيقيين العمل الثوري، بل ومن الإرث الذي تلقاه من أمه أنفق على نفسه دون أن يكلف الحزب البلشفي عبء الإنفاق عليه، وختم حياته بإنجازين لم يعرفهما التاريخ من قبل: بناء طليعة ثورية قادرة وتفجير أول ثورة اشتراكية في التاريخ.

أين كان هؤلاء، وسواهم الكثيرون، وكيف تدرجوا في مسار الثورة اليسارية وأين أصبحوا، بصمات دامغة وقفزات هائلة.

كل واحد فينا كان يحمل وعياً اجتماعياً هو السائد في بلادنا، واليوم تحرر من كثير من الأوهام والأفكار الساذجة، وانطلق عقله لمديات عصرية بعيدة، وكل واحد فينا كان ذاتاً فردية، وبات ينتمي لذات جماعية وأحلام جماعية وأخلاق جماعية، وكانت فاعليته في الحياة بسيطة كما حال الناس عموماً، أما اليوم ففاعليته تضاعفت مرات ومرات في إطار جيش تغيير العالم نحو التحرر الشامل للإنسان والإنسانية. والمسألة تكمن في الفاعلية، فهي مفردة مركزية، وكلما انطلقت المزيد من الفعاليات تم إحراز المزيد من التركيم واقترب يوم الانتصار ومهما طال الزمن فالضوء في نهاية النفق. هل قرأتم شيئاً عن الثورة الفيتنامية فقد أصاب العديد من الانتفاضات التي استمرت كل واحدة سنوات وسنوات لإخفاق إلى أن لاح الانتصار الأول بتحرير الشمال وبعد عقدين الجنوب، وشيء مشابه في الثورة الصينية ومرحلة الجزر التي تشهدها المسيرة هي مرحلة مؤقتة، فالتناقض التناحري مستمر وثمة تغيرات إقليمية ودولية تصب في التحليل الأخير، في طاحونة القضايا العادلة والتحررية، بما فيها النضال الفلسطيني. وهذا الموضوع عرضته في تحليلات سياسية في الأشهر السابقة.

واسمحوا لي قبل الخروج "للنزهة" الإشارة إلى أن الثوري لا يخرج من دائرة الامتحان والتحديات، وهي كثيرة، وأود حصرها في:

(1) امتحان الاختيار بين همومه الشخصية ومصالحته الخاصة وبين الهموم الجماعية والأهداف العامة. صحيح أنه يمكن الجمع أحياناً، ولكن في السياق العام عليه أن يختار، فإن اختار الهم الشخصي سقط ثورياً لا محالة إذ أن الأولوية للهم الجماعي.

(2) امتحان المصاعب والضغط سيما في التحقيق أو إغراءات المنصب والمال، وأي تراجع هنا هو خطوة أولى في طريق الترنح. بل والانكسار تحت سياط التعذيب في الزنازين هو سقوط مدو.

(3) التهاون مع العيوب والثغرات، إذ ترشح إلينا الكثير من السليبات المتفشية في المجتمع، وبل ويحمل الواحد فينا الكثير من موروثات المجتمع السلبية ما قبل التحاقه بالدرب الجديد، درب تغيير العالم، و الخطر هنا يتضاعف إذا ضعف النظام الجمعي للحركة الثورية. إذ يكون المرء مدفوعاً بقرارات وملتزمًا بأنظمة صارمة وتوجيهات قيادية في زمن المد وتوافر شرط قيادي كفؤ، أما في حالة الجزر وتفكك الحركة الثورية، لسبب أو لآخر، حينها تطل عيوبه برأسها والتي كانت كامنة وراء شخصيته الإيجابي، وهناك من سمح للسليبات أن تتعاظم وأصبح أسوأ بكثير من أسوأ الناس. هل تعرفون قصة معاوية ابن أبي سفيان الذي عينه الخليفة عمر على بلاد الشام، وأين ذهبت به الأمور بعد رحيل عمر؟ وهل تعرفون قصة السادات الذي عينه عبد الناصر نائباً له أثناء غيابه عندما ذهب لمؤتمر القمة العربي؟!!

وللحديث بقية نتعرض للمهوس الفلسطيني، أي إضاءات يسارية فلسطينية، حيث تتفاعل النظرية مع المهوس. وأسوق أدناه سلسلة نقاط أو موضوعات تنتمي للرؤيا اليسارية التي أتحدث عنها:

أ. ترابط الوطني مع القومي فنذ البدء قالت أن النضال الفلسطيني رأس حربة للنضال العربي، يحافظ على حالة الاشتباك الذي يسهم في تعبئة وتحريض الشارع العربي. أما تحرير فلسطين فهي مهمة قومية عربية وأن الحل الديمقراطي الجذري للقضية الفلسطينية يأتي في سياق عربي تقديمي. وأن حركة الجماهير العربية المنظمة هي حجر الزاوية في جمع خلاق بين حرب الشعب والجيوش النظامية. وفي زمن عبد الناصر كان ثمة أفق محدود لهذه الأطروحة، أما السادات فقد وقع على كامب ديفيد وأخرج مصر من دائرة الصراع، وإحدى التزاماته التخلي عن القضية الفلسطينية. ناهيك عن ما تعرضت له المقاومة الفلسطينية في الأردن ولبنان في السبعينات. أما انخراط العرب في المقاومة الفلسطينية فهو محدود، على رغم أهميته، وهذا حال الجبهة العربية الداعمة للثورة الفلسطينية بقيادة كمال جنبلاط. أما الصيغ والمؤتمرات القومية اللاحقة فكانت أقرب لمواقف سياسية ومعنوية وحسب.

والجديد هنا، هو احتلال القوات الإسرائيلية لبيروت عام 1982، وولادة حزب الله وما أحرزه من تحرير للجنوب اللبناني عام 2000 وانتصار عام 2006. ولا يجوز هنا نسيان جبهة المقاومة اللبنانية وحلفاء حزب الله.



واليوم بات الحزب يشكل بما لديه من قدرات صاروخية "خطراً تكتيكياً" باعتراف رسميين إسرائيليين، ودوره الكبير المعمد بالدماء في الأزمة السورية وأبعاد انتصار محور المقاومة وما يحمله من ديناميات على رسم منظومة إقليمية وحروب محتملة. وفي استشراف المستقبل لا ينبغي استبعاد انضمام حركات شعبية عربية لهذا المحور.

وفي المنظور اليساري، كانت الرؤية القومية تقوم على النضال الثابت من أجل مشروع عربي نهضوي ينتهي بتوحيد الأمة العربية.

ومفيد هنا قراءة مجلد "حزب البروليتاريا العربي" للمفكر الياس مرقص وتجربة حزب العمل الاشتراكي العربي بل وقيادة حركة القوميين العرب للثورة في اليمن الجنوبي التي أسفرت عن طرد المستعمر البريطاني. ويخيل إلي أن التاريخ العربي على أبواب مرحلة جديدة تتجاوز القطرية والتقسيمات الطائفية والمذهبية والذهاب المتدرج نحو مشروع نهضوي قومي وحدوي، قواه الاجتماعية هي ككله تاريخية تقدمية. وهذا تحدثت عنه من قبل.

ب. ترابط الطبقي مع الوطني، بإكساب النضال التحرري بعداً طبقياً يتخالف الطبقات الشعبية من عمال وفلاحين وطبقة وسطى وبرجوازية صغيرة وصولاً إلى دوائر من البرجوازية الوطنية، على قاعدة التثبث بالأهداف الاستراتيجية والتحرير "على ألا ينتهك التكتيك الاستراتيجية وألا تنتهك السياسة الإيدولوجيا" (الحكيم)، وما يتطلبه من أشكال نضال وتكتيكات، استناداً إلى المرجعيات النظرية اليسارية حول المسألة الوطنية كما عرضها لينين والمسألة الطبقيّة كما عرضها ماركس. وفي ورقتي حول الحزب والحركة الاجتماعية تطرقت فيما تطرقت لهذه المسألة.

والتحدي النظري هنا هو قراءة لوحة التناقضات قراءة صحيحة دون إسقاط لتجارب أخرى على الواقع الفلسطيني، بل الاسترشاد بالفكر النظري لتشخيص صحيح للحالة الفلسطينية والعربية.

طبعاً لا يمكن تقديم تحليل رصين و متماسك دون الإمساك بالقانونين الاجتماعيين الأساسيين، قانون توافق علاقات الإنتاج مع القوى المنتجة وقانون توافق البنية الفوقية مع البنية التحتية، أقول توافق وليس تطابق، ذلك أن التاريخ يفسح المجال لتقدم نسبي لهذا الشق من القانون على الشق الثاني، كل ذلك في

سياق تحليل التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية. وأعرف أن هذه لغة نظرية تتطلب الشرح الأمر الذي سأقوم به في الإجابة عن التساؤلات.

ولكن بقدر صحة هذه الأرضية، بقدر ما يستدعي الأمر حضور التناقض القومي وإسقاطاته على التشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية وبالعكس. ففلسطين استبيحت من كولونيالية عنصرية اقتلاعية قطعت سياق تطورها لدولة عادية. فهنا ليس فرنسا أو البرازيل على سبيل المثال. الشيء الذي يقتضي قراءة القانونين الاجتماعيين وحضورهما في الملموس الفلسطيني العربي على وجه التحديد وليس كما يحضران في دولة قومية عادية. وهذا يتجلى بدهاءة في تحديد الأولويات ومواقف الطبقات والشراخ الاجتماعية والنخب كما التحالفات والأهداف، أي ينعكس في كامل الرؤية الاستراتيجية.

ومن المفيد إثارة سؤال أو سؤالين: لماذا وقّعت نخب على أوسلو ونخب أخرى ناهضت أوسلو، والسؤال الآخر لماذا حصل في مصر ما حصل بعد رحيل عبد الناصر ولم يحصل ذلك في كوبا بعد رحيل فيدل كاسترو، بل لماذا لم يسلح عبد الناصر الشعب بعد هزيمة حزيران أو قبلها بينما لم يخش كاسترو من تسليح 3 مليون مواطن عندما هدّدت أمريكا باجتياح الجزيرة بعد اجتياح جزيرة غرانادا أو تسليح مليونين وربما أكثر في إطار اللجان الثورية البوليفارية الريفية للجيش الفنزويلي؟ وما صلة كل ذلك بالمضمون الطبقي والهوية الفكرية لهذه القيادات؟

هذا يستحق وقفة منفصلة.

المشروع اليساري الفلسطيني مليء بالثقوب، ولكنه، وعلى أقل تقدير يسار المقاومة، لم يذهب للتوقيع على اتفاق أوسلو وما نتج عنه رغم التساؤلات حول مشاركته في انتخابات "التشريعي" وقد عارض القيادة الفردية وغياب رؤية تنموية استقلالية، وفصل القضية الوطنية عن عمقها القومي التحرري المناهض للإمبريالية. مهد نهج أوسلو الطريق لتغييرات جذرية في الخارطة السياسية والهوية الوطنية وأضعف إلى حد الاستنزاف م.ت.ف كإئتلاف وطني عريض فتلقت الضربات بانفضاض قطاعات شعبية واسعة عنها وحلول السلطة بل سلطتين محلها. وهذا من غير المؤكد أنه في مصلحة القضية الوطنية ومستقبلها والشعب الفلسطيني ووحدة مصيره.

لقد شوهدت وأربكت مرحلة أو سلو خارطة التناقضات الداخلية وطرائق التصدي لها والأهداف المتوخاة للمسيرة الوطنية بما يعيد للواجهة أهمية المشروع اليساري والفكر اليساري للمساهمة في خلق توازنات أفضل للمشهد الفلسطيني ورؤيا أكثر اتساقاً للمستقبل متناغماً مع المشروع العربي النهضوي ومقتضيات العصر، وتمسكاً بالحقوق الأصيلة للشعب الفلسطيني وبعيداً عن الليبرالية الجديدة وتدميرها المنهجي للطبقات الشعبية وقيم التضامن "لقد حطمت اليوتوبيا" (سعد الله ونوس).

ج. بناء الأداة القادرة على حمل المشروع اليساري التحرري، سواء في شقها الطبيعي أو شقها الشعبي. وربما مناسب استحضار كلمات الحكيم "أدركت الجبهة منذ البدء أن الحزب ليس مسأله ثانوية في النضال بل أساسية. إنه الحلقة الأشد استعصاء في مراحل نضالنا وتجارب الشعوب برهنت أنه دون حزب ثوري يعي وينظم ويخطط ويقود لا يمكن أن تنجح ثورة... إنه السلاح التنظيمي القادر على تعبئة الجماهير وخوض النضال، إنه الحلقة المركزية. والحزب الماركسي - اللينيني الفيتنامي كان كلمة السر والعامل الأساسي في صمود وانتصار الثورة... فوجدت الجبهة لتعطي الثورة الفلسطينية حزبها الثوري القادر على مجابهة المخططات وإدارة المعارك. حزب يسترشد بالماركسية - اللينينية ويحدد طبقات الثورة ودور ونهج كل طبقة ويقرأ الخصوصية الفلسطينية..."

وبالطبع ليس المشروع اليساري الفلسطيني حكراً على فصيلة يسارية دون غيرها، وإنما يشمل القوى اليسارية وفي مقدمتها الجبهة بما لها من وزن وفاعلية رغم انحسارها الراديكالي.

وصرفت جهود جبارة لبناء الطليعة السياسية، ولكن ما بعثر معظم الجهود هو الجغرافيا السياسية العربية غير المواتية، التي استنزفت كافة فصائل الثورة في حروب طاحنة ومؤامرات سياسية لم تتوقف وحالت دون تأمين قاعدة ارتكاز، ناهيك عن دور المستعمر و ضرباته المتلاحقة.

أما مقولة لينين "الحزب قلعة لا تقتحم إلا من الداخل" فهي صائبة أيضاً، بما شاب مسيرة الجبهة من انشقاقات وإخلالات "الأخطاء الكبرى هي أخطاء القيادات" (جورج حاوي) و"الحزب قيادته أولاً" (الحكيم)، فلها الدور الكبير في عملية البناء والتركييم كما لها الدور الكبير في التراجع والأزمات.

ومسيرة الجبهة راكمت الكثير على صعيد بناء الأداة التنظيمية وكان لجناح الخارج دوره ولجناح الداخل دوره، دون أن ننسى دور السجون ويمكن الاستطراد والتشعب، غير أن معظم ما راكته الجبهة في مرحلة ما قبل أو سلو قد "تجزئ" في مرحلة أو سلو كمرحلة مجافية كشفت العجز والفشل في التعاطي مع مفرداتها إلى درجة أن غاصت في أزمة بنيوية لم تتحرر منها بعد.

ولكن ذلك لا ينتقص قيد شعرة من حاجة الشعب لحزب يساري ثوري يجيد ويجمع كافة أساليب العمل، حزب له أوسع التحالفات على صعيد عربي شعبي وأوسع التحالفات على صعيد الحركات اليسارية والتقدمية في أرجاء العالم، أي ما كانت عليه الشعبية والديمقراطية في مرحلة صعودهما. حزب له قيادة نظرية كفؤة وقيادة تنظيمية كفؤة وقيادة سياسية كفؤة ونقابية كفؤة، إلخ، وهذا يرسم المستقبل. وإن لم يتحقق ذلك ملأت اتجاهات أخرى الفراغ. فالتاريخ لا يعرف الفراغ.

د. قراءة لوحة التناقضات وطابعها ووسائل حلها والتحالفات التي تقتضيها. فعالمياً هناك التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية، وتراجع هذا التناقض مع انهيار المعسكر السوفيتي، والتناقض بين الجنوب والشمال، أي بين التحرر الوطني والإمبريالية وما يرتبط به من تنمية مستقلة وفك ارتباط وتبعية، والتناقض الطبقي داخل المجتمعات الرأسمالية بين العمال والشغيلة والمهمشين والاحتكارات الرأسمالية التي تهيمن على الاقتصاد والدولة وقطاعات واسعة من المجتمع المدني. ومفردة الهيمنة الغرامشية مفتاح هنا وأداة تحليل.

وبالتالي أعتبر المشروع اليساري التحرري الفلسطيني نفسه جزءاً من العملية الثورية في تحالف مع القوى الاشتراكية والتحررية والطبقات الثورية. ولكنه لم يخف استقلالية رؤيته وخلافه في قضايا عديدة مع القلعة السوفيتية. فهو لم يرفع المظلة كلها أمطرت في موسكو. وهذا أفصله لاحقاً.

وكان القانون الناظم هو الوحدة والنقد.

وحول الوطن العربي ميز هذا المشروع بين أنظمة برجوازية قومية خاضت الحرب عام 1967 وبعدها، وبين الأنظمة العربية الرجعية التي تدور في الفلك الإمبريالي أو البرجوازية الساداتية التي قادت مصر إلى ما قادتها إليه من كامب ديفد ومحوطه.

وحدد قانون التحالف والتناقض مع الأنظمة الأولى، وكانت تحليلاته تشي بأن البرجوازية القومية عاجزة عن مواجهة المخططات المعادية وقد سقطت برامجها في حرب حزيران 67 دون أن يسقط دورها التاريخي. أما الرجعية فقد اعتبرها جزءاً من معسكر الأعداء ونأى بنفسه عنها وعن عوائد البترودولار. وأقام علاقات متنوعة مع القوى التقدمية الشعبية وشارك في مؤتمرات قومية متعددة الأطياف الفكرية والسياسية.

وفيما يخص الساحة الفلسطينية، فاللوحة معقدة ومركبة وفيها مشارب فكرية وسياسية واجتماعية متعددة، ولكنه استخلص أن قانون الوحدة والتناقض هو المظلة العامة، وعمل من أجل توحيد الأداة الفلسطينية في إطار جبهة وطنية وتناقض في القضايا المختلف عليها وبما فيها التفرّد والإقصاء.

ومن هذا المنطلق رفض وأدان اللجوء للعنف في حل التناقضات الداخلية سواء في البقاع ولبنان أو قطاع غزة وشدد على أن حل التناقضات يتم بالوسائل النظرية والانتخابية. ودون قراءة صحيحة للوحة التناقضات لا يمكن استخلاص الوسائل الصحيحة لتسويتها أو إقامة التحالفات على قاعدة وطيدة.

وفي الساحة الفلسطينية ليس تناقضات سياسية فقط بل وطبقية وثقافية أيضاً، بل وقد اتسعت التناقضات الداخلية في مرحلة أوسلو وباتت تستوجب إقامة اصطفاقات متحركة مرة ميدانية ومرة سياسية ومرة ثقافية واجتماعية ولكن على الدوام بالانحياز للقضايا العامة وتغليب الوطن وحمود الشعب والتقاطع على القواسم المشتركة مهما كانت سياسية أو ميدانية أو مجرد موقف واحد.

فالفلسطيني لا يملك رفاهية تجاهل المشتركات وتبديد الطاقات وتراشق الاتهامات. وبالمناسبة علينا أن نحذر من الشيطنة وأبلسة الآخر وكذا من إحلال الشتائم محل التحليلات المدعومة بمعطيات حقيقية، فمثل هذه النزعة تعني عدم وصولنا إلى مستوى السياسة. فالسياسة صراع على برامج ومصالح وليس شتائم وشيطنة.

وعلى الدوام هناك قواسم ميدانية مشتركة رغم الانقسامات السياسية ولكن "العقل القيادي" لا يذهب لهذه المساحة محاولاً إملاء رؤيته على الآخرين وتكريس شرعيته وكأنها الشرعية الوحيدة. وهذا متعذر اليوم وقد باتت الانقسامات عمودية والكفة متعادلة.

سوف أتوقف هنا، وفي النقاش أضيف نقاطاً أخرى، وبذلك أكون قد وصلت إلى تناول الفكر مباشرة بدءاً من الفلسفة، هذه المفردة التي ترجمها البعض "حب الحكمة" بينما ترجمتها حاجة الناس للمعرفة وقدرة الناس على الوصول لمعرفة صحيحة. أي أن العقل الإنساني هو مصدر المعرفة والفلسفة والإجابة عن التساؤلات. وهنا قد أعرض 20 محاضرة أو أكثر في مختلف الميادين الإيديولوجية والنظرية.

وشكراً

\*\*\*\*\*

ختاماً لا تشملنا المقولة الساخرة "كلها أمطرت في موسكو رفعنا المظلات في بلادنا" ولا مقولة "أسقطنا الوعي على الواقع بينما المطلوب استخراج الوعي من الواقع" ذلك أننا وفي وقت مبكر قلنا أن المشروع الصهيوني في فلسطين هو مشروع استعماري إمبريالي لا نعترف به ولم نقل أنه دولة قومية عادية يتوجب الاعتراف بها، وأن التاريخ لا يتعايش مع العنصرية، سواء كانت "آشورية" أو نازية أو من اعتقدوا أنهم الأفضل في التاريخ، فالعنصرية مآلها الزوال، وليس هناك أمة لها الأفضلية لدى السماء أو على الأرض، فكثير من الحضارات تفوقت ولكنها اندثرت. والعرب في نهاية الأمر كما الإقليم وكل قوى العدالة والتحرر في العالم لن يقبلوا إنكار وجود شعبنا وتطلعاته بالحرية والعودة لوطنه وأملاكه، وهناك كيون هائل لدى العرب على كل الصعد حيث تتوحد معركتهم للتحرر من الإمبريالية والتبعية والتخلف والتجزئة مع معركتهم للتخلص من عوامل قهرهم وتبديد ثروتهم وسيادتهم سيما من الأنظمة الاستبدادية ومعركتهم من أجل تحرير فلسطين وعردة العنصرية الإسرائيلية التي لا تقم حساباً للعرب أنظمة وشعوباً، وتنتظر لهم مجرد "سقاة ورعاة" عليهم خدمة السيد "اتحاد المال العربي والعقلية الإسرائيلية" بلغة بيرس.

وعليه لقد استخرجنا موقفنا من خصائص قضيتنا وليس من ملفات الخارجية السوفيتية أو إملاءات الخارجية الأمريكية، مع الفارق بينهما. فشعبنا تعرض لتطهير عرقي وتعرض وطنه وأملاكه للسرقة، وليس حسب الرواية الفلسطينية ورواية التاريخ فقط، بل وهناك أقلام صهيونية قيادية كتبت ذلك أيضاً. ومفاتيح بيوتنا التي

اقتلنا منها ما زالت معلقة على الجدران، وآباؤنا أحياء وذاكرتهم تبدأ من طفولتهم التي ترعرعت في حقول وروابي فلسطين.

وكما قال الشهيد وديع حداد للرئيس الروماني الأسبق "لا سلام دون عودتي إلى مدينتي صفد."

وقد اعتبرنا منذ البدايات أن الاستعمار وبالتالي الإمبريالية والصهيونية وقاعدتها إسرائيل معسكر واحد، ولم نهادن يوماً الإمبريالية، ولم نلجأ للبيت الأبيض لإعادة حقوقنا ولم نرتن للمشروعات الأمريكية قديمها وحديثها. أي لم يرتبك تحليلنا ولم يهتز أو يتبدل موقفنا من الإمبريالية. فهي أعلى مراحل الرأسمالية، بلغة لينين وحليف استراتيجي للصهيونية، بل لا يوجد سياسة مستقلة لأمريكا، فهي والسياسة الإسرائيلية وجهان لعملة واحدة. وبالعودة للاستراتيجية السياسية والتنظيمية منذ عام 1969 يظهر بجلاء هذا الاستخلاص الثابت في رؤيتنا وبرنامجنا.

وقد أكدنا على عدالة نضالنا، مثلما انتقدنا عيوبنا وثغراتنا، فهدف نضالنا هو تحرير بلادنا وإقامة دولة ديمقراطية وعلمانية في فلسطين، "ديمقراطية شعبية"، "لا تمييز ديني ولا جنسي ولا عرقي فيها" وهناك مقاربات عاجت هذه الموضوعة النظرية، وصيغتها النهائية يستخلصها جيل التحرير، فالفكر السياسي يرتبط بالممارسة السياسية، وليس مخططات هندسية أو أكاديمية تسبح في الهواء، بل أقدامها على الأرض وتفاعل مع الحقائق على الأرض، إنها براكسيس. ولكن لم نذهب يوماً لشعار الدولتين أو لشعارات إيدولوجية وجعجعات نظرية منفصلة عن نار النضال وتضحياته.

أما التحرير، فقد ربطنا النضال الوطني بالنضال القومي التحرري والتقدمي بانفصال كامل عن الأنظمة الرجعية والبرجوازية المستسلمة وقدمنا تحليلنا للبرودولار وارتداد النظام المصري وتوقيع كامب ديفيد من قبل البرجوازية الطفيلية الساداتية سواء في عهد السادات أو مبارك وذهبنا للانخراط في تجارب عدة لبناء حركة التحرر العربية سواء حزب العمل الاشتراكي ومن قبله تجربة حركة القوميين العرب التي قادت الثورة الظاهرة في اليمن الجنوبي أو جهات تقدمية أو مؤتمرات قومية تضم ائتلافات وألوان شتى، وكانت لنا تجربة مميزة مع الحزب الشيوعي اللبناني، ولم نتردد في تقديم المساعدة ضمن إمكاناتنا المتواضعة لحركات يسارية عربية وأجنبية بل وحلقات يهودية معادية للصهيونية والاحتلال.

وقد حددنا معسكر الأصدقاء والحلفاء، وكانت لنا علاقات واسعة مع المعسكر الاشتراكي ولقاءات مميزة مع قائد الثورة الكويتية فيديل كاسترو، ومع عشرات الحركات اليسارية الثورية، ناهيكم أن الشهيد وديع حداد أنشأ حركة عالمية لمواجهة الإمبريالية، كان لها صولاتها وجولاتها.

ويمكنني الاستطراد، ولكن هذا أتركه للنقاش، فالمهمة الأصعب هي بناء الأداة الثورية القادرة على حمل البرنامج وترجمة التكتيكات. هذا هو التحدي الأكبر والاختبار الحاسم.

ومثل هذه الرؤية البرنامجية هي التي أبعدتنا عن شعار (اللهم وحدي) وعن الانخراط في اتفاق أوسلو وسعيينا الدائم لإقامة جبهة وطنية عريضة في إطار م.ت.ف و اشتباكنا النظري مع التفرد والاستزلام مع الحرص على م.ت.ف وصولاً إلى قول الحكيم "لن ينتصر النضال بقيادة البرجوازية اليمينية" و"أنها كانت مخلصة في البدايات ولكنها أمام مصاعب النضال باتت تبحث عن مساومة"، هذا قبل أوسلو. وعندما يتباعد الموقف السياسي نبحت عن قواسم ميدانية لحماية للبندقية والمخيمات والدم الفلسطيني ووحدة الحركة الأسيرة. والسيناريو هنا طويل ويستحق وقفة منفصلة. أي العلاقات الفلسطينية - الفلسطينية والتناقض بين اليسار واليمين وجولات الخلاف وسبل العلاج بعيداً عن العنف والدم.

لقد تركزت جهود هائلة لحماية الثورة وبناء الحزب الثوري. ويسار المقاومة كان منطلقه واحداً، بناء يسار مقاتل. ولم يتراجع عن هذه المقولة وإن شهدت مسيرته نجاحات وإخفاقات. ولكن ذبح البندقية الفلسطينية في الأردن كان له إسقاطاته على مسيرة الثورة بما فيها يسارها. والضربات الاحتلالية في الداخل والخارج، فالبندقية لم تنشأ في دفيئة، بل في معمعان المعارك والصراع، كان لها آثارها أيضاً.

وقد قطع شوطاً لا يستهان به ما قبل أن تعصف فيه أزمة بنوية منذ ربع قرن، وهذا تطرقت له سابقاً. وهو اليوم أمام امتحان الوجود امتحان القدرة على الاستجابة لوظيفته التاريخية وفي جعبته إرث خصب وهو عامل إيجابي بلا ريب.

ولا ننسى أن اليسار قد أولى أهمية حقيقية للبعد الثقافي والفكري، وهذه إحدى مزاياه التي دمغته ببصمة، وعلى الأغلب أن يكون لها دورها في نهوضه، رغم كل ما يقال عن فقره النظري وندرة كادرته الأكاديمية والأعلامية البارزة.



ولعلي في الفقرات أعلاه أضأت بعض جوانب إبداعه وتفاعله مع خصائص الواقع الفلسطيني، آخذين بالحسبان ثلاث نقاط:

1- نظرته للاجئين، فاللاجئون هم أغلبية الشعب الفلسطيني، وحق العودة هو جوهر القضية الوطنية، وليسار المقاومة ثقل ملحوظ في المخيمات، وعلى الأقل في مرحلة ما قبل أوسلو حيث تراجع هذا الثقل عموماً في مرحلة أوسلو لكن دون أن يتهمس. وبالتالي لم يغرق اليسار ولم يبالغ في مقولات طبقية عن برجوازية وعمال وفلاحين وبرجوازية صغيرة في المخيمات. إذ هناك ما يجمعها أكثر مما يفرقها، فهي كلها مقتلعة من وطنها ووسيلة إنتاجها.

2- نفس الشيء حول العمال، فهناك بحث لأحد الرفقاء منذ أوائل الثمانينات عن الطبقة العاملة بأنها طبقة في ذاتها أكثر منها طبقة لذاتها، وبالتالي لم يغربنا مقولات عن الطبقة العاملة كما درسناها في الكتب، ولا اتساع قاعدتها إذ رأينا الاقتلاع واحتجاز التطور في الأراضي الفلسطينية سواء 67 أو 48 وفي الإلحاق الاستعماري للسوق الفلسطينية، وإسقاطات ذلك، ورحنا نركز على مقولة غرامشي (الكلمة التاريخية) ودور المثقف النقدي البنوي وبناء صيغ تنظيمية تلائم خصائصنا بعيداً عن المدرسة السوفييتية.

وبطبيعة الحال كان التحليل الطبقي حاضراً على الدوام ولكن ضمن خصائصنا.

3- الموروث الثقافي والديني ومخلفات القرون الوسطى. فمجتمعنا ليس مقتلعا من وطنه فقط، وتستبيحه عنصرية استعمارية إحلالية فقط بل هو مجتمع تقليدي أيضاً، تغلب على بنيتة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مكونات ما قبل الرأسمالية والثورة الصناعية.

وعليه لقد حظيت هذه التركيبة بالنقد وتكريس مقولة المواطنة وحق الاختيار وحرية ومساواة المرأة وإشراكها في النضال وبناء المثات من الكادرات العمالية والنسوية ونشر الفكر الاشتراكي التحرري. ولم نتردد نسبياً في الاشتباك مع المقولات الجبرية والعقلية السلفية والمنظورات العشائرية. وكان المؤشر صاعداً إلى أن داهمت اليسار أزمة بنوية كشفت عيوبه وأطلقت العنان لثغراته التي أصبحت سائدة نسبياً.

هنا لا ينبغي إضاعة الاتجاه. فالمنطق الديالكتيكي يقوم على أن كل شيء وكل ماهية بما في ذلك اليسار مكون من "أ + ب"، وقد طغت العناصر الإيجابية لـ "أ" في مرحلة الصعود وانحسرت العناصر السلبية لـ "ب" أما في

مرحلة الأزمة فقد تنامت "ب" على حساب "أ" وحصل تفكك وتحلل وعودة للمنظورات التقليدية لدى أوساط يسارية لا يستهان بها.

وبالتالي، فاليسار دائماً تركيبة، ولم يكن دائماً مأزوماً ولم يكن مظهره الرئيس دائماً الانحسار وقلة الفاعلية والفقر القيادي. بل كان على العكس ومن هنا كانت ثنائية فتح - الشعبية في الخارج أو الداخل أو داخل جدران السجون الاحتلالية.

فهل شاخ اليسار أم أن شيخوخته مؤقتة ولديه قابلية للتشعب والنهوض ثانية؟ هذا هو السؤال المركزي في السنوات المقبلة ولو ذهبت لمزيد من الجراءة النظرية لقلت: أن اليسار أمام امتحان الوجود، أن يكون أو لا يكون، هذه المقولة الشكسبيرية.

وربما لا تعرفون أزمة الشعبية عام 1972 أو تصفية وجودها في الداخل عام 1976 وضربة قوية عام 1985، ولكنها نهضت ثانية وفي مقدمة الأسباب توافر الشرط القيادي أو على الأقل تراكم الشرط القيادي في تلكم السنوات. وما خلقته من انتماء فكري وسياسي وترايط تنظيمي وتضحيات مشتركة وقراءة صحيحة لخارطة التناقضات وتعبئة الجميع بقدر أو بآخر، بفكرها السياسي كان المحصن الأول الذي منع تحول جماعي لامتداداتها إلى فصائل أخرى لديها إمكانات مالية وفرص توظيف وبالكاد نرى فرداً هنا أو هناك ذهب باتجاه تنظيم آخر. فالتحلل الراديكالي في البنية لم يعقبه تحولاً، بل انكفاء في البيت وحسب بانتظار فرصة تبعث أملاً ووعداً وعلاجاً لقوة الطرد التي انفلتت وعجزاً قيادياً لا مرأى فيه. ولكن ثمة جدلية لا تخفت في أوساط الشعبية، جدلية لم تستسلم لما أصبحت عليه، بما يبشر باحتمالات. أما الآلاف المؤلفة فهم ينظرون لأنفسهم كجبهة شعبية أكثر من الحالة الرسمية، ويؤدون دورهم كل في ميدانه دون صلة بالحالة القائمة المأزومة والطاردة.

إن الشعبية حالة خاصة وينبغي فهمها كحالة خاصة، وعلاجها لن يكون إلا إذا تمتع بفهم الخصوصية.

صحيح أن عملية التحول من الديمقراطية الثورية إلى الماركسية - اللينينية لم تستكمل ولكن ما أنجزته على صعيد فكري وتنظيمي وطبقي وميداني وسياسي وأخلاقي، قد حال دون فقدانها خانتها المميزة وحافظ على جذور خضراء قد تتحول لشجرة باسقة مرة أخرى في حالة أن تتخلص من إخلالاتها الأساس.

ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن الشعبية ليست مجرد تنظيم له تخوم، بل لهذا التنظيم أيضاً قاعدة جماهيرية عاطفة تحمل بصمات التأثر والتأثير أيضاً. ولهذا ليس صدفة أن يكون لها تربة وحضور وازن في هذا الخيم أو ذاك وفي هذه المدينة أو تلكم القرية أو في أوساط ثقافية وأكاديمية رغم غياب الأداة الحزبية أو أن تكون مجرد نوية محدودة العضوية.

ورؤية الشعبية عموماً غير مختزلة، فهي تشمل رؤية تنموية أكثر اتساقاً من سواها وهذا تكشفه التجربة الكويتية أو الصينية التي تقودها أحزاب ماركسية - لينينية، وتشمل قضية المرأة والعمال بأبعاد أكثر جذرية، وربط التاكسيكي بالاستراتيجي رغم تفوق قوى أخرى لها دور أكبر في حقل المقاومة في المرحلة الحالية، ناهيك عن ربطها الوطني بالقومي وصولاً للأمني واستخلاصها لقوانين ناظمة في الحقل الوطني والقومي والأمني تبعدها عن أية تخبطات وبحثها الدائم عن اصطفاقات ميدانية وجزئية رغم الخلافات السياسية.

ولم يكن بلا معنى أن الشعبية لم تنورط في الدم الفلسطيني ولم تتخبط في العلاقة مع الأنظمة الرجعية ولم تفقد هويتها ورؤيتها في علاقاتها مع الحلفاء الأيمنين. وأظن أن هذا العنوان تحدثت عنه من قبل.

ورغم تراجع اليسار وانحساره غير أن بصماته ملحوظة في البناء الفوقي الفلسطيني فأغلبية الشعب تنحاز للعلم وحق التفكير والمواطنة المتساوية والحق في الإضراب والتظاهر والنضال النقابي، والتمسك بالحقوق التاريخية والاستراتيجية والحرص على الانتماء القومي والانحياز للمشروع النهضوي العربي، وأهمية الأحزاب الثورية والحركات الاجتماعية وحقوق المرأة ومساواتها ومشاركتها واختيار زوجها، وهي شريك في الكثير من المبادرات الثقافية. فأين كان الوعي الاجتماعي الفلسطيني قبل الـ67 وأين أصبح بون شاسع رغم المد اليميني في مرحلة أوسلو.

وكثير من الألسن تلهج بمبدأ حق الأمم في تقرير المصير اللينيني وأنه لا يكفي تفسير الواقع بل ينبغي تغييره أيضاً، تماشياً مع المنظور الماركسي، والذي يعبر عنه الناس بالقول لقد شعبنا كلاماً نريد أفعالاً.

ولليسار مساهماته الفكرية وإنتاجاته الإبداعية أيضاً في حقل الأدب والشعر والفكر والفن ورموزه كثيرة على هذا الصعيد بما يفوق كثيراً وزنه السياسي وفعله النضالي. ولي ملاحظة نقدية هنا، تتمثل في انتقال اليسار من الفكر السائد إلى الفكر الماركسي، فيما يندر وجود من قرأ الفكر الرأسمالي والعلوم الرأسمالية وفكر ما قبل الديانات

في الشرق الأوسط أو الإقليم، وهذا خلل له إسقاطات سلبية. وسوف أوضح ذلك في النقاش، كما أن التعبئة تأخذ في كثير من الأحيان الطابع التلقيني لا التحليلي وهذا يخنزل العقل وإطلاقته. ناهيك أن اليسار في مجمله قد غلب المقولة العملية والنضالية على حساب المقولة الثقافية، وانشغال بعض إقلامه في الجدل بين المدرسة السوفيتية والمدرسة الصينية، بينما الأقرب للتجربة الفلسطينية هي التجربة الكويتية في بعض أبعادها ونموذج جنوب أفريقيا في أبعاد أخرى.

ومهما يكن من أمر، فالتجربة اليسارية الفلسطينية أشبه ببروفة رغم طول وتعقيدات فصولها، وأظني منحاز لرأي مفاده أن زمان اليسار لم يحن بعد ارتباطاً بالجغرافيا السياسية العربية وما أصبح عليه حال اليسار من ضعف، أما وقد سقط المشروع الداعشي ومن قبله العثماني والخليجي، ناهيك عن استنفاد المشروع القطري طاقته التقدمية، وصولاً إلى ما آل إليه مشروع أوصلو ومحدودية مشروع قطاع غزة، فيبدو لي أن مرحلة تاريخية جديدة تتشكل في الأفق فلسطينياً وعربياً. وهذا أفضل أن أعرضه في مداخلة منفصلة.

وتعتبر الماركسية - اللينينية من أغنى المرجعيات الفكرية، بل الأغنى، في الزمن المعاصر في حقول الفلسفة والاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والفن، فهي مستقاة من الحياة المعاصرة المتشعبة والمتطورة، وبلا ضفاف إذ تمثل المتغيرات والمنجزات الجديدة، وهذا ثبتت فاعليته في قيادة ثورات عظيمة في بلدان كبيرة وصغيرة، كما ثبتت فاعليته في قيادة بناء مجتمعات جديدة ومشروعات تنموية ضخمة، مثلما ثبتت فاعليته في توعية وتعبئة مئات ومئات الملايين الذين انتقل بهم من مستوى إلى مستوى يجمعهم التضامن الإنساني والتضامن الثوري التغييرى ناهيك عن إطلاق إبداعات ملايين وملايين من الكُتاب والمفكرين والمنظرين والفنانين والأكاديميين والقادة الثوريين الكبار والقادة العسكريين الكبار الذين انغمسوا من الرأس إلى الكعب في معمران مقارعة الظلم والطغيان على امتداد حياتهم دون أي منفعة شخصية، بل ولم يتركوا لعوائلهم سوى سمعهم وبصماتهم على التاريخ.

## في الأخلاقيات اليسارية والأخلاق الجنسية

أسوق هنا محاضرة ارتجالية ألقيتها في السجن ولاحقاً في طلبة بكالوريوس وماجستير، وفي السجن امتدت على عدة لقاءات.

منذ البدء يتعين الإشارة إلى أن هذا العنوان إشكالي ومتشعب لكن حسبي الانطلاق من نقطة مفتاحية، أن التربية هي مجموعة قواعد عن الخير والشر، الصح والخطأ، الحلال والحرام في الأوساط الدينية، والشروحات كثيرة كما الكتب، وهذا لن أذهب إليه. أما الأخلاق فهي منظومة قيم تسعى التربية لزرعها في الإنسان كفرد ونوع، وهي بدهة ركن ركين في البناء الفوقي والإيدولوجي. وثمة تداخل بين الأخلاق والتربية، وفي الحالتين هما ضرورة اجتماعية ومتطلب حضاري لا مهرب منه، وسمحوا لي أن أذكر بمقولة المنظر والثوري بلا خدوش لينين "السياسة تتحرك على أرض الفلسفة" وبالتالي أضيف أن الأخلاق تتحرك على أرض السياسة أيضاً، بل أن الأخلاق هي جزء من الإيدولوجيا التي توجه السياسة. وبلغتة الدكتور جورج حبش "الإيدولوجيا تحدد والسياسية تحسم" وهذا أتطرق له عند الحديث عن الإيدولوجيا والسياسة. والعملية جدلية لتحويل الواقع وتحويل الذات الفاعلة سواء كانت طليعة منظمة أو فرد.

وأريد أن أستبق سياق المحاضرة باستدعاء كلمات الفيلسوف ماركس الذي أصاب جوهر السياسة "لا يمكن لسلاح النقد أن يحل محل نقد السلاح، فالقوة المادية يجري قلبها بالقوة المادية".

ولأن هناك إيدولوجيات وبنى فوقية، فهناك تربية وتربية، أخلاق وأخلاق "فأخلاقنا ليست كأخلاق الرأسماليين الإمبراليين" (كاسترو). فالإيدولوجيات ليست سواء والأخلاق ليست سواء، والتربية ليست سواء، وإن كان ثمة مشتركات في هذا الغصن أو ذاك، في هذه المساحة أو تلك، ذلك أن الحياة متداخلة والمراحل التاريخية متشابكة، أما من ناحية السمات الأساس وما يتصل بها من قيم وأهداف فالمنظورات متناقضة كما زاوية النظر. أردت القول أن الحياة أكثر تعقيد من الفلسفة الزرادشتية عن الخير والشر، أو

الصينية القديمة عن اليانغ والينغ إنها خير تجسيد للديالكتيك. وهذا لن أتطرق له إلا كإشارات تقتضيها المحاضرة. فتركيزي على الأخلاق اليسارية، أي على عنوان المحاضرة.

ولأننا نعيش زمن الليبرالية الجديدة الرأسمالية التي ترسخت في العقود الأخيرة وباتت الأقوى تأثيراً في العالم والوعي الإنساني، أي منذ تأسيسها في سبعينيات القرن الماضي على أيدي ميلتون فريدمان وسواه، وانهار المعسكر السوفييتي، وصعود عصر الاحتكارات المعولة وما يرتبط بها من سطوة إعلامية وثقافية. تصوروا أن أربعة وكالات أنباء رسمية تسيطر على 95% من الخبر وتستحوذ على أكثر من 7 آلاف فيلم وأكثر منها برامج تلفزيونية وبطبيعة الحال على شبكات التواصل الاجتماعي. تنفس البشرية هواء رأسمالياً وليس مجرد استهلاك سلع ومنتجات رأسمالية. ناهيك أننا ندرس وندرس ما تنتجه المؤسسة الأكاديمية الرأسمالية. وقد نلخص كل ذلك بريجنسكي مستشار الأمن القومي في زمن إدارة كارتر بالقول "لا داعي أن تنتجوا فأمريكا تنتج لكم ولا داعي أن تفكروا فأمريكا تفكر لكم".

وثلاث مفردات رئيسة تطفئ على الخطاب النيوليبرالي (الفردية، الاستهلاكية، الانتخابات) بأن ينشغل الإنسان بنفسه وعائلته وما عدا ذلك غير مهم. لا شعب ولا وطن ولا نقابة ولا طبقة ولا مستقبل جمعي؛ "إنها تسرق الحلم" (سعد الله ونونس).

وفي الوقت الذي يغلب على المركز الرأسمالي الإنتاج الاقتصادي والعلمي والإعلامي والفكري والفني، مطلوب من العالم أن يغطس في استهلاك ما ينتجه هذا المركز، بل أسوأ ما ينتجه هذا المركز. وهذا بداهة يستند لقاعدة تكنولوجية واقتصادية متفوقة. فمن بين 216 احتكار عملاق اجتمعت في التسعينيات كان بينها 113 من الاحتكارات الأمريكية وهي الأقوى إجمالاً أي أن قدر البشرية حسب المنظور الأمريكي الرأسمالي أن يخضع للهيمنة الأمريكية على كل الصعد فيفرط بثرواته وثقافته وهويته القومية.

دون نسيان أن بقعاً عديدة في العالم قد تمردت على السيد الأمريكي وناهضت الأمركة، عزز من موقفها الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم عام 2008 وهذا موضوع تحدثت عنه من قبل.

أما المفردة الثالثة فهي الانتخابات بعد الإسهاب في الحديث عن التعددية والأقليات. فالانتخابات بديل للسيادة، إذ ما شأنكم أيها العراقيون بالسيادة ووحدة البلاد؟ حسبكم حرية التعبير والانتخاب حتى لو جثم على صدركم

الحاكم الأمريكي براينر وقواته العسكرية. أما انتم في سوريا فينبغي تقسيم البلاد وفتح الحدود إلى 240 ألف جهادي جاءوا من 100 دولة كما نشرت المخابرات البريطانية، وطبعتهم الأشرس داعش، وصولاً إلى تقسيم سوريا والعراق على أساس مذهبي وعرقي كما اقترح بايدن نائب الرئيس الأمريكي أوباما. وفي فلسطين حدث ولا حرج "عليكم أن تكتفوا بحكم ذاتي إداري، سلطة بلا سلطة، أما الوطن والأرض فيقتضهما الاستيطان الكولونيالي، وكل من يعترض تنتظره هراوة ثقيلة، أما العاصمة فقد تم ضمها واقعياً ورسمياً بقرار من ترامب."

أذكر أن موظفاً في سفارة دولة لايتينية اقترح علي أن ألتقي السفير، فكان ردي: أنتم حكومة يمينية فإذا يجمعني بكم؟ أضاف: الانتخاب. أجبته يهمني الاستقلال وحرية شعبي أما الانتخاب فيمكنك أن تبيعه لمتقف من طراز آخر. وحضر في رأسي غرامشي ومثقف الكلمة التاريخية. فالثقافة ثقافتان أو أكثر.

وفي كل الأحوال الليبرالية والنيوليبرالية هما مضادتان للثورة سواء كانت قومية تحريرية أو طبقية اشتراكية أو تسير على هذا الدرب، علما أن الفكر الرأسمالي الليبرالي في بداياته صنع ثورات عظيمة في فرنسا وألمانيا وأمريكا وإيطاليا وبريطانيا منذ قرنين من الزمن قبل أن تنتقل هذه البلدان للمرحلة الإمبريالية. ويفيد هنا قراءة مؤلف لينين "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" وسواه كما كتابات الدكتور سمير أمين عن المركز والمحيط، وبالتالي الشمال والجنوب. وكفلسطينيين وعرب نفع هنا في الجنوب الذي استباحه الشمال الكولونيالي عقوداً عديدة.

وبالنسبة للأخلاق الدينية، فأنتم تعلمون أن الدين، أي دين، يتكون من ثلاث مفردات (عقيدة، عبادات، أخلاقيات) وكلها مصدرها السماء، أي مقدس. وهذا حال العقائد القديمة عموماً في جنوب شرق آسيا (الهندوسية، البوذية، الكونفوشية، الشنتاوية)، والشرق أوسطية (الأمورية، الفرعونية، الآشورية، الفينيقية...)، ولكن مصدرها الأرض. وعموماً يمكن اعتبار المظهر الرئيس للأوساط الشعبية في الإقليم العربي والشرق أوسطي، اليوم، هو مظهر ديني، أما علي صعيد معظم النخب وأوساط واسعة من الطبقة الوسطى وأقل الطبقات الشعبية هو مظهر عصري بين برجوازي ليبرالي ويساري. أما إن ذهبنا للعالم فالمظهر الرئيس ليس دينياً، حتى أن جنوب شرق آسيا، أي نحو 40% من البشرية بما يزيد عن 3.5 مليار نسمة لم تصلهم الدعوات الدينية إلا في أضيق الحدود. وأقصد الهند والصين واليابان والهند الصينية حيث يقتسمها الفكر الاشتراكي والفكر الرأسمالي علاوة على المعتقدات القديمة.

ومع مجيء جون ستيوارت ميل منذ قرنين تقريباً مع بدايات الثورة الصناعية استخلص "أن المعرفة تراكمية ومن إنتاج البشر" أي لا يتم العودة للنصوص الدينية في تفسير الظواهر والبحث عن الإجابات والأخلاقيات. وقال أيضاً "البشر قادرون على إدارة شؤونهم" أي ليس رجال الدين ومعتقداتهم. وشهدت أوروبا تحولات وقفزات تجلت بالانتقال للمرحلة الرأسمالية ومدنها المعاصرة وطبقاتها الجديدة وعلومها وفنونها وأخلاقياتها. وبتدرج تحولت لاستعمار وإمبرالية استباححت الجنوب الذي تخلف عن عوامل القوة وبشكل أخص الثورة الصناعية وعلومها.

طبعاً عرف العرب منذ قرون ابن رشد والفلسفة القدرية (العقل وتقديراته)، وعرفوا منذ قرن ويزيد الفلاسفة التنويريين (الكواكبي، محمد عبده، الأفغاني، شميل، سلامة موسى، أنطون فرح ١٩٠٠)، ولكن في الحالتين دون قوة اجتماعية تحول هذه الرؤى لمشروع تاريخي، بعكس الفلسفات التنويرية في أوروبا التي مهدت لظهور البرجوازية الصاعدة فتلاحم الفكر مع أساسه الاجتماعي الطبيعي.

كما عرفت أوروبا فلاسفة عقلانيين قبل ألفي سنة ويزيد (أفلاطون، أرسطو، أبيقور ١٠٠). وشيء من هذا القبيل في الصين والهند، ولكنها دعوات حلقت في السماء إجمالاً دون قدرة على شق طريق في الأرض، أو حاصرها المجتمع الإقطاعي ببناء التقليدية الاقتصادية والاجتماعية، أو حصرت نفسها بسلاسل هذه المرحلة التي استمرت مئات ومئات السنين (في النقاش أسهب أكثر) وربما مفيد أن أذكر الفيلسوف الألماني فويرباخ الذي أنشأ أطروحة عشرية ينتقد فيها قصة إبليس كما جاءت في التوراة وسواها، بأنه مصدر الشرور، والفرنسيان ديدرو ولابلاس وعشرات من فلاسفة عصر النهضة الذين كتبوا وحلّلوا وأضافوا بما مهد للثورة الفرنسية عام 1789 التي أرست عصراً تاريخياً جديداً للبشرية وهنا يمكن العودة لفولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وهذا كله سبق ماركس والأخلاق اليسارية، ناهيك عن نظريات تطور الكائنات الحية لدارون واكتشاف الخلية والذرة.

ولثلاً ينشأ أي التباس، فالفكر اليساري الماركسي ليس محصوراً بمؤلفات ماركس ومن بعده لينين بل ويشمل إبداعات وإضافات المئات من الذين ساروا على هذا النهج. أما المساهمة الأعظم فهي لماركس ولينين كونهما حللا المرحلة الرأسمالية وعصر الإمبريالية وبدايات الثورة الاشتراكية. فالفكر الاشتراكي ليس عقيدة جامدة وغير مكتمل وهو في تطور مستمر ارتباطاً بتطور الحياة. وفيه موضوعات شاخت وأصبحت من الماضي كما



يشهد على الدوام إضافات جديدة تستوجبها تغيرات الحياة "فالنظرية ملزمة أن تستوعب كل متغير جوهري،" بلغة إنجلز كما تسعفني الذاكرة. فهو ينقد الواقع وينقد نفسه. والقانون نفسه ينسحب على مكونات هذا الفكر وأخلاقياته. وإن كان منهجه الفلسفي أكثر ثباتاً بالنظر لعمومية قوانينه ومبادئه ومقولاته. وفي النهاية، الفكر الاشتراكي "مرشد للعمل" (لينين) يستفيد منه الناس "في التحليل الملموس للواقع الملموس" (لينين). وهنا لا ينبغي أن أنسى المعارك والتجارب والاشتقاقات النظرية في الجنوب من أجل التحرر والتنمية، والعرب جزء من هذا الجنوب.

ولا مدعاة للاستطرد، فهذا موضوع كبير ويستحق وقفة منفصلة.



## ما هي الأهداف العامة للأخلاق اليسارية؟

بكلمة واحدة، هي بناء شخصية طليعية لديها قدرات تضاعف من فاعلية الأفراد والجماعات بهدف التحرير والتحرر من شتى الاعتبارات سواء كان الاغتراب من الكولونيالية والإمبرالية أو من الطبقية الاستغلالية أو اضطهاد بطرياركى أو مخلفات القرون الوسطى أو قهر العقل وإبداعاته واختياراته من قبل النصوص والقوانين الاستلابية ومن كل المظالم عموماً بغية "التحرر الشامل للإنسان" (ماركس).

إنه حلم كبير، حلم مستقبلي قد يحتاج قرناً أو أكثر، آخذين بالاعتبار أن إيقاع الزمن سريع في زمن الثورة الصناعية. والمقطع به أن اللحظة الراهنة التي تعيشها البشرية ليست دائمة، وأن البشر يتطلعون نحو حقوقهم وحررياتهم وتقدمهم ويسرون نحوها. فأين كانت البشرية قبل اكتشاف الكهرباء على أيدي جيمس واط وإديسون وسواهما، وأين أصبحت في عصر الفبركة والصناعة الثقيلة. مسافة هائلة قطعها البشرية في قرن ونصف القرن الأخيرين. فما بالك بالمستقبل وعصر الإلكترون والروبورت والشبكة العنكبوتية والثورة الكيماوية، أم تعتقدون أن الإنسانية يمكن أن تستكين لسيطرة أقل من 5% على 90% من ثروات الكرة الأرضية حيث بلغ التقاطب الطبقي مديات غير مسبوقة، فبضعة أفراد يملكون ما يملكه أكثر من 2 مليار نسمة بل وهناك 2

مليار نسمة دون خط الفقر ومليار يشربون مياه ملوثة وبطالة تناهز 700 مليون نسمة، ومجرد مئات الآلاف يستحوذون على معظم وسائل الإنتاج وعائدات قوة العمل. إنه قانون التناقض بين جماعية الإنتاج والتملك الخاص. وهؤلاء الذين يقفون على رأس الهرم في الشمال هم أنفسهم الذين يهبون الجنوب ضمن قانون التبادل اللامتكافئ ويغلقون آفاق تطوره. وفلسطين تقع هنا ولكن بخصوصية مكثفة معروفة لكم.

واختصر لينين المسألة على النحو التالي "تنطلق أخلاقيتنا من مصالح نضالنا ومرتبطة بها، فهي مرتبطة بالنضال. وأخلاقنا تسهم في نضالنا للتحرر من الاستغلال وتجميع الكادحين للثورة" و"إننا ضد كل استغلال طبقي واضطهاد قومي وجنسي وديني".

فالبدرة هي امتلاك الوعي والقيم وشروط التغيير الثوري وهناك العشرات من القيم الأخلاقية التي تشكلت وتوالدت وفعلت وانفعلت في سيرورة الكفاح. فالأخلاق براكسيس في جدلية مستمرة مع الممارسة. أهم القيم الأخلاقية اليسارية:

1. الاقتناع بالمبادئ التحررية من كل الاعتبارات، كاختيار حر وليس وراثة ورابط تقليدي. والإخلاص والتفاني لهذه المبادئ "لكي تؤمن يجب أن تفهم" (لينين). وبعد الفهم والإيمان العميق يأتي الإخلاص والتفاني.

2. النضال والتضحية للتحرر من كل الاعتبارات بما يستوجبه ذلك من أثمان. فالنضال والتضحية وجهان لعملة واحدة وتعبير جوهري عن الانتماء للمشروع اليساري. فالأخلاق اليسارية ليست أخلاقيات مناصلي الصالونات والجمال الثورية غير مدفوعة الثمن. والنضال والتضحية يشعان اليساري واليسارية أنهما مخلصان ويستحقان اللقب اليساري كما يشعرهما بخصوصية دورهما (فالسعادة في النضال). ومات ماركس وابنه لضيق ذات اليد فلم يتوافر الدواء علماً أنه دكتور فلسفة وكاتب وصحافي ولكن أبواب العمل مغلقة في وجهه، وقضى لينين معظم عمره في النضال السري والسجون والمنافي، وهذا حال الكثير الكثير من الثوريين واليساريين الحقيقيين في أرجاء المعمورة. فدون نضال وتضحيات لا تتشكل قوة تغيير وتحرر من الاستلابات.

3. اجتراح البطولة وقوة المثال، والبطولة عموماً "عمل نوعي أو سلوك نوعي إيجابي خليق بالتعميم" (بلا تينوف)، وهي متعددة الوجوه والتجليات. ولكن على صعيد ثوري تتجاوز النضال والتضحية والسلوك المحمود إلى بلوغ درجات عليا تتحول لقوة جذب وتحفيز للجماهير التي ترى فيها قوة نموذج وتخلع عليها ألقاب من التمجيد والافتداء. إذ أننا نسمع عن نثي غيفارا أو فوتشيك وعبد القادر الحسيني وكنفاني ومئات الآلاف من الثوريين والثوريات الذين تميزوا وتميزوا ولكل شعب أبطاله كرمز من رموز هويته.

4. الثبات والصلابة المبدئية "إياكم والمساومة على المبادئ، إياكم والتنازل النظري" (ماركس) بعيداً عن البراغماتية التي تغلب اللحظة على ما هو مستقبلي والجزئي على ما هو برنامجي. والبراغماتية لم تصنع ثورة يوماً وهي إحدى مدارس الرأسمالية، ومتفشية فلسطينياً. وبناء عليه، جاءت كلمات الدكتور حبش "لا ينبغي أن ينتهك التكتيك الاستراتيجية ولا أن تنتهك السياسة الإيدولوجيا" بالتمسك بالأهداف الوطنية والطبقية والفكر التحرري مهما اشتدت المصاعب وتعاضمت التضحيات والإغراءات. إذ تأتي لحظات يكون القابض على المبدأ كما القابض على الجرس سيما في أوقات الجزر وتجارب الزنازين ومسار العمل الذي يتطلب نفساً طويلاً.

ولا تكف جبهة الأعداء بما لديها من إمكانات عن محاولات تغطيس اليساري في الشعاراتية الجوفاء المنفصلة عن الفعل من جهة واجتذابهم في مغريات إفسادية متنوعة من جهة أخرى بغية ثلم نصلهم واستدراجهم في تنازلات وتدوير للزوايا، ناهيك عن استخدام الهراوة الغليظة، فهي تستخدم العصا والجزرة مع الرموز الكبيرة.

5. تغليب الأهداف العامة على الأمور الخاصة والتشبث الدائم بالأهداف الكبرى ومقتضياتها. فالهجوم الذاتية من تعليم وعمل ومطالب حياتية وعائلية تأتي في الدرجة الثانية. وهذا امتحان عسير لليساري/ة يستمر باستمرار الانتماء اليساري. ومن المتعذر حمل بطيختين في يد واحدة. فالتناقض حقيقي بين موجبات الهم الجماعي وموجبات الهم الذاتي. وهو يشتد في حالة ارتقاء الثوري/ة لمرتبة الأهداف الثورية، أي "ليس النضال بضع سويغات في أمسيات حرة بل بجماع الشخصية" (لينين) بما ينتج عنه من تقصيرات في الأمور الشخصية. وسبب ذلك استغراقه ساعات طوال يومياً في المهام الثورية واعتقالات متكررة بما يورثه الاعتقال من مشكلات وصولاً إلى الاستشهاد أحياناً.

وهذا الامتحان يسقط فيه الكثيرين من اليساريين/ات في مراحل القمع الشديد والملاحقة الشرسة والمعارك الجدية، ويعثرون على بطارية من الحجج التي تدلف إلى رؤوسهم، وأحياناً مجرد التخرج من الجامعة أو الزواج فيدير البعض ظهره لخندق النضال.

6. حب الوطن وحب الناس ومساعدتهم "فكر بغيرك" (درويش)، الحب الذي يولد الدافعية للذود عن الوطن وحماية السيادة وصولاً إلى أبناء وبنات الوطن وحقهم في الحياة الحرة الكريمة، إذ ما معنى الحياة إن لم تكن مكرسة لمساعدة الناس؟ "الحياة قصيرة علينا أن نعمل شيئاً لشعبنا" (الدكتور وديع حداد)، وما قيمتها إن لم يكن الشعب سيداً في وطنه. ومن هنا يحتل الكفاح التحرري للشعوب التي كابدت من الكولونيالية المكانة الأولى، ولم يكن صدفة أن يفدي الشعب الجزائري وطنه بمليونين من الشهداء، وهذا حال الشعب الفيينتامي. أما الشعب السوفييتي فعلى مذبح قهر النازية سقط لهم أكثر من 26 مليون!

7. التماهي في القضايا العادلة ورفض الظلم، كل القضايا العادلة سواء لأهل البلد أو أي بلد، ومقاومة الظلم مهما كانت صورته وقوميته. فن العدالة أن تصان كرامة الإنسان والطفولة والأمومة وأن يرفع القهر عن المرأة وتطلق أجنحتها، ومن العدالة أيضاً أن نتصرف بالشعوب بثرواتها فلا يسيطر "30 احتكار على 70% من السوق الدولية" (هيكل) وأن يباح للإنسان حق التفكير والتعبير والاختيار دون قمع أو تهديد أو قطع رؤوس، سيما وقد تأسست هذه الحقوق في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والشعوب. وعلينا الإشارة هنا للنموذج الصيني الذي أحرز قفزات تنوية في نصف قرن ما أحرزته أوروبا في قرنين بعد أن كان 99% من الصينيين فلاحين أميين قبل انتصار الثورة عام 1949، لا مدارس ولا كهرباء ولا شوارع معبدة، وهافانا التي كانت معقلاً للقمار والدعارة كما مونت كارلو حالياً، للشواذ من أمريكا وأوروبا فباتت قلعة للثورة وظهيراً للثورات في كل مكان، والبرازيل التي تشهد تنمية صاعدة بعد أن كانت أحياء ساو باولو مرتعاً ومركزاً للعصابات المسلحة وأحيائها تطبخ بصورة جماعية كيما يأكل الجميع خشية الاعتداء عليها من الجوعى لقد تكشفت بقدر كبير خطل النظريات الأكاديمية الرأسمالية "أنتم في الجنوب لديكم عجز بنيوي ولا فرص أمامكم للتنمية إلا بتطبيق وصفات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والخبراء الغربيين." وبالنسبة لشعبنا فجوهر قضيته العدالة أن يعود لوطنه ويعيش بحرية وأن تنهض الأمة العربية وتوحد متحررة من التبعية والتجزئة والأتوقراطية والتخلف.

8. التفولاذ والرقعة الإنسانية. فلا إنحاء لضغط أو إغراء، وفي نفس الوقت الاصطبار على المصاعب والتحديات (انظروا لنموذج مانديلا)، ولدينا في سجون المستعمر أكثر من مانديلا، والمجالدون الذين ثابروا على تجشم المخاطر والتضحيات لعقود دون وهن أو مكسب شخصي "ماذا أورث قادة كبار استشهدوا أو رحلوا عن الدنيا لعوائلهم؟ لا شيء سوى الاسم ونقاوة الضمير وما تراكم في مسيرة الكفاح العنيد. هل تعتقدون أن هوتشي منه أو الدكتور جورج حبش أو فيديل كاسترو لديهم حسابات في البنوك؟ حتى أن كاسترو لم يتزوج. وما عدد المرات التي حاول الأعداء اغتيال هؤلاء دون أن ننسى أبو عمار وسواه وكم من مرة كادت المعارك تحصدهم وهم في الخط الأمامي؟ هل تعرفون شيئاً عن حصار بيروت عام 1982 ووجود الحكيم وعرفات بين الثكثات والدم، وهذا حال كل من اكتسب شرف المشاركة في هذه الملحمة. وهل تعتقدون أن الرجعيات النفطية وسواها لم تحاول شراء ضمائر قادة كبار في المقاومة الفلسطينية؟ وجنباً إلى جنب، تتحايت الصلابة مع الرهافة والأخلاق الشفيفة التي يعتصرها الألم على عذابات الناس واحترام البسطاء، والصدقة الصدوقة دون مشهدية أو تكلف والحراة التابعة من القلب. وهنا يحضر اسمين لامعين هما هوتشي منه والدكتور حبش، وبكل تأكيد هنالك كثير.

كان العم (هوتشي منه) يمارس مهامه في القصر الجمهوري بعد انتصار الثورة ولكن يعود لكوخ قصب السكر والبوص، فهو بيته كما اعتاد، أما الحكيم الذي قضى عمره بين العمل السري والعلني وزخات الرصاص فكتب لزوجته هيلدا، شريكة مسيرته، وكما تسعفني الذاكرة "حياة الجبل رائعة، كل شيء من أجل المعركة لا فرق هنا بين الخبز الجاف والدجاج وبين لباس الخاكي وملابس شارع الحمراء)، ومعروف أن الحكيم رجل وسيم وأنيق.

ورغم أنني أتحدث عن الأخلاق اليسارية اسمحولي أن أضيف اسم أبو عمار وقائد المقاومة الشعبية العربية حسن نصر الله. فهل تظنون أن أبو عمار عاش حياة مرهفة، لا، فحياته متقشفة، وعاش بروح مقاتل الخنادق والنوم على الكرسي والطاولة؟ أما نصر الله فراتبه 1200 دولار وآثر التخفي وقيادة النضال على السفر لهذه العاصمة أو تلك. أما تأثيره الكبرى فهي تحرير الجنوب اللبناني وتجاوز سايكس بيكو بالدم وأعلى درجات الفعالية وبذلك فتح بوابة واسعة على المستقبل.

9. حب العمل والدقة في العمل، بلا تكاسل ولا ثناؤب. فالأخلاق اليسارية تحث على النشاط كما خلية النحل وعلى اتقان العمل والارتقاء به، فالعمل وكل عمل هو لخدمة أهداف التحرر، ولينين تحدث عن

الأوركسترا حيث الدقة وتكامل الفرقة. وهذه المفردة لم أفهمها جيداً إلا بعد أن شاهدت ثلاثة عروض للأوركسترا في السنوات الأخيرة، إذ بات لدينا أوركسترا وطنية.

وعموماً تجدون جذور التحريض على دقة العمل في الثقافة البوذية والإسلامية. والحياة بجملة مسيرة عمل. ونقيض العمل هو الموت. أما الذي يبرر تقاعس وتخلف أدائه ويحتاج لمن يتابع تنشيطه وترميم ثغراته فهو أقل ما يقال عنه أنه يبدد الوقت والطاقة ولا يدفع عملية التغيير. وهنا ليس ثمة تحوم. إذ يمكن زيادة العمل ومضاعفة الإنتاجية والارتقاء بالأداء.

وفي أبسط الأشياء في حياتنا اليومية. فن الملاحظ أن غرفتنا نظيفة وهذا حال الدورة، ومروحة الغرفة تعمل ليل نهار فلا يخنق الهواء ويتلوث بدخان السجائر كما غرف أخرى. أما المحاضرة اليومية فينبغي رفع مستواها وإغنائها.

والقراءات الذاتية يمكن تركيزها وبرمجتها أكثر، وبعض التعاميم الداخلية فقيرة. وعلينا تجاوز شرح الكتب إلى تقديم مقاربات والحديث الارتجالي المنسق دون رؤوس أقلام وهكذا.

10. المجتمع والتضامن الجماعي: فالعملية الثورية هي عملية جماعية ولا تحرر ولا تحرير دون عمل منهجي متصاعد ومتشعب على أوسع نطاق. وشعبنا اعتاد أن يضرب بقبضة واحدة. مرة في الأردن ومرة في لبنان ومرة في الداخل ومرة في غزة والضفة، بينما الانتصار يتطلب أن يضرب بكل قبضاته في نفس الوقت. والأفراد كما تعلمون جزء من الجماعة. والجماعية تتسع للأفراد ومزاياهم. ودون تضامن جماعي لا ينجز إضراب ولا تنظم تظاهرة ولا تؤسس تعاونية زراعية أو ككلة طالبية أو عمالية. بل إن هدف النضال هو تحرير الشعب كجماعة سياسية. فالجماعية قيمة أخلاقية كبرى في الفكر اليساري. ودون جماعية وتضامن جماعي ليس ثمة شعب ولا طبقة ولا ككلة تاريخية ولا طليعة ثورية. ونقيض الجماعية استثناء الفردية كقولة أساسية في الفكر الليبرالي البرجوازي.

وتؤمن الجماعية التضامن الجمعي من جهة والتضامن مع كل فرد من جهة أخرى وإفساح المجال للأفراد وميولهم ومواهبهم التي تخدم في المحصلة الأخيرة أهداف الجماعة. وهنا مفيد قراءة مكارنكو في ثلاثية (قصيدة تربوية، الفرد والجماعة).

11. احترام المرأة وإسنادها. وهذا البند ربما ينبغي أن يكون البند الأول. فالمرأة ليست معياراً للجمال فقط، ولديها سمات يفضي تفاعلها مع سمات الرجل لإنتاج مستويات نوعية أعلى، بل وهي الأكثر دقة ولطافة إجمالاً.

أما أبعد من ذلك فهي شريك كامل في صناعة الحضارة الإنسانية، بل "تنتصر الثورات بقدر مشاركة النساء فيها" و"يقاس تحرر الشعوب بقدر تحرر النساء" (لينين). وتحدثت عن هذا العنوان قبل عشرين عام في اعتقال سابق.

والحب الطبيعي الخالص لا ينشأ إلا بين رجل وامرأة. ودون حب تجف الحياة وتصبح كعود يابس. ولكن المرأة ليست موضوعاً للحب فقط وهذا حال الرجل، بل ينبغي احترامها والصدق معها وإسنادها وإزالة العقبات من طريقها، وقد أورثها التاريخ الكثير من ذكريات الاضطهاد. وصدق بيبل عندما قال "أن المرأة هي مضطهدة المضطهدين". أما النظرة الدونية للمرأة واستصغار شأنها وفرض الوصاية الذكورية عليها أو اختزالها إلى مجرد جسد، "انبش قشرة الثوري في مسألة المرأة تكتشفه رجعيًا عنفًا" (لينين)، فهذه مخلفات القرون الوسطى والبنى التقليدية التي تجاوزها الزمن.

12. الصدق وتفادي الكذب. الصدق مرآة النفس، ودون الصدق يتشوه كل شيء؛ تشوه العلاقات الإنسانية، يتشوه العمل الثوري، وتشكل تربة للفساد والسلبيات. وأجزم أنه يسهل التفاهم مع صادق حتى وإن لم يكن صديقاً، بينما يصعب أن تنشأ ثقة مع كاذب ولو كان صديقاً. وفي العمل الثوري تعلق قيمة الصدق ويحاسب على الكذب. وتم تخفيض مرتبة قيادي لأنه أخفى عبارة قالها عن الاعتراف بإسرائيل في لقاء مع الرئيس الروماني الأسبق تشاوشيسكو، وآخر تعرض لعقوبة أشد لأنه أخفى علاقة "غير شرعية" بامرأة...

ويتفاخر المرء بصدقه عندما ينجز عملاً أو يتصرف بشهامة فيما يطأطئ رأسه عندما يفعل العكس؟ و"الحقيقة تقدمية" (لينين) والصدق أساس الحقائق. والزيف لا يقود إلا إلى الزيف. والمزيفون غير محترمين ولا يحظون بالثقة وينكشفون في نهاية الأمر. أما مقولة غوبلز وزير الدعاية في زمن هتلر "الكذب ثم الكذب إلى أن تصدق نفسك" فهي لا تفضي إلا إلى الدمار والفظاعات.

والسؤال: هل يمكن بناء مشروع وطني تحرري بالكذب؟ كلا كبيرة.

13. تطوير المهارت والقدرات. المسألة المركزية هي الفاعلية، حجمها ووتأثيرها وتأثيراتها، سواء كانت فاعلية الأفراد أو الجماعات أو الشعب أو الصيرورة الحضارية. وغياب الفاعلية يعادل الموت وفقرها يعني فقر صانعها. ولكيما تكون بأعلى درجة يتعين مضاعفة الجهد والفعل ومضاعفة الثقافة ومضاعفة العلم ومضاعفة المهارات ومضاعفة القدرات العقلية ومضاعفة كل ما يلزم للفاعلية المتصاعدة. أشار وزير الدفاع الفيتنامي في مقابلة صحفية طويلة على شكل كتاب "كلما ارتقى الموقع القيادي تطلب المزيد من الثقافة" والدأب على الثقافة. أما لينين فحاطب الشباب "تعلموا، تعلموا، تعلموا" والعلم والثقافة والفكر الاشتراكي والمهارات العملية، كلها منظومة واحدة يتجاوز فيها المرء ما كان عليه من موروث قديم ويستجيب لما أصبح عليه من مهام ودور.

ولا يجب هنا العودة للصفرة. إذ ينبغي دراسة تجارب الأمامس وتجارب الآخرين والتركيم عليها. والذي يبدأ من الصفرة يبقى في الصفرة. والذي يصاب بالاغترار فيظن نفسه أينشتاين زمانه أو ماركس إنما ينأى بنفسه عن المسار الحضاري للشعوب بل ويفتقد فرصة الإفادة من مسيرة المقاومة بتراثها ودروسها.

وهل يمكن التفكير الجدلي إن لم نفهم التفكير المنطقي لأرسطو وديالكتيك هيجل وماركس، هل يمكن الانحياز للفكر الاشتراكي إذا لم ندرس الفكر الرأسمالي وما قبل الرأسمالي. وهل يمكن بناء تنمية إذا لم نطلع على تجارب تنمية ناجحة؟

ويمكن التساؤل حقا عن يسارية أي يساري أو يسارية إذا لم يدرسا كل ذلك أو يستندا لذلك ويسترشدا به في فهم خصائص المهوس الفلسطيني، وما يشهده من تحولات وتغيرات سيما في مرحلة أو سلو.

14. الحوارية لا الأوامرية. "الثورة عملية حوارية" (باولو فريري). فهي تحاور الواقع (ديالوج) وتحاور نفسها (مونالوج) ودون حوارات لا حصر لها بين الثوريين والثوريات تنطفئ حيوتهم. فالمعرفة تأتي من الممارسة الثورية "إن اكتساب وعي انتقادي للاضهاد يتطلب ممارسة النضال" (فريري) و"السياسة هي الصراع الطبقي والقومي" (لينين) وهو الذي أنشأ "أن البروليتاريا تترك خطابات المآدب والمنابر للبرجوازيين



الديموقراطيين، ولكنها تتقدم في نضال الجماهير الثوري" وبالتالي "تربط الثقافة مع النضال" (د. فيصل دراج).

وأكثر من ذلك، فالفكر "نتاج البراكسيس" (غرامشي)، أي تفاعل الإرادة والوعي مع الممارسة والتجارب، وهي بالتالي لا تخرج من رأس جوبتير إله المعرفة في الميثولوجيا الإغريقية، ولا تنزل من الفضاء.

والمعرفة تأتي ثانياً من نقد الواقع. فالنظرية الثورية نقدية للواقع وهي موجهة للممارسة "حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة" (لينين).

وتأتي ثالثاً من نقد نفسها، فهي ليست كاملة ولا نهائية إذ "عليها أن تتمثل كل منجز علمي جديد" (إنجلز)، وهي نتاج المتغيرات وتحدد المهام، و"التعاسة في السياسة هي عدم تمثل المتغيرات" (لينين)، فما بالكم بما عصف في العالم في العقود الأخيرة سيما الثورة التقنية والعولمة الرأسمالية وانهيار المعسكر السوفيتي وولادة تجارب يسارية جديدة وصعود قوة الصين الشعبية.

فهناك العديد من الموضوعات التي تحافظ على راهنتها في الفكر اليساري فضلاً عن نهجه، وهناك العديد من الموضوعات الجديدة التي تضاف عليه "فشجرة الحياة خضراء أما النظرية فرمادية" (إنجلز).

والمهم ألا يبقى الفكر حكراً على نخب قيادية، بل أن يعمم على جموع الكادحين والكلمة التاريخية التقدمية، وأن تكون العلاقة بين الطليعة والجماهير حوارية وتلاحمية، وأن تكون العلاقة بين القيادة والقاعدة حوارية وتلاحمية ورفاقية بلا غطرسة وفجاجة، فالطليعة الثورية ليست شركة يأمر المدير فيطاع، أو أستاذاً فينضبط الطلبة، وهناك قانون المركزية الديمقراطية ككازم مع فهم إبداعي له.

وألأحظ على مستوى الغرفة، كادريصغي ويتابع ويحاور رفاقه وأحياناً كادر إداري وتنظيمي يتمتع بقدر عالٍ من الفجاجة والتدخل في تفاصيل ليست من شأنه، وهذه صورة مصغرة للصواب والخطأ، فما بالكم إذا كانت البنى أكثر تعقيداً وتشعباً، علينا التعلم من بعضنا أكثر، ودراسة تجاربنا أكثر، وثقيف أنفسنا أكثر، إذ لا يجوز تحويل الهبوط وقلة الخبرة والمزاجية لنظرية!

15. التواضع لا المشهدية والترجسية، من يقرأ تجارب الثوريين الكبار دمتروف، الحكيم، جياب وكاسترو، جيفارا، ماو، لينين، تشوده، هونيك، بن بيلا، ناظم حكمت، والآلاف سواهم، يشعر بالتواضع، ومن يتعمّل في تجارب جماعية ثورية بما تخللها من تضحيات وما حصده من إنجازات يشعر بتواضع أكثر، ومن يتعمّل في النظريات الثورية وما أنتجه المنظرون الكبار يتواضع أكثر فأكثر. أما البرجوازية الصغيرة المجبولة على العمل الفردي ثقافي أو غير ثقافي، فهي تظن نفسها معياراً للثورة، والحقيقة أن بعض هؤلاء مصابون بالترجسية أيضاً، ومن المؤلف أن يلقوا الحجارة على غيرهم، ومن المؤلف أن يزاحوا الصفوف لالتقاط صورة لهم أو الظهور على شاشة التلفاز. ولمعلومكم كان الدكتور جورج حبش آخر من يتكلم في اجتماعات مركزية، وفي لقاءات وطنية يخو بنفسه بعيداً عن المنصة أو رأس الطاولة، وكان على الدوام الأكثر حضوراً وتأثيراً واحتراماً حتى من خصومه. وأتم تعرفون قصة نرسيوس في الميثولوجيا الإغريقية، ذاك الشاب الذي اكتشف وسامته على صفحة الماء قبل اختراع المرأة، فراح يتردد على بركة الماء ويحرق في نفسه إلى أن عشق ذاته، فسقط وغرق، ومن هنا نشأت الحالة المرضية (الترجسية). وليس نادراً أن يغوص المرء في قناعاته، وتقديره لنفسه وكأنه مصدر الحياة والحكمة بما يشبه عشروت التي عبدها المشرق العربي قبل أربعة آلاف سنة، ومحفور على تمثالها في العراق صفاتها.

فلنتواضع أكثر، لم تنتصر المسيرة التحررية، وما تراكم منها تبدد معظمه، ونعاني غياب مشروع سياسي وحدوي أو ثقافي للشعب، وقيادة أيضاً، وغياب مشروع تنموي أو وجهة. هناك فصائل وقيادات ومنظمات غير حكومية وكل واحد ينظر لنفسه كإله صغير، أما البطالة ففي ازدياد وهذا حال الفقير، ولولا الوطنية الفلسطينية المتجذرة وأفواج المناضلين وقوة الصمود المجتمعي لأصبحنا أضعف من الأيتام على موائد اللثام. أي لتواضع ونفتح تفكيرنا للحوار والرأي الآخر وليضعف كل منا خدمته للشعب بالطريقة التي يختارها.

16. العمل المنعم التراكمي والتعاطي مع الوقت، والمعيار هنا (مطلوب جهاز لتنفيذ سياسة، لا سياسة لإرضاء جهاز) (لينين) والجهاز يفهم منه فريق المحترفين الثوريين الذين يمنحون الثورة كل وقتهم وطاقتهم، وهم النموذج الأعلى الذي يمكن القياس عليه. أما اليساريّة فيستجيبان ما أمكن لمتطلبات العمل مهما كانت صغيرة، ويجوز القول "العمل هو التفاصيل" (ريجيس دو بريه). هي أعمال صغيرة ولكنها تراكمية وهي في مجموعها تيار هادر. ومن جديد كما الأوركسترا كل عازف وعازفة لديه آله ويتكامل مع الآخرين

ويعرف وقته بدقة ولحنه بدقة وغير مسموح له أن ينشز وغير مسموح له أن يغيب أو يتأخر، كما لا يتأفف أن حصته أكثر أو أقل من أعضاء الفرقة الآخرين.

أما الوقت فيستثمر دون تبدد، فالحياة زمن، والزمن أحداث متعاقبة ومن لا يشارك في صنع الأحداث هو خارج الزمن وخارج الحياة، والحياة قصيرة حقاً ويتوجب استثمارها لإنجاز شيء ما أو أشياء تخدم العملية التغييرية، وتنظيم الوقت مسألة في غاية الأهمية، فلا يقل أحد أنني مشغول ولم أنجز أو أفعل كيت وكيت، بل ليقُلْ لقد أنجزت وحسب، وغير مطلوب أن يضيع ساعات على اللاشيء، أو التلفزيون، والسوشال ميديا فهناك وقت كاف في كل يوم وكل أسبوع للعمل وللأهل والتعليم والرفاهية وكل الأمور الشخصية، لكن لا ينبغي تبديد الوقت والنوم ساعات مضاعفة، إذ يكفي 5-7 ساعات ويمكن الاستيقاظ مبكراً، والسهرات الطويلة تستغرق وقتاً طويلاً دون جدوى حقيقية.

ومن جديد ينبغي تنظيم الوقت ورسم الأولويات ودون ذلك تظهر التقصيرات. وأمر مستغرب أن يقول فلان أنني لا أجد ما أفعله، فهناك على الدوام مهام منمنمة دائماً يمكن إنجازها لمن يضع على رأس جدول أعماله الحلم التغييرية. ولا أنسى ضرورة الإشارة للصحة والعافية فالثورات لا يصنعها المرضى والبيولوجيا صلة بالسياسة، فمن فقد عافيته ومشغول بأمراضه سواء لإهماله المستدام أو لعامل الشيخوخة، عادة نتقلص أحلامه ونتقلص فاعليته، ومن معلوماتي لم تكن صحة الشهيد كنفاني والشهيد ناجي العلي على ما يرام، لكنهما كانا يصلان النهار بالليل حرصاً على فاعلية مضاعفة وإنتاج مضاعف، وينبغي التمييز بين ساعة العمل وساعة الإنتاج حسب لغة علم الاقتصاد، فقد تكون ساعات العمل اليومي تسع ساعات أو أكثر أو أقل، وإنتاج الساعة الواحدة قد يعادل إنتاج ساعة ونصف أو نصف ساعة، وكلها زادت ساعات العمل وزادت إنتاجية الساعة الواحدة كانت الفاعلية أكثر والمسألة الحاسمة هنا هي الفاعلية.

وربما قرأ بعضكم عن حياة دزريجنسكي الذي كانت طباعه على عكس طباع زينوفيف وكامينيف فقال أنتم تعرفون سر قوتي فأنا لا أضن بنفسي، إذ كان يعمل ما لا يقل عن عشرين ساعة يومياً إلى أن سقط في ردهات الكرملين ناهيك عن سنوات السجن القيصري وسنوات التخفي والعمل السري، هذا قوة مثال ساطع يمكن التعلم ولو جزئياً منه.

17. الرهان على القوة الصاعدة، في الحالة الفلسطينية ما قبل أو سلو كانت القاعدة العمالية في اتساع مضطرد كما الأطر النقابية، لكن الريج جاءت معاكسة بعدئذ، أما الدارسين في الجامعات فقد تضاعفوا، وهذا

العام ثمة 250 ألف طالب وطالبة في جامعات الضفة وغزة، ناهيك عن 450 ألف من الخريجين، أما في 48 فهناك نحو 200 ألف بين دارس وخريج.

والجامعة كما تعلمون هي منبع الطبقة الوسطى وبات أكبر تركز وأوسع قاعدة هم الطلبة كفئة انتقالية، والطبقة الوسطى، ناهيك عن طلبة الثانويات وبشكل أخص الصف 12 الذين لا يقلون عن 90 ألف في الأراضي المحتلة عام 67.

فهؤلاء هم القوة الصاعدة اليوم، والعنصر الشبابي عموماً، وأي مشروع تحرري سياسي اجتماعي ثقافي لا يتغلغل في صفوفهم إنما يهشم حضوره ويفقد الطاقة الأكثر حيوية.

تعبير الكلمة التاريخية لغرامشي هو الأقرب للصحة في الواقع الفلسطيني، الكلمة التي تضم العمال والفلاحين والطلبة والطبقة الوسطى وأوساط البرجوازية الوطنية والمهمشين والخيمات والبرجوازية الصغيرة وكل الذين يقبضون على زناد النضال التحرري.

وعموماً تشكل التركيبة الطبقيّة لفلسطيني أراضي 67 ما يقارب 5-6% برجوازية، 30% من ذوي الممتلكات الصغيرة سيما المشاغل والورش والمحال التجارية والحرفية، 20% عمال يبيعون قوة عملهم لرأس المال الوطني والاستعماري، فضلاً عن البطالة التي تناهز 500 ألف من أصل 1.5 مليون هم مجمل قوة العمل، أما العنصر الفلاحي أي الذين يعتمدون على استثمارهم الفلاحية، فبالكاد يصلون 5% ذلك أن أغلبية الريف باتوا عمالاً وموظفين دون أن ننسى أن السلطة توظف أكثر من 170 ألف ويضاف لهم توظيفات سلطة غزة بما لا يقل عن 40 ألفاً وعشرات الآلاف من المقاتلين، ولا ننسى أن الصناعة الفلسطينية المتوسطة على حالها منذ عام 1967 أي نحو 7 مصانع فيها أكثر من 100 عامل ونحو 12 مصنع فيها بين 50 - 100 عامل، أما المشروعات الصغيرة فقد تامت وهذا انعكس على وضع العمال الأقرب "الطبقة في ذاتها أكثر من طبقة لذاتها" (ماركس)، فهم مشتتون من جهة، وتراجع اليسار انعكس عليهم سلباً في ميدان التأطير النقابي وانتشار الفكر اليساري في صفوفهم من جهة ثانية.

والشيء المقطوع به أن الجيل الشبابي من مختلف الشرائح والطبقات الاجتماعية هم القاعدة الأوسع، و"أن حزبنا حزب الشباب والمستقبل ملك الشباب والشباب أول من يبادر إلى التضحية" (لينين)، وهؤلاء الأكثر نضالية وتضحية.

ويمكنني أن أتحدث أكثر حول هذا العنوان في النقاش سيما ما يتصل بالتحويلات الاجتماعية كما التحويلات في الخارطة السياسية والهوية.

18. نقد الفشل والفاشلين، والمراجعة التقييمية الدورية وحماية النجاحات والتركيم، ونقد الفشل ومحاسبة الفاشلين وتعبيد الطريق للناجحين في عداد حياة أو موت، فالفشل يقتل حضارة ويقتل ثورة ويقتل حركة سياسية ويقتل مصنعاً وشركة وجامعة وحياة زوجية، وعلينا أن نتذكر ما أصاب سياقنا الحضاري حيث كنا في مقدمة الأمم قبل ألف ومئتي عام، وبتنا في آخر قائمة الأمم الحية والناشئة، فأين كان العرب وأين أصبحوا، وأين كان غير العرب وأين أصبحوا، فرق شاسع.

ومن يسعى للتغيير وتجاوز الراهن عليه أن يراكم نجاحات كبيرة وصغيرة وبوتيرة سريعة أيضاً. أنظروا ما كانت عليه الصين قبل نصف قرن وأين أصبحت وهذا حال البرازيل وروسيا في العقدين الأخيرين، واليابان قبل الحرب العالمية الثانية والآن، واليسار اللاتيني قبل عقدين وما أصبح عليه... إلخ. ولكيما يراكم اليسار عليه أن يحمي منجزاته التي تراكمت في الأمس أما أن يهدم منجزاته فلن ينهض، يحمي المداميك ويضيف عليها، وكل من يقوم بالعكس يتعين عزله فوراً دون الانشغال في تبريرات لا قيمة لها إلا إعاقة النهوض وتعميق الأزمة، فن ينكص للوراء لا يستطيع السير للأمام. والفاشل يعاد النظر في مهامه ويحال إلى مهام يستطيع النجاح فيها، ودون ذلك يزداد العفن والشيخوخة والدمار. وعندما تتأزم حركة سياسية لا يحل أزمتها من كانوا سبباً أساسياً في أزمتها بل جيل جديد ونماذج نجاح. والمراجعة التقييمية الدورية كل عام أو نصف عام هي أكثر من ملحة لكشف الإخلالات والثغرات قبل أن تستشري وبالتالي معالجتها على نفس القاعدة أعلاه، فالتقييم يتيح الفرصة لفرز الغث عن السمين وكشف عناصر القوة وعناصر الضعف واستخلاص الدروس، ودون تلكؤ (المطلوب جهاز لتنفيذ سياسة) أما أن يختلط الحابل بالنابل، والفاشل بالناجح، السلب بالإيجاب وعدم تمييز المراحل وسماتها فهذا إنما يفضي إلى موت الطليعة المناط بها تأدية وظيفة تاريخية.

أما التفريط بتراكمات المشروع اليساري والتهاون حيال قيمه وأهدافه وشروط نجاحه فهذا يعادل اغتياله وبالتالي اغتيال وظيفته التاريخية، فينضم لفشل تاريخنا العربي وفشل أنظمتنا العربية.

19. احترام الموعد وإنجاز المهمة في أسرع وقت بأعلى قدر من الدقة، فاحترام الموعد غير قابل للنقاش، أما النسيان واستئخار المواعيد فهو صرف للوقت والجهد وعودة للرحلة التقليدية، ففي الحياة العشائرية

والفلاحية ليس الكثير من الترابط بين الوحدات المجتمعية والاقتصادية، يذهب الفلاح ويعود من الحقل متى شاء، وتجتمع القبيلة في الليل أو لا تتجمع أما في الحياة المعاصرة، فالعمل في مصنع أو شركة له موعد والدراسة في الجامعة لها نظام وكل ذلك يرتبط بالعملية الاقتصادية والتعليمية وهكذا الحال في الحزب اليساري. فكل حلقة مرتبطة بلحقة أخرى ومجموع الحلقات تتحد في سلسلة ومواعيد ومستوى أداء. وأية إخلالات تعود بالاضطراب على السلسلة بأكملها. قرار سياسي خاطئ أو تباطؤ في تعميم قرار أو تماهل في إنجاز مهمة أو تأخر عن موعد أو مواعيد.

فالييسار يحمل شامات عصرية ويسعى لاقتراح نموذج مصغر عن المجتمع المستقبل الذي يناضل من أجله. وإذا فقد صفة قوة المثال انفض الناس من حوله وتعاضمت تناقضاته. وكلمات نابليون هنا صحيحة "الهزيمة يتيمة والنصر له مئة أب".

20. صون الأسرار والممتلكات، فالأسرار جزء بنيوي من مكونات الحياة. أسرار عائلية أو صداقة أو نشاط ثوري. ومن يفشي الأسرار بسبب الإغراء أو الثروة يصنف على أنه غير جدير بالثقة وثرثار وغير مؤتمن. أما من يهتك الأسرار تحت ضغط الأعداء بما يجره ذلك من أضرار أكيدة إنما يتحول لخنجر يطعن رفقاء النضال.

فما بالكم إن كان المشروع اليساري المقاوم مستهدف ليل نهار. فحمايته تقع في مقدمة المقدمات، وواجب على من حمل رايته ألا ينكس الرايات، فذلك في عداد خيانة للمشروع ورفقاء المشروع وعوائلهم وهذه أكبر خيانة بعد انخيانة الوطنية. ومن يهدم أي مدامك من مداميك المشروع اليساري الذي يحمل بثبات القضية الوطنية إنما ينفذ رغبات الأعداء.

وفي مراحل التأسيس يكون اجتراع البطولة حاجة أساسية لإرساء إرث صمودي، أما في مرحلة أخرى فتغدو البطولة حاجة لحماية التركيم. ودون الصمود ليس ثمة يسار ولا ما يحزنون.

21. الترابط العضوي بين الفكر والممارسة، فلا فكر منفصل عن الممارسة ولا ممارسة دون فكر. فالفكر مرشد للممارسة أعلى أشكال الفكر، وبكلمات كاسترو إذا لم تخني الذاكرة "فكر وبرنامج وخطة وفعل". وفكر الحركات الثورية ليس مرتبطاً بالممارسة فقط، بل وتناج حوار جماعي وتجربة جماعية وتضحيات جماعية، ومن هنا جاءت كلمات ماركس "إن خطوة عملية واحدة أهم من دزينة برامج" وذهب للقول أيضاً "إن الجمل الثورية والسلوك الفردي العفوي لا يصنعان أثراً ولا ثورة. الممارسة هي الشكل الأعلى للتعبير عن

النظرية. الجبناء لا يصنعون التاريخ" وإن سلاح النقد لا يحل محل نقد السلاح فالقوة المادية يجري قلبها بالقوة المادية."

22. الحزم في نقد الذات والعيوب والأخطاء والإخلالات وكشف أسبابها ومعالجتها. فالنظرية الماركسية نقدية للواقع ولذاتها، والمشروع اليساري نقدي للواقع وذاته، وكذا. فالفرد اليساري نقدي للواقع وذاته "الأحزاب تخطئ كالفرد والأموات وحدهم لا يخطؤون" (لينين).

ولكن للنقد شروط، إذ منذ قرن ويزيد استخطر لينين موجة حرية الانتقاد في مؤلفة "ما العمل" ولئن تطرقنا لأحوالنا على النقد أن يكون موضوعياً وموثقاً بالصدقية، "والصدقية في السياسة هي مطابقة الأقوال بالأفعال" (لينين). وهذا شرط (أن نتوخى) أيدي من يمارس النقد بالتضحيات والعمل اليومي، لا التفرج ورشق الاتهامات من برج عاجي على طريقة النزعة التي يتورط فيها بعض الأكاديميين الذين يخلقون في المجردات بينما هم غير قادرين على إنجاز أبسط الأمور، فهم يخلقون في السماء دون أن تكون لهم جذور في الأرض.

ويتوجب أيضاً أن يقوم النقد على قراءة صحيحة لخارطة التناقضات وأن ينسكب أولاً في التناقض الأول وبعده الثاني فالثالث فهل هو ضد الكولونيالية أم الفساد، والهيمنة الطبقية الاستغلالية أم البطيريركية أم مخلفات القرون الوسطى أم النصوص التي لا تعترف بالمواطنة المتساوية وحق الاختيار والإبداع. ويرقى إلى مستوى إضاعة الاتجاه والعمى النظري فتح معارك مع أهل البيت أولاً لا مع الكولونيالية ثم الطبقية والفساد دون نسيان البحث عن القواسم المشتركة التي تحمي الصمود الوطني وإرادة المواجهة.

23. الاندماج والتلاحم مع الجماهير، فهي صانعة التاريخ وهي موضوع التغيير في آن. ومهما كانت الفكرة صحيحة ومهما كان المشروع اليساري صحيحاً، فإذا انعزلا عن الجماهير فقدوا الكثير من أهميتهما إن لم يكن كل أهميتهما. فالجماهير هي الأداة القادرة على تحويل المشروع اليساري إلى فعل وقوة تغيير. وما أكثر الأفكار وما أقل المشروعات الظاهرة التي أصبحت صفحة في سجل التاريخ.

24. "الكادر يبادر" (غيفارا)، والتاريخ بجملة سلسلة مبادرات يبتكرها الناس، سواء مبادرات فردية أو جماعية، صغيرة أو كبيرة. والثورات هي أعظم المبادرات. ومن لا يبادر هو ميت مع وقف التنفيذ. والمبادرة تعبير عن الحرية والإرادة. والفكر اليساري أول ما يسعى إليه هو تحرير الإرادة، أما التواكل والتكلس وانتظار الفرج من الغير فهذه ثقافة تقليدية. أما الفكر المعاصر رأسمالياً كان أم اشتراكياً إنما ينطلق من

كون البشر هم صناع التغيير علاوة على أن المشروع اليساري في حالة انتصاره يتميز بإنتاجية سريعة. فهو منتج إنساني ويحفز الإرادة الشعبية لإنتاج التغيير وإنتاج التنمية وإنتاج الثقافة والفنون والعلم والتكنولوجيا وغيرها. فحجر الزاوية هو الإنتاج لا الاستهلاك، التغيير لا تكريس الواقع أو العودة للوراء. والمبادرة قد تكون محلية على شكل لجنة عمل تطوعي أو لجنة شعبية أو تحرك ميداني، وقد تكون أعم بالائتلاف مع تيارات وقوى لإعلان إضراب جماهيري عام أو مقاطعة السلع الإسرائيلية والأمريكية، المهم أنها روح الفكر وروح الفعل. والمشروع اليساري بأسره هو مبادرة لتغيير التاريخ.

وميزة مفصلية للأخلاق اليسارية أنها تكشف الأساس الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للأخلاق فهي ليست منفصلة عن حياة الناس، ومصدرها الحياة الواقعية للناس. وبالتالي فهي لا تسقط من السماء وهي متحركة مع حركة الحياة ولتحرير الإنسان من الهيمنة والقهر والاستغلال وصولاً إلى التحرير الشامل للإنسانية. وأخيراً هناك عشرات القيم الأخلاقية الأخرى كاحترام الوالدين والجيل الأقدم، ورعاية الطفولة، وحماية التراث والهوية القومية، والحفاظ على المواقع الأثرية وعدم تلويث البيئة، ومنع التمييز بين البشر بناء على اللون أو الجنس أو القومية، ودعم القضايا العادلة أينما وجدت "لا يهمني أين ومتى أموت فالمهم ألا يعيش العالم على رفات البأسين" (غيفارا). فضفاف الأخلاق بلا حدود وتطور مع تطور الحياة وهي على النقيض من "استغلال الإنسان لأخيه الإنسان" (ماركس) أو احتكار ثروة الكرة الأرضية من قبل 5% بينما يعيش 2 مليار في بؤس الفقر والبطالة.

ولعل من الضروري أن أختتم حديثي الذي استمر أربعة لقاءات بالتطرق للأخلاق الجنسية. وهذا الموضوع أكثر حساسية وإشكالية في الشرق الأوسط. وهنا سأكف عن الحديث الارتجالي أحياناً وأتوجه للنصوص كلما دعت الحاجة.

قبلئذ خليق الإشارة أن المهمة المركزية للتربية اليسارية هي زرع الأخلاقيات اليسارية في عقول وأفئدة الطلائع الثورية بشكل أخص والمجتمع بشكل عام لما لها من تأثيرات إيجابية على الفعل التغييرى وإنسانية الإنسان، وصولاً إلى مساجلة الأخلاق النقيضة وإيديولوجياتها.



والتربية اليسارية نتوسل آليات عدة لإنجاز مهمتها، منها التثقيف المباشر على غرار هذه اللقاءات، ومنها النشريات والمطبوعات. وقد نتاح لي فرصة بعد التحرر من السجن نشر هذه المحاضرة. وكما تعلمون أنني نشرت مداخل لصياغة البديل ولن ألبس طربوشكم و بديلنا ورواية الرحلة بينما كنت أمضي سنوات الإداري في اعتقالي الأسبق، أما هذه المرة فلا يتوفر من يتابع النشر.

وإجمالاً تشكل وسائل الإعلام خير وسيلة للتربية، أقصد وسائل الإعلام المتحررة من القبضة العولمية وأدواتها، كما الأدب والفن فهما مساحة لنشر الأخلاقيات الثورية. أما الأكثر أهمية فهو النشاط المنظم للطليعة الثورية التي تمزج الأخلاق بالإيدولوجيا والإيدولوجيا بالسياسة والممارسة الحية.

وتستحق الممارسة وقفة منفصلة.

وأبدأ بسردية نتابع مرتكزات أخلاقية وتطورها في غير سياق حضاري وصولاً إلى الأخلاق الجنسية على أن ينظر لذلك مجرد محاضرة وليس بحثاً أكاديمياً.

## في الأخلاق الجنسية

مرة أخرى ليس غرض هذه المحاضرة التي استمرت عدة لقاءات تقديم أطروحة وإنما معالجة سريعة وحسب، تقتضيها الحاجة لتكوين رابط جماعي من جهة، واعتماد مرجعية من جهة أخرى سيما ويستبيح الوعي الاجتماعي ثقافة الليبرالية الجديدة واسقاطات الموروث المنغلق الذي لا يواكب المتغيرات ومتطلبات الثورة.

وبصرف النظر عن ماهية ومضامين الأخلاق فهي ضرورة للجماعة الإنسانية فهي ناظم لها توجب المسؤولية الجماعية نحوها، ودون ذلك تعم الفردية بتنافراتها والفضى بنتائجها ولهذا نشأت الأخلاق مع نشوء التجمعات الإنسانية وتحركت مع تحركها وتبدلت مع تبدلها تماشياً مع قانون الثابت والمتغير، فما كانت عليه منذ آلاف السنين في المجتمعات الرقبة والقبلية ليست نفسها في المجتمعات الحداثية والمدن العصرية، وأخلاقيات التحرر

الوطني ليست ذاتها أخلاقيات المستعمر، وأخلاقيات الثورة ليست كأخلاقيات الهيمنة والظلم. ومن هنا قال كاسترو "إن أخلاقيتنا الاشتراكية ليست كأخلاقيات الرأسمالية الإمبريالية."

وعليه يجدر بي استعراض بعض المقولات الأخلاقية في تعاقبها التاريخي في غير حضارة، وسوف أنتقل من الحديث الارتجالي إلى اقتباس النصوص كلها دعت الحاجة.

ففي الأجزاء الأربعة للفيديا الهندية منذ 4500 سنة، وهي ملاحم شعبية ركزت على التأمل والتبصر والتعددية والواقعية المنطقية والسلوك، وهذا تجلي أكثر ما تجلي في عقائد السوترا أما الفيلسوف شنكرا فأفرد حيزاً للتساؤل والتهارة الأخلاقية وضبط النفس والصبر والسكينة الروحية، وشيء من هذا القبيل قاله الفيلسوف كومارلا في تركيز ملحوظ على البناء المعنوي للإنسان، مما شكل مقدمة للفيلسوف بوذا منذ نحو 2300 سنة الذي أمعن في الطبيعة الداخلية للإنسان في مزج ملحوظ لعلم النفس وعلم الأخلاق، وإطلاق طاقات العقل للتأمل ومعرفة المطلق ومبدأ عدم الأذية والتكشف فكانت غاية البوذية الاعتقاد من الألم والشقاء.

والفلسفات الهندوسية ما قبل بوذا، حيث أكثر من 90% من الهنود هندوس حاولت استخدام الفلسفة في خدمة الحياة والإنسان، ولديها اعتقاد بوجود آلاف الآلهة حيث اختزلتها في البراهما الخالق، وفيشر الحافظ للعالم، وشيفا إله الدمار والفناء، وهم لا يؤمنون بمعتقد الجنة والنار وإنما بتناسخ الأرواح فبعد أن يموت الإنسان تلتحم الروح الجزئية بالروح الكلية للبراهما، ولا مقدسات في معتقداتهم إذ يمكن التجاوب مع المتغيرات ومتطلبات الحياة.

وفي الصين منذ نحو 3000 سنة، ظهر العديد من الفلاسفة وإرثهم المكتوب. فن وين وانغ وكتاب التغيرات الذي يرى التناقض في كل شيء أي اليانغ والينغ كتعبير عن الذكورة والأنوثة والتنازع بين هذه المكونات واعتبار الأخلاق نسبية مع وجود مثل عليا.

وهذا كره تنغ تشي بأن الحق والباطل نسبيان مما فتح المجال للتبدلات في القيم والسلوك وبعدها جاء لودتسو الأكثر شهرة في كتابه طريق الفضيلة وتركيزه على أن البساطة هي المنسجمة مع الطبيعة الإنسانية، وبين دعوته للنشاط التلقائي الذي يتفق مع قوانين الكون والحقيقة المطلقة والطاعة العمياء لها، الأمر الذي وجد صداه لاحقاً بعد أكثر من ألفي عام في فلسفة الفرنسي جان جاك روسو، قام لودتسو بنقد الحكم على نطاق واسع.

أما الفيلسوف الأكثر ألعبة وشعبية فهو كونفوشيوس منذ نحو 2500 سنة، ومثلها جاء بوذا "خاتمة" للفلسفات الهندية وطبعة جديدة، فهذا حال كونفوشيوس الذي جاء "خاتمة" للفلسفات الصينية وطبعة جديدة شملت التقاليد الصينية عن القيم الأخلاقية والسلوكية وامتدت رؤيته إلى جنوب القارة الآسيوية.

وكان محافظاً في حنين دائم للماضي الذي نظر له كعصر ذهبي بما جعل فلسفته تصطدم بالحكم الذي كان مشدوداً للمستقبل، وقد انسجمت فلسفته مع ميول الناس المحافظة، وكان يشجع تلامذته على المعرفة ويكرر "لا يهمني أن يعرفني الناس، المهم أن أجعل نفسي جديراً بأن يعرفوني" بما يشبه كلمات جيفارا "لا يهمني أين ومتى أموت، المهم أن لا يعيش العالم على رفات البائسين" وكلمات لينين "ليس المهم أن تخلع على نفسك لقب الطليعة بل أن يعترف الناس بذلك" وقد اعتبر "الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر" ودعا بانتظام إلى الالتزام بالنظام والسلوك القويم والحفاظ على الأخلاق في ربط ما بين الاقتصاد والأخلاق، وهذا تبلور في رؤية ماركس "الاقتصاد السياسي وقد عبر بطريقته الخاصة عن الأخلاق".

ومن أقواله الهامة ما قبل المسيحية بقرون، عن الفضيلة "ما لا تمناه لنفسك لا تمناه لغيرك" وأن "لا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك" ولم يتفق مع لودتسو "أن يقابل الشر بالشر" ولكنه لم يقبل أن تقابل الإساءة بالإحسان، إذ لتكن العدالة جزء الإساءة والإحسان جزء الإحسان، واعتبر العطف على الناس قاعدة أخلاقية عليا "دون أن يسعى المرء لإرضاء من هم أعلى منه" وكان مترث في أقواله حازم في سلوكه ويتميز بالجدية ارتباطاً بأعماله، بشوشاً لطيف المعشر مذهب اللسان غير مبتدل، يركز على الوضوح والإخلاص ودقة العمل وصفة الاحترام. يشرك غيره في الإجابة على الأسئلة مع التشديد على الاستقامة والعدالة واعتبر الغموض وعدم الدقة كارثة قومية وقد تحورت فلسفته على قضايا الحياة وليس ما بعد الحياة واعتبر قيام الواجب نحو الناس رأس الحكمة وأن "الأخلاق تكونها القصائد وتعطرها الموسيقى" و"الأخلاق العالية أن لا يختلف القول عن الفعل" بما يشبه كلمات لينين "الصدق في السياسة مطابقة الأقوال بالأفعال" و"القدوة الحسنة" أي قوة المثال، مكرساً وقته في زمن شيخوخته للحكمة وبساطة الحياة، ونشر الكتب الصينية وكان يردد "يذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات".

وقد تميز فلاسفة الإغريق بالفلسفة وانتشرت طروحاتهم. فسقراط منذ حوالي 2300 سنة اعتبر "الأخلاق قيماً للخير والحق والجمال وأن هناك تناغماً بين الأخلاق والفضرة الإنسانية" وقال "إن المرأة العظيمة تعلمنا كيف

نحب عندما نريد أن نكره،" وأبيقور نظر للأخلاق "كجاءت للذة وتحقيق السعادة وهذا ينسجم مع التكوين الطبيعي للإنسان" أما أفلاطون فنظر للأخلاق على أنها "كالج للشهوات وارتفاع بالإنسان إلى مستوى المعرفة والخير" لينتلف معه جزئياً تلميذه أرسطو الذي رآها "كمصدر لسعادة الإنسان وغاية لوجوده". وعن الحب قال أرسطو "الحب الذي ينتهي ليس حباً حقيقياً، والحب أن تعطي لأنك تريد لا لأني أريد" وفلسفة هؤلاء كانت الأكثر حضوراً في زمن الإمبراطورية الإغريقية منذ نحو ألفين وقرنين من السنين، وكلهم حثوا على مبدأ الحرية والعقلانية الأمر الذي حظي بمساحة واضحة في الفكر التنويري ما قبل الثورة الصناعية في أوروبا، الذي اشتبك مع عقائد المجتمع الإقطاعي والمنظورات الدينية، سبقه وتداخلت معه أفكار كمنابلا الذي اعتبر المحبة أساس الأخلاق، وميكافلي الذي نقد المسيحية وانحاز للمنظور البراغماتي (الغاية تبرر الوسيلة) وفرانسيس بيكون ولوك اللذان أخضعا الأخلاق للتجربة ورفضوا القيم المتعالية وسبينوزا الذي قال "بالحساب العملي للأخلاق" وطابع تأثيرها في الحياة،" وديكارت الذي ابتكر "أنا أفكر فأنا موجود" دون اهتمام بالقلب والعاطفة الإنسانية وجون ستيوارت الذي ركز على المنفعة الفردية والجماعية، وسبنسر الذي وظف المنفعة للحفاظ على الحياة، متفقاً مع وليم جيمس، وشافيتسري الذي اعتبر حب الجمال والخير "حارسه خلقية لدى الإنسان" وجاك روسو الذي قال بأن "الوجدان منسجم مع القوانين السامية" "وأن الأخلاق معيار لتمييز الخير عن الشر وهي نابعة من ضمير الإنسان" وكانظ الذي رأى أن كل شيء في الوجود يسير حسب قوانين وعلى العقل أن يوجه الإنسان، مشدداً على الواجب فالواجب أساس الأخلاق، وأوغست كونت الذي قال "هناك حاجة أخلاقية عليا للحفاظ على الجماعة وهي أهم من الأنانية" ودوركهيم "هناك وجدان اجتماعي ناظم كمجموع للوجدانات الفردية."

وهؤلاء بمجملهم لم يتقبلوا أخلاقاً سقطت من قوة في السماء، فم حركهم هو (العقل والضمير) وليس التشريعات الدينية ورجال الأكليروس، وقد انتبدوا فكرة أن إبليس مصدر الشر على الأرض، وجاءت الثورة الفرنسية عام 1789 نتوجاً حيث نلخص شعارها (حرية، إخاء، مساواة) أخلاقيات جديدة، وذهب فلاسفة مثل هولباخ للقول "الدين لم يؤسس الأخلاق بناءً على الطبيعة الإنسانية" وديدرو الذي اعتبر "الأخلاق الدينية خرافة وبربرية تتوعد البشر بالعذاب" ودعا "لأخلاق حقيقية تناسب الإنسان في تقاطع واضح مع كتاب الدين والعقل" لا سيما كانظ الذي استخلص أن "الأخلاق ليست بحاجة للدين" وأن الأخلاق مبنية على مفهوم "الإنسان ككائن حر لا يحتاج إلى فكرة كائن متعال على الإنسان" مركزاً على أن "الواجب هو أساس القانون"

والأخلاق العامة" وفي النهاية أنتجت الرأسمالية ما أنتجت من أخلاقيات جديدة وصولاً إلى الليبرالية الجديدة وطغيان الفردية في العقود الأخيرة.

## الأخلاق في الأديان الشرق أوسطية:

دون العودة للعقائد القديمة كالأمورية منذ خمسة آلاف سنة والأشورية في بلاد الرافدين والفرعونية في مصر والكنعانية والفينيقية في ساحل المتوسط منذ أربعة آلاف عام لقد شكلت هذه العقائد بما حملته من أخلاقيات بيئة وخلفية لما تلاها. فعلى سبيل المثال سنت مملكة حمورابي قوانين وتشريعات وعقوبات على السارق والقاتل الأمر الذي وجد صدهاء في توراة ابراهيم (كلداني عراقي)، وحقوق للمرأة والطفل. فالقانون البابلي من أقدم القوانين، بما صاحبه من أخلاقيات سبقت الديانات.

وذات الشيء يقال عن فلسفات وعقائد جنوب شرق آسيا، كما أسلفنا، وهؤلاء أكثر من ثلث البشرية بما يحيلنا إلى الأخلاقيات الرأسمالية والأخلاقيات الاشتراكية المنفصلة عن الديانات وهي الأكثر شيوعاً في العالم المعاصر.

ولكن للديانات تأثيرها ومنطقاتها:

فالديانات سواء اليهودية أو المسيحية أو الإسلام تتكون من عقائد وعبادات وأخلاقيات، وزاوية نظرها تقوم على أنها ثابتة ولا تتبدل ومقدسة مصدرها السماء والأخلاق توجب الإلتزام بأداء الفروض الدينية من إيمان وصلاة وصيام وزكاة وحج، رغم الفهم النخلص لكل دين. ويتردد في جنبات هذه الأديان محرمات ونواهي (لا تسرق، لا تزني، لا تقتل، واحترام الوالدين، والصدق وعدم شهادة الزور) وهي كلها تحرم العلاقات الجنسية قبل الزواج وفيما التوراة تغص بتعدد الزوجات إلى درجة أن تزوج داوود مئة امرأة وابنه سليمان ألف امرأة، يحصرها الإسلام بأربعة وما ملكت اليد أما المسيحية فتحصر الزواج بواحدة.

وبينما تقول التوراة (لا تشتهي بيت قريبك) يذهب الإنجيل للقول (من يشتهي امرأة غيره فقد زنى) أما الإسلام فيمنع الاختلاط إلا ضمن شروط.

تقول التوراة (اليهود شعب الله المختار) أما الإسلام فيقول (خير أمة أخرجت للناس) مع الإشارة إلى الرابط بين الإنجيل والتوراة (العهد القديم والعهد الجديد).

والتوراة حافلة بالمعارك والمذابح ضد الآخرين سيما أهالي فلسطين. قال الإنجيل (أحبو بعضكم بعضاً) و(لا تقاوموا الشر) و(من لطمك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر)، أما القرآن فيدع لمقاتلة الكفار والمعتدين (قاتلوهم ... وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) وهناك الفتوحات والغزوات، وشرب الخمر معصية وأكل لحم الخنزير محرم في الإسلام والتفاصيل كثيرة.

ولكن الإسلام حث على العمل (وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم) والمسيح قال (من ثماركم نعرفكم) بما هو شبيه بالماركسية التي تعلي من شأن العمل وفاعليته، فالمجتمع فاعلية في نهاية الأمر.

وتدعو المسيحية للتقشف (لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وتشربون ... مروراً بحمل من ثقب إبراً أيسر من أن يدخل غني إلى مكوت الله) بما يتقاطع مع القرآن (الذين يكنزون الذهب والفضة) وهنا ثمة مساحة كبيرة مع البوذية.

ولكنها كلها لا تذهب إلى معرفة سبب الثراء الفاحش وفق الطبقات الشعبية، الشيء الذي وجد تفسيراً له لدى ماركس والماركسية في زمن الرأسمالية وعلاقات الإنتاج وفائض القيمة والتبادل اللامتكافئ أي في علم الاقتصاد الماركسي وهو علم جديد.

وتنتظر الديانات كلها الثواب من الله على التزامها بالفروض الدينية، وثغافوت التفسيرات للدين الواحد وللديانات بمجملها، وهذا فتح سببياً لظهور حركات دينية تكفيرية ودموية مرات عديدة وحروب دينية كبرى فهي لا تقبل المبدأ المعاصر الحق بالاختيار والتعددية اللذان باتا جزءاً من حقوق الإنسان والجماعات والشريعة الدولية إلى درجة أن فرضت الديانات منطقاً في التفكير وألبسة معينة وأطعمة وعقوبات وعلاقات هجرها معظم البشر.

إذ لم تعد الشرعية الدولية وغالبية البشرية تتقبلان قطع يد السارق أو رجم العلاقات الحبية ما قبل الزواج أو تكفير المشروبات الروحية أو اللباس العصري أو حق الإنسان في التفكير بعيداً عن النصوص الدينية، أو

المواطنة المتساوية دون تمييز ديني أو جنسوي في الدولة العصرية المدنية. ناهيكم أن النظام السياسي بات مركزه الأساس الديمقراطية، والتنمية أول ما تستهدف التحرر من مخلفات القرون الوسطى.

والاشتراكية أول ما تستهدف التحرر من الهيمنة الرأسمالية والاستغلال الطبقي وبالتالي التحرر من الهيمنة الإمبريالية واستعمار الشمال للجنوب، وكل يوم يدع الإنسان نظريات جديدة ويكتشف معارف جديدة وهذا كله يدرس في دور التعليم والجامعات، فالمعرفة تراكمية من إنتاج البشر، خلافاً لما كان عليه الحال قبل الثورة الصناعية حين كانت الكتب الدينية ورجال الدين مرجعيات علمية وهذا حال إدارة شؤون المجتمعات إذ بات البشر يشترعون القوانين وينظمون المحاكم ويفضون النزاعات دون العودة للنصوص الدينية. أما البلدان الأكثر تطوراً اليوم اقتصادياً وعلمياً وثقافياً وفنياً فهي البلدان التي اجتهدت وأقامت مجتمعات معاصرة خلافاً لما كانت قبل قرون ولا نظنها ستهدم منجزاتها وتعود للوراء فهي حريصة على الحرية التي مكنتها من إحراز هذه القفزات بما فيها من إيجابيات وسلبيات، فالبلدان الأكثر تطوراً تقطر البلدان الأقل تطوراً، دون نمذجة أو اذدئاب للآخرين.

### في الأخلاق الماركسية والأخلاق الجنسية:

أعلن الرئيس الكوبي راؤول كاسترو في كلمته الوداعية لشقيقه وقائده فيديل "نقسم أن ندافع عن الاشتراكية، نقسم أن ندافع عن الوطن" بما يشبه شعار الثورة (الوطن أو الموت) وكلمات فيديل "نغرق الجزيرة في المحيط ولا نسلها للرأسماليين" والفكر الماركسي بلا ضفاف يمثل المتغيرات لأن شجرة الحياة خضراء، أسسه ماركس وأضاف عليه لينين وآلاف المفكرين الماركسيين في مختلف الحقول، والأخلاق الماركسية جزء صميمي في الماركسية، وهي في جوهرها تصب في طاحونة الثورة لتحقيق "إنسانية الإنسان" (ماركس) وإنهاء "استغلال الإنسان لأخيه الإنسان" وهي مرشد ومحفز "ضد الاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي والجنسوي والديني" (لينين)، ووسيلة للتحرر من ربة التخلف كما الاعتاق من العقل المنغلق الجبري الذي يحارب العقل الإبداعي وحرية التفكير ويشكل بل يحرم على البشر إدارة شؤونهم (جون ستيوارت ميل).

وأعلنت الماركسية منذ البدايات أن "مكانة المرأة في المجتمع معيار لتقدمه أو تخلفه" (ماركس) و"تقاس حرية الشعوب بقدر تحرر المرأة" و"تنتصر الثورات بقدر مشاركة النساء فيها" (لينين).

فالمرأة إنسان كما الرجل، وليست أدنى منه، وهما شريكان في بناء الحضارة الإنسانية وصنع عملية التغيير الثوري، ولا يجوز اختزالها أو استصغار شأنها وماركس انتقد الرأسمالية التي تسيء الإنسان وتجعل منه بضاعة، وتحليله بأن "الفقر أساس الدعارة، وأن الفقر سببه عدم توزيع الثروات بعدالة" ترفضه الرأسمالية مثلما ترفض رؤيته الاشتراكية بتشريك وسائل الإنتاج، وهو في مخطوطته المبكرة عام 1844 يهاجم مشاعية النساء ويدين ظاهرة البغاء التي أنتجتها المجتمعات الطبقية، وإنجز كشف في مؤلفه أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة المراحل التي مر بها التاريخ من علاقات جنسية غير منظمة امتدت مئات آلاف السنين إلى الزواج المتعدد النساء إلى الزواج الأحادي، والماركسية لا تأخذ بأطروحة التوراة "بأن المرأة - حواء أصل الإثم وضلع قاصر" مثلما ترفض السبي وتربط تحرر المرأة بتحرر المجتمع من الاستغلال والاضطهادات كافة وهي تركز على مشاركة المرأة في العملية الاقتصادية والنضال المشترك وإزالة الفوارق في تقسيم العمل كما تبني المساواة في الأجر وإطلاق عملية ثقافية مناهضة للبطيركية وهيمنة الرجل وتأمين حضانات ورياض أطفال وإجازة ولادة وأمومة مدفوعة الأجر وسوى ذلك، وهذا تحقق عملياً في البلدان التي سارت في طريق الاشتراكية.

وينتقد لينين إحالة الأعباء المنزلية على كاهل المرأة، أي أن الماركسية توحد في رؤيتها بين مساواة المرأة والتحرر من الاستغلال الطبقي والنهب القومي والبطيركية، فهي ليست دعوة أخلاقية معلقة في الهواء، تقوم على الوعظ بل تكشف الجذر الاقتصادي والسياسي والذكوري لعدم المساواة وهي ترى في الثورة طريقاً للمساواة، فلا تحرر للعمال والمضطهدين دون تحرر المرأة ولا تحرر لكل هؤلاء دون الثورة.

والأخلاقيات الجديدة إنما تشكل في غمرة النضال التحريري من أجل (بشر سعداء) ينتجها البشر عبر ممارساتهم وسيطرتهم على مصيرهم والأخلاق تلعب دوراً في تطور الوعي الثوري وخلق التضامن الإنساني. والتضامن مفردة مركزية في الأخلاق الماركسية، التضامن المشرب بالصدق والتضحية في سبيل الأهداف الجماعية والبشر، كتب ماركس، "كائنات اجتماعية قادرة على إنتاج الذات الإنسانية والمجتمع المتحرر لتلبية الحاجات الجماعية والفردية ليصبحوا أغنياء بقدراتهم وبناء الإنسان الشامل" و"الفلسفات القديمة قامت بتفسير



العالم بينما المطلوب تغيير العالم" والأخلاق الجديدة الساعية للحرية إنما تقوم على النضال الجماعي لرفض الظلم بكافة أشكاله وبلوغ الحرية.

والأخلاق الماركسية ثورة على أخلاقيات الهيمنة الرأسمالية والذكورية والعنصرية وعلاقات القوة السائدة والوعي التضليلي المزيف وهي تعتمد على البشر كأداة تحريرية للذات من آفات الفقر والقمع وبيع الضمير والجسد والاعتراب والتعاسة الإنسانية الناتجة عن تحكم القوى المهيمنة اقتصادياً وسياسياً وإيدولوجياً.

وفي أحد رسائله كتب ماركس "حدد رفاقك وأصدقاءك بكل دقة واعلم أن الجمل الثورية والسلوك الفردي العفوي لا يصنعان ثائراً ولا ثورة، الممارسة هي الشكل الأعلى للتعبير عن النظرية، الجبناء لا يصنعون التاريخ" فالممارسة مسألة مفتاحية في الأخلاق الماركسية والشجاعة شرطها.

ومنذ البيان الشيوعي رد ماركس على افتراءات وكذب المنظرين المعادين للاشتراكيين، وأكد على مؤسسة العائلة ولكنه كما إنجلز الذي كشف بحثياً التحولات التي طرأت عليها في مراحل التاريخ، وأدان تحويل المرأة لبائعة هوى ارتباطاً بالخلل في توزيع علاقات القوة والهيمنة والاقتصاد السياسي الرأسمالي وما قبله لهذا وضعت الثورة الفيتنامية على رأس أجندتها بعد الانتصار التغلب على ظاهرة نصف مليون عاهرة أورثتها الحقبة الكولونيالية الفرنسية والأمريكية فقامت بتأهيلهن وتأمين فرص عمل لهن واستعادة كرامتهن.

ونخص لينين الإطار العام للأخلاق الماركسية بالقول "لدينا أخلاق بكل تأكيد. يدعون أننا ننبد كل أخلاق إنهم يذرون الرماد في عيون الجماهير، أخلاقنا تنطلق من مصالح نضالنا ومرتبطة به، ولأن الأخلاق مرتبطة بالاجتماع وليست خارجة فهي مرتبطة بالنضال، أخلاقنا تسهم في نضالنا للتحرر من الاستغلال وتجميع الكادحين للثورة."

والثورة تتطلب الخروج من الانعزالية والتصميم على الهدف واحترام تضحيات الناس والتغلب على العيوب والأخطاء ونقد السلبيات والفشل، والتحرر من النمطية والتكلس والجهل وبناء ثوري وثورية منتجان وجاذبان للجماهير يصونان المنجزات ولا ينكسران تحت إغراء أو ضغط أو اعتقال، وهذا مهم سيما وأنا بين جدران السجن، يعززان الثقة بالنضال وبالمستقبل وروح الصداقة والصدق بعيداً عن "اللغوصات" والأناثية... إلخ.

نلخص إنجلز "ثلاثة أشكال رئيسية للزواج عبر التاريخ في الوحشية، الزواج الجماعي، وفي البربرية الزواج الثنائي، للرجل عدد من النساء وفي الحضارة أحادية الزواج المقرونة بالخيانة الزوجية والبغاء، وبين الثاني والثالث تسرب سيادة الرجل على العبدات وتعدد الزوجات" والبطيركية عموماً والزواج المدبر والزواج دون حب والنظرة الدونية للمرأة... إلخ.

وقد بشر بشكل جديد للحب والعلاقة بين المرأة والرجل أسماه "الحب الجنسي الفردي المعاصر" القائم على الحب المتبادل والمرأة في هذا الصدد مساوية للرجل، وأن يبلغ قوة ومدة تجعلان الانفصال واستحالة الوصال مصيبة كبرى، وأضاف فوشيك الثوري التشيكي (النضال المشترك) وأحادية الزواج أفضت إلى الحب الجنسي العصري، حب متبادل دون سيادة للرجل (الزوج) (إنجلز) وهذا شائع اليوم حيث يتم اختيار المرأة والرجل ولهما نفس الحقوق الواحد حيال الآخر، وكلاهما يكبح ويشارك دون سيادة لأحدهما على الآخر يجمعهما الحب العميق المتبادل والإسناد المتبادل والحرص المتبادل والثقة المتبادلة وهما يتطلعان لتطوير علاقتهما نحو ارتباط دائم وزواج.

وقد انتقدت القوى الماركسية اللينينية الثورة الجنسية في الغرب في ستينات القرن الماضي وشعارات الحب الحر الجنسية وصولاً إلى العلاقات المثلية والإباحية، ولينين أفرد حيزاً لنظرية "الحب الحر" لقد انتقدها واعتبرها مطلباً برجوازياً واقترح شطب هذه العبارة من مقترح الثورة الفرنسية إينيس آرمان، التي دعت لعلاقات جنسية عابرة وقُبل عن هوى عابر، وقال "بالقبل المرتبطة بالحب والزواج القائم على الحب" وانتقد فرضيات فرويد بأن الطاقة الجنسية (الليبدو) محرك لمسلكات الإنسان دون التفات للبواعث الاقتصادية والسياسية والثقافية والبيئة الاجتماعية، واعتبرها "خربشة".

ووافق آرمان على أن يتحرر الحب من الإعتبارات المالية والآراء الدينية والبيئة المتخلفة الفلاحية والبرجوازية الصغيرة، وفي لقاء مع الثورة كلارا زيتكين أعرب عن رأيه "بأن المرأة جزء أساسي من حركة الجماهير"، وأن المساواة التامة مسألة لا جدال فيها، ودعا لبناء حركة نسوية عالمية وبناء ملاكات نسوية متمرسة ومثقفة على مستوى المسؤولية، وقال "لولا مشاركة النساء في الثورة لما انتصرت" وأن النساء يردن الحرية رغم كل الحرمانات والآلام، إنهن مناضلات طبقيات حقيقيات موثوقات وذكيات ونشيطات يصلحن لكل المناصب.

وانتقد أصدار الثورية روزا صحيفة للبعايا قائلًا: "إنهن ضحايا نظام الملكية الخاصة وضحايا الرضاء الأخلاقي وإجلاف القلوب وحدهم يتناسون ذلك ... لكن أليس هناك عاملات صناعات ينبغي تنظيمهن وطبع جريدة لهن وتجنيدهن للنضال؟"

وانتقد كلارا لأنها تعتبر موضوع الجنس والزواج الموضوع المحوري في نقاشاتها، ودعا لنشاط منهجي في أوساط النساء، وتساءل: هل هذه النقاشات على أرضية ماركسية حقاً؟ كل شيء في وقته يجب توجيه العاملات للثورة. على ريفقاتنا أن يشتركن مع رفاقنا في عمل ثوري منهجي وأضاف، أعرف أن بعض الشكوك نثار حولي بأني لا أفهم قضايا العصر الحديث والجهلاء والبليدون ما يكادون يخرجون من بيضة التصورات البرجوازية الصغيرة يتصوروا أنفسهم خبراء في الفهم والذكاء.

وأضاف "أكبر خطأ نرتكبه هو أن نعظ الشبيبة بزهد الأديرة وقداسة القذارة البرجوازية ولكن أن تحظى المشكلات الجنسية بالمقام الأول والشاغل الرئيسي، فقد يكون لذلك نتائج مشؤومة. لست زاهداً متنسكاً متعنتاً، غير أن الحياة الجنسية لكثير من الشباب وحتى للراشدين في غالب الأحيان برجوازية تماماً، مظهر من المظاهر العديدة لماخور برجوازي وهذا لا صلة له بجزية الحب كما نفهمها."

وانتقد نظرية كأس الماء "كأن الحياة الجنسية انعكاس أخذناه من الطبيعة كبعد فسيولوجي." وبين إنجلز أهمية تطوير الحب الجنسي وتهذيبه، "هل ينبطح إنسان على أرض شارع ليشرّب من مستنقع ماء وسخ أو من كأس لوثت حوافها عشرات الشفاه الأخرى" وأكد أن "هناك ناحية اجتماعية وليس فقط علاقة بين اثنين."

إننا نسعى لفرح الحياة والرفاه والحب، والشطط الجنسي لا يفضي إلى ذلك. ودعا إلى الرياضة والسباحة والرحلات والدراسات والنقاشات (لا ترهب ولا دينجوانية)

"فلان شاب عظيم الموهبة ولكنني أخشى أن لا يخرج منه شيء جيد وهو يتخبط من مغامرة غرامية إلى أخرى، إن هذا لا يقدم شيئاً للنضال الثوري.

ولا أضمن الثقة ولا الحزم في النضال للنساء اللواتي يختلط خيالهن الشخصي بالسياسة ولا بالرجال الذين يجرون وراء كل تتورة ويقعون صرعى أول كاعب حسناء، إن هذا لا يتفق والثورة.

الثورة تستدعي تركيز القوى وتوتيرها من جانب الجماهير وكل فرد، ولا يفيدنا الثمل (السكر) ولا الإفراط في الجنس والكحول، إننا بحاجة لمزيد من الوضوح. الأولوية للثورة. " هذا الاقتباس الطويل للينين يقول الكثير.

قصارى القول، إن الأخلاق الماركسية - اللينينية مرتبطة أشد ارتباط بالثورة على كافة الاستغلالات والاضطهادات بما تتطلبه من قيم وقواعد ومثل، وهي شأن أيديولوجيتها دون ضفاف ومنفتحة على ما هو إيجابي في الممارسة الاجتماعية وحركة الحياة، وتلعب هذه الأخلاقية دور المرشد والناظم للثوريين والثوريات وللحيز العام الذي يتعبأ بها.

هنا أتوقف، شكراً لكم

## الماركسية - اللينينية في تجربة سياسية فلسطينية

قد أبدأ مقالتي بالقول إنَّ الماركسيَّة منهاجٌ يستند إلى قوانين، وإنها منظومةُ أفكارٍ أنتجها مفكِّرون كبار. ولأنَّ هدفها تغييرِيٌّ فإنها تواكب المتغيِّرات، وتنقد نفسها، وتنقد الواقعَ، وان لا ضفاف لها في عمليَّة دِيالكْتِيكِيَّةِ مستمرة، تستصوبها الممارسةُ وتصوِّبها في آن. فتكون، بذلك، مثابة عقلٍ نظريٍّ للبروليتاريا الثوريَّة في صراعها مع البرجوازيَّة، بغية إقامة "ديكتاتورِيَّتِها" من خلال "حكم الشَّيْلة الأحرار" (ماركس)، بما يزيل "التناقضَ بين مملكة الضرورة ومملكة الحرِّيَّة"، "ويحو الفوارق الطبقيَّة" و الغاء علاقات الانتاج الراسماليه في طريق "الانتقال من الطور الاشتراكيِّ إلى الطور الشيوعيِّ"، "يحفرها منطلقُ أمِّي تجسّد في شعار ماركس - انجلز" يا عمّال العالم اتحدوا" وإضافة لينين "ويا شعوبه المضطهدة...". أي انها شملت المساله الطبقيه والوطنيه معا.

وقد أضيف أنها اتكأَتْ على المنهاج الماديِّ الجدليِّ الذي تجاوز مادية فورباخ وديالكْتِيك هيجل، فاكتشفت قانونَ التوافق بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وقانون التوافق بين البنية التحتيَّة والبنية الفوقيَّة، كأداةٍ تحليليَّةٍ لفهم آيةٍ مرحلَةٍ تاريخيَّة، وصولاً إلى حتميَّة زوال الرأسماليَّة (حقارة قبرها بنفسها).

وقد أزيد أن لينين غاص في الوجود الماديِّ والوعي، وصولاً إلى تحليله للإمبرياليَّة والاحتكارات وقانون تفاوت التطور والحلقة الأضعف في السلسلة وتحويل الثورة الديمقراطيَّة الشعبيَّة إلى ثورة اشتراكيَّة. وبرهن على صدقيَّة رؤيته ببناء الحزب الجماهيريِّ الكفاحيِّ القادر على الانتصار الذي ينظّمه قانونُ المركزيَّة الديمقراطيَّة. وأقام التحالفَ الطبقيِّ بين العمّال والفلاحين، وقاد عمليَّةً ثوريَّةً ضخمةً أطاحت بالنظام ودشنت عهداً جديداً يسعى إلى إزاحة كافة أشكال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وكافة أشكال الاستلاب والاغتراب، وصولاً (للتحرر الشامل للإنسان) ماركس. وقد أستطرد في هذه العبارات النظرية المجردة وصولاً الى ارتباط الفلسفه بالايديولوجيا والثقافه والسياسه إلى آخر المقالة.

وقد يكون مفتتح مقاربتى هو الأزمة الاقتصادية التي اكتسحت العالم 2008، ومنبعها النظام الرأسماليِّ وسياساتُ الليبراليَّة الجديدة، فأعود بالتالي إلى تحليلات ماركس لأسلوب الإنتاج الرأسماليِّ والدورة

الاقتصادية وحتمية الأزمة، سواء تجلّت في الآلية القديمة لفيض الإنتاج أو الآلية الجديدة للبورصة والمضاربات المالية. ومن ثم فالرأسمالية “تكذب إذا كانت ربحيتها 10%، وتقتل إذا كانت ربحيتها 50%، وتشلح حرباً إذا كانت ربحيتها 100% (ماركس)؛ وشاهد ذلك الحريين العالميتين الأولى والثانية، وعشرات الحروب المحلية، ناهيك عن احتلال العراق وأفغانستان والحرب على لبنان واستعمار جنوب افريقيا والاستيطان الكولونيالي العنصري الحربي في فلسطين.

وقد أستطرد في هذه العبارات المحفوظة أيضاً. ولكنني أؤثر أن أعرض لمحاتٍ من مقطع فلسطينيٍّ حيٍّ في الأرض المحتلة، عنوانه: كيف حضرت الماركسية - اللينينية في تجربةٍ سياسية.

\*\*\*\*\*

منذ البدايات، وفي وقتٍ مبكرٍ من الشباب، بهرتنا مقدرة لينين على بناء حزبٍ تميّز بالثبات والتصميم على بلوغ أهدافه بالأساليب الثورية. وكانت مقارنته للمسألة اليهودية هي “التمثل” لا “الانفصال”، مع إدانة الصهيونية كحركةٍ استعماريةٍ رجعية. قلنا لأنفسنا: ماذا يحتاج العربُ والفلسطينيون أكثر من ذلك؟ لقد كان أنموذجاً وقوةً مثال، الأمر الذي دفع مثقفاً من وزن إلياس مرقص في السبعينيات إلى التنظير للحزب البروليتاري العربي.

وقرأنا فهم لينين لكلمات ماركس (في بؤس الفلسفة) عن “الطبقة في ذاتها” و”الطبقة لذاتها”، وقيام نظريته التنظيمية على الانتقال من تلك إلى هذه، أي من النضال النقابي إلى النضال السياسي والانتفاضة الظاهرة في أكتوبر 1917. فدفعنا ذلك إلى قراءة وضع الطبقة العاملة الفلسطينية، وصولاً إلى الشعب الفلسطيني، وإلى خوض الممارسة الثورية التي تنتقل بالجمهير “من... إلى...”، وإلى بناء الأدوات الطليعية وحمايتها وتطويرها، وصولاً إلى الانتفاض الشعبي العارم في أواخر العام 1987.

كان يتعين فهم الخصوصية الفلسطينية من جهة، وخوض الممارسة الثورية من جهة ثانية، وبناء “الضمير الجمعي” من جهةٍ ثالثة، في إطار الصراع ضدّ محتلّ استعماريٍ عنصريٍّ استيطانيٍّ توسعيٍّ. وعلى الدوام كانت الأسئلة الملحة هي: كيف نفهم عدونا؟ كيف تتمّ التعبئة بمقولاتٍ تحريريةٍ وحدائيةٍ في مجتمعٍ تقليديٍّ؟ وكيف يتمّ البناء فيما نأرُ الاعتقال والتعذيب تطلق من كلّ الجهات؟ وكيف ناضل في جغرافيةٍ ضيقةٍ من دون

مرتفعات شاهقة أو غابات، وفي ديموغرافيةٍ محدودةٍ ومجزأةٍ وحدودٍ محاصرة؟ وهل لكلمات لينين معنى حين يقول إنَّ بناءَ الحزب هو المسألة الأصعب، وإنَّ المسألة الأولى تكمن في الحفاظ عليه وعلى صلابته، و”إنَّ حزب الطبيعة يسترشد بنظرية الطبيعة” وبناء فريق من ”المحترفين الثوريين،” وإنَّ ”المرئي ذاته يحتاج إلى التربية”؟ أئمة معنى لقول ماركس إنَّ تحويل الذات في النشاط الثوري يتطابق مع تحويل الظروف؟ لاحقاً، اكتشفنا باولو فريري، وتساءلنا عن المعاني العميقة لـ ”المشاركة” و”الحوار” و”التواضع” و”هيمنة الوعي العميق التي تفضي إلى انتشار الأكاذيب.”

وفي سنوات السجن في السبعينيات عرفنا سحرَ العديد من الأسئلة المفتاحية، وأبحرنا في سفينة الفلسفة والاقتصاد والتاريخ العربي والتجربة الكويتية. كانت ”نظرية الممارسة” التوسير موحيةً لنا، وفتحنا عيوننا على الملموس والإبداع؛ فالماركسية ”مرشدٌ للعمل لا عقيدة جامدة” قال لينين، و”لن نجدوا في الكتب إجابةً عن أسئلتكم” قال أيضاً في خطابه إلى شعوب الشرق. وبهرتنا عبارة ماركس إلى الاشتراكيين الفرنسيين ”أنا لستُ بماركسي (ومن المجرّد العام الى الملموس الخاص)،” ”أي لا مقدّس مطلقاً ولا جمود عقائدياً، بل منهاج واستخلاصات ترشد العقل إلى قراءة الخصوصية؛ وهذا ما لخصه لينين في مقولته: ”تحليل ملموس للواقع الملموس.” وهنا تخندقنا ،

هكذا أصبحنا أمام تحدٍّ إبداعيٍّ حقيقيٍّ، في التحليل، والبناء، والتصليب والتجذير. أما الصمود في الزنازين فكان المرأة المقعرة: فالضربات الاعتقالية لا تتوقف، ولا ينفع في تفادياها ”براكسيس” أو إبداع أو نضال! وعلى امتداد عقود كان الامتحان العسير هو القدرة على حماية الطلائع المناضلة، ولاسيما في الزنازين؛ فهي فتية بلا تجربة، والعدو يُحصدها من دون توقّف. وعليه، فقد باتت مفرداتُ ”بناء، مهارات، صمود” على رأس الأجنحة. وباتت جسرَ العبور إلى الفاعلية وهذه مفردة مركزية في الماركسية، أي إلى ”الممارسة الاجتماعية الشاملة” (ماركس) وإلى ”العمل المتكلم” (التوبا ماروس).

أما من الناحية التنظيمية فقد اعتبرت المسألة التنظيمية هي المسألة الأساس والحلقة المركزية بما استوجبت من جهد مثابر لا يتوقف يراكم ويراكم ويبني كادرات وامتدادات فدون ذلك ليس ثمة سياسة، فالسياسة هي الصراع الطبقي والقومي بتعريف لينين وهي صراع ضد التخلف القرون الوسطى وضد البطريركية والعقل الجبري ولا مجال لممارستها دون اداتها ، اما الديموقراطية فقد فهمناها (بعد قراءة غرامشي وروزا) بوصفها

مبادرةً قبل أيّ شيءٍ آخر: فـ “الكادر يبادر،” كتب جيفارا، والتجربة الكوبية مبادرةٌ عظيمةٌ خرجت عن النصّ” وأبدعت. وفهمناها أيضاً حواراً واسعاً، واستجابةً للهمّات: فن لا يقو عليها يُعدّ النظر في موقعه. أما الألقاب المركزيّة” فقد نأى عنها الجميع، وألغيت امتيازاتها الماليّة والعلاجيّة. وفي حين كانت نسبة التفرّغ عاليه خارج الوطن، لم تتجاوز 2% داخله؛ بل كان الأسرى يخرجون من السجون ليعودوا إليها ثانية، ويكتفون بثلثي بدل التفرّغ، أي ما يعادل متوسط الدخل في المجتمع. ولم تكن ثمة تقسيمات طائفية أو جنسوية بالتأكيد. وغلب على القرارات استخلاص جوهر مشترك، أو انضباط الأقلية للأغلبية، والأدنى للأعلى، وانتخاب المسؤول من قبل مرئيه الحزبية في كثير من الأحيان، وذلك في إطار قواعد العمل السري، إذ يعادل “عقد مؤتمرات مكشوفة تصفية للحزب” (فهد). وإلى جانب العمل المنظم الواعي فقد استرشدنا بالحكمة الصينية “وتر القوس ودعها تنطلق،” إذ إنّ العفوية الجماهيرية والمبادرة الجماهيرية لا تقلان أهمية عن ذلك العمل المنظم ... بل يقف “الضمير الجمعي” في قلب الفعل الجماهيري للعمل الثوري.

\*\*\*\*\*

في البدايات، ولاسيما في السبعينيات، شهدت السجون ورشةً فكريّةً متشعبة، وقنا بعملٍ أرسى الأسس التي سرنا عليها لاحقاً، وذلك في جدلية مستمرة بين النظرية والتطبيق، وفهمنا أنّ التطبيق هو المعيار الأهم للحقيقة. وتعرّفنا على عبارة ماركس “لا نعترف إلا بالتاريخ وعلم التاريخ،” وعلى مقاربهه للتعاقب التاريخي الأوروبي وما كتبه عن نمط الانتاج الاسيوي. ولاحظنا جدلية الأفكار والحضارات، بدءاً بالأمرية وتأثيراتها على ما تلاها من كنعانية وفرعونية، ووصولاً إلى الهندوكية والطاوية وتأثيراتها على الكونفوشية والبوذية. وهذا حال مراحل التاريخ القديمة، مروراً بالإقطاعية ومنظوراتها، ووصولاً إلى الرأسمالية وعلومها. ذلك أنّ “الثقافات متمازجة ومتداخلة كثيراً،” وعلى “المثقف أن يكون كالرحالة” (إدوارد سعيد).

كما لاحظنا البذرة العقلانية في الفلسفة الإغريقية وصولاً إلى هيغل وماركس، وإبحار هذا الأخير في تحليل المرحلة الرأسمالية وصولاً إلى خلاصته: “إذا كانت الظروف هي التي تصنع الإنسان، فعلياً أن نصنع ظروفنا إنسانية.” وقد اخترنا هذا المنظور، ودلّلنا عليه بانخراطنا في تنظيم جماهيرنا ومقاومة المستعمر، تحفّزنا كلمات ماركس “المثل العليا حاجةٌ لإبقاء الحماسة في مستوى التراجميديا التاريخية الكبرى،” وكلمات هيغل “لا ينبغي أمرٌ عظيم دون شعفٍ شديد،” وكلمات فرانز فانون “لا ثورة من دون حماسة،” وكلمات كاسترو “لقد احتفظت



بجاسة اللحظة الأولى. ” وقد تجذرت هذه المقولات في رؤوسنا، وأعيد إنتاجها عشرات المرات. ولاحقاً اكتشفنا دويره ومهدي عامل وسعد الله ونوس، كلاً ضمن مساحته.

كما نعمل بالاعتماد على الذات، وبلا مرجعيات. كان كل شيء يبدأ من المربع الأول: ”هنا القلعة فاقنر هنا.“ ورحنا نستجيب للمقولة التنظيمية والقول الثقافي والسياسي، نفعل ونفعل في براكسيس متشعب، نحو يوتوبيا كبيرة هي فلسطين ديمقراطية دون تمييز ديني أو جنسي أو عرقي، بما يتطلبه ذلك من مهارات وتوضيحات ونضال سري ونصف سري وربط للوطني بالقومي، والطبقي بالأمني، ومتابعات (”المتابعة هي جوهر العمل الحزبي“ لينين).

وحين كانت تنشأ تناقضات بين ”الجزء والكل“ (لوكاش)، بين الفرد والجماعة، وبين قابليات الأفراد وميولهم، كما على الدوام نبحث عن المشتركات، حافزين الصخر بأصابع عارية أحياناً. وكانت ذروة عملنا بين مرحلتين الانتفاضة ومدريد وأوسلو، رغم تفكك سبيكة الدولة السوفيتية وارتداد نظامها؛ فلقد فعل العامل الذاتي فعله لدينا، وعلى نحو ما ”اقتحم السماء.“ راكم وانجز.

\*\*\*\*\*

هنا تجدر الإشارة إلى أمور ثلاثة:

أولاً: التناقضات الداخلية: لقد فهمنا مبكراً المنظور الماركسي للتناقض الأساس، والتناقضات الثانوية والفرعية والآنية. وحددنا تناقضنا الأساس مع المحتل، ورفضنا إحلال الثانوي محلّه. ومن الطبيعي، والحال هذه، عدم اللجوء إلى العنف في تسوية انشقاقات عام 69 و 72 [عن الجبهة الشعبية]، وأن يجرّم الدكتور جورج حبش اللجوء إلى السلاح في اقتتال البقاع والبدّاوي عام 83، وأن ينتقد اقتتال غزة. كما أننا لم نستخدم تعابير التخوين؛ فمن حق الجميع، ممن تعمد بتوضيحات الميدان والزنازين، التفكير والاجتهاد، إذ لا أحد يحتكر الحقيقة. لقد بحثنا جميعاً عن الحقيقة، وتعلمنا مبكراً من الديالكتيك أنّ كل شيء مكون من أ + ب وأنّ أ ذاتها مكونة من س + ص؛ أما الأرقى فهي ج التي تولد من جدلية أ + ب. ولم نقبل، بالتالي، منطق الخير المطلق والشر المطلق؛ ففي التناقض الحياة، وفي التماثل الموت (مهدي عامل). على أنّ ذلك كلّه يحتكم في النهاية إلى قانون ”المركبة“

الديمقراطية،” كما حضر في الوضع المعين، ومن دون نمذجة أو تقليدٍ أعمى. أما صوابية الفهم فتدلّ عليها الفاعلية والمنجز.

ثانياً: الدين: لقد تعرّضنا هنا لإطلاق نارٍ من كلّ الجهات، بما في ذلك الزنازين، بتهمة أننا “ملاحدة،” ومن دون أن يحاول المتهمون فهم رؤيتنا الفكرية أو سببها. غير أننا كما نردّد أننا ضدّ كلّ اضطهادٍ قوميٍّ أو طبقيٍّ أو جنسيٍّ أو دينيٍّ (لينين)، وأنّ “على كلّ واحد أن يتمكّن من أن يقضي حاجاته الدينية والجسدية من دون أن يحشر البوليسُ أنفه فيها” (ماركس). أما على صعيد بنيتنا الداخلية، فقد كانت هناك أقليةٌ تمارس طقوسها الدينية بلا أدنى تدخل. لاحقاً استخدمنا عبارة سبينوزا “الحساب الأخلاقي العملي للفكرة،” سواء أكانت دينية أم غير ذلك، فاهتمنا بمضمون انعكاس هذه الفكرة في الحياة لا غير، وتوصّلنا إلى أنّ الإيمان “مسألةٌ ضمنيةٌ شخصية.” ماركس أما برنامجنا السياسي ونظامنا الداخلي فهما يخلوان من هذا السؤال الفلسفي الإشكالي.

وفي بدايات التمرد الثوري قرأنا كتابي صادق جلال العظم (النقد الذاتي بعد الهزيمة، ونقد الفكر الديني)، وقرأنا الكثير في ميدان الأنثروبولوجيا ودور البشر في إنتاج حضارتهم، ولم نقبل التفسيرات التي نظرت لهزيمة حزيران على أنها عقابٌ من السماء وأنّ شهداء الثورة لبسوا شهداء. وفي مرحلة متقدمة من الوعي اكتشفنا الفارق بين دور الدين كإيديولوجية إقطاعية في أوروبا، وبين الدين الإسلامي في التاريخ العربيّ ككاملٍ ومحمولٍ للهوية القومية ولكننا استمرينا في انحيازنا للعقلانية والعلم وحق البشر في الاختيار وإدارة أمورهم .

ثالثاً: الانتفاضة الكانونية: اشتعل الجيْشانُ في الأراضي المحتلة 67 في أواخر سنة 1987، وفيه تكثّف كلُّ شيء: إرادةُ الناس، وإرادةُ القوى المنظمة، وقدرةُ هذه الإرادة على تحدي الاحتلال. وبسرعةٍ مذهلة، تحوّلت الانفجاراتُ العفوية المحلية إلى انتفاضٍ شعبيٍّ عارم، بقيادة مركزية، على الرغم من التفاوت بين دور الطبقات الاجتماعية والمواقع الجغرافية (إذ كانت المخيماتُ رأس الحربة ومنبعاً لنصف الشهداء). واتسعت الاشتباكات، موشحةً ببعض المظاهر العصيانية والسلاح الناري. وتمّ تفادي عدد من التكتيكات المغامرة التي كان يمكن أن تنهي الانتفاضة في أسابيع. كما عزّل النفوذ الأردني تماماً، وأسقط مخطط التقاسم الوظيفي، واندفعت الجماهير إلى كسر حاجز الخوف، في سعيٍ حثيثٍ إلى جعل الانتفاض نمط حياة و كان الابداع التكتيكي ديناميكياً خصوصاً العصيان المتدرج . ثم جاءت اتفاقات مدريد وأوسلو، فقطع السياق

لقد عشتُ الماركسيّة - اللينينيّة كمرشدٍ للعمل والنضال، تنأى عن الإطلاقيّة والانغلاقيّة، ولم أعشها مجرد نقاشاتٍ أكاديميّة. وهذه الممارسة غدت مقطّعاً مهمّاً في المسيرة الوطنيّة، ما قبل تمدّد مرحلة أو سلو وما نتج عنها من تحولات.

\*\*\*\*\*

والآن إلى محاولة الإجابة المباشرة عن السؤال.

1- أعتقد أنّ هويّة اليسار العربيّ مازالت على حالها: فنحن مازلنا "ضدّ كلّ اضطهادٍ قوميّ، أو استغلالٍ طبقيّ أو دينيّ أو جنسيّ". ومازلنا نؤمن بأنّ "الاشتراكيّة والديمقراطيّة صنوان، وأنّ" السلطة هي المسألة المركزيّة،" وأنّ "طبقةً لا تتعلّم حمل السلاح تستحقّ أن تعاملَ معاملة العبيد،" وأنّ "الحزب هو الضميرُ الجمعيّ للأمة..." بهذه المقولات اللينينيّة تحدّد هويّة اليسار، وإلّا أصبح "بخلاً أحمرّ من الخارج، وأبيض من الداخل" (لينين). أما أن يتحمّل بعض المقولات الليبراليّة، كالديمقراطيّة والتعددية والمواطنة وسيادة القانون وحقوق الإنسان...، فشرطٌ ذلك ألا يتوقف هنا وإلّا أصبح احتياطاً للبرجوازيّة، أي ما هو أسوأ من الانتهازية، وأعني "تسخير مصالح الطبقة العاملة لخدمة البرجوازيّة" (لوكاش). على اليسار، بدلاً من ذلك، أن يمضي في خوض الصراع الطبقيّ من أجل الاشتراكيّة، وخوض الصراع القوميّ من أجل "تقرير المصير" (لينين) وفك ارتباط الجنوب بالشمال والهيمنه، والاستقلال عن الإمبرياليّة والاحتكارات المعولمة، وتنظيم حركة نسويّة مناضلة.

2- التاريخ مراحل، ولكلّ مرحلة تناقضاتها وقوى اجتماعيّة تتصارع فيها. ولا معبر عن شعار "يا عمّال العالم ويا أيّها الشعوب المضطهدة اتّحدي" (لينين) سوى الرؤية الماركسيّة اللينينيّة، على الرغم من الإرباكات والالتباسات والانهيارات في معسكرها هذه الأيام. فهي "النهج الأصوب في قراءة التاريخ" (جورج حبش)، وليس ثمة قيود مقدّسة تمنعها من أن تكون ديكالكتيكيّة، تتقد الواقع وتنتقد نفسها وتمثّل المتغيّرات.

3- إنّ القوى اليساريّة العربيّة، بما فيها الفلسطينيّة، قد شاخ معظمها، وشاخ معظم هيئاتها. وهي لم تستطع حمل الراية بعد فشل البرجوازيّة القوميّة، بل لم تستطع الحفاظ على تركيبها الذي أحرزته في الأمس، إذ تقهقر دورها، رغم وجود بقايا وطاقة حيويّة هنا وهناك وإرثٍ فكريّ يتموضع في الثقافة العربيّة. وسواء اتّحدت تلك

البقايا أو لم تتحد، فقد شاخت. ولكن من بين ظهرانيها، ومن إرثها، سوف تنهض قوى جديدةً ماركسيّة - قوميّة للتعبير عن التناقضات المتفاقمة في الوطن العربيّ والساحة الفلسطينيّة.

كتب غرامشي أنه عندما تسيخ علاقات الإنتاج والقوى الطبقيّة الحاكمة، وتعجز القوى الثوريّة، يصبح المجتمعُ مريضاً. وأظنّ أنّ المجتمع العربيّ غايةً في المرض الى درجة السماح لقوى معاديه العث في ساحته الداخليه وانتاج قوى دمويه، ولكن سينبتق لا محالة من تحت السطح؛ ذلك لأنّ الشيء يستولد نقيضه، ولولا ذلك لما نشأ حزبُ لينين ولا تجربةُ كاسترو ولا مقاومةُ حزب الله ولا حركةُ فتح والجهة الشعبيّة ولا الثورة الصينيّة ولا تشافيز ومشروعه في أمريكا اللاتينيّة.

إنّ الخلل الأول اليوم في اليسار وبقايا اليسار الفلسطينيّ والعربيّ هو عجزُ "القيادات" وعدمُ كفاءتها، وتحديدًا فقرُ المنظمين من الطراز الرفيع أو غيابهم. ومن دون منظمين كهؤلاء، يعملون "محترفين ثوريين" بالمعنى اللينينيّ للكلمة، ويجرؤون على خوض كافة أساليب العمل والنضال، فليس ثمة فرصةٌ لبناء يسارٍ أبداً. وهؤلاء لا يكونون عادةً إلا من الجيل الشبابيّ المتخفّف عائلياً على وجه الإجمال وذي الصحة الفوارة، الذي لم تستنزفه الشيخوخةُ (البيولوجيّة) بعد؛ فلقد تصدّر المقدمة، مع الأسف، ولأسبابٍ مختلفة، زعاماتٌ مشهيدةٌ فاشلةٌ إجمالاً وأشخاص نادرا ان يكون بينهم كفاءه استراتيجيه او نصف كفاءه!

## الحزب والحركة الاجتماعية

أدناه كلمة ارتجالية ألقيتها في مؤتمر الحركات الاجتماعية الذي انعقد في مسرح بلدية رام الله، واستغرقت 20 دقيقة أو أكثر بقليل. وشارك في هذا المؤتمر متحدثون ومتحدثات من أمريكا اللاتينية والشمالية وأوروبا وآسيا وفلسطين.

أهلاً وسهلاً، أثنى الفاعلية المتشعبة في الأمس واليوم.

تنويه استباقي:

لن أتطرق إلى تعريفات علماء السبسيولوجيا والسياسة للحزب والحركة الاجتماعية، ولن أذهب لتجارب عالمية أو عربية، فحديثي سوف ينحصر في تجربة يسارية فلسطينية في مرحلة المد، أي ليس ما أصبحت عليه، ومداخلتي كما التجربة تسترشدان بمقولة ماركس "من المجرّد العام إلى الملموس الخاص" التي ترجمها لينين "تحليل ملموس للواقع الملموس" أما الدكتور جورج حبش فقال "ينبغي إلباس النظرية عقلاً وكوفية" أي فهم الخاص والملموس، وبالتالي حضور المجرّد في الملموس ضمن شروطه التاريخية.

أي يتم الاسترشاد بالفكر لإنتاج فكر ومقاربات وعلوم وثقافة وفن مشتقة من الملموس وتعالج خصائص وقضايا الخاص وتحديداً الفلسطيني والعربي.

وحديثي لن يلتزم بالملموس فقط بل أنا أتحدث من قلب التجربة الحية، من البراكيس أي تفاعل الإرادة والوعي مع الممارسة، تصويب واستصواب... إلخ.

أي ليس قراءة خارجية سواء كانت أكاديمية أو صحافية. ويتعين أن أعترف أنني أرتكز إلى نقاش جرى في أواخر السبعينيات، ومعظمكم لم يكن قد رأى نور الحياة بعد.

وأجاب هذا النقاش عن سؤالين: (1) ماذا نريد؟ (2) وما الهدف؟ وكان الجواب أن الشعب بحاجة لحزب ثوري وحركة جماهيرية عريضة ثورية لتأدية دور طليعي للتخلص من كل الاعتبارات، أي الاستلابات.

ويجدر التنبيه بداية لثلاث نقاط منهجية:

(1) لقد نشأت الحركات الاجتماعية تاريخياً وعالمياً كحركات احتجاج وفي اشتباك مع الدولة، سواء قضايا نقابية أو حقوقية أو قضايا نسوية أو بيئية. إنلج ... أما في الحالة الفلسطينية فشعبنا بلا دولة أو سيادة وقد تعرض لتطهير عرقي عامي 1948 و 1967 وبالتالي نشأت الحركات الجماهيرية التي أصبح اسمها اليوم الحركات الاجتماعية، في صدام مفتوح مع المستعمر أولاً. أما أية احتجاجات على السلطة في الضفة وغزة (السلطين) فهي تأتي ثانياً، ارتباطاً بلوحة التناقضات. مع الاعتراف أن مساحة التناقض مع السلطة ومع النخبة الطبقية المسيطرة ومع البطيركية ومع الرؤية التنموية العاجزة ومع مخلفات القرون الوسطى ومع كل المنظورات الفكرية التي تحاصر العقل وتنع حق الاختيار والإبداع والمواطنة المتساوية قد آتست في مرحلة أوسلو منذ عقدين ونصف.

فهناك اغتربات عدة في فلسطين ولكن تبقى المسألة التحررية الوطنية في المقدمة، بل وللكولونيالية اسقاطات مؤكدة على الاستلابات الأخرى.

(2) لم يفهم النشاط الاجتماعي أو الحركة الاجتماعية من منظور ليبرالي إصلاحي، أي تحقيق مكاسب برفع الأجور مثلاً أو أجر متساوي للعمل المتساوي أو استصدار صحيفة لأو مجلة أو انتخابات لمجلس طلبة في جامعة وتخفيض تكاليف الدراسة أو استرجاع قطعة أرض ... إنلج، بل قلنا نعم لكل مكسب إصلاحي وبلغة لينين "كل عطاء خير" ولكن ذلك كله يصب في طاحونة الهدف الثوري التغييري من منظور ماركس ولينين وغرامشي. فالخطوة الإصلاحية تخدم الهدف الجذري، وصولاً إلى "التحرير الشامل للإنسان" (ماركس) اي تحريره من كل الاغترابات بما يتطلبه ذلك من استحقاقات وزمن . فالتاكتيك يخدم الاستراتيجيه ولا "ينبغي أن تنتهك السياسة الإيديولوجيا" (د. حبش).

أي ليس استرجاع قطعة أرض بل تحرير وطن، وليس تخفيض تكاليف التعليم بل مجانية التعليم وتطويره، وليس رفع الأجور بل إزالة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ... كأهداف استراتيجية لا رجعة عنها.

وارتباطاً بالرؤية اللينينية التي تقول أن الجماهير هي صانعة التاريخ وصانعة التغيير، فذلك يتطلب بناء أوسع قاعدة جماهيرية، بل ومركزتها وتوحيد إرادتها على عكس الخطاب الليبرالي الذي يكرس تجزئتها وتشظيتها، والخطاب

التقليدي الذي يهشم نصف المجتمع ويفتقد للرؤية والآليات التي تحرره من مخلفات القرون الوسطى. ومعروف لكم أننا كعرب نعيش على حواف الثورة الصناعية، فلم ننتج علماً ولا صناعة ولا مدينة معاصرة، أما فلسطينياً فإضافة لذلك تاريخنا مفوّت فلم نستقل بعد.

ورائحة مقولة "سيادة القانون، والقانون رقم كيت والأمر رقم كيت" والسؤال الذي يطرح نفسه، هل هذه قوانين وأوامر الاستبداد، أم قوانين وأوامر المضطهدين والمغلوب على أمرهم؟ مع أهمية الإفاده من أية متنفسات قانونية وحاجة المجتمع لنواظم ومرجعيات.

(3) ثمة ترابط بنيوي جدلي بين الحزب الثوري والحركة الاجتماعية، ترابط لا انفصال فيه، وليس مجرد تفاعلات كما ينصح الخطاب الليبرالي. فالحزب الثوري، لا الخصي أو الهامشي الذي لا وزن له، والحركة الجماهيرية العريضة، لا البؤر المعزولة المتشظية التي لا قاعدة شعبية لها، هما جناحان لطائر واحد لا يقلع بإحدهما، وليس إحدهما بديل للآخر، بل يتحدان في جسم واحد سيما في الهياكل العليا والامتدادات القاعدية، وما يفصلهما هو طابع ومهام كل منهما، وأحياناً يتقاطعان تماماً ارتباطاً بحركة الواقع.

أكبر وأوسع حركة اجتماعية عرفتها الأرض المحتلة هي الانتفاض الكانوني أواخر عام 1987 الذي استمر خمسة أعوام، حيث انخرط الجميع في الميدان. وكان انتفاضاً حقاً وجماهيرياً حقاً، حيث أن الصفة البنيوية للانتفاض أن يكون جماهيرياً كما تشير الكتابات النظرية المستقاة من مقاطع انتفاضية في غير بلد. أما في مرحلة الجزر فهناك من يذهب لنشر الثقافة النقدية أو البناء أو النضال الإصلاحي والجزئي.

وهذا يقودني إلى توضيح أهم الفوارق بين الحزبي والديمقراطي أو الاجتماعي، رغم أن لكل منهما حيز جمعي ويتقاطعان في كثير من الأمور سيما الأهداف العامة المشتركة:

(1) الحزب قاعدته أضيق وشروط العضوية فيه أشد وتطلباته أكثر، وقد يذهب لمهام لا تذهب إليها ككلمة طالبية أو تعاونية زراعية أو جمعية نسوية أو مركز بحثي أو نقابة عمالية. والتثقيف والفكر السياسي في الحزب الثوري أكثر اتساقاً وعمقاً ومنهجية، فهو يتسلح بنظريات إيدولوجية، بينما تكتفي الحركات الاجتماعية بما يتصل بميدان عملها وحد أدنى من التعبئة العامة. أما النشطاء الحزبيون في الحركات الاجتماعية فيتلقون تثقيفهم من مرجعياتهم الحزبية.

(2) الحزب الثوري سري في ظروف القمع والاستعمار وهذا قرار منذ الألفية الثانية والنصف، أي منذ قرن تقريباً فهو مستهدف بالضرب والتصفية ويلجأ للسرية لحماية لوجوده وتأدية دوره في كل الظروف. أما الحركة الاجتماعية فتضم السري كما اللجان الانتفاضية ولجان المقاومة الشعبية، القاعدة الأوسع في زمن الانتفاضة والتي تعرضت للملاحقة والاعتقال والإصابة، ونصف السري من أطر طالبية ونقابية إذ تتعرض للملاحقة والاعتقال أحياناً، والعلمي من نشاط إعلامي وبحثي وتعاونيات زراعية ورياض أطفال وجمعيات ونوادي و فرق فنية وإغاثة اجتماعية مع حجب جوانب معينة خشية الاستهداف.

(3) التمويل: للحزب الثوري مصادر تمويل ذاتية بالاعتماد على نفسه من اشتراك وتبرعات ومبيعات، فضلاً عن التحالفات السياسية، وممنوع عليه تلقي الأموال من جهات أجنبية.

أما الاجتماعي فمن مصادره الذاتية ومن الحزب مع نافذة محدودة على التمويل الأجنبي غير الملوث. ومعروف لكم المثل العربي والإنجليزي "من يدفع للزمار يحدد نعماته" فأنظمة دول تتمحور وتتبع المركز الإمبريالي بسبب التمويل والقروض، فما بالك بمراكز وجمعيات... ناهيكم أن التفرغات في الحزب الثوري مرتبطة بمتوسط الدخل في المجتمع والحد الأدنى للأجور وهي غير مغرية ومتشقة ذلك أن الحافز الأخلاقي لا المالي محركها، أما في الحركة الاجتماعية فالرواتب أفضل للكادرات، ولكنها لا تصل وبعيدة عن رواتب المنظمات غير الحكومية المجزية والمستويات المتقدمة في السلطة. ومن المبرر أن نتساءل لماذا تصل الرواتب هنا ألفين وثلاثة وأربعة آلاف دولار بينما الحد الأدنى للأجور أقل من 500 دولار؟

(4) المهام منها المشترك في زمن المواجهات. الجميع للهدان. والحزبي أكثر انضباطاً هنا، ومنه الخاص. والحزبي يتدرج من توزيع البيان إلى أرقى أشكال المواجهات والتخفي والصعود للجبل وما بينهما من حلقات كثيرة، أما نقابة عمالية أو اتحاد نسوي أو جمعية استهلاكية أو إطار صحي أو عمل تطوعي فالمهام مختلفة. (5) السري يقود العلمي في شروط الاستعمار، بل وفي التجربة الفلسطينية السري هو الذي أسس الكثير من التجليات الجماهيرية والاجتماعية ورفدها بالقدرة على الاستمرار، آخذين بالحسبان التلاحم والاتحاد في الهيكل العليا للجناحين.

وهنا جدير الإشارة أن لا علاقة بيروقراطية أو أوامرية بين السياسي والاجتماعي، ثمة توليفة ملائمة مع استقلالية الاجتماعي فيما عدا الخط العام، وسوى ذلك فالاجتماعي يقرر هيكله وخطط عمله وهيئته المنتخبة.



من ناحية أخرى ليس ثمة هيمنة للطبقة الوسطى هنا، بل صيغة متوازنة من العمال والمتقنين والمرأة والفئة الانتقالية (الطلبة) وفي مرحلة أوسلو أصبحت الأمور أكثر تشعباً غير أنها ذهبت باتجاه آخر أنجوزي (NGOisation).

وهنا لا مهرب من كلمة لا أسعى فيها للتقييم بل للتمييز وحسب. للحركة الجماهيرية أو الاجتماعية قاعدة واسعة وهي تقوم على التطوع ونسبة المتفرغين أن وجدت ضئيلة جداً وبرواتب تقشفية بما يشبه الحزب الثوري. أي عكس ما هو قائم في المنظمات غير الحكومية. وبلغ الأرقام ثمة 2750 منظمة غير حكومية، تسمى جمعية بلغة القانون، في الضفة وغزة أغلقت 600 أبوابها حسب الدكتور أبو شهلا وزير العمل. وفي ما عدا القطاع الطالب في الجامعات وبعض الخيمات لا يوجد قاعدة جماهيرية، حتى بعض الأطر التي كان لها قاعدة اجتماعية قبل أوسلو تبخرت قاعدتها وتحولت لمنظمات غير حكومية. وهناك نحو 600 منظمة غير حكومية في الوسط الفلسطيني داخل 48 ليست أفضل حالاً.

والآن أنتقل إلى استعراض لوحة سريعة لما كانت عليه تجربة يسارية فلسطينية ما قبل تأزمها وتفككها. فأثناء تحضيري للدكتوراة وقعت يدي على مواد أرشيفية تعود لعام 1992 تقول أن القاعدة المؤطرة حزبية وجماهيرية وديمقراطية هي بعشرات الآلاف مناصفة بين الخارج والداخل وأنها تمتد في مئات المواقع في الوطن المحتل بما يغطي 90% من المدن والقرى والخيمات والجامعات.

وأكبر قاعدة مؤطرة هي اللجان الانتفاضية يليها أطر المرأة وما يحيط بها، وهناك أكثر من 2000 في قلاع الأسر، فضلاً عن 125 شهيداً وأضعافهم من الجرحى الذين سقطوا في سنوات الانتفاض، عوضاً عن النشاط الإعلامي والثقافي المتنوع أي أن المنظور أعلاه عن الحزبي والجماهيري وما ارتبط بهما من جهد قد أثمر وأتى أكله. ومن تجربتي الشخصية أعرف الكثيرين ممن دخلوا السجن وعادوا إليه مرات إذ كان الدافع وطني وإيديولوجي بعيداً عن مفسد المال والألقاب، فالأولوية للوطن. كما أعرف أيضاً حالات سقطت أجنهن نتيجة الغاز أو الضرب بالهراوات ولكنهن ما بدلن خيارتهن.

وفي أمريكا اللاتينية تجارب مميزة يجدر دراستها، أما السحب الميكانيكي والدوغمة فهما خلل نظري يفضي لخلل عملي، إذ بعد الدراسة يتوجب فهم الخصوصية والانطلاق منها وهذا يستدعي أن أعرج على عدة نقاط هي خاتمة حديثي وهي فرضيات أعلق عليها بسرعة.

(1) الفرضية الأولى: نهوض الحركات الاجتماعية سببه من ناحية العامل الذاتي ضعف الأحزاب الثورية.

هذا ربما صحيح في العديد من البلدان أما في فلسطين فالعكس هو الصحيح. إذ عندما كان الحزب قوياً و متماسكاً و متوافراً لديه الشروط سيما الشرط القيادي التي تجعل منه حزباً ثورياً فعالاً، كانت الحركة الاجتماعية، أي مجموع الأطر المحيطة به، قوية و متماسكة و قاعدتها الجماهيرية واسعة أما وقد نهشته أزمة بنوية أدت إلى تفككه و انحساره و هامشيته فقد انعكس ذلك أزمة تفكك و انحساراً على الحركة الجماهيرية. فالعلاقة طردية بينهما لا عكسية.

هذا ما تخبرنا به مسيرة ثلاثة أو أربعة عقود. وهنا لا يمكن تجاهل ثلاثة أو أربعة عقود، فالتحليصة النظرية مشتقة منها. أما لماذا أصاب الحزب ما أصابه فهذا موضوع آخر.

(2) الفرضية الثانية: عصر الأحزاب الثورية اليسارية قد ولى و تجاوزته التاريخ.

وهنا حسبنا التذكير بالحزب الشيوعي الصيني المكون من 92 مليون عضو و منظمة شبيهة تناهز 150 مليون، الذي يقود عملية تنمية ضخمة في بلد رصيده 3.3 تريليون دولار و معدلات نمو تتراوح بين 6-9% بصرف النظر عن التفاصيل. و الحزب الشيوعي الكوبي الذي حمى الاشتراكية و السيادة و الحزب الشيوعي الفيتنامي بعضويته التي تربو على 2 مليون و قدرته على إنجاز الكثير الكثير، و حزب العمال في الهند الذي يضم مليون عضو و يحكم بعض الولايات.

وكل هذه الأحزاب و سواها قادت ثورات و سارت في طريق التنمية و التحرر و الاشتراكية. بل أن غياب الحزب الثوري بعد الانتفاضتين العظيمتين في تونس و مصر كان العامل الأساس في عدم تحولهما لثورتين تبنيان علاقات إنتاجية جديدة و نظام طبقي جديد و رؤية تنمية استقلالية... إلخ.

و هذا يعيدنا إلى ما قاله ضابط المخابرات الأمريكي لتشي جيفارا بعد أسره جريحاً في بوليفيا: لقد انتهى عصر حرب الغوار، حرب العصابات. و جاء الرد من قبل الساندينست في نيكاراغوا فيما كانت فلسطين مشتعلة و كذا فيتنام و مؤخراً الجنوب اللبناني و قطاع غزة و الإقليم الكردي في تركيا و مساحات في الهند و الفلبين.

(3) الفرضية الثالثة: المنظمات غير الحكومية (NGOS) بديل للحركات السياسية، بصرف النظر عن تقييم

هذه المنظمات في فلسطين و تمويلها، حسبنا القول أن القوى السياسية لم تنفك هي اللاعب الأول، سواءً

بالضفة الفلسطينية أو قطاع غزة أو المجتمع الفلسطيني في أراضي 48 أو في الشتات، وبكل تأكيد ليس المنظمات غير الحكومية التي قاتلت 3 حروب في غزة، وإن كان لها مشاركة ملهوسة في مسيرات العودة ورفع الحصار وبعض المناشطات في الضفة وكل تجمعات شعبنا بيد أنها ليست نداً للفصائل والأحزاب السياسية. والكثير منها يتاثر بالفصائل.

وبلا ريب، إن هذه الفرضيات مستقاة من الخطاب الليبرالي الذي لا يؤمن بالأحزاب الثورية ووحدة الحركة الاجتماعية، وفي فلسطين ورغم غابة المنظمات غير الحكومية وما تحويه من مخزون كادري فهي بلا قاعدة جماهيرية إجمالاً ورموزها لا يكبرون بمعزل عن الحركة السياسية.

وأخيراً كانت التجربة السابقة للحزب والحركة الجماهيرية قد استندت لقرار وتحليل التركيبة الطبقية. والآن لا يمكن أن ينهض حزب ثوري أو حركة اجتماعية دون دراسة التحولات التي طرأت على التركيبة الطبقية أي على الواقع الذي ستزرع وجودها فيه. فرحلة أو سلو شهدت تحولات كبرى كان الشعب في الضفة وغزة قبل أو سلو مجرد 2.2 مليون نسمة ونحو 800 ألف نسمة في أراضي 48 إضافة للشتات. أما اليوم فهو 3 مليون في الضفة 2 مليون في غزة و1.5 في أراضي 48 وأكثر من 6 مليون في الشتات، وجاءت صفقة القرن لتهدد وجوده وحقوقه في كل مكان بما يشكل أرضية لتوحيد إرادته. وهذا العنوان تحدث عنه من قبل.

وأكبر تحول هو وجود سلطة (سلطتين) في الضفة وغزة توظفان معاً أكثر من 210 ألف بالإضافة إلى عشرات آلاف المقاتلين في غزة دون أن ننسى أن السلطة تصرف على 110 ألف عائلة في إطار الشؤون أو التنمية الاجتماعية فالسلطة أكبر مشغل لقوة العمل.

وعموماً تبلغ قوة العمل في الضفة وغزة حوالي 1.5 مليون، وأكثر من 500 ألف عاطل عن العمل، وزهاء 0.6 مليوناً في أراضي 48، وأكثر من 10% بلا عمل يعملون في مجملهم في وسائل إنتاج غير فلسطينية يضاف لهم 150 ألفاً من الضفة يتسمون بدرجة عالية من التشتت وعدم الثبات.

أما الذين تخرجوا من الجامعات فيصلون إلى 450 ألفاً في الضفة وغزة منهم 55% بلا عمل وفي أراضي 48 أكثر من 150 ألفاً، وهؤلاء كلهم طبقة وسطى من ناحية التصنيف الطبقي (الجامعة هي نبع الطبقة الوسطى) وهذا تحول كبير، إذ لم تكن الطبقة الوسطى قبل أو سلو تصل لربع هذا الرقم ما قبل القفزات التي شهدتها

التعليم الجامعي. أما الدارسون في جامعات أراضي 67 فيناهزون هذا العام 250 ألفاً ونحو 50 ألفاً في أراضي 48 إضافة إلى أكثر من 90000 في الصف الثالث من الثانوية وهؤلاء شريحة انتقالية. ولكنهم كما معظم الخريجين متخففي الأعباء وطريقهم مسدود بما يجعلهم طاقة كامنة لكل الاحتمالات من داعش إلى نقيضها. أما العمال فنسبتهم على حالها، تقريبا 20% من قوة العمل، ولكنهم كما كتب ماركس "طبقة في ذاتها لا طبقة لذاتها" فهم غير مؤطرين نقابياً، ولم يصلهم الفكر الاشتراكي إلا في دوائر محدودة. وبدايات تشكيلهم النقابي انقطع سياقها في مرحلة أوسلو وكان لتقهقر القوى اليسارية أثره البالغ على هذه النتيجة "الحزب هو الذي ينقل الوعي والتنظيم للطبقة العاملة" حسب المنظور اللينيني.

وبالنسبة للفلاحين فقد تراجعت الزراعة الفلسطينية في شطري الوطن. وفيما كانت تساهم 62% من الإنتاج الوطني قبل عام 1967، أصبحت أقل من 5% حالياً في الضفة وغزة، والعد التنازلي حصل في 48 أيضاً. ولا يشكل الفلاح (أي الذي يعيش من استثمارته) أكثر من 6% وهو أكثر تبعثراً ومعاناة اقتصادية من العمال، دون نسيان العمل الاثنيبي لأقسام من سكان الريف، فهم موظفون وعمال ولكنهم فلاحون مالكون أيضاً.

وبالتالي يلائم شعار تحالف العمال والفلاحين الذي رفعتة الثورة الروسية الشروط الروسية حيث كان الفلاح يشكل أكثر من 60% بينما العمال نحو 20% ويتمركزون في بعض الصناعات، أما ماو تسي تونغ في الصين فقد اعتمد على الفلاحين الذين كانوا يشكلون 99% من الأمة الصينية قبل انتصار الثورة ومنهم تشكل جيش الشعب المكون من 5 ملايين مقاتل. وفي الضفة وغزة أقل من 6% رجال أعمال برجوازيون، أي يشغلون قوة عمل، بينما المشروعات الصغيرة والملكيات الصغيرة تربوا على 30%.

والصناعة المتوسطة على حالها منذ عام 1967 وحتى اللحظة فهناك 7 مصانع فيها 100 عامل فأكثر و12 مصنع فيها 50 إلى 100 عامل، أما النمو فهو في المشروعات الصغيرة ومتناهية الصغر. وفي أراضي 48 ليس هناك صناعة متوسطة إلا فرد هنا أو هناك وبالتالي تكون الصيغة الأصوب هي الكلفة التاريخية التقدمية الغرامشية. وهذه الإطالة السريعة ربما مفيدة. والمرأة في صلب هذه الأرقام ولكن دعوني أخصها أيضاً بفقرة مستقلة.

لقد تنامت نسبة المرأة في قوة العمل وهي اليوم تناهز 17% وفي جهاز الحكم الذاتي نحو 25% أما في الجامعات فهي أكثر من 55%، ولكن مع الأسف تظهر أعلى نسبة بطالة بين الخريجات، أما في سجون الاحتلال فنسبتها تصل من 1 إلى 2%. وإن قال يبيل أن "المرأة مضطهدة المضطهدين" فهي كذلك ولكنها مزودة بسلاح تعليمي أيضاً بما يجعل فرص استعداداتها للانخراط في قضاياها والقضايا العامة أفضل دون أن ننسى أن النساء تشكل أقل من 2% من القاعدة المؤطرة. ويركز الفكر الصيني على القوى الصاعدة ويبدو أن الشباب هم القوى الصاعدة في فلسطين، فهناك 35-40% تتراوح أعمارهم بين 16 سنة إلى 40 سنة ومن هنا قال لينين أن "حزبنا حزب الشباب والمستقبل ملك الشباب والشباب أول من يبادر إلى التضحية" وهو الذي قال أيضاً "كل النضال وكل الأخلاق من أجل أهداف النضال وانخراط الناس في العملية النضالية" التي تنهي الاعتبارات كافة. على أن يذهب الجهد على عكس ما قال المثل الألماني "ما فائدة الركض إن لم يكن على الطريق الصحيح".

وشكراً



# الفصل الثالث:

## ولادة جديدة

# هل ثمة نموذج نظري للنضال الفلسطيني وماذا عن المستقبل القريب؟ محاضرة

غير مقصود بذلك المنظومة الفكرية، سواء كانت رأسمالية، أو يسارية اشتراكية، أو قومية تحررية، أو إسلامية دينية، بل السمات الأساس في الممارسة. وهذا أوضحه في السياق.

أهلاً وسهلاً.

حديثي وإن كان ارتجالياً، إذ لا أميل إلى استخدام رؤوس أقلام، غير أن المضامين حاضرة في رأسي وسوف يشمل حديثي ثلاثة مستويات.

مراجعة مكثفة جداً ومختزلة جداً ومبسطة جداً للثورات الفيتنامية، الكوبية، الروسية، الصينية، وأمريكا اللاتينية اليوم، والمستوى الثاني مراجعة للمسيرة الفلسطينية، وهذا يتطلب استخلاصاً تجريبياً عاماً، أما على المستوى الثالث فهو قراءة استشرافية للمستقبل والسيناريو المحتمل وفي ذلك مجازفة نظرية، وإن أصبت يكون تفكيراً علمياً إبداعياً.

في السجن استغرقني هذا العنوان ثلاث جلسات صباحية حيث يتوافر الوقت والشروط هناك، أما هنا فالمتاح لي أقل من نصف الوقت، ساعة إلى ساعة ونصف، يتلو ذلك مداخلات وأسئلة الحضور.

لكل ثورة نموذج نظري، أو أكثر من نموذج نظري، سواء كان موجهاً للممارسة أو مشتقاً من الممارسة، فإذا تخبرنا الثورات الخمس كما الثورة الجزائرية، في زمن الإمبريالية والاستعمار، وأيضاً الثورة الفرنسية عام 1789 كثورة اجتماعية في مرحلة صعود الرأسمالية، والانتفاضة الإيطالية، وكّاب روسو... إلخ، فهذه كان لها أثر على التفكير القيادي الفلسطيني.

معروف أن الحكيم الدكتور جورج حبش الذي قاد حركة القوميين العرب كان المرجع الأعلى للثورة اليمنية عندما كان اليمن مستعمرة بريطانية، وأن الشهيد خليل الوزير كان مديراً لمكتب فتح في الجزائر قبل عام 1967، والحكيم دارس جيد للثورات وتجارب الشعوب وهذا حال أي يساري ثوري مثقف.

## الثورة الفيتنامية:

هي حركة قومية في ثلاثينات القرن الماضي، تحولت لمواقع الماركسية اللينينية، بما في ذلك هوتشي منه "الذي يضيء" في اللغة الفيتنامية وعانى الشعب الفيتنامي من الاستعمار الياباني لعشرات السنين، فيما غلب عليه نمط الإنتاج الفلاحي والبضاعي الصغير في المدن، ويمكن القول أن نسبة الفلاحين الذين لديهم استثماره هي مصدر رزقهم لا تقل عن 80% في بلاد واسعة جغرافياً تكسوها غابات خط الاستواء، ما أن هُزمت اليابان في الحرب العالمية الثانية، ورفع الإمبراطور هيرايتو الراية البيضاء، وكان ينظر إليه كإله للشمس وفي منزلة الله تقريباً، انتفض حزب الشغيلة "الحزب الشيوعي لاحقاً" في سايجون العاصمة، التي أصبحت اليوم "هوتشي منه" وأمسك السلطة لمدة تسعة أشهر.

غير أن القوات الفرنسية كجزء من قوات الحلفاء المنتصرين في الحرب الثانية، اجتاحت فيتنام، فانسحب الثوار إلى الغابات في طبوغرافيا ملائمة. كان الموقف السوفيتي يميل للتهدئة بعد أن سكنت مدافع الحرب الكونية الثانية، التي ذهب فيها أكثر من 40 مليون قتيل وتدمير عشرات الآلاف من المدن، أكثر من نصف هؤلاء سوفيت بما في ذلك 3 ملايين شيوعي، مما دفع الثوار إلى الاعتماد على أنفسهم، والانتقال من السلاح الأبيض إلى السلاح الناري الذي اغتموه من الجنود الفرنسيين في حرب عصابات نشطة، وشظف حقيقي في العيش بالكاد يوفر الحد الأدنى من الطعام، أي ما تعتمد عليه العائلة الفيتنامية الفلاحية من زراعة ذرة وأرز وتربية دواجن وخنائير، وتفرض متساوي للثوار هو مجرد \$10 لكل مقاتل، اتسعت حرب العصابات وامتدت إلى أن شارك نحو مليون مقاتل ومدني في حفر انفاق على بعد مسافات لاقتحام قلعة ديان بيان فوعام 1954 والتي كانت المعقل القيادي للمستعمر الفرنسي فأبادوا الحامية وانسحبت فرنسا.



أقرأوا كتاب ياسين الحافظ الثورة الفيتنامية والثورة العربية أو كتاب تاريخ الثورة الفيتنامية، أو كيف انتصر الفيتكونج فهذه مراجع هامة. تم تحرير الشمال غير أن الإمبريالية استمرت في الجنوب وقد تعاون معها نظام نغون ومعه نصف مليون جندي فاعتمد الثوار تهديئة في الجنوب لمدة 5 أعوام تحضيراً للمواجهة اللاحقة. اشتد القتال، وكانت خسائر الثوار الفيتناميين في كل معركة أضعاف خسائر الأمريكان، فجمل خسائر أمريكا كانت 50 ألف قتيل و100 مليار دولار، وفي النهاية تطورت الحرب الشعبية واستخدمت الأسلحة الثقيلة بدعم سوفيتي وصيني، فخطت مروحية على ظهر السفارة الأمريكية في سايجون وحملت السفير الأمريكي وبعض الموظفين الذين فروا من أمام زحف الثوار عام 1975، وبذلك تحررت فيتنام ونشأت "العقدة الفيتنامية" وبذلك يكون النموذج الفيتنامي (انتفاضة كمنظور ثانوي، وحرب عصابات تحولت لحرب شعبية، بقيادة حزب ماركسي لينيني).

### الثورة الصينية:

هي مشابهة وتتقاطع كثيراً مع الثورة الفيتنامية. أخفقت انتفاضة شنغهاي عام 1927 كانتفاضة عمالية مسلحة، حيث سقط نحو 30 ألفاً. ونشأ خلاف داخل الحزب الشيوعي، وتمرد ماو تسي تونغ على مكتبه السياسي عام 1929، وكان رده على كتاب ستالين (فن الانتفاضة) من أراد أن ينتحر عليه أن يقرأ هذا الكتاب، ولم يتقبل رؤية كامينيف المكلف من الأمية وأكد على الاستقلال السياسي والتنظيمي والإيدولوجي للحزب وقال: "تقوم نظريتهم على كسب الأغلبية، أما نظرتنا فتقوم على إمكانية اكتساب الأغلبية أثناء المسيرة. أما قانون الانتفاضة في المدن فلا يناسب حرب الشعب في الريف"، وراحت المجموعات الثورية تقوم بغارات صغيرة مباغتة وتضرب نقاط ضعف العدو، وماو له كتابات عديدة حول حرب العصابات والحرب الشعبية وخصائصها وشروطها، ومرآحها، فهو الأملع على هذا الصعيد.

وانتشرت الكومونات أي التعاونيات في الجنوب إلى أن استخطرها النظام الإمبراطوري الإقطاعي وجيش قوات هائلة لاجتثاث الثورة في الجنوب غير أن مجاميع الثورة قامت بالمسيرة الكبرى، وثمة كتاب بنفس العنوان عام 1935، فانسحبت إلى السبخات الشمالية الجليدية التي لم تطأها قدم إنسان. وفي غضون هذا العام

حصلت معارك دامية مع الجيش الإمبراطوري وجيوش الأمراء الإقطاعيين فسقط نحو مئة ألف من الثوار ولكنهم وصلوا للمناطق التي لا تسيطر عليها الدولة، وفي نهاية الثلاثينيات احتلت اليابان بعض مناطق الشمال الشرقي، فاخطف الشيوعيون تشانغ كاي شيك واتفقوا معه على إقامة جبهة وطنية تضم الحزب الشيوعي والكومينتانغ، أي الحزب الوطني الحاكم للبلاد.

ما أن اختل ميزان القوى العالمي وظهرت إشارات هزيمة دول المحور (اليابان، ألمانيا النازية، إيطاليا الفاشية) تجددت الثورة الاجتماعية التي يقودها الحزب الشيوعي ضد الإقطاع الإمبراطوري ومرت الثورة في ثلاث مراحل؛ الدفاع الاستراتيجي، والتوازن، والهجوم الاستراتيجي.

وبالزحف من الشمال إلى الجنوب وبالعكس دارت حرب طاحنة راح فيها ملايين، وعندها أعلن ماو تسي تونغ انتصار الثورة من ساحة تيانمين عام 1949، وكان الجيش الشعبي يضم خمسة ملايين مقاتل وأكثر منهم من أعضاء الحزب الشيوعي وبذلك يكون النموذج النظري انتفاضة كظهر ثانوي اعتمدت على العمال، حرب شعبية طويلة الأمد انطلقت من الأرياف واعتمدت على الفلاحين ببرنامج حزب شيوعي اشتراكي، جبهة وطنية لمواجهة المحتل الياباني، لكن غلب على الثورة طابع اجتماعي - من هم أسفل ضد من هم أعلى.

### الثورة الروسية:

هي أقدم تاريخياً وتعود إلى بدايات القرن العشرين، وكانت الرأسمالية العالمية قد انتقلت إلى الاحتكارات وترابطت. طبعاً لم يكن التمرکز كما اليوم أي 30 احتكار يسيطرون على 70% من السوق العالمية، و1% من الأمريكيان يستحوذون على 50% من الاقتصاد الأمريكي و3% يستحوذون على 90%... إنلخ، فن سمات العولمة انتقال الاحتكارات متعددة الجنسية إلى متعددة الجنسية. أما روسيا فكانت "نصف إقطاعية ونصف برجوازية مستعمرة ومستعمرة" بتعايير لينين.

وعليه، فشلت أول ثورة بين 1905-1906 وفي انتفاضة موسكو وحدها خسر الحزب البلشفي ثلاثة آلاف عضو واختلف المنظرون بين الرأي القائل "ما كان ينبغي حمل السلاح" (بليخانوف) والرأي القائل "كان ينبغي حمل السلاح وأنها بروفة" (لينين)، وتفكك الحزب البلشفي، وحلت فيه نزعات صوفية ويأسية ودينية،

ولكن لينين أعاد بناء الحزب بالاعتماد على كادرات صلبة لم تنكسر وسال بحر من الدماء بين الشعب والنظام القيصري الذي رد على تظاهرة سلمية على رأسها قس بالحديد والنار فأشتعلت المدن.

حصل نهوض في إضرابات عمال المناجم في نهر لينا عام 1912، وقرعت طبول الحرب العالمية الأولى ورفعت الحركات الاشتراكية شعار الحرب على الحرب أي الثورة على ضواري رأس المال الذين يحاولون إعادة تقسيم العالم، وما أن أطلقت مدافع الحرب عام 1914 تحولت معظم القيادات الاشتراكية لمستورزين أي وزراء في الحكومات الرأسمالية، أما لينين فقد ثبت على موقفه وراح يحضر لإسقاط القيصرية فيما كان بالمنفى والعديد من القيادات الحزبية في السجون والتخفي.

لحق الدمار بالمجتمع الروسي وانتشرت المجاعات، اقرأوا رواية الدون الهادئ واجتمعت مختلف القوى على هدف واحد؛ إسقاط القيصرية وإيقاف الحرب. وفي شباط عام 1917 اندلعت انتفاضة ظافرة وتشكلت حكومة مؤقتة وعلى رأسها الاشتراكي الثوري كيرنسكي، ولكنها لم توقف الحرب ولم توزع الأراضي على الفلاحين وكان على الحزب البلشفي أن يستعد لثورة اجتماعية تقتلع تحالف البرجوازية الصغيرة مع البرجوازية الدستورية، وبالفعل نجح في ثورة أكتوبر المجيدة عام 1917 التي دشنت عهداً تاريخياً جديداً ومرحلة تاريخية جديدة. وعليه اشتمل النموذج الروسي على انتفاضة متدرجة بدأت سلمية عام 1905 ونضال سري بقيادة حزب عمالي ثوري وأحزاب أخرى وانتفاضة ثانية وثالثة عام 1917 أثمرت عن إصلاح زراعي جذري وتأمينات وكهربة البلاد، أي جمعت بين أهداف ديمقراطية برجوازية ومهمات اشتراكية وعمل سري ونصف سري.

ويعد لينين معلم في علم وفن الانتفاضة وقد استخلص قانونها الأساسي "عندما تصبح الطبقات الحاكمة عاجزة عن الحكم كالسابق والطبقات الشعبية ترفض أن تستمر كالسابق" بما تتطلبه من شروط قيادة مركزية، وتحالفات وتكتيكات هجومية واحتقار للموت حسب تعبير إنجلز، أي أن الثائرين مستعدون للموت ولا يهابونه بغية التغيير. هناك ثمانية شروط كتب عنها لينين، وشخصياً كتبت كراسة وها هي أمامكم مكونة من 100 صفحة عام 1982 عنوانها "بين الانتفاضة والحرب الشعبية استناداً للأثر الماركسي اللينيني"، وهي مفيدة ولم تكن تبشيراً بانتفاضة أواخر عام 1987 ولكنها تعكس وعياً استباقياً وحسب.

وحاول تشيرشل، وكان حين ذاك وزيراً للمستعمرات، تهشيم البيضة قبل أن تفقس من خلال مهاجمة جيوش 14 دولة رأسمالية الدولة الوليدة، غير أن العمال دافعوا عن ثورتهم ومشروعهم، أي ثمة حرب دفاعية إضافة إلى انتفاضة اجتماعية. ومن يريد تفاصيل عن هذه الثورات يمكن أن نلتقي بعد النقاش، مع التذكير بتحذير لينين "عليكم أن تتجنبوا التقليد الميكانيكي للنموذج الروسي. إذ على الفكر الاشتراكي سيما في القرن العشرين أن يبدع".

واضح لكم أنني أعرض مقطعاً تاريخياً كبيراً في تبسيط شديد لكن أذكر أننا عندما انتقلنا إلى مواقع اليسار الاشتراكي وكان جبلي في سنوات الطفولة التهمنا عشرات الكتب وكنا نهرب الكتب من سجن إلى سجن منسوخة بخط منمنم على ورق السجائر الشفاف الذي لا يخال، ونحتفظ بنسخة احتياطية ننسخها على الدفاتر ما أن تصادر الإدارة كتبنا المنسوخة أو حينما نحصل على كتاب جديد كان يحصل الواحد فينا، أو الأكثر اهتماماً واجتهاداً على يوم وليلة لقراءته، كان زر الكهرباء خارج الغرف ويتحكم فيه الشرطي والساعة 9 يقوم بإطفاء الإنارة وتبقى في الممرات فأتمدد على الأرض بجوار الباب الموصل بقضبان معدنية تتسلل الإضاءة من بينها، ولا أرفع عيناى عن الصفحات طيلة الليل في صراع مع الوقت، ويطوف الكتاب بين الأيدي. اليوم الحياة بالسجون أكثر يسراً، وتغص رفوف المكتبات بالكتب ولكن الإقبال عليها محدود.

ولا بأس من الإشارة إلى أن قوام الحزب البلشفي كان مجرد 130 ألف عضو في دولة عدد سكانها 130 مليون نسمة، ولكن لينين ركز على "الثبات على المبدأ" لتغيير ميزان القوى، وعلى الهدف "السلطة" فالمسألة المركزية في كل ثورة هي السلطة، وأقام سلطة الشغيلة الأحرار بلغة ماركس بصرف النظر عن الحراك البيروقراطي في عقود لاحقة وما آلت إليه الدولة السوفيتية، وهو الذي نحت عبارة "أمس لم يكن بعد وغداً يكون قد فات الأوان" أي اللحظة المناسبة، التحليل الملموس للواقع الملموس "بما هو قريب من عبارة ماركس "من المجرد العام إلى الملموس الخاص".

إن دروس الثورة الروسية كثيرة ومفتاحية، وحرى الإشارة أن ثمة مشتركات بين الثورتين الروسية والصينية بالرغم من النموذج الخاص لكل منهما (حزب ماركسي لينيني قائد + ثورة عنيفة + كلاهما حل المسألة الزراعية وأقام تعاونيات وسلطة ثورية ودافع ببسالة عن السيادة الوطنية + التصدي لمهمات تحريرية من جهة

وديمقراطية برجوازية وأخرى اشتراكية من جهة أخرى، مع الفارق النوعي بين انتفاض مديني و حرب شعبية ريفية).

## التجربة الكوبية:

كوبا جزيرة يصل تعداد سكانها اليوم 12 مليون، وعندما اندلعت الثورة في خمسينيات القرن الماضي كان تعداد سكانها يقارب 8 مليون نسمة، وتسكن على بعد عشرات الأميال من أنياب الأسد الأمريكي.

عرفت كوبا انتفاضة عام 1930 أطاحت بالديكتاتور ميكاو وقادها الحزب الشيوعي، غير أن النفوذ الأمريكي بقي سائداً فيما حكمها ديكتاتور آخر "باتيستا" الدموي الفاشي الذي أثقل على الفلاح الكوبي بالضرائب فيما تحكمت الشركات الأمريكية بالسكر الكوبي وصناعاتها الاستخراجية وموانئها حتى أن هافانا كانت مرتعاً لسياحة الرأسمالية الأمريكية والأوربية ومطالبا الترفيفية.

تفاقت الأزمات في الأربعينيات وهنا تقدم المحامي فيدل كاسترو ابن العائلة الإقطاعية بمبادرة ثورية بالهجوم المسلح على ثكنة مونكادا عام 1953 فسقط رفاقه بين قتيل وجريح وأسير وأمضى مع شقيقه راوول، الذي أصبح رئيساً للبلاد هذه الأيام، سنتين بالسجن إلى أن تم ابعادهما إلى المكسيك.

شرع بالتحضير لحملة ثورية جديدة، وهنا التقى بتشي جيفارا الثوري الأرجنتيني اللامع الذي ساهم بخدماته التطوعية للشعب الغواتمالي في مرحلة الحكم اليساري وبات رأسه مطلوباً بعد انقلاب يميني فتسلل للمكسيك.

انطلقت السفينة جرانما "الفجر" من سواحل المكسيك إلى سواحل كوبا عام 1956 وعلى متنها 82 مقاتل على رأسهم فيديل كاسترو. بيد أن قوات باتيستا كانت بالمرصاد فحصدت غالبيتهم ولم يتبق سوى 12 مقاتل تبعثروا والتقوا بعد أيام في السير ما يسترا الممتدة في الجغرافيا الكوبية. انطلقت حرب عصابات غوارية محركها هذه البؤرة، مجرد بؤرة، حفنة من الثوريين، وهذه إضافة نظرية على الفكر اليساري، أما الحزب الاشتراكي الشيوعي فلم يلتقط اللحظة ولم يكن خبيراً في حرب العصابات، وتوسعت رقعة القتال، ومن يقرأ مذكرات جيفارا في

السيرا مايسترا يتزود بمعطيات كثيرة، حيث هبط الثوار عام 1959 من الجبل إلى هافانا العاصمة وبأقل من ألفي مقاتل أطاحوا بالحكومة القمعية وفر باتيستا إلى الخارج.

وأُسست حركة 26 تموز التي قادها كاسترو السلطة الثورية. وكان هناك ميل يميني هامشي لا يريد السير بالثورة في طريق الاشتراكية، أما كاسترو الذي قرأ الماركسية أثناء وجوده بالسجن وقتاله بالجبال حسب قوله ورفاقه الثوريين فدججوا الثورة الديمقراطية بالاشتراكية، أو دعوني أقول بعضاً منهم، وفي عام 1963 انعقد مؤتمر تأسيسي للحزب الشيوعي بمشاركة 26 تموز والشيوعي والإدارة الذاتية الطلابية الذي استشهد قائدها في الهجوم على القصر الجمهوري. وعليه فالنموذج الكوبي اشتمل على حرب عصابات لم تصل حرباً شعبية، قادتها بؤرة ثورية على رأسها شخصية كيريماتية لدرجة أن يكتب جيفارا لولا كاسترو لما استمرت الثورة. وقد اعتمدت على ذاتها دون مساعدة جدية من أحد وتحولت حركة 26 تموز الديمقراطية الثورية إلى مواقع الماركسية اللينينية، ويعد هذا درساً كبيراً استفاد منه اليسار الفلسطيني. وعندما تفككت شبكة الدولة السوفيتية وارتد النظام، لم يهتز كاسترو ورفع شعار "الاعتماد على الذات" أي لم يتوجه للعواصم الإمبريالية لكي يتسول حلولاً سياسية وموازنات. تصوروا لو أن قياداتنا تشبث بهذا الإرث الكاستروي لما أصبح حالنا ما أصبحنا عليه في مرحلة أو سلو.

ويمكنني أن أتحدث طويلاً عن التجربة الكوبية وراهنها ولكن أترك هذا لما بعد اللقاء وذلك لأن القوة اليسارية الأولى في الأرض المحتلة تأثرت غاية التأثير بالنموذج الكوبي سواء من ناحية دور الفرد القائد في التاريخ، أو من ناحية اعتمادها على الذات، كما من ناحية قدرتها على التركيم والانتقال من الموقع الديمقراطي الثوري إلى موقع اليسار الماركسي وصولاً إلى تعبير براكسيس. فالثورة بنتُ وانبنت في غمرة الممارسة ومن يقرأ رسالتي للدكتوراة يلاحظ ذلك بوضوح، وتجربة محمد الأسود في غزة ومسيرة البناء بين السبعينيات والثمانينات وأوائل التسعينيات شاهد على ذلك.

وبالتالي ينبغي الكف عن البكاء (الظرف الموضوعي \ الشروط المجافية) والاتجاه بالتفكير كيف نفعل ونتغلب على المصاعب، والشروط الموضوعية مجافية دائماً حسب جيفارا، وعدم الانجرار وراء العجز والفشل وإعادة انتاجهما، ولينين حذر من تحويل الهبوط إلى نظرية والمسألة كلها تكمن في مفردة واحدة "الاقْتدار" إذ ما أن

تنهض شخصيات مقتدرة من الجيل الشابي كما الحال في بداية أي ثورة، سوف تخرج القاطرة الفلسطينية من أزمتها الحالية وتستأنف مسيرتها في إعادة العربة إلى سكة الثورة لا الأوهام التي تحمل بتسوية قريبة.

## التجربة اللاتينية:

يتوجب التعرّيج السريع بل البرقي على قارة تولد وتنهض في طريق التحولات الثورية والتنمية، وبالتالي قول ما يلي: في عقد ونصف تقريباً اكتسحت الحركات الاجتماعية اليسارية ثلثي القارة جغرافياً وديمغرافياً، والبرازيل بداهة هي نصف القارة، أما فنزويلا فهي سادس دولة منتجة للنفط، وقد عادت هذه الثروة إلى أهلها بعد أن أمم شافيز شركات النفط التي تساهم بنحو 70% من الإنتاج الوطني.

والسمة المشتركة في فنزويلا والإكوادور وبوليفيا والأوروغواي والبرازيل، ومؤخراً نيكاراغوا (وهي نموذج خاص حيث انتصرت الساندينست بعد قتال مسلح ولكنها فشلت في الانتخابات ومؤخراً فازت ثانية) أن زعيماً كريزماً يسارياً أو نواة ثورية تحيط بهما حركة اجتماعية واسعة (كلمة تاريخية تقدمية بلغة غرامشي) من الفقراء والمهمشين والشعب الأصليين والعمال والنساء المضطهدات تصوت في الانتخابات لصالح البرنامج الثوري فيصعد للحكم قوى اجتماعية جديدة ورموز يسارية حقيقية. وتشافيز الذي حل بعد رحيله مادورو، ولولا الذي حلت محله روسيف وموراليس وخوسيه كاريو و... كلهم منتمون للجماهير ويعيشون عيشها، ولا ترف في حياتهم وليست روايتهم عشرة أضعاف متوسط الأجور ولم يخنوا للعاصفة الأمريكية، ومنهم من أمضى سنوات في سجون العسكرتاريا ولا يخفون توجهاتهم اليسارية الاشتراكية فيما يستغرقون في بناء اقتصاد إنتاجي يفك تبعيته للعولمة والرأسمالية. إنهم تجربة متحدية لا ترتين لإملاءات العواصم الإمبريالية.

والبيئة الفلسطينية تتسع للحركات الاجتماعية ولكنها تبقى على هوامش الحركة السياسية إلى أن تشق الطريق إرادة تحررية تتجاوز القوى الشائخة والانقسام والتراخي والترتيبات السياسية والأمنية والبنى التقليدية وبقايا القرون الوسطى والعجز والفشل، أي ولادة مرحلة جديدة وهذا في الطريق لا محالة، فالوضع الراهن مأزوم ومؤقت، وإن كنت مع ماو تسي تونغ "دع مئة وردة تفتتح" غير أنني لا أتوقع قريباً نهوض حركات اجتماعية شعبية حقيقية، وعليه فالنموذج اللاتيني اشتمل على حركات مقاتلة (كوبا ونيكاراغوا والتوبا ماروس في

الأورغوي). كما النضال البرلماني السلمي في كل التجارب التي أضافت خبرة جديدة بنشوء حركات اجتماعية متعددة الأطياف تصطف لدعم زعيم كيزماتي أو نواة ثورية (حزب العمال اليساري في البرازيل) الذي تحالف مع يسار الوسط لتأمين أغلبية برلمانية، ومن قبل فوز تحالف يساري على رأسه الليندي في تشيلي والذي أغرقه انقلاب يميني في بحر من الدم.

والآن أنتقل إلى المسيرة الفلسطينية واستهل حديثي بالتذكير بمقولة ماركس "لا نعترف إلا بالتاريخ وعلم التاريخ" وسوى ذلك هو مجرد خرافات ومزاعم. الإحاطة بالتاريخ مسألة في غاية التعقيد لأن المؤرخين يعكسون موقفهم الإيدولوجي كما أن "التاريخ كسارة فيها كل الحجارة" ويمكن توظيف ما يناسب الموقف الإيدولوجي. ولا أعتزم الغوص في هذا إذ حسي أن أستخرج خمس مراحل مرت فيها المسيرة النضالية على وجه الإجمال والوطن المحتل على وجه الخصوص.

المرحلة الأولى (1967 - 1970):

تأسست القواعد الفدائية في الأردن وعبرت عشرات وعشرات المجموعات الحدود، واستشهدت غالبيتها أو اعتقلت في مواجهة مباشرة مع قوات العدو، وهناك من تركز في الداخل لبعض الوقت بما في ذلك أبو عمار والشهيد أبو علي مصطفى وكان الشعار العام الكفاح المسلح. وانطلقت أعمال المقاومة في الوطن وغلبت عليها المجموعات السرية التي اشتبكت مع الاحتلال بكافة الأشكال. وبخلاف الثورات الأخرى فهذه السنوات غايتها تأكيد وجود شعب فلسطين وتأكيد هويته الكفاحية وإيصال القضية الوطنية للعالم، أي لسنا أردنيين أو سوى ذلك ولسنا مجرد قضية إنسانية بلا عزيمة نتنظر إعاشة وكالة الغوث، وبذلك تبذرت تميّات وثائق الخارجية الإسرائيلية في بداية الخمسينيات "الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض" وصرخة جولدا مائير "أين هو الشعب الفلسطيني".

وفي الأردن نشأ ازدواج للسلطة، سلطة المقاومة في مساحات واسعة من الشارع وسلطة القصر. وازدواج السلطة قانون مؤقت في التاريخ كانت نهايته مجازر أيلول عام 1970 وتموز 1971 حيث سقط فيها نحو 30



ألف فلسطيني وفي إحصائيات أخرى 20000 وانتهت الظاهرة الفدائية في الأردن التي يربطها بفلسطين حدود تصل إلى 650 كيلومتر فيما شكل الفلسطينيون ثلثي المجتمع. وفي مذكرات الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون إشارة واضحة بتشكيل غرفة عمليات أمريكية - أردنية لاقتلاع البندقية الفلسطينية، سبق ذلك معركة الكرامة الكبرى سنة 1968 وما تبقى منها انسحب إلى لبنان. وكان لهذا نتائج كبيرة على مجمل المسيرة الوطنية وصولاً للتوقيع على اتفاق أوسلو، وقد غلب النموذج الفدائي المسلح على هذه المرحلة وإن اشتملت على نضال ناعم بالتظاهر والتعبئة والإعلام. وكانت القواعد الفدائية في الأردن أقرب لقواعد ارتكاز، أما القواعد الحمراء فتطلق على القواعد التي تقام على أرض الوطن، وشيء أقل من ذلك كان في قطاع غزة الذي تنتشر فيه البيارات والمحائب والأوكار ومئات المطاردين، وكانت وتيرة مقاومته المسلحة أعلى من الضفة. وكتاب المفكر إلياس مرقص الذي نقد الحرب الشعبية الفلسطينية لم يحظ بالتجاوب حيث يركز على افتقار شروط الطبوغرافيا والجغرافيا والديمقراطية، أما في أراضي 48 فكانت الخصوصية تدفع باتجاه العمل الحزبي البرلماني وانتخاب السلطات المحلية وما يتصل بذلك من عمل إعلامي بوتائر منخفضة ما قبل يوم الأرض الذي شكل منعطفاً عام 1976.

#### المرحلة الثانية (1970-1982):

تواصل النضال العصابي عبر الحدود وذات الشيء في الداخل واستمرت الجهود لبناء امتدادات في الداخل بما صاحبها من ضربات اعتقالية لا تتوقف وتعاضم التمركز الفدائي في الجنوب اللبناني ومخيمات لبنان وتجاوز في حجمه 7-8 آلاف مقاتل كما كان عليه الحال في الأردن، واتسعت التوجهات لبناء أطر جماهيرية في الوطن كان قد بدأ بها الحزب الشيوعي، وسارت فيها فضائل المقاومة في أواخر السبعينيات في الجامعات والنقابات والأطر النسوية والمهنية. تخلل هذه المرحلة انقسام سياسي عام 1974 ارتباطاً بانعقاد جلسة يتيمة في جنيف بين نهج التسوية ونهج القوى الرفضية وصولاً إلى الحرب الأهلية في لبنان عام 1975-1976 حيث سالت دماء غزيرة لبنانية وفلسطينية كما بات الجيش السوري اللاعب الأول في لبنان، والقصة طويلة هنا.

لا يفيدنا كفلسطينيين أن يصل التناقض مع الأنظمة العربية إلى حد الصراع والمواجهة العسكرية الواسعة ارتباطاً بقرائنا للوحة التناقضات، حيث التناقض الأساس والرئيس مع المشروع الصهيوني وسياسات الاحتلال، لكن ما حصل في الأردن أو لبنان غير ذلك، واستنزفت البندقية الفلسطينية وجمهورها. والنموذج في هذه المرحلة كان امتداداً للمرحلة السابقة غير أن التأطير الجماهيري والنقابي بات أكثر وضوحاً كما خوض ما يشبه حرب دفاعية في الأردن ولبنان.

المرحلة الثالثة (1982-1987):

كانت هذه السنوات عاصفة ومدمرة وخط فصل أصبح ما قبله وما بعده أقصد حرب 1982 حيث اجتاحت القوات الصهيونية جنوب لبنان وصولاً إلى معارك بيروت الضارية ومن يقرأ كتاب اللواء مازن عز الدين العسكرية الفلسطينية يلحظ هذه المعاني. لقد خاضت المقاومة حرباً بكل ما في الكلمة من معنى وسجلت مآثره وبطولات وإن كانت قد اقتلعت في نهاية الأمر بعد 88 يوم من حصار بيروت وتشتتت في البقاع وسوريا والجزائر واليمن وتونس وسقط في هذه الحرب نحو 30000 فلسطيني ومثلهم لبنانيون وسوريون، وقد استخدم العدو معظم قواته الجوية والبحرية والبرية.

وكانت حرب عام 1982 الأكبر والأكثر بسالة. وكما قال نابليون "الهزيمة يتيمة والنصر له مئة أب" فقد نشبت خلافات بين القيادات الفلسطينية وانشقت حركة فتح ودار قتال مرير بين جناحها امتد إلى البقاع وطرابلس والبدوي. ولئن كان هدف شارون من اجتياح بيروت حسب تصريحه "تدمير البنية التحتية للمقاومة وتمير الحكم الذاتي في الأراضي الفلسطينية"، فقد نجح جزئياً في الأولى ومرر الثانية بعد عقد يزيد ولكنه أيضاً خلق بيئة لكي تطمع حركة أمل بأزالة مخيمات بيروت. وعلى امتداد عامين ويزيد بين 1983-1985 دارت اشتباكات وسالت دماء وحصل ما يشبه التطهير العرقي والمذهبي، ولكن ما أفضل الخطط المغمس بالدماء هو الوحدة الميدانية الفلسطينية، فأعداء الأمس فتح - فتح والذين اشتركوا في قتالهما، وكل الفصائل الفلسطينية الذين انقسموا سياسياً حول مشروع ريغن (لعم) توحدوا جميعاً للدفاع عن البندقية والدم الفلسطيني.

والخلاصة هنا أن زخم البندقية في لبنان قد تفهق ربل ولم تعد الساحة اللبنانية قاعدة ارتكاز للمقاومة الفلسطينية. ورغم تأسيس جبهة المقاومة الشعبية من يسار فلسطيني ولبناني اندفع لملء الفراغ تيار جديد هو حزب الله اللبناني الذي تعاضمت فعاليته وبات قوة الاشتباك مع القوات الصهيونية في الجنوب المحتل إلى أن حرر معظم الجنوب عام 2000.

والمظهر الأبرز في هذه المرحلة هي الحرب الدفاعية التي استخدمت فيها المصفحات والمدفعية والقتال بين شارع وشارع والتمركز على خط قتال دون زحزحة مهما عظمت التحديات.

المرحلة الرابعة: الانتفاضة الكانونية من 1987-1992

كيما يستقيم الفهم النظري، الطابع الجماهيري شرط للانتفاضة فهي نهوض جماهيري عام وليس مجرد أعمال مقاومة نخبوية أو تظاهرة هنا وإضراب هناك، فالانتفاض والطابع الجماهيري متلازمان بصرف النظر عن الخلط في وسائل الإعلام وبعض السياسيين الفلسطينيين الذين لم يقودوا انتفاضة ولا يعرفون بالتالي منطقتها الداخلي. وهذه المسألة ليست ترفاً أو تصوراً معرفياً بل هي عملية سياسية من الطراز الأول تستوجب تركيم الشروط لانطلاقها وإشعال الحريق الثوري تحت أقدام المحتلين. ولم يكن مفهوم الانتفاضة حاضر في الحقل الأمني والسياسي الاحتلالي كما لم يكن واضحاً في العقل القيادي الفلسطيني سوى لدى أسماء نظرية عميقة ممن اطلعوا على تجارب عديدة.

وبطبيعة الحال، كانت المشاركة في اندلاع الانتفاض الشعبي في أواخر عام 1987، مشاركة شعبية عارمة وتدرجت كما التفاعل النووي وشملت كل الأراضي المحتلة عام 1967 مع إسناد من الداخل الفلسطيني 48 والشئات، مشاركة متفاوتة بين طبقة اجتماعية وأخرى، بين الخيم والمدنية والقرية، وبين الجيل الشباني والجيل الأقدم وجيل الطفولة، وبين النساء والرجال، وبين قوى سياسية وأخرى. ولكن كان الجميع على خط المواجهة في الإضرابات العامة والعديد من التحشيدات والتظاهرات، وكان للانتفاض قيادته الميدانية التي تعرضت للاعتقال غير مرة، ومرجعيات قيادية أخرى ولجان شعبية في كل مكان. وقد تضافرت في الانتفاضة ركيزة ميدانية وتنظيمية وسياسية واقتصادية ومعنوية، أما شعارها الناظم فكان الحرية والاستقلال، وكانت محطة

نوعية كبرى دفعت المسيرة الفلسطينية وحشرت سياسات الاحتلال في موقف دفاعي. فهي مبادرة شعبية تاريخية هجومية، لم تكن مسلحة أو عصياناً مسلحاً كما الانتفاضة الروسية عام 1917، وغلب عليها التحرك الشعبي السلمي وإن آسمت بعنف شعبي وسلاح ناري كالمظهر ثانوي، أي حيدت العسكرية الاحتلالية بقدر كبير ولم تحتضن دعوات العصيان المسلح المغامر الفاقد لشروطه لأن الشعب غير مسلح وهذا حال العصيان المفتوح الذي كان يمكن أن يمه في زمنها في غضون أشهر قليلة ارتباطاً بامكانات الناس. أما المظهر الأبرز فيها فكان الإضراب الجماهيري بمعدل 6 أيام شهرياً بما جعلها تختلف عن ثورة عام 1936 وإضراب الستة أشهر.

والحديث حول الانتفاضة يطول وهناك كتابات عديدة بما في ذلك فصل في رسالتي للدكتورة.

والنموذج والإضافة هنا، هما الانتفاض بخصائصه الفلسطينية إلى درجة القلق الاحتلالي من اندلاعها مرة أخرى هذه الأيام، وهي بحق مرحلة جديدة بهذا التوصيف، وكان التخطيط لها أن تكون نمط حياة تقوى الجماهير على احتمال استحقاقاته وتصل بالصراع إلى حالة الاستعصاء مهما طالت واستطالت. غير أن انعقاد مدريد بعد الجولات التمهيدية لشولتس وبيكر أربكها وأضعف زخمها، وبين مدريد وأوسلو انطفأت دون ثبات على نهجها والوفاء لتضحياتها.

#### المرحلة الخامسة: اتفاق أوسلو \ مرحلة أوسلو

انقسمت الانتفاضة وانقسم الشعب وانقسم النظام السياسي الفلسطيني يرمته فهناك من كانت حساباته "تمير الانتفاضة بالتفاوض والوصول إلى حل سياسي" وهناك من دعا لتحويلها لنمط حياة ورفض التمير المتعجل.

جفرت التفاوض السري علاوة على مدريد العلني وتم التوقيع على مبادئ أوسلو دون مشاركة أو علم قيادات الداخل أو مؤسسات م.ت.ف والأمناء العامين، يحدو القيادة الرسمية الفلسطينية آمال أن يكون ذلك مرحلة انتقالية تمهد لكان ما أو دولة ما فيما القيادة الاحتلالية اعتبرت ذلك مصيدة للاعتراف بإسرائيل وإسقاط المقاومة المسلحة والالتزام بمتطلباتها الأمنية. وهذا ما أعلنه راين صراحةً فيما اعتبر بيريز الاتفاق "الانتصار التاريخي الثاني بعد إقامة الدولة". وتشكلت سلطة للحكم الذاتي الإداري المحدود وتشريح اتفاق طابا تجذونه في الفصل الأخير من كتابي مداخل لصياغة البديل، وكتبته عندما كنت في السجن حينذاك.

لم يقد أوسلو لسلام ولا استسلام ولم يضع حداً للاستيطان الكولونيالي، بل زادت استباحة الاحتلال لكل ما هو فلسطيني ولا حاجة للإسهاب هنا. وجاءت أحداث النفق 97 التي مهدت لاتفاضة عام 2000، وتكتيك الاغتيال الممأسس لأكثر من 500 ناشط فلسطيني، واجتياح الضفة الفلسطينية، و3 عدوانات على غزة واستمرار حصارها التجويي، والانقسام الفلسطيني الذي وصل حد الاقتتال، وسلطتين وكيانين في الضفة وغزة، وجولات الحوار الفلسطينية الماراتونية التي لم تفض لأكثر من المزيد من الخذلان وبث الكراهية وتراشق الاتهامات. وتحول اتفاق اوسلو لمرحلة امتدت لأكثر من عقدين، وجهاز وظيفي مكون من 170 ألف موظف إضافة إلى 50 ألف في غزة ووظيفتهم حماس وعشرات آلاف المقاتلين، ونهج تفاوضي يشتد حيناً ويخبو حيناً، وثقافة استهلاكية وديناميات تفكيكية للشعب. وحصل حراك سياسي تراجع في فصائل م.ت.ف وأصبحت فيه فصائل الإسلام السياسي المقاوم بما لا يقل عن 40% من الخارطة السياسية، وتبدلت ثنائية فتح - شعبية وأصبحت فتح - حماس، وأثناء العدوان الأخير على غزة باتت الثنائية حماس - الجهاد.

وتعرض القطاع ل 3 عدوانات سقط فيها آلاف الشهداء ودمار هائل للاقتصاد الهش والفقير وفي العمران والبنية التحتية، ولكن لم تثمر هذه العدوانات عن كسر إرادة المقاومة ورفع الراية البيضاء فقطاع غزة خاض حرباً دفاعية وباتت لديه قوة ردع معينة على طريقة قوة ردع المقاومة اللبنانية.

ولا حاجة للإسهاب لكن العقل القيادي لم ينفك يبحث عن وحدة وطنية على أساس برنامج سياسي يسعى فريق التسوية أن يكون برنامجاً تسوياً تحت قيادته، ويسعى الفريق الآخر أن يكون برنامجاً وبقيادته، وهذا مستحيل طالما لا ينتقل فريق إلى مواقع الفريق الآخر. الممكن هو القواسم المشتركة وحسب والتعايش مع موضوعات الخلاف من خلال تنفيذ ما اتفق عليه في اجتماع عمان عام 2012 بتشكيل وانتخاب مجلس وطني للدخل والخارج، كما يمكن إعادة تعريف السلطة بالنأي عن الحيز السياسي كما التصدي لمعضلات البطالة والفقير وتدهور القطاع التعليمي والصحي وإعادة هيكلة الموازنة وحماية ما تبقى من أرض وقدمس... إلخ، ولي مقارنة عرضتها في وسائل الإعلام غير مرة.

وأخيراً لم تصل المسيرة الفلسطينية نهايتها، وكل ما سبق، وقلته أعلاه، من أجل الإجابة عن سؤال الغد. ما هو السيناريو المحتمل في السنوات القادمة، المستقبل القريب؟

التاريخ مفتوح ولا نهاية له ولا مرحلة أخيرة فيه، والأمس اشتمل على حرب عصابات وانتفاضة والتفاوض والحرب الدفاعية والسياسة الناعمة والسياسة الخشنة فما هو النموذج المتوقع في الغد؟

\*\*\*\*\*

ينبغي القطع أن المرحلة الراهنة مؤقتة وأن هناك ما بعدها، سوف يغادر التاريخ المحطة الحالية وينتقل للمحطة التي تليها، ومقاربتى تزعم أن المحطة الحالية تستنفد طاقتها وهي تقترب من خط النهاية، فمن أين تأتي المرحلة الجديدة؟ بداهة تلد من المعطيات الراهنة وتناقضاتها، وبكلمات سريعة، مجرد كلمات لا أكثر، فالمحاضرة خارج السجن لا تتسع أكثر من ذلك، خلافاً لزمان السجن حيث يمكن الإسهاب.

دولياً: لم يعد العالم أحادي القطبية كما حاولت أمريكا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في أواخر القرن الماضي، وتدرج تشكلت التعددية القطبية، وإن كانت العولمة الرأسمالية الاحتكارية هي الأقوى عالمياً دون نسيان الأزمة الاقتصادية عام 2008 التي استنزفت العالم بأكثر من 30 تريليون دولار ومديونة أمريكا اليوم 18 تريليون وأوروبا أكثر من 10 تريليون دولار.

وقد تشكل محور اقتصادي جديد هو دول البريكس والمكون من البرازيل والهند والصين وروسيا وجنوب أفريقيا، ويشكل 45% من البشرية و35% من الإنتاج العالمي، ناهيك عن منظمة شنغهاي للتعاون المتعدد الأبعاد بمشاركة روسية صينية وهندية ودول أخرى والتوقعات بانضمام باكستان وإيران، وإقامة بنك آسيوي للبنى التحتية بمبادرة صينية كمنافس لصندوق البنك الدولي، سيما أن للصين أكبر رصيد عالمي يقارب 3.4 تريليون مع سندات حكومية أمريكية بأكثر من تريليون ونصف وقد أصبحت الصين اليوم أكبر جاذب للاستثمارات العالمية وسيكون لذلك إسقاطات على الشرق الأوسط.

إقليمياً: صعود قوة إيران الإقليمية إذ بات لها نفوذ في العراق وسوريا ولبنان واليمن وأواسط آسيا، فيما تشتد وتائر صراعها السياسي مع السياسة الأمريكية - الإسرائيلية، بينما تنظر إسرائيل لها كأكبر خطر استراتيجي عليها بما ينطوي عليه من احتكاكات محتملة.

عربياً: تحولات عاصفة تشهدها المنطقة العربية منذ 5 سنوات، أهمها الانتفاضة التونسية والمصرية اللتين خلعتا أنظمة الأمس، والأمس لن يعود. وهناك ما أصاب العراق وسوريا من تمزق ودمار ما يفوق الوصف وتمدد داعش كطبعة دموية على ثلث القطرين وعدد من السكان يناهز 6 مليون نسمة. وأفضل تكريس محاضرة منفصلة عن المشهد العربي وتحولات المستقبل. وبداية هذه المعطيات إسقاطات على القضية الفلسطينية سيما انتصار حزب الله وتحرير الجنوب اللبناني عام 2000، وفشل العدوان الإسرائيلي عام 2006 إذ بات للمقاومة قوة ردع حقيقية (ميناء مقابل ميناء) وآخذين بالحسبان انتقال الجيش السوري والحلفاء للهجوم، فيما عين حزب الله دائماً على فلسطين، رغم الأزمة السورية.

فلسطينياً: بعد تصريح رئيس السلطة الفلسطينية بأن المفاوضات غير مجدية واستأنف مفاوضات الـ 9 أشهر تجاوباً مع مسعى كيري لكن دون جدوى، واستعصى المسار التفاوضي ووصل طريقاً مسدوداً. وتعتمد القيادة الرسمية الآن الخيار القانوني بالتوجه للأمم المتحدة ومنظماتها وهذا وإن كان صحيحاً إلا أنه لا يطرد احتلالاً ولا يوقف استيطاناً، ومأزق قيادة السلطة أن الحكومات الإسرائيلية لا تبحث عن تسوية جذرية أو حل وسط. وبرنامج الليكود صريح سيادة واحدة من البحر للنهر، وهناك أحزاب أكثر يمينية وبالتالي ليس هناك ما يسمى تسوية بالطرق التفاوضية تنهي عوامل الصراع، ولا حل وسط ولا حل استسلامي يرفضه الشعب الفلسطيني المستباح على كل الصعد.

كما ثمة انقسام فلسطيني لم ينفك يتعمق إلى أن أصبح الكيان الفلسطيني في الأراضي المحتلة عام 67 كيانين وسلطتين وخيارين، بما صاحبهما من اقتتال واعتقال وبث كراهية... إلخ. وكل المباحثات والاتفاقات الوجودية لا تستوعب حقيقة أن الانقسام السياسي حقيقي على رؤيتين وصراع على القيادة ومصادر تمويل متناقضة وصراع على القرار. والعقل القيادي لا يبدع في البحث عن قواسم مشتركة ميدانية، وهو مصلوب في نظرة نمطية تقوم على الإملاء وفرض أجندة خاصة فصائلية ونخبوية، وهذا مستحيل في ظل ميزان القوى الداخلي. ومفتاح الخروج من حالة الانقسام هو انتخاب وتشكيل مجلس وطني كمرجعية للشعب كما جرى الاتفاق في القاهرة وإعادة تعريف السلطة، وهذا تحدث عنه سابقاً وبالتالي التعايش مع التناقضات.

تعرض قطاع غزة لثلاثة عدوانات مدمرة في غضون سبعة أعوام دون أن تحصد العدوانية الصهيونية أي انتصار سياسي، كما استمر الحصار التجويي وإغلاق نحو 2000 نفق كانت تغطي 70% من احتياجات القطاع.

ويمكن القول أن ثمة نهج مقاومة بأشكالها ونهج مساومة بأشكالها، وإن تميزت قوى في النهج الأول فهي أيضاً تتقاطع جزئياً مع القوى في النهج الثاني، والعكس صحيح، بما يسمح بالتوحد على قواسم ميدانية من ناحية موضوعية.

ولا يجب أن أغفل أن تكتيك الضاحية الذي اعتمده رئيس أركان جيش الاحتلال الحالي قد نفذ في الشجاعية، وهناك على اليوتيوب يتحدث ضابط إسرائيلي عن تعليمات للجنود بإطلاق النار على مدنيين فلسطينيين لقتل ملل الجنود، والرد على خسائرهم بقتل مدنيين.

ومن قبل حاصرت ألمانيا موسكو في الحرب العالمية الثانية وأرادت تحويلها لرماد، وقد فشلت وتركت مئات الآلاف من الأسرى السوفييت يموتون جوعاً، ولكن هذا لم يفض إلى هزيمة السوفيت، فالحق لا ينفصل عن القوة وفي النهاية استسلم 700 ألف عسكري ألماني بعتادهم في معركة ستالينجراد. وقد أعلن رئيس الأركان الاحتلالي أن أكبر خطر يهدد إسرائيل هو تآكل قوة الردع الإسرائيلية، وبالتالي باتت مقولة "الجيش الذي لا يقهر" والتي استخدمها أيضاً نابليون في زمانه مهزوزة، وهناك قلق من القيادة العسكرية الإسرائيلية من تعاضم القوة الصاروخية لحزب الله وتعاضم قوة البندقية في غزة، وتردد في الإقدام على اجتياح بري، وهناك تيارات تقول بالخروج السياسي رغم انزياح الخارطة السياسية نحو اليمين ولكنها قوى غير مقرر.

أما في الضفة فالوضع مرتج ومخدر إجمالاً مع نقطة ساخنة في القدس ومصادمات شعبية محدودة في عشرات المواقع وأعمال نوعية فردية بين الوقت والآخر، وسلطة تقبض على الوضع في الضفة وتضبطه بما يكسر وجودها والتزاماتها السياسية والأمنية.

ماذا عن الغد؟

ما عرضته فلسطينياً يتعلق بالأمس واللحظة الراهنة ولكن ماذا عن السيناريو المحتمل في المستقبل المنظور خلال الأشهر المتبقية من هذه السنة والأعوام المقبلة؟



مقاربتى اليوم تقوم على احتمالية نهوض وطنى أى انفجار شعبي وولادة مرحلة جديدة تتجاوز المرحلة الراهنة والانقسام والسلطة والكثير من القوى "والقيادات" وثقافة الإحباط والانتظار والرخاوة، وسوف يتجاوز الجيل الجديد والقيادات الجديدة كل ما هو شائع. وكما كانت ولادة الفصائلية الفدائية بعد هزيمة عام 1967 تتجاوزاً لما سبقها، فسوف تتجاوز المرحلة الجديدة ما سبقها بحيث يستعصي التناقض ولا يكون من فكاك له إلا برحيل الاحتلال، وعودة الأمور لطبيعتها الحقيقية.

ولكن ما هي العوامل التي تحرض وتفرض لهذا الاستخلاص وما هي العوامل المحبطة له؟

مفهوم أن البشر يصنعون مستقبلهم في نهاية الأمر، أما العوامل المعيقة فهي:

(1) بطش السلطات الاستعمارية وإجراءاتها، والاحتلال وإجراءاته اليومية، فالاحتلال مرتاح من الوضعية القائمة فهو احتلال "خمسة نجوم" يسرق المياه والأرض وهو السيد دون أن يدفع ثمناً حقيقياً. ولكن هل نجح الاحتلال في منع الانتفاضة الكانونية في أواخر عام 1987 أو عواصف عام 2000؟ الجواب كلا. وفي مؤتمر هرتسلييا عام 2015 الذي تشارك فيه النخبة العسكرية والأمنية والسياسية والثقافية والاقتصادية والإعلامية، قال "حزب الله مشغول في سوريا وغزة غير مستقرة، أما السلطة في الضفة فتضبط الوضع" ولكن هناك صحفيون تحدثوا عن احتمال حرب عصابات جبلية أو انتفاضة أو تحركات شعبية، كما أن جبروت الاحتلال وما لديه من قوة تدميرية هائلة لم تستطع الحيلولة دون أن تتراكم عوامل القتال في قطاع غزة أو قدرة على القضاء عليها.

(2) السلطة الفلسطينية الملتزمة باستحقاقات أوسلو والتي تناهض اشتعال الضفة إلا في حدود تحرك سلمي. وكشخص دارس للعلوم السياسية وأدرسها جزئياً، استطع أن أستخرج درساً من تونس ومصر، أن نظامي بن علي ومبارك لم يقويا على منع الانتفاض الشعبي، وهذا حصل في غير بلد وتجربة، كإيران الشاه مثلاً. كما أن السلطة في مازق، فالمسار التفاوضي لم يثمر عن حل سياسي أو عن ترتيبات على طريق الاستقلال، بما أثار جدلية داخل صفوفها، وهناك تيارات تقول بالعودة لخيار الشعب. وليس صدفة أن تكون حركة فتح في سجون الاحتلال نحو نصف الحركة الأسيرة، وهناك المئات من ذوي الأحكام العالية ومن الأجهزة

الأمنية. أي أن السلطة وحزبها "حركة فتح" تركيبة فيها كل النماذج والاستعدادات وليس فقط دعاة التفاوض والعودة للمفاوضات مرة أخرى، سواء كان التفاوض علنياً أو سرياً. ودعوتها للمقاومة الشعبية السلمية لم تتحول لحركة جماهيرية فاعلة على غرار النضال الشعبي بين أعوام 1988 - 1992، ولنتذكر كيف تدرجت المواجهات عام 2000 بعد "فشل" كامب ديفيد، وغض القيادة الفلسطينية النظر عن تحركات التسعت وتصاعدت دون قدرة على التحكم بها. ولي سؤال أيضاً؛ هل تُتوحد السلطة على قمع حركة جماهيرية؟ استبعد ذلك.

(3) ثم تغطيس الطبقة الوسطى ومنبعها الجامعات، بالقروض والتفتيت والثقافة الاستهلاكية واللهم نفسي والفردية، بما لهذه الطبقة من دور. وحسب الدكتور جميل هلال فنسبتها أكثر من 20% في الضفة والقطاع وحوالي 50% من قوة العمل في رام الله. وهذه ممتدة في الكادرات الوسيطة لأجهزة السلطة والحركات السياسية والمنظمات غير الحكومية والجامعات والمؤسسة البنكية والإعلامية والنقابات المهنية... إلخ. لكن كل مجموعة منكفئة على نفسها دون أن تحمل مشروعاً سياسياً أو ثقافياً أو غيره. وفي استبانة أعدتها في اعتقالي الأخير، تبين أن 20% من الطبقة الوسطى هم طلبة جامعيون أو خريجون، ولكنهم مبعثرون حالياً في مرحلة الانحسار. فالتفكك جدي والخراب جدي، ولكن هذا كله يتطير في الهواء ما إن يشتعل الحريق، ذلك أن الوطنية الفلسطينية عميقة في الوجدان والأفئدة كما حال أي وطنية أخرى، وكذا الاستعدادات المتنوعة وأيضاً الطبقة العاملة التي أغلبها "طبقة في ذاتها وليس طبقة لذاتها" حسب التعبير الماركسي، وهي تشكل أكثر من 20% من قوة العمل ونحو 35% في الحركة الأسيرة رغم عدم تمركزها، وأيضاً الكلّة التاريخية بمفهوم غرامشي. وللعلم تشكل الخارطة السياسية في السجون من حوالي 50% فتح وأكثر من 30% حماس ونحو 10% جهاد إسلامي و8% شعبية و1% ديمقراطية، فيما يجمل الأسرى أصبح حالياً 6 آلاف ويتحرك الرقم صعوداً وهبوطاً حسب الحالة السياسية.

(4) حالة الإحباط والارتخاء واللهم نفسي وعائلي وعدم الثقة الجماهير بالذات وقدرتها على التغيير، وما توالد عن مرحلة أوسلو من ثقافة غير تحريرية وتراجع لثقافة الثورة. وكأن لا جدوى من النضال بينما تبدد القيادات التضحيات، والشعب يفتقر لمشروع وطني والاحتلال يسيطر ومستعمراته في كل مكان، وهناك ديناميكية تفكيكية للشعب وتجمعاته وخلق تفاوتات في أولوياته.

وبكلمة واحدة، للثورة ثقافتها وقيمها ولاستراتيجية التفاوض ثقافتها وقيمها، ولمرحلة الصعود خصائصها ولمرحلة الجزر خصائص أخرى، ولكنني شخصياً استطيع استدعاء ذاكرتي في بداية الثمانينات حتى أواسط عام 1987 لم تكن قيادات العمل الوطني في الداخل لتجرؤ على الدعوة لأضراب أو تظاهرة حاشدة لتعذر التجاوب معها، حتى أن حرب عام 1982 وحصار بيروت لم يوقظا الوطن المحتل الذي كانت نضالاته نخبوية ومتباعدة وحسب.

ولكن ما هي المحركات التي يمكن أن ترفع منسوب المواجهة الشعبية مع المحتل وولادة مرحلة جديدة؟

أولاً: يواجه الشعب الفلسطيني اسعماراً عنصرياً اقتلاعياً ما برح التطهير العرقي بنداً في برنامجه كما كتب البروفيسور بايه، وكما تنص عليه خطة برافر في النقب، وكما يحصل في الأغوار، ناهيك عن ضم القدس بعد توسيعها من 3% كما كانت عليه في العهد الأردني إلى 17%، وجدار واستيطان، واعتقالات يومية وحجز للتطور وضرائب واستيطان استعماري قافز وإذلال لا ينته. ولا حاجة للإسهاب فسياسات الاحتلال على جلودنا جميعاً.

فيما المشروع الوطني يتطلع للحرية والتحرير ويقاوم ولم ينفك يقاوم ولم يستسلم منذ أن اقترح الاستعمار البريطاني الحكم الذاتي عام 1922 وصولاً للحكم الذاتي الأوسلوي عام 1993، ثمة علاقة صراعية هي مصدر المواجهة بين المشروع التحرري الفلسطيني والمشروع الاحتلالي الإجلائي. قد ترتفع وتأثره أحياناً وتتنفخ أحياناً أخرى ولكنها لا تنطفئ إلا بانطفاء أسبابه، وصدقت نبؤة الشهيد عبد القادر الحسيني "شعب فلسطين سيظل يثور جيلاً بعد جيل إلى أن تتحرر فلسطين".

ثانياً: كان الشعب الفلسطيني بعد عام 1967 في الضفة وغزة مجرد ثلاثة أرباع مليون، أما اليوم فهو 5 ملايين منهم 200 ألف طالب وطالبة في الجامعات ومثلهم تقريباً في الحادي عشر والثاني عشر، ونحو 2 مليون شاب أعمارهم بين 16-36 سنة وبطالة لا أفق لتشغيلها تناهز 400000 نصفهم من خريجي الجامعات والثانوية من النساء والرجال، وجدار استعماري توسعي ومستعمرات تقضم الأراضي الفلسطينية، واعتداءات للمستوطنين وجنود مدججون بالسلاح ينكرون، واليوم هناك 1.5 مليون فلسطيني وراء ما يسمى "الخط الأخضر" وأكثر من

6 مليون في الشتات بما يختزله الشعب الفلسطيني من طاقات وتطلعات وإرث كفاحي وخبرات. فالفلسطيني لم يتحول لغبار الأرض، وسقطت مقولة "أين هو الشعب الفلسطيني" ومقولة "أرض بلا شعب" بما يعكس مأزقاً إسرائيلياً كتب جدعون ليفي. لقد تم اقتلاع الشعب الفلسطيني من الجغرافيا أما محاولة اقتلعه من التاريخ فهذا أقرب إلى المستحيل والدليل أنه لم يستسلم بل ويتكاثر. ومقولة الديموغرافيا تحمل تطلعات سياسية ولا يمكن الاحتيال عليها. قد تضعف قيادات أو قد يضعف جيل ولكن شعبنا ككل الشعوب ولآد بقيادات جديدة وأجيال جديدة تحتزن كل مقومات استئناف المسيرة.

ثالثاً: لقد استنفدت المرحلة الراهنة نفسها وهي تقترب من خط النهاية، فمرحلة أوسلو وعودها بالاستقلال والنور السبعة كشفت ماهيتها، فهي ليست كذلك من وجهة نظر الحقائق على الأرض وليس مجرد المساجلات والتحليلات المناهضة. وبعد أن تنتهي هذه المرحلة تحل مرحلة أخرى.

لا تنفك القوى السياسية هي اللاعب الحاسم بما تشهده من نزعات واستعدادات. وأريد توسيع الأفق بإعطاء حيز أكبر في المرحلة المقبلة للجماهير الفلسطينية في أراضئ 1948، وهؤلاء يتعرضون لتمييز عنصري فهم يشكلون 18% من السكان بينما يمتلكون مجرد 4% من الأرض و2% من المياه، ويمثلون ما نسبته 3% من الجامعات وبلا ميزانيات تطوير، ونسبة البطالة في صفوفهم مضاعفة فيما نسبة أجورهم بالكاد تصل 60%. بل ثمة عملية منهجية لتفتيتهم ضمن سياسة فرق تسد ومخططات اقتلاعية، وإلا بما نفسر مخطط برافر والشرط على المفاوضات الفلسطينية الاعتراف بدولة يهودية، وكان رد هذه الجماهير المواجهة.

ومن جهة أخرى، لقد صمد الشعب اللبناني وقاتلت مقاومته عام 2006، وتكبد الغزاة خسائر فادحة بعد أن فشلت الضربات الجوية المدمرة والاجتياح البري. ورغم انشغال حزب الله في سوريا فألويته في الصراع، وعلى الأقل نظرياً، هي فلسطين. وهناك جولات مقبلة على الجهة الشمالية وما التدريبات الإسرائيلية سوى مقدمة وتهيئة.

والنظام السوري بات على قناعة أن سياسة التهدئة أربعة عقود لم تُعد له الجولان. ليس هذا وحسب بل وبسبب الأزمة الداخلية كاد يفقد الجنوب كمنطقة عازلة يتحكم بها الإسرائيلي الذي لم يخف دعمه للمجموعات المسلحة بحيث تصبح دمشق في مرمى النار، بل امتد الدواعش إلى غرب دمشق في القلمون والجروود والزيداني.

على الحدود اللبنانية، وعلى بعد 50 كيلو متر من دمشق في وقت سابق، ومن الممكن أن توترت جبهة الجولان بطول 76 كيلو متر. ولا ينبغي أن ننسى صعود إيران، فهذا من شأنه أن يخلق اصطفاقات جديدة.

الإقليم غير مستقر وينطوي على كل الاحتمالات وعليه وبتكثيف:

لقد اتبع الفلسطيني السياسة الناعمة والسياسة الخشنة، ويغلب عليه في الضفة وأراضي 48 القوة الناعمة من تعليم وإعلام وفنون وتحركات سلمية وقانون وأمم متحدة وأعمال نخبوية هنا وهناك، فيما يغلب عليه في قطاع غزة القوة الخشنة باللجوء للسلاح والقذائف والأنفاق. ولا شك أن الفلسطيني قد صمد ولم يستسلم والحديث يطول عن الساحة الخارجية، وهو حين توحد ميدانياً عام 1983 حمى مخيمات بيروت ولكنه لم يتعلم هذا الدرس في المرحلة الجديدة.

والنموذج المستقبلي أتوقعه ولادة جديدة تتجاوز كل النماذج وتستفيد من كل النماذج، ولكن نخب المفاوضات سوف تستمر في نهجها، ونهج المقاومة سوف يستمر في نهجه، وهذا حال القوة الناعمة وغير الناعمة. أما الولادة الجديدة فسوف تصبح هي المعطى الأساس واللاعب الأول في الأعوام المقبلة، ويساعد على ذلك لو توصل الوضع الفلسطيني الحالي إلى قواسم ميدانية مشتركة. فن شأن ذلك خالق مناخات إيجابية تخفف الاحتقان الداخلي واستنزاف الطاقات الفلسطينية بما يتيح لها الالتفات للتناقض الأساس والرئيس. ولاحظنا ذلك بقدر كبير أثناء العدوان الأخير على قطاع غزة عام 2014، فكان ذلك قاسماً ميدانياً كبيراً تعايش مع الانقسام السياسي، كما لاحظناه في هبة القدس لإسقاط البوابات الإلكترونية.

وأعتقد أن سياسات حكومة "يمين اليمين" وتنتيا هو ليس الأشد يمينية، فهي تتجاوب مع حزب المستوطنين ودون ذلك تسقط الحكومة، مع الانتباه أن ثمة انزياح نحو يمين اليمين في الشارع والحكومة على حد سواء. هذه السياسات ستدفع العقل الفلسطيني للتفكير وتجاوز بعض ما هو نمطي ومستهلك، فثمة أوهام كثيرة معششة يمكن تجاوزها، فالحاجات توجب أفكارها في نهاية الأمر، بما يخفف من غلواء التناقض الداخلي وإطلاق سراح التناقض الخارجي.

أي أن الوضعية المعطوبة الحالية ليست دائمة وليست قدراً ثابتاً، فالتاريخ في حركة والبشر يصنعون مستقبلهم والشيء يستولد نقيضه في نهاية الأمر، سيما وأن شروط اللحظة الراهنة في تآكل مستمر ويسكنها تناقضات وتطلعات واستعدادات. فقد تمرد قطاع غزة وهو يشكل مجرد 6% من مساحة الضفة، وتمرد لبنان وهو بمساحة محافظة مصرية، ومن الخطأ إسقاط الرهان على الجماهير، على الكلفة التاريخية التقدمية بلغة جرامشي والثقافة التقدمية التي تنتج روابط الكلفة.

هذه الكلفة هي ما يُراهن عليه، وهي صانعة الغد ونموذجه الأنضج انتفاضة أواخر الثمانينات، إذ كان ثمة حكمة حيّدت بقدر كبير الترسانة العسكرية الإسرائيلية، ودأبت على تقليص الخسائر وراعت قدرة الشعب. فالإضراب الجماهيري العام كان لمدة 6 أيام شهرياً ولم تندفع الأمور باتجاه الاجتياح. فالمغامرة التي تعظم خسائر الشعب تفضي لنتائج عكسية، ولكنني أتخيل النموذج المقبل الذي قد يمر في محطات وحلقات وسيطة ويشمل كل التماذج التي تتحرك مضامينها، فمرةً يطغى هذا المضمون ومرة ذلك في صيرورة مستمرة تفضي لحالة استعصاء لن تزول إلا بزوال الاحتلال بمظاهره كافة، ويتداخل فيه الفلسطيني والعربي معاً. لقد سقط المشروع القُطري، والوضع الفلسطيني مأزوم ومستباح، وهذا يمهد لما هو جديد.

وشكراً

## هل من الممكن إعادة إنتاج الانتفاض الكانوني عام 1987؟ قراءة في بعض المسكوت عنه

تناثرت كتابات عديدة عن الانتفاض الشعبي الكانوني عام 1987، ولا تسعى هذه المقاربة للتكرار بل الإضافة، والإضافة لا تخلو من مساحات سجالية.

ينبغي بداية استعادة كلمات ماركس الساخرة "التاريخ يعيد نفسه مرة على شكل مأساة ومرة على شكل ملهاة." وتتطوي هذه الكلمات في أحد معانيها على أن التاريخ لا يعيد نفسه، ذلك أنه صيرورة تلد الجديد، ومهما بلغ الحين للماضي، فالماضي لن يعود بشروطه السابقة بالنظر إلى المتغيرات التي تشهدها الحياة.

### مقدمة

لم يبتكر الفلسطيني الانتفاض تاريخياً، فهناك شعوب عرفت انتفاضات قبلنا، ولم يستخلص التجريد النظري للانتفاض، فهناك منظرون فعلوا ذلك منذ قرن ويزيد، ذلك أن الفكر النظري مشتق من الممارسة وهو على صلة جدلية بالممارسة. ومن يقرأ الانتفاضة الإيطالية في مطلع ثلاثينات القرن الماضي وما كتبه أحد صناعها روسو، أو الانتفاضة الروسية عام 1917 وقبلها مراسلات ماركس مع صديقه الدكتور كوغلان عن كومونة باريس عام 1870، يستخلص معايير نظرية شأن الدارس لعلم الفلك أو النظرية النسبية لأينشتاين أو نظرية الاقتصاد الكلي أو علم النفس وكل ما يتصل بالثورة الصناعية وما نتج عنها من صناعة ثقيلة وثورة تقنية وثورة رقمية. فقد راكمت البشرية إرثاً معرفياً وعلياً خصباً في وقت تسارع فيه الدورة العلمية، ففي العقد تراكم نظريات أكثر مما راكمه التاريخ الإنساني بجممله، إنه عصر القفزات العلمية. ومن الطبيعي أن تنهل الشعوب المفوتة التي تأخر تاريخها من الحضارات المتقدمة، والمهم أن تتلاحق لا أن تزدنب.

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ناقش النهضويون العرب من كواكبي ومحمد عبده وغيرهم مقولة "نحن والآخرون" ولم ننسك نناقشها لليوم شأن المقولات النهضوية الأخرى، ذلك أننا لم ننجزها على الأرض بعد. ولثلا يتجوف العلم ويتحول "المبوط لنظرية" (لينين)، لا مهرب من الإمساك بالمنطق العلمي ومنجزاته. والمسألة تبدأ هنا دون أن نتوقف.

"من المجرّد العام إلى الملموس الخاص" (ماركس)، فالفهم العام يحضر ضمن الخصوصية القومية، وعليه، لقد سخر ماو تسي تونغ قائلاً "لو جاءني ماركسي صيني وتحدث عن الماركسية دون أن يربطها بالخصائص الصينية اعتبر كلامه مجرداً وفارغاً"، فالانتفاضة تحضر ضمن شروطها المحلية. وكان ذلك في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فهي لم تكن انتفاضة على الطريقة الروسية ولا البلغارية ولا الإيرانية أو غيرها، إنها نموذج فلسطيني وبنكهة فلسطينية. ومثل هذا الإدراك المبكر، بل صدرت كراسة في أواخر عام 1982 تحت عنوان "الحرب الشعبية والانتفاضة الشعبية" بالمقارنة بينهما استناداً لمرجعيات نظرية وتجارب تاريخية، وكان ذلك موجهاً للإرادة الواعية عندما انخرطت في الصيرورة الانتفاضية دون ليّ عنقها في قوالب جامدة. وكانت مفردة براكسيس الغرامشية مرشداً ومنازة.

وكان البعد المشترك الذي امسكنا به، القانون العام، أن الانتفاضة لكي تكون كذلك، وكصفة بنيوية جوهرية فيها، ينبغي أن تكون شعبية حقاً وجمهورية حقاً، أي ليست "حزباً" على رأي لينين، وليست حراكاً محدوداً أو مجرد تظاهرة أو إضراب، فهذا كله من مكوناتها. أما الانتفاض فهو نهوض عارم بمشاركة شعبية واسعة سواء كانت عفوية أو واعية، ولا يمكن حصرها في ركيزة واحدة بل ضفيرة من الركائز الميدانية والتنظيمية والسياسية والاقتصادية والمعنوية والثقافية والتعليمية، إلخ. هكذا كانت الانتفاضة المحيطة أواخر عام 1987.

سرديةٌ تُشي بزوايا مجهولة:

لم يحصل "تحالف العمال والفلاحين" ولم "توضع خطة مركزية" ولم يتحقق "إحراز انتصارات يومية" كما اشترط لينين تبعاً للتجربة الروسية، وإنما انطلقت شرارات محلية تحولت لحريق (دهست حافلة إسرائيلية عمالاً فلسطينيين فاستشهد أربعة) وتوالد عن ذلك حرق جيب عسكري، وفي اليوم الثاني جنازة بالآلاف وتظاهرات



في القطاع امتدت إلى بلاطة نابلس، وسقط شهداء هنا وهناك، وقد تدرجت المواجهات والتقط حفنة من العاملين في الحقل الوطني معاني الحدث وعقدوا مؤتمراً صحفياً. وعلى صعيد داخلي تمت وقفه بعد أقل من أسبوعين استخلصت "لقد تحولت الهبة إلى انتفاضة شعبية. الجميع إلى الميدان"، ولم يكن قد تشكلت "قوم" بعد ولم يطرز شعار الانتفاضة "الحرية والاستقلال" بعد.

لم يكن العقل الوطني خاملاً أو انتظاريًا، إذ تفاعل مع الغليان وتساءل "ماذا يحدث؟ وكيف يمكن تعزيز الميدان؟" ونقاشات هنا وهناك، ولم يكن جدلاً عقيمًا أو سفسطائياً على طريقة "أيهما أسبق البيضة أم الدجاجة."

وسبق ذلك تعميم داخلي في تموز جاء فيه "إذا كان على شعبنا في الخارج حماية البندقية الفلسطينية في لبنان، فعلى شعبنا في الداخل أن يفتح جبهة ثانية تضمن صيرورة الكفاح... التاريخ قد وضع على كاهل شعبنا في الداخل مسؤولية مميزة في اللحظة الراهنة هي الحفاظ على شعلة الكفاح. لنتهياً على كل الصعد بما هو أكثر من التخندق مع إضراب الحركة الأسيرة في نيسان."

كان المفتاح كلمة البراكسيس التي لا تنفق مع الخطط الجاهزة والصياغات النهائية إنما تفاعل الوعي والإرادة مع الممارسة والاسترشاد بالفكر لإنتاج فكر يخلق ويبدع، أما المحفز فكان كلمة لينين "نغوص ثم نر" لشق طريق الفاعلية. وتتطلب الفاعلية مونولوجاً مع الذات وديالوجاً مع الآخرين وحواراً مع الواقع بما أفضى في النهاية للإمساك بالحلقة المركزية وشعار "لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة."

وسمعنا عن لقاءات قيادية في الخارج تباينت فيها المقاربات بين من قال أن الانتفاضة قادرة على تحرير فلسطين، وبين من اعتقد أنها ستفضي للهدف المرحلي بالعودة والدولة وتقرير المصير، وبين من حصر الطموح بطرد المحتل. أما الداخل فقال "أن الانتفاضة محطة نضالية عليا تتجاوز العمل الفصائلي إلى النهوض الشعبي بما يؤسس لمرحلة هجومية جديدة" (كما جاء في أحد التعميمات).

ولما سأل الحكيم ما المقصود "بالحرية والاستقلال" كان الجواب "لم نخت هذا الشعار إنما اقتبسناه عن عبد القادر الجزائري عندما اقترحت فرنسا عليه (الحكم الذاتي)" وهو شعار ناظم ردعي لأي مساومات. وتكشفت مصداقيته عندما لهج البعض "لقد تعب الشعب. دعونا نأخذ بما يقترحه شامير من انتخابات بلدية ودوائر مدنية"

وكان الجواب "الشعب لم يتعب، إنما هؤلاء الذين يحجون للخارج ولم يسبق لهم أن ذاقوا مرارة السجن والتضحيات هم المتعبون من حياة الرفاهية" وتواصلت صفحات المجد.

## بين العصيان والعصيان المتقطع

جاء الصوت المتعجل من بعيد، من أحد العواصم العربية في اجتماع قيادي ولجنة تنفيذية "لقد رصدنا عشرات الملايين وأصبح لدينا جهوزية لانتفاض مسلح" ولم يكن قد مضى على الجيشان الشعبي 6 أشهر بعد، ووجد ذلك صداه في الداخل. أما الرأي الآخر فقال "ما يقال عن إمكانات يعوزها الدليل. والأصح فحص أين ذهبت الأموال. لو احتشدت إمكانات كل الوطن في مخيم أو حي سوف يعالج بالطائرات والصواريخ فيغطس الناس في بحر من الدم دون قدرة على إنقاذهم فيعم الخذلان وينطفئ الغيان. الأصح تضحية أقل ومسار طويل." وانقسم الموقف لكن زخم الميدان بقي على حاله فلم يترك التباين بصمات تذكر عليه. فالانتفاض ميداني أولاً، ولكن داهمه تحدٍ ثانٍ:

على أبواب صيف عام 1988 اجتهدت ثلاث قوات أن التاكتيك الأصوب هو العصيان المفتوح، فيما فصّل رابع قال "ثمة 400 ألف عائلة في أراضي 67 ثلاثة أرباعهم فقراء، وبعد شهرين ينفذ رصيدهم، هل يمكن تأمين 200 دولار لكل عائلة شهرياً... جاء الجواب: ليس لنا قدرة على ذلك."

فتوالد اقتراح العصيان المتقطع "سنة أو سبعة أيام إضراب جماهيري عام فضلاً عن برنامج الفاعليات الشهري، والعودة للتعليم والعمل في بقية الشهر" وحصل تخندق في الرأي. وصدرت نداءات ثلاث باسم الثلاثة وصدرت ثلاثة نداءات أخرى خاصة بفصيل، وتجاوب الشارع في الحالتين إلى أن التأم الشمل على قاعدة العصيان المتقطع.

ومثلها كانت مفردة "انتفاضة" جديدة على الفكر السياسي الفلسطيني فهي لم تكن معروفة في العقل الأمني والإعلامي الإسرائيلي، أما العصيان المتقطع الذي استمر أربعة أعوام ونيف فكان إضافة نظرية فلسطينية.

أي القيادة الوطنية الموحدة، التي بدأ بثلاث قوى وأصبحت 4، فهي لجنة فصائية تولت صياغة النداءات، سواء الديباجة السياسية أو برنامج المهمات، يسندها الأفكار والمقترحات التي يزودها كل فصيل لمدوبه، تجتمع وتناقش وتغني وتقرر. "وكان يمكن أن يرتقي دورها وخبراتها لولا اعتقالها المتكرر كما طابعها الوظيفي، فهي لا تقود أدوات ولجان الانتفاضة المنتشرة في المدن والأرياف والخيمات. ولتوافر مرجعيات أكثر استقراراً أعيد تشكيلها فوراً، ما أن تغيب لجنة حتى تحل أخرى محلها" (د. قطامش، محاضرة في مركز منيف البرغوثي الثقافي (2001).

والمستعمر العنصري الذي تسلح برؤية استشراقية رأى في الانتفاض الشعبي مجرد اضطرابات حاول وأدها بتهدم العظام والاعتقال الجماعي والتقتيل ومنع التجول والمداهمات، "لقد تحطمت المرأة التي تقول بالاحتلال المتور وانفضحت مقولة نقاوة السلاح وكشف النقاب عن الفظاظة في التركيبة الفكرية - العسكرية" (د. كرستين أولاس). وكلها سقط شهيد تحول لأيقونة وزيت لتأجيج شعلة الجيشان الشعبي.

### الموضوعي والذاتي

يتمثل العامل الموضوعي في الاستعمار وسياساته الذي "يستخدم القوانين والأنظمة العسكرية والإلحاق الاقتصادي والاعتقال والإبعاد وهدم البيوت وسرقة الأرض والمياه وضرب الصناعة الوطنية والزراعة" ("الانتفاض مبادرة شعبية"، 1999)

أما العامل الذاتي فهو الشعب واستعداداته وقواه المنظمة وطابع قيادته ومراسها واقتدارها. وقد استباح العامل الموضوعي الذاتي على كل الصعد على امتداد العملية الصراعية، ولكن لماذا نهض الشعب في أواخر عام 1987؟

إنه التركيم، ما بلغته الفصائل المنظمة وقاعدتها الجماهيرية المؤطرة من تركيب، سيما في سنوات الثمانينات وبشكل أخص الفصيلين الأكبر، وكانت الثنائية حين ذاك فتح - شعبية، وتراكم خبرتهما وتراكم جهوزيتهما واغتنائهما

بمئات الكادرات الذين تحروا في صفقة عام 1985، وفي غمرة الجيشان الانتفاضي تعاضمت قوة جميع الفصائل المنخرطة في الميدان. بقدر ما أعطت أخذت.

وفي الحاضنة الشعبية من كل الطبقات والأجيال، وإن بتفاوت، التي باتت مستعدة للتضحية يحدوها أمل التحرر من نير الاحتلال، ومهما بلغ البطش واعتقال عشرات الآلاف سنوياً فذلك لم يكسر هامتها، ويضعف دافعيتها أو اندفاعها نحو الميدان.

والجمهير المنتفضة رأّت بأب العين ومن تجاربها الخاصة أن أفواج الذين يتقدمون الصفوف هم من نفس تربتهم الاجتماعية، لا امتيازات لهم سوى التضحية أكثر والنشاطية أكثر، فباتوا عنواناً استقطابياً، وشعارهم "اتبعوني". إذ لم يكن الفساد قد تسلل للداخل بعد، ولا اللهاث وراء تطلعات طفيلية، ولا التسابق على ألقاب ورواتب مجزية. أما تكتيكات الانتفاضة فقد أشركت الجماهير ولم تكن نخبوية، مع وجود الفعل النخبوي، ولم تكن لتثقل على الناس "إذا أردت أن تطاع فأطلب المستطاع" وإن لم يخل المشهد من بطولة إغريقية تظهت بألف شكل وشكل. لقد كانت المعادلة صريحة غير ملتبسة: شعب منتفض يقول لا للمستعمر.

## العفوية والوعي

لئن أفاد استطلاع عام 1988 أن 97% يؤيدون م.ت.ف غير أن الشعب أوسع من الفصائل. ومنذ الشرارة الأولى بدس عمال جباليا وديناميات ذلك، يمكن الزعم أن الوطنية الفلسطينية هي المحرك والدماء التي تجري في شرايين الانتفاضة، سواء تجلت هذه الوطنية بالعناصر المنظمة أو غير المنظمة. وفي المواقع الانتفاضية كما في قلاع الأسر، كان على الدوام ثمة عناصر منظمة وأخرى غير منظمة. ولكن ما كان للانتفاضة أن تستمر سنة وسنوات لولا القوى المنظمة المنتشرة في اللجان الانتفاضية وقيادات "قوم" المناطقية والمحلية والمركزية، بل والكثير من المهام التي لا تقوى على تأديتها سوى قوى منظمة.

كان الإضراب الجماهيري العام هو المظهر الرئيس يليه المتاريس ولجان الأحياء ولجان الحراسة. والإضراب تقرره "قوم" ويخترط فيه المتاريس ولجان الأحياء والعنف الشعبي والتعليم الشعبي وحديقة المنزل والإعلام والتظاهرات، كل الناس مؤطرون في فصائل وغير مؤطرين. ويجوز القول أن الفصائل كانت المحرك الصغير

الذي يضح الطاقة في المحرك الكبير. وفي استبانة شملت عينة من 300 في أحد قلاع السجن تبين أن 80% عناصر رسميين ومن بين 125 شهيد لأحد الفصائل كان 75% منهم عناصر منظمة.

## علاقتهم.ت.ف بالانتفاضة

قيل فيما قيل أن الانتفاضة جاءت لإنقاذ م.ت.ف التي تراجع وزنها بعد حروب عام 1982 والمخيمات وطرابلس وصولاً إلى تهميشها في مؤتمر قمة عمان، وقيل أيضاً أن النداءات كانت تصدر من تونس. وأقل ما يمكن قوله في هذا الكلام أنه قراءة إسقاطية أو أكاديمية منفصلة عن الفعل الانتفاضي. أما على الأرض فكانت الأمور، وبإيجاز على النحو التالي:

شهد الوطن المحتل تصاعداً في قعية المستعمر في سنوات الثمانينيات مثلما شهد تصاعداً في أعمال المقاومة وتوسعاً في القاعدة المؤطرة. سواء تراجع وزن م.ت.ف أو لم يتراجع، فالأرض المحتلة غدت "مرجلاً يغلي" كما جاء في أحد التعميمات، وبات فعلاً على المحك. بل ولو كانت إمكانات م.ت.ف أفضل كما كان عليه الحال قبل حرب عام 1982 لأمكن إسناد الانتفاضة أكثر.

وبديهي أن فصائل المقاومة في الوطن هي امتداد بنيوي لفصائل المنظمة خارج الوطن، والداخل لم ينظر لنفسه كجسم منفصل قط، ولكن المعركة كانت معركته أولاً فهو في الأتون ويحتم على صدره استعمار إذلاي وليس اقتلاعياً فقط، وهذا تكرر في الانتفاضة الثانية أيضاً.

ويمكن الجزم أن العوامل الداخلية هي العامل الحاسم بما يذكرنا بطرفة ماو تسي تونغ عن البيضة البيولوجية والبيضة الحجرية ودفء الفرخة. ولكن من المقطوع به أن الخارج كان سنيدياً، وإن لم تبلغ المسيرة الفلسطينية بعد مرحلة أن يضرب الشعب بقبضتين في نفس الوقت. فقد قاتلت البندقية في الخارج مع إسناد جزئي من الداخل، وانتفض الداخل مع إسناد محدود من الخارج، أما انتفاضة عام 2000 فقد تركزت في الضفة الفلسطينية ليخوض قطاع غزة ثلاثة حروب اعتماداً على نفسه لاحقاً. وهذا خلل استراتيجي بنيوي لم يرتق، علاوة على ما نتج عن "أوسلو".

وعن نداءات الانتفاضة فهي صناعة محلية، وهي استجابة لحركة وإحداثيات الاشتباك الانتفاضي ولا يمكن أن تكون إلا كذلك سيما وقد انتقل مركز ثقل القضية إلى الداخل في تلكم السنوات.

### هل يمكن إعادة إنتاج الانتفاضة؟

لقد غلب على الانتفاض الكانوني الطابع الشعبي مع دور محدود للسلاح الناري، فيما غلب على انتفاضة عام 2000 السلاح الناري مع دور أقل للمشاركة الشعبية. وكانت للانتفاضة الأولى قيادة موحدة وبرنامج شهري وشعار ناظم بعكس الثانية، ناهيك أنه لم يكن ثمة سلطة عليها التزمات أو سلوية بعكس اليوم.

وعرفت المسيرة التحررية الفلسطينية كل النماذج، من نضالات سرية إلى علنية، إضرابات وتظاهرات إلى انتفاضة، من حرب عصابات إلى حروب كبيرة، من نضال ناعم وإعلامي ونظري ونقابي إلى مفاوضات.

أما الشروط الجديدة، فاللوحة مركبة، فوصلت "أوسلو" نهاياتها مع استقرار أهم مركب من مركباتها، مسار تسويوي استمر ربع قرن واليوم تجزأت أوهامه، سلطة انقسمت إلى سلطتين متباعدتين نهجاً وخياراً وخط سير، قانون قومية عنصري يهدد بتطهير عرقي بعد طول لهاث وراء مواطنة متساوية، دينامية تفكيكية للشعب ومخطط معادي اجتثاثي يدفعه لتوحيد صفوفه ومصيره، صفقة قرن إقليمية إحدى حلقاتها تصفية القضية الوطنية وصمود محور المقاومة وانتصاراته واحتمالات نشوب حروب جبهوية وإقليمية، صراع دولي جيو سياسي وتجاري يتفعل من محاولات ضبطه، سقوط مشاريع محافظة وداعشية وقطرية بما يمهّد لانطلاق مشروع نهضوي عربي. ففي اللوحة عناصر كبح وعناصر حفز، ولكن عناصر الحفز أقوى. والكلمة الفصل هي في القدرة على الاستجابة.

والوطن المحتل بدوائره الثلاث مقبل على لحظة الحقيقة بالإجابة عن سؤال الوجود وسؤال الحرية وسؤال المستقبل التي تتجمع في سؤال واحد: ما العمل؟ ولن يطول به الوقت للإجابة عن السؤال بما يستولد نموذجاً هو مزيج من كل تجارب الأمس، يحايثه تجديد في حركة التحرر أداءً وأدوات، "إذ تأتي لحظات في التاريخ إما أن تتخرط فيها أو تبقى في معزل" (إنجلز). وسوف تتأثر الجدلية الفلسطينية والخيارات الفلسطينية ليس بعواملها الداخلية فقط وإنما أيضاً بالجدلية الإقليمية والعالمية.

## هل يمكن أن تتجدد حركة التحرر الفلسطينية؟

هذا سؤال كبير ويحتاج إلى بحث أكاديمي جدّي، أما في محاضرة فيمكن أن تكون الإجابة صحفية. ببعض المجازفة يمكن رصد ثلاثة تيارات في حركة التحرر الفلسطينية: التيار "البرجوازي" بقيادة فتح بما ينطوي عليه من مكونات. والتيار اليساري بمختلف أطيافه والتيار الإسلام السياسي المقاوم وبشكل أخص حماس والجهاد. ويبدو أن السؤال يستهدف أولاً التيار الأول والثاني في إطار منظمة التحرير الفلسطينية، وذلك لأن التيار الثالث عمره نحو ربع قرن تقريباً وجاء تجديداً وتجاوزاً لحركة الإخوان المسلمين وما يتصل بها. فحماس والجهاد فصيلان مقاتلان على عكس ما كان عليه الإسلام السياسي قبل انتفاضة أواخر الثمانينيات. وللتجديد هنا معنى يجب توضيحه لاحقاً.

أما منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها من يسارٍ ويمينٍ وقوى وسطية قادت المسيرة النضالية عقوداً وأعادت الاعتبار للقضية الوطنية وخاضت معارك كبرى، فهي من أصابها الخلل بل الإخلالات ما بين التوقيع على أوسلو وما نتج عن ذلك وما بين تفكك وانحسار القوى اليسارية وتراجع مستوى أدائها وقيادتها، وما أصاب فتح من تحولات نقلت نهجها من خندق إلى خندق وما تعرض له من نهش يأتيها من يمينها، فهي قد أصبحت اتجاهات متناقضة تضم من الأقصى إلى الأقصى، أي من الفدائي الذي يُحکم بالمؤبد إلى الذي يَعْتَقِل المقاوم.

جاءت فصائل المقاومة، وتحديداً بعد هزيمة حزيران 1967، كولادة جديدة ونفياً ارتقائياً للعمل السياسي الفلسطيني السابق وبشغف عالٍ وتضحيات جبارة راكمت وراكمت في كافة الحقول لاسيما البنى التنظيمية والقتالية مستفيدةً من الدراسات الأكاديمية والدورات التدريبية في البلدان الاشتراكية. ولكن غياب القيادة الجماعية وتكريس الزعاماتية والزبائنية وعدم المحاسبة الصارمة على الأخطاء والمكثبية المتفشية والنقص في التجديد وسوى ذلك، شكل بيئةً "لأخطاء وخطايا" (د. جورج حبش)، إلى درجة الذهاب إلى مدريد فيما الانتفاضة مشتعلة في الوطن المحتل.

وبدل الإبداع والابتكار كصفتين لازمتا ولادة فصائل المقاومة حلت النمطية والكسل وندرة الإبداع للتغلب على مصاعب العمل والظروف. ولم تستطع ديناميكيات الانتفاضة الأولى التي نقلت الوطن المحتل من مرحلة إلى أخرى ثويراً م.ت.ف. فتنامت عناصر الشيخوخة، ليس العمرية فقط بل والقدرة على المبادرة والأفكار الخلاقة وصولاً إلى الضربات الاعتقالية في الوطن بما أضعف الشرط القيادي وتراجع القدرة على السيطرة.

والضربة الكبرى كانت اتفاق أوسلو الذي أصبح مرحلة لها استحقاقاتها ونتائجها وما أصاب اليسار لا سيما الجبهة الشعبية من تفكك وتراجع. هنا صعّدت أسهم حركات الإسلام السياسي التحرري وباتت اليوم تقترب من نصف الخارطة لا سيما بعد العدوانين الكبيرين على غزة في عام 2012 وعام 2014 حيث قادت حماس والجهاد المواجهة وأثبتتا ندية وإمكانية ردعية رغم الاختلال الجذري في ميزان القوى العسكري.

ولضبط الإجابة عن السؤال يتعين استخلاص معايير محددة لحركة التحرر يجري التجديد لخدمتها وخدمة عملية التحرر.

بإيجاز:

(1) التثبيت بالهدف الوطني بتحرير فلسطين وحل الصراع جذرياً وديمقراطياً بصرف النظر عن التفاصيل هنا، ذلك أن الرؤى متباينة حول ما بعد التحرير وطابع الدولة وحل المسألة اليهودية ومصير المجتمع اليهودي وارتباط فلسطين بمحيطها العربي.

(2) البرنامج السياسي الذي يستجيب للمعطيات ويخدم تحرير فلسطين إذ "لا ينبغي أن ينتهك التكتيك الاستراتيجية ولا أن تنتهك السياسة الأيديولوجيا" (د. جورج حبش). واستيعاب حقيقة أن المشروع الصهيوني هجومي ولا يسعى لحل سياسي يعيد الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية. فليس ثمة حل سياسي قريب، والأمر يتطلب أول ما يتطلب النهوض بالنضال الوطني لتغيير ميزان القوى.

(3) العلاقة الحوارية والتحالفية بين القوى التحررية فلا مجال للهيمنة أو الإقصاء أو التهميش. وكل محاولة من هذا القبيل إنما تفضي إلى تمزيق وحدة الصف. وهذا يتطلب انتخاب وتشكيل مجلس وطني فلسطيني يمثل



فيه كل تجمعات شعبنا من جهة والتمثيل النسبي لكل قوة بناء على حجمها الانتخابي أو التوافق على ذلك من جهة أخرى. فالجلس الوطني تجميعي نخطوة نوعية في طريق إعادة بناء م.ت.ف على أسس ديمقراطية، بحيث تتسع للتحالف والتفارق، فهي وحدة متناقضة والوصول للقواسم المشتركة الممكنة سواء كانت ميدانية أو سياسية. وهذا يقتضي تقبل التعددية السياسية والثقافية قولاً وعملاً بعيداً عن التكفير والتخوين واحتكار الحقيقة.

(4) تشمل التعددية التعايش مع المتناقضات والحق في اتباع نهج كفاحي واعتماد خيار المقاومة بأشكالها وبمناى عن التفریط والتطبيع والخضوع للإملاءات والاشتراطات العادية أياً كان مصدرها، وصولاً إلى إغلاق البوابات على الوصاية الخارجية والعبث بالجبهة الداخلية، واعتماد الحوار والنضال النظري لتسوية التناقضات الداخلية بعيداً عن لغة السلاح والعنف والقمع.

(5) الحرص على البعد القومي، فالمشروع القطري العربي استنفذ طاقته التقدمية منذ السبعينيات، والاستمرار فيه أفضى إلى توقيع السادات على "كامب ديفيد" تلاه ذبح المقاومة في بيروت في عام 1982 وتوقيع أوسلو ووادي عربة، والآن التطبيع مع عدة عواصم عربية، بالإضافة إلى دينامية دموية مرعبة لتدمير العراق وسوريا وليبيا واليمن واستنزاف مصر والسودان؛ أي تدمير الأمة العربية ومقومات الحياة.

ودون مشروع عربي موحد لمواجهة الهجوم الإمبريالي - التكفيري - الصهيوني - الرجعي فن الصعوبة بمكان إيقاف دينامية تدمير الأمة العربية. وهناك بوادر عربية تتجاوز القطرية يمكن البناء عليها لتقوية هذا المسار الذي يندرج في إطار الممكن التاريخي. فن قبل كانت فرنسا 72 ولاية وأكثر من ذلك إيطاليا وأقل منها ألمانيا، ولكن المصالح الحيوية وصعود قوة توحيدية نجحت في بناء الدولة القومية.

كما يجوز إقامة أوسع جبهات التأيد العالمي للنضال الفلسطيني؛ فلسطين باتت ضميراً للإنسانية جمعاء.

وبناء على هذه المحددات يجري تقييم أي مركب سياسي أو اجتماعي أو مدني وإقامة التحالفات والاصطفافات بناء على التقاطعات، آخذين بالحسبان مشاريع جديدة ضد القضية الفلسطينية وفصائلها التحررية، الأمر الذي يستدعي استنفار الجميع.

لئن تعرض القسم الأول للمحاور التي يتعين التثبيت بها لتجديد حركة التحرر الفلسطينية، فهذا القسم يتطلع للإجابة عن سؤال كيف؟

تشير الكثير من تجارب الثورات الاجتماعية والثورات التحررية، سواء كانت الثورة الفرنسية عام 1789 أو الثورة الروسية عام 1917، أي ثورة من هم أسفل ضد من هم أعلى، وهما أعظم ثورتين اجتماعيتين في القرن الثامن عشر والقرن العشرين، فالأولى دشنت الدولة القومية البرجوازية والثانية دشنت عهد التحول الاشتراكي. أو الثورة الفيتنامية والثورة الجزائرية، وهما ثورتنا وطنيتان ضد الكولونيالية، الأولى بقيادة حركة يسارية و الثانية بقيادة حركة قومية، وغيرها العديد من الثورات. حيث يمهّد الفكر للسياسة، أي كان هناك فكر تنويري راكم وراكم على امتداد قرنين ما قبل اشتعال الثورة الفرنسية، وفكر اشتراكي راكم وراكم على امتداد عقود ما قبل اندلاع الثورة الروسية، كما فكر تحرري استقلالي مهد الأرضية لجهة التحرير الجزائرية وفكر تحرري خليط من فكر قومي واشتراكي مهد لحزب الشغيلة الفيتنامي (الحزب الشيوعي لاحقاً).

وبالتالي كان ثمة انسجام بين السياسة والأيدويولوجيا وبين التكتيك والاستراتيجية، فلم يكن ثمة مقابضة بين المرحلي والنهائي أو أن يحل الجزء محل الكل. فالتكتيكات كثيرة التي عرفتها الثورة الفرنسية والثورة الروسية ولكنها كانت خطوات متسقة مع هدف إطاحة النظام وعلاقات الإنتاج، وتكتيكات كثيرة عرفتها الثورتين الجزائرية والفيتنامية، ولكنها ارتبطت بنبؤياً بدحر المستعمر وأدواته جذرياً.

صاحب ذلك على الدوام ثقافة جديدة سواء كانت تحررية أو تحريرية، ارتبطت في النهايات بالفكر الرأسمالي أو الفكر الاشتراكي، فقيادة ثورة وقيادة مجتمع تستلزمان وجوباً الإجابة عن أسئلة كثيرة فلسفية وتنموية وسياسية واجتماعية وصولاً إلى كيفية بناء المرحلة الجديدة والإنسان الجديد، وبالتالي كان للمثقفين دور كبير، سواء قيادات ثقافية (مونتسكيو، بليخانوف) أو قيادات سياسية مثقفة (لينين، هو تشي مينه...).

أما في الحالة الفلسطينية فالأمر كان محتزلاً ومجتزأً، فالنكبة (التطهير العرقي عام 1948)، استدرجت ردود فعل فورية بنشوء حركات سياسية غلب عليها الطابع السياسي، أما ثقافة المجتمع المدني من نقابات ومسارح في حيفا ويافا فقد تبددت مع إقتلاع الشعب وتفكيك نسيجه الاجتماعي.

والتوسع الكولونيالي عام 1967، استولد حركات مقاومة تفاوت اهتمامها وإنتاجها الثقافي، وإن طغت عليها مقولات التحرير والعودة والقتال، حتى إن الجاذب للعمال والمرأة كان البندقية لا المسألة الطبقيّة أو التحرر من البطيركية.

بداية، ليس ثمة نمذجة أو سحبا ميكانيكياً للثورات، فهناك خصائص قومية لكل ثورة، غير أن ذلك أفضى لنتائج جوهرية في الحالة الفلسطينية، أهمها عدم فاعلية مقولة غرامشي "هيمنه ثقافية فهمينه سياسية" المستقاة من الثورتين البرجوازية والاشتراكية، بل من مشروعات العقائد القديمة في جنوب شرق آسيا والشرق الأوسط، وجاء التزام العقل القيادي الفلسطيني، رغم الفوارق، هساً بالفكر والبرامج. وليس صعباً ملاحظة أن يكون الخط السياسي نقيضاً للبرنامج التحرري، وأن يختزل الوطن في جزء من الوطن، وأن تنتقل الرؤى الفكرية من أقصى العداء للإمبريالية إلى أقصى الارتهان للإمبريالية، ومن أقصى مقولات الفكر الاشتراكي إلى الترويج لمقولات الفكر الليبرالي البرجوازي، ومن ومن ...

وهذه النقلات في محصلتها لم تحصد براغماتية إيجابية إلا لبعض النخب، إلى درجة أن فقدت القوى التحررية الرابط الفكري والناظم الجماعي وصولاً إلى انكفاء غالبية من صنعوا بتضحياتهم مسيرة الكفاح الوطني، وما أفضت إليه الصيرورة من حراك في الخارطة السياسية الفلسطينية حيث اضطربت قوى وتهمشت قوى وصعدت قوى جديدة.

عندما تعجز القوى القديمة عن القيادة وتفشل القوى الجديدة من الحلول محلها، يدخل المجتمع في مرحلة مرضية. أما في المشهد العربي بما فيه الفلسطيني، فقد أنتج طبقات تكفيرية ودموية لها بعض التأييد في البيئة الفلسطينية، كما نزعات كوزموبوليتية، تخضع للإملاءات وتبث اليأس والاستهلاكية ومفردات الليبرالية الجديدة في صفوف الشعب وثقافته.

وعليه، فتجديد الحركة الوطنية يبدأ بتجديد فكرها وثقافتها، بما يستجيب للأهداف التحريرية، وما تتطلبه من رؤى سياسية وتنموية وقيم ديمقراطية ونظرات علمية تتجاوز مخلفات القرون الوسطى، وبالتالي ربط الثقافة وفعاليتها والتعليم ومخرجاته بالعملية التحررية وصرها جميعاً في مشروع واحد صمودي وتحرري في كافة

المجالات والواقع الفلسطيني الجزأ والمنقسم على نفسه والذي تنخره التناقضات وتنفاقم فيه العضلات هو بيئة ملائمة لمشروع ثقافي تحريري.

وتأسيساً، فالتجديد يبدأ من هنا.

ولكن هل الحيز الثقافي يغرد منفرداً؟ لا، بل لتسليح وتوجيه الحيز السياسي وتعزيزه، بخلفيات نمتقن قراءة التناقضات وطابعها ووسائل حلها، فالحقل الثقافي يرشد العقل السياسي ويتبادل التأثير والتأثير مع الممارسة في إطار براكسيس لا يتوقف، فالثقافة تُوجّه السياسة تحسّم، وهما متواشجتان ووجهان لعملة واحدة.

ولأن السياسة صراع، فهي لا تتحقق دون أدواتها، وصيغها وفيها تتحد الثقافة والسياسة معاً.

ولم يعد سراً أن حركة التحرر الفلسطينية، بكل أطرافها، شعباً وقوى منظمة، لم تحرر وطناً ولم تحقق سيادة، رغم مسيرتها الكفاحية وسبل التضحيات، وألا تنتصر أمر يمكن الوقوف - بحثياً - على أسبابه، إذ ليس قدراً تاريخياً أن تنتصر في هذه المرحلة، أما الذي لا يمكن التساهل حياله فهو أن تعجز عن حماية مكتسبات وتراكمات النضال وأن تعجز عن حماية وحدة الشعب على قواسم مشتركة، وبدل تسليح الناس بالأمل يجري تعبئتهم بالإحباط، وبدل أن تكون قوة جاذبة سيما للأجيال الشابة (70% في الضفة وغزة لديهم استعداداً للهجرة حسب أحد الاستطلاعات) تصبح قوة طاردة، وعضواً عن إنتاج فيض من الإبداعات الثقافية وترويج النظريات العلمية التي ترق بالوعي، تصاب بالتحجر والمرواحة في المكان إلى درجة تكريس منهاج مدرسي حفطي وتلقيني تجاوزه الزمن، بل وثمة مساحات تفخر بأنها تصادر حرية العقل والحق في الاختيار والمواطنة المتساوية وصولاً إلى تغليب القنوية السياسية على الوطنية الجامعة، وتبرير وتجميد الفشل والإخلالات وعدم الثقة بالشعب وقدراته. فالهزيمة الثقافية من أشد الهزائم خطورة.

وكون السياسة صراع، صراع إرادات ومصالح وأهداف متصادمة، بل والثورة هي فعل المستحيل وتحويل اللاممكن إلى ممكن تاريخي، نقضاً للمقولة الليبرالية "السياسة فن الممكن" التي يقصد بها الخضوع لميزان القوى، لا يمكن ممارسة السياسة "كفعل مجتمعي شامل" إلا بتوفير الإرادة المنظمة "الكلمة التاريخية التحررية".

## كيف يمكن تجديد حركة التحرر الفلسطينية؟

لا شك أن ثمة تفاوت بين فصيلة وأخرى، حزب وحزب آخر، في الساحة الفلسطينية، غير أن التجديد يبدأ ولا يتحقق إلا من الشرط القيادي، والشرط القيادي ليس لعبة أخلاقية بتبديل أسماء بأسماء أخرى في المستويات - الألقاب المركزية، إلى درجة أن باتت معظم هذه الأسماء غير مستهدفة من الكولونيالية، فيما تحظى بنقد غير قليل من الأوساط القاعدية والكادرية والشعبية التي تستهدفها الكولونيالية، وإنما يقصد بالشرط القيادي تأمين القدرة على إعادة البناء والنهوض والتجديد الفكري والسياسي، أي أن يتوافر لدى هؤلاء الشرطين النظري والعملي بإنتاج أدوات ممارسة الفعل التحريري الذي يتجاوز الحالة الراهنة المأزومة، ويكفي إحالة الوعي على بدايات حركة التحرر، ومحطاتها الناجحة كما روايات النجاح لدى تجارب ثورية أخرى للإمسك بالمقاربة المطلوبة والممكنة.

فند أفلاطون في المدينة الفاضلة الذي دعا أن يكون الحكام من الفلاسفة، أي من المثقفين باللغة المعاصرة، مروراً بكل أصحاب الرسائل الكبرى من ديانات وعقائد قديمة، وصولاً إلى أعظم ثورات القرون الأخيرة، يتميز القادة بالثقافة والإنتاج الفكري، ومنهم من مهد للفعل السياسي ومنهم من قاد الفعل السياسي التغييري مباشرة. وقد تلازم ذلك على الدوام ببناء الحوامل التنظيمية لمشاريعهم التغيرية، أي القوة الاجتماعية، التحالف، الكلفة التاريخية، القدرة على ممارسة السياسة وإنجاز التغيير.

أما حينما فقدت الأفكار حواملها على طريقة الأفكار النهضوية العربية لمحمد عبده والكواكبي والأفغاني وشميل، فلم تتحقق العملية التغيرية ولم ينفك المجتمع العربي يواجه أسئلة النهضة، الأمر الذي حصل عكسه في فرنسا وروسيا والصين وحتى الهند وأمريكا اللاتينية. فالقيادة ليست ألقاباً بل دوراً تاريخياً.

ومقاربتى تستبعد أن يقوم النسق الأعلى لحركة التحرر بالدور التجديدي كصيغ جماعية، أما تحاللات فردية هنا وهناك فيمكن أن يكون لها إسهاماتها، وتستبعد أن يحصل نفي ارتقائي، بلغة الفلسفة، بأن تقوم هذه الصيغ الجماعية بتركييم عوامل ولادة جديدة، على غرار ما حصل بعد هزيمة حزيران 1967، مثلما تستبعد ولادة جديدة من خارج القوى المنظمة على غرار حركة 26 تموز في كوبا التي أسسها فيديل كاسترو، أو حركة فتح

في بداياتها. فالقوى المنظمة رغم إخلالاتها لم تنفك الفاعل السياسي المتنفذ في الحياة الفلسطينية، فيما تطلبت ولادة جديدة تصطدم بعقبات ثقيلة متنوعة ذاتية وموضوعية لم تظهر مؤشرات قادرة على إختراقها.

ولكن مقاربتى لا تغلق الباب أيضاً، فالأساس الموضوعي للعملية الصراعية التحريرية قائم ومستمر، فثمة شعب وقضية ووطن وكولونيالية عنصرية إحلالية لا تخفي راديكاليته "دولة واحدة من البحر للنهر" (برنامج الليكود)، وهذا الأساس هو الذي استولد إرادة الصراع في العقود السابقة، وأكثر من 60 مشروع سياسي لتسوية (تصفية) القضية الفلسطينية لم يكتب لها النجاح، وهناك ما يحاك للشعب الفلسطيني لمرحلة ما بعد أوسلو (هذا يستحق وقفة منفصلة).

ورغم ضبابية المرحلة الانتقالية التي يمر بها الشعب الفلسطيني ثقافياً وسياسياً، ورغم سلبات هذه المرحلة، فثمة محور جوهري ينبغي الإمساك به والرهان عليه. إنه الشعب الذي تجاوز 12,5 مليون نصفهم في الوطن ونصفهم في الشتات، وإرثه الكفاحي الذي تراكم على امتداد العقود السابقة، والجيل الشباني الذي يعد بالملايين والأكثر تعليماً وتطلعاً للحرية والحياة الكريمة، والمشروع المعادي الذي يستفز الأحياء والأموات، فهذه العوامل وسواها تحرض على انبثاق إرادة تجديدية منبعها كل من يخترط فيها تجاوزاً للفئوية والأيدولوجيات الحفظية، وكل من لا يساوم على حرية الوطن وحرية المواطن مقابل منفعة هامشية ويعتصم بالتعاسة التي تجعله لا يستوعب المتغيرات فيصاب بالفشل ويعيد إنتاج الفشل اللحظي والمؤجل.

وللتيار الشباني الغاضب أهمية استثنائية، فلا مكان له والبطالة مستشرية في صفوفه من عمال وجامعيين ومخيمات، ويكاد المستقبل يرسم له أنشطه لا تترك له خياراً سوى أن يمتشق صليبه على ظهره. ومثلها تلازم ميلاد فصائل المقاومة برموز وقادة جاءوا تجاوزاً لمن سبقهم، فسوف تحتضن مقبلات السنين رموزاً وقادة يتخطون الراهن ومفرداته، فبمثل هذه التركيبة الكيميائية تتجدد حركة التحرر الفلسطينية.

والشعب الفلسطيني الذي رفض الحكم الذاتي الذي اقترحتة بريطانيا قبل نحو قرن، هو نفسه الذي أسس أول نقابة وأول صحيفة وأول حزب قبل نكبة فلسطين وهو نفسه الذي صنع الخارطة السياسية بعد النكبة واستولدت فصائل المقاومة المعاصرة.

وواهم من ينفي وجود الشعب الفلسطيني "أين هو الشعب الفلسطيني" (غولدا مائير)، فذلك "يعكس مأزق" (جدعون ليفي)، وواهم من يعتقد نفسه أكبر من الشعب الفلسطيني، ويتوقع أن يسكت على حشره في ملزمة تنفي حقائق التاريخ والجغرافيا ومتطلبات المستقبل، أو تصويره مجرد "قطعان من الرعاة والسقاة والكسالى والإرهابيين والجواري" الذين يمكن رشوتهم بفتات.

أما مطلب الحرية، حرية الفرد و الجماعه و الوطن، فهو محرك كل الثورات التحررية ومن المتعذر الإحتيال عليه، إن الشعب الفلسطيني مقبل على إنعطافه حاسمة تتزامن مع مواجهة المشروع التصفوي الجديد.

## سردية واستخلاصات: فلسطين على أبواب ولادة جديدة

مفيد التذكير بمقولة هيجل "أن طائر منيرفا لا يأتي إلا عند الغسق" التي يمكن تفسيرها أن الحكمة لا تأتي إلا مع غروب مرحلة وولادة مرحلة جديدة.

فبند ثلاثة عقود عرفت الساحة الفلسطينية ميلين، أحدهما دعا لاستثمار الانتفاض الكانوني في أواخر عام 1987 الذي امتد خمسة أعوام، فذهب لمؤتمر مدريد عام 1991، وميل اعتبر ذلك تمييزاً متعجلاً فيما المطلوب جعل الانتفاضة نمط حياة إلى أن يختل ميزان القوى ويستعصي التناقض فيرحل الاستعمار الاحتلالي دون قيد أو شرط.

"ومدريد" مهد لاتفاق "أوسلو" والتزاماته فانطفأت الانتفاضة ونشب انقسام عمودي بين أغلبية النظام السياسي الفلسطيني التي اختارت الميل الأول وأقلية لا يستهان بثقلها اختارت الميل الثاني دون قدرة على تعطيل مسار أوسلو الذي انتقل من اتفاق إلى مرحلة كان عنوانها الأبرز تشكيل "مجلس إداري للحكم الذاتي المحدود" أطلقت عليها الأغلبية الفلسطينية السلطة الوطنية، ولاحقاً الدولة الفلسطينية. وفي كلا الحالتين بقي الاحتلال العسكري جاثماً على صدر الشعب يعتقل وينكل ومشروعه الاستيطاني الكولونيالي تحول من زاحف إلى قافز وتهويد حقيقي للقدس الشرقية بعد توسيع حدودها من 3% من الضفة في العهد الاردني إلى 17% في زمن الاحتلال، وأغلبية يهودية استعمارية تناهز 260 ألفاً واعتبار شرقها وغربها بإجماع صهيوني عاصمة أبدية للدولة الاستعمارية. وفي مباحثات التسعة أشهر منذ أربعة أعوام وأكثر تم استبعاد الأغوار من أية مفاوضات، أي استبعاد 27% من مساحة الضفة الفلسطينية والتي تشكل سلاً غذائياً وخزاناً مائياً ومساحة لبناء مدينة ومطار. واستكمل الجدار غرب الضفة والذي ابتلع 13% من مساحتها، واخلزان المائي الاستراتيجي وأكثر من 200 موقع أثري.



وفي العقد الأخير عرفت الساحة الفلسطينية انقساماً جديداً ليس بين المناهضين لأوسلو والمنخرطين فيه، بل وتحركت بوصلة التجاذبات نحو صراع على السلطة والقرار الفلسطيني بين من يعتبرون أنفسهم القيادة الشرعية التاريخية بموروثها النضالي ومفخرة الصمود في بيروت عام 1982، وبين القوة الصاعدة التي تعاضم دورها ووزنها بعد أوسلو وتميز فعلها في الانتفاضة الثانية وارتقت لاحقاً إلى مستوى التصدي لثلاثة عدوانات كبيرة على قطاع غزة.

ولأن الفكر السياسي الفلسطيني انتقالي والمكونات الاجتماعية انتقالية لم تستقر ولم تكتمل الهوية الثقافية غير راسخة التخوم، ليس مفاجئاً أن تظهر التداخلات والتفصلات والانتقال من موقع إلى آخر على صعيد القوى السياسية أو الفكرية فتحول القومي المناهض للإمبريالية إلى مراهن عليها وينتظر الغيث من البيت الأبيض مندغماً في مقولات ليبرالية غربية، وأن يتحول اليساري إلى اشتراكي ديمقراطي منغمس في مقولات عن فصل السلطات وسيادة القانون وانتخابات التشريعي، وكان الوطن قد تحرر متناسياً مقولة ماركس "إياكم والمساومة على المبادئ، إياكم التنازل النظري" وكلمات الحكيم حبش "لا ينبغي أن ينتهك التاكتيك الاستراتيجية ولا أن تنتهك السياسة الإيدولوجيا" ومنظور لينين عن الحزب الثوري.

وهذا كله يعيدنا إلى بابلو فريري ومفردة التماهي. وأصبح الكثيرون من الذين تقدموا الصفوف وأنهكتهم سنوات السجن الطويلة مجرد رتبة وراتب لا يحصل عليهما إلا النخبة الطبقية المتخمة بمنافع أوسلو، وجرى تدوير الزوايا وتفاقت الإخلالات وعمّ الفشل وتبدد ما تراكم في سنوات الإنجاز، وكأن ما يحصل قدر تاريخي ورياح لا قدرة على صدها، في تطويق مدرّوس ولحاح لأي محاولة للتجاوز، كل ذلك بدافع ضيق الأفق وأوهام التسوية والمصالح الشخصية الصغيرة بما ينسجم مع كلمات أبو علاء المعري "يسوسون الأمور بغير عقل/ فينفذ أمرهم ويقال ساسة".

ولأن العمل السياسي الفلسطيني هو حلقة وسيطة بين العائلية والطائفية بارتباطاتهما التقليدية دون حرية اختيار وبين الحزبية ببرنامجهما وعضويتها الحرة التي تختار لم يكن صعباً تهيج "العواطف العامة" والظهور بمظهر المعتدلين، أما "المتطرفين" فسيف ديموقليطس ينتظرهم.

أشار غير استطلاع في السنوات الأخيرة أن أغلبية الجبهة لا تؤيد "أوسلو" وأكثر من نصف الشعب لا يؤيدون كل الخارطة السياسية الفلسطينية سيما في أوقات تراشق الاتهامات والإجراءات المتبادلة، وفي انتخابات عام 2006 لم يصوت أكثر من نصف الشعب، فثمة "كلمة تاريخية" لا تتساق مع الفاعلين في النظام السياسي غير أنها كلمة مبعثرة لا رابط فكري يجمعها. ولم يكن متوقفاً أن يصغي السياسي لصوت ثقافي نقدي تنويري أو ثوري، ذلك أن ما يسيطر على الوعي الاجتماعي والسيكولوجية الاجتماعية هو "النص المقدس" من جهة والزعامة السياسية من جهة أخرى فتعطل دور المثقف مثلها تعطل تأثير الكلمة التاريخية على القرار السياسي.

ومرحلة أوسلو قطعت سياق بدايات المجتمع المدني لاتحاد النقابات العمالية والحركة النسوية، والتمويل الأجنبي أفرغ بدايات التنظيمات الأهلية وجعلها منظمات غير حكومية بلا قاعدة شعبية. ولئن صرح الراحل الدكتور أنيس الصايغ "أن القيادة الفلسطينية حولت مركز الأبحاث إلى دكان" وأسهب الدكتور دراج في شرح تغويل السياسي وتبويت الثقافي، فرحمة على تلك الأيام إذ كان لها مركز أبحاث وثقافة نقدية ومركز إعلامي يقوده الشهيد أبو شرار. أما اليوم فالكثير من الضجيج والكثير من الورق المصقول والكثير من الموسيقى وفرق الرقص، والكثير من الجامعات والكثير من الصحف ولكن هذا كله مرهون بالعطايا الغربية دون أن يكون لها رابط جماعي أو هدف وطني ناظم.

وما يطغى على اللوحة السياسية للشعب الفلسطيني، سيما في الوطن المحتل، هو عناصر التفكك والتراخي والانحسار والاختناق والانقسام، وإن لم يرق إلى تصفية حركة التحرر الفلسطينية، إذ اشتد ساعد القاعدة القتالية في غزة دون أن تحف تدفقات وموجات النضال في الضفة، وإن غاب الترابط الوثيق بين الشطرين. أما في أراضي 48 ففي مواجهة الانزياح نحويمين اليمين وتفاقم العنصرية، تقارب الفلسطينيون وصولاً إلى قائمة مشتركة في انتخابات الكنيست، رغم الجدل حول ذلك، وحافظت لجنة المتابعة العليا على دورها، وكأنهم يقولون "علينا أن نمتشق صليبنا بأنفسنا بعد أن أدار "أوسلو" ظهره لنا."

وأمام انخفاض وتيرة المواجهة في الضفة تدرجت مبادرات فردية ونخبوية بين طعن ودهس وإطلاق نار ملأت السماء بين عامي 2015-2016 دون أن تتحول لخط رسمي للفصائل، بل وبعضها لم يحجب تحفظه عليها وإدانتها لها، فباتت معزولة غير قادرة على الاستمرار. ولما جاءت معركة البوابات الإلكترونية، تقدم الأهالي في العاصمة المحتلة في هبة شعبية لم تتخذ إلا بعد أن أحرزت أهدافها.

والمسيرة الفلسطينية المعاصرة عموماً عرفت في محطاتها الأساسية الضرب بقبضة الداخل مرة وقبضة الخارج مرة. فقد اشتد ساعد المقاومة في الخارج بين أعوام 1967-1987 بينما كانت قبضة الداخل ضعيفة فيما عدا تجربة غزة في سنوات الاحتلال الأولى بعد عام 1967، واشتدت قبضة الداخل في سنوات الانتفاضة الكبرى 1987 فيما كانت قبضة الخارج مغلولة ومشتتة بعد حرب بيروت عام 1982، وعن أراضي 48 فقد ارتفع منسوب المواجهة الوطنية بعد يوم الأرض عام 1976 ولكن في إطار من الخصوصية التي تربطها خيوط واهية ببقية ساحات المواجهة.

والجديد بعد أوصلو أنه خلق أولويات متناقضة للتجمعات الفلسطينية. ولما نهضت الضفة وتعرضت لاستباحة في سنوات "الانتفاضة الثانية" كانت وتيرة المواجهة في غزة منخفضة إجمالاً، ولما خاضت غزة ثلاثة "حروب" (2008 و2012 و2014) كانت الوتيرة باهتة في الضفة، وفي الحالتين تضامنت لا أكثر الفاعليات الفلسطينية في الساحات الأخرى.

لم تألف المسيرة الفلسطينية الضرب بكل القبضات دفعة واحدة، فالإرادة الوطنية حية في كل الساحات، تحبو وتنبأج، يتفاوت فعلها بين ساحة وأخرى ولكنها في المواجهات الكبرى غير موحدة.



## صفحة القرن توحد الإرادة الفلسطينية

صحيح أن الغموض يعتور هذه الصفقة، ولكن ما تسرب منها كافٍ لإبراز لاءاتها (لا للانسحاب إلى حدود 67، ولا لعودة اللاجئين، ولا للقدس، ولا لسيادة فلسطينية، ولا تفكيك للمستعمرات الكولونيالية)، ونعم للقدس موحدة، عاصمة أبدية لإسرائيل، ونعم لسيادة الإسرائيلية من البحر إلى النهر، ونعم لسلطة فلسطينية على السكان تضمن أمن الإسرائيلين سواء اتحدت أم لم تتحد. وهناك تقولات عن كونفدرالية إسرائيلية - أردنية - فلسطينية على أن تكون فلسطين كياناً وليس دولة، عاصمتها أبو ديس. وصفقه القرن تستهدف حركة التحرر العربية والإقليم إجمالاً.

وإعلان ترامب أعقبه سلسلة قوانين وقرارات إسرائيلية بإعدام المقاومين الفلسطينيين وبسط السيادة الإسرائيلية على مستوطنات الضفة وتحويل وزير الداخلية ترحيل أي مواطن في القدس والجولان لا يثبت ولاءه للدولة، وفي الطريق فتح ملف البناء غير المرخص لنحو 25 ألف شقة فلسطينية في القدس وأكثر من 35 شقة كأملك غائبين، وقانون "إسرائيل دولة لليهود" بما يمهد لتطهير عرقي لفلسطيني 48.

ويمكن القول أن إعلان ترامب قد أسقط مشروع التسوية الجارية ووحّد الشارع الفلسطيني وقواه السياسية والمجتمعية على قاعدة رفضه وإغلاق مسار المفاوضات عبر الوسيط الأمريكي، وعلى التحرك الميداني كما أنه صدم القيادة الفلسطينية التي راهنت ربع قرن على تسوية تفضي لدولة.

وشعبياً اشتعلت سلسلة فعاليات وحركات احتجاجية في الوطن والشتات وعواصم عربية وإقليمية وعالمية. ويمكن الاستنتاج أن المواجهة في طورها الأول، وأنها أقرب لمنشآت تعكس غلياناً واحتجاجاً، ولكن هناك محركات تكفل استمرارها وتدفعها للتوسع والانتقال لطور أعلى ولو بعد حين. فمن جهة ثمة إرادة فلسطينية موحدة، نظاماً سياسياً وشارعاً. فللقدس مكانة خاصة دينياً وقومياً إلى درجة لم يجزؤ صوت فلسطيني واحد أو عاصمة عربية أو إسلامية الترحيب بإعلان ترامب، وهذا حال مجمل عواصم الدنيا، فلم يؤيد ترامب سوى إدارته وحكومة نتنياهو، بما أصاب الدبلوماسية الأمريكية بالعزلة في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة. ومن جهة ثانية جاء إعلان ترامب كزأس حربية لإنهاء المسيرة التحررية الفلسطينية وتصفية القضية الوطنية، وهذا حشر الموقف الفلسطيني أمام خيار واحد: المواجهة.

أما الذهاب للمحافل الدولية والتفتيش عن راعٍ للتسوية (لجنة دولية روسية أو صينية أو أوروبية أو أمريكية...) فهذا جيله قصير، فنتنياهو قادر على قول لا وأعلن أثناء زيارته للهند "لا يوجد غير أمريكا وسيطاً"، وأمريكا قادرة على استخدام الفيتو.

السياسة الإسرائيلية صريحة ومعلنة، وصفقة القرن نسخة منها وتساوق معها، وجوهرها برنامج الليكود "بسيادة إسرائيلية واحدة من البحر إلى النهر" وهناك في حكومة نتنياهو من يقف على يمينه ويدعو للترانسفير، دون أن ننسى أن الليكود "رفض أوسلو" ولم يصوت له في الكنيست وعلى امتداد المفاوضات رفض مجرد "تجميد

الاستيطان،" فما بالكم بوقفه وتفكيكه للمستعمرات وإلغاء مظاهر الاحتلال الأخرى كشرط بنيوي لإقامة سيادة فلسطينية!!

والشعب الفلسطيني الذي خدرته وعود وقيادة أوسلو ربع قرن بات محصناً اليوم ولن تنطلي عليه أية أوهام، وثمة مثل فلسطيني يقول "اللي يجرب المجرب عقله مخرب" الأمر الذي ينعكس في كلمات المجلس المركزي وتوصياته بصرف النظر عن إمكانية تنفيذها. وموقف الشارع الفلسطيني وقوى وازنة على يسار المجلس وما تخض عنه، فالشعب يشاهد بأه العين ويومياً الوقائع التي تفرضها سلطات الاحتلال والإجراءات التي تمارسها، وقد وصل منذ زمن إلى نتيجة مفادها أن "أوسلو" انتهى وحقيقته جلية.

وهنا ينبغي الإشارة إلى التفاوت في الساحة الفلسطينية، بين القوى التي تدعو لمغادرة أوسلو وسحب الاعتراف وإلغاء اتفاق باريس ووقف التنسيق الأمني وبالتالي الانتقال من مربع التسوية إلى مربع المقاومة، والقوى التي تبحث عن وسيط دولي دون مغادرة العملية التسوية وبالتالي تعليق أو تجريد ما ترتب على أوسلو.

وهذا ينعكس بالضرورة على فاعليات المواجهة، فالفريق الأول ينظر لها كطور أول يتعين الانتقال لأطوار أخرى وصولاً إلى عصيان أو انتفاضة شعبية، فيما الفريق الثاني يريد ضبطها ضمن سقف منخفض (النضال الشعبي السلمي) وهو غير فعال وصولاً إلى توظيفها في التحرك السياسي سواء في المحافل الدولية أو المساعي التسوية اللاحقة.

وانسجاماً مع التوجه التسويبي، جاء قرار المجلس المركزي في الأمس (تحويل السلطة إلى دولة) دون إلغاء حاسم لأوسلو واستحقاقاته. وانخلل الجوهرى هنا أن الموقف الفلسطيني برمته لم يرتق إلى مستوى مواجهة التصعيد الهجومي للمخطط المعادي الاستعماري الذي يستبيح فلسطين شعباً وأرضاً وعاصمة، ويعلن جهاراً نهراً "أنتم قضية ثانوية"، ولا يخفي مسعاه لإقامة محور أمريكي - إسرائيلي - سعودي لمواجهة إيران ومحور المقاومة، أما القدس فيمكن استبدالها بأبو ديس!!

ومن جانب آخر يتعين الإدراك أن النضال طويل والاستعمار ليس على أبواب الرحيل لا من الضفة الفلسطينية ولا من سواها. واتصلاً بذلك، أليس مشروعاً التساؤل: ألم يقض إعلان ترامب وسياسات فرض الأمر الواقع الاحتلالية على أي فرصة لشعار الدولتين، وعلى الأقل لسنوات، ويمهد لنتيجة واضحة هي دولة أبارتهايد أو

تحرير ودولة ديمقراطية في عموم فلسطين؟ بما يتطلبه ذلك من عملية نضالية تراكمية تجسر التناقض بين ميزان القوى الحالي وأي هدف سياسي استقلالي أو تحريري.

مهما بلغت الخرائب في الساحة الفلسطينية، فأية دوائر لا يمكن أن تتجاوز مع إعلان ترامب أو صفقة القرن، مهما ساندتها الضغوط والإغراءات، أي العصا والجزرة، سواء كانت أمريكية أو إسرائيلية، فهذه الدوائر من المستبعد أن تحصد شرعية شعبية، ذلك أن الوطنية الفلسطينية فوّارة ومدوغة، ومنسوب الوعي التحرري في ارتفاع، والخرطة الفلسطينية شارعاً ونظاماً سياسياً بات على دراية بما ينتظر القضية الوطنية من مخططات تصفوية في العمق، وذاكرة الشعب حية بما أصاب فلسطين من تطهير عرقي عام 1948 وشيء مشابه عام 1967، ناهيك عن ثقل قوى المقاومة التي لا يمكن ثلم نصلها سواء في الداخل أو الخارج.

وجدير ألا ننسى أن الفوارق قد تآكلت بين خصائص 67 و48 والشتات، فالشعب في كيانه الوطني مهدد من ناحية الجوهر، ومصيره على كف عفريت، بين التطهير العرقي والتوطين والتشتيت، والرجوع لوثائق الخارجية الإسرائيلية بعد النكبة بأعوام ("الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض") يؤشر على حلم يستوطن العقل الصهيوني.

فما معنى محاولة فرض شرط الاعتراف بدولة يهودية وما معنى أن يتجاهل أو سلو الجماهير الفلسطينية في أراضي 48، وما معنى أن تطل نعمة التوطين بين الوقت والآخر وتكون جزءاً من الضغط على عواصم عربية، وما معنى بسط السيادة الإسرائيلية على الضفة وخنق قطاع غزة، وما أهداف الدينامية التفكيكية للشعب والخرطة والحقوق التي تحايثت مع أو سلو وبلغت مستويات تفتيتية للتجمعات الفلسطينية ومكوناتها، ألا يصب ذلك كله في نفس الطاحونة؟! ألا تضعف هذه العملية الجهنمية الروابط الجماعية للشعب والتضامن الجمعي للشعب بغية شطب النضال التحرري والحقوق الوطنية على حد سواء؟

لكن على الضفة المقابلة بقيت روح الشعب تسري في شرايينه وكفاح الشعب لم ينطفئ، وقد تظهر بأشكال عديدة "السياسة ممارسة مجتمعية شاملة" (ماركس)، تملو وتيرته في المنعطفات والمعارك الكبرى. وثقافة المقاومة والانتماء للهوية التحريرية جدار عالٍ يتعذر هدمه رغم الفجوات والتشققات ويمكن القول أن الجدلية حامية الوطيس التي انبثقت عن اتفاق أو سلو وصاحبته هي أحد عوامل تمسك فريق أو سلو بالدولة والانسحاب (مع تعديل الحدود وتبادل الأراضي). ورغم ما أصاب هذا الفريق من تراجع في وزنه وصل حد الشلل

أحياناً، أما نهج المقاومة فتفككت قواه وانحسرت ولكن لتنهض قوى أخرى ويتعاظم وزنها، وفي لحظة إعلان ترامب تقاطع الكل الفلسطيني رافضاً الإعلان ودلالاته وانخرطت امتدادات شعبية في فعاليات الاحتجاج. ويكاد التفكير السياسي الفلسطيني ان يعود لحقائق الصراع، بأنه صراع وجود لا صراع حدود. كل ذلك وسواه أساس كاف للقول أن المخطط المعادي لن يمر، فلا شيء يقوى على قهر شعب مصمم على التشبث بحقوقه، ولا مخطط يستطيع أن يمر طالما يقول الشعب "لا" مدعومة بإمكانات ميدانية كبيرة. ومرة زار وزير أوروبي أبا عمار في تونس بعد أن قررت قيادة الانتفاضة مقاطعة وزير الخارجية الأمريكي الأسبق شولتزر، ناصحاً ومتسائلاً: أخشى أن يتكرر معكم ما حصل مع الأرمن، وما هي أوراق قوتك لمقاطعة المسعى الأمريكي! رد قائلاً: "قلبي هذا دون توقيعي لا يتحرك أي مشروع"، ولكنه لم يثبت للنهاية. وبصفتي كدارس ومدرس للعلوم السياسية، يسمى ذلك بالقوة السلبية التي يتعين على الفلسطيني التشبث بها مهما كانت الضغوط، فضلاً عن الفعل الإيجابي.

الشعب كما "الحزب لا يقتحم إلا من الداخل" (لينين). وما أربك الشعب الفلسطيني في ثورة أعوام 1936 - 1939 هو تجاوب قيادات فلسطينية مع دعوات عربية "بالخلود للسكينة ثقة بالصديقة بريطانيا"، وما أربك الشعب الفلسطيني بعد عام 1948 هو ما أصبحت عليه حكومة عموم فلسطين التي استوزر بعضها وانكفأ البعض الآخر، والذي منع تحوّل "الانتفاضة الأولى" لنمط حياة هو مسار مدريد أو سلو الذي قطع الطريق على العصيان المتقطع والوصول لحالة استعصاء، وجاء أو سلو ليشق الشعب وخارطة المقاومة عمودياً. أما غزة فقد شهدت اقتتالاً أعقبه صراع على "سلطة دون سلطة" و"يهلوانيات" الوزارات السيادية" لوطن بلا سيادة وشعب يستذل يومياً، وفي الختام لم يستطع "العقل القيادي النمطي" البحث عن القواسم المشتركة الكثيرة والتعايش مع الخلافات متجاهلاً درس اللبناني بهذا الشأن.

### هل فلسطين أمام ولادة مرحلة جديدة!

أجل فوامل أساسية تزي هذا العنوان. إذ أن أكثر من 60 مشروع سياسي حاولت تسوية أو تصفية القضية الفلسطينية تزامن مع بعضها مشاريع الذبح العسكري التي استنزفت السواعد التي حملت رايات المقاومة. ولكن لم يكتب لها النجاح الحاسم. لماذا؟

1. جميعها حاولت جوهره الفرع أو تفرع الجوهري بتغليب السياسة على الجغرافيا والتاريخ، فند قرار التقسيم عام 1947 وقرار العودة 194 و إقامة الدولة العبرية، واقتلاع ثلثي الشعب الفلسطيني مروراً بالسنوات العجاف بين 1948 - 1967 وما تخللها من أردنة للضفة الفلسطينية وإخضاع قطاع غزة للإدارة المصرية، وما بعد ذلك حتى اليوم، غلبت المشاريع السياسية الفرعية على الجوهري. فالجوهري أن فلسطين تعرضت لغزو استعماري استيطاني استولى على ثلاثة أرباع الوطن عام 1948، ولم يكن لليهود سوى أقل من 6% حسب الوثائق البريطانية، فتناقضت السياسة (منطق القوة المنتصرة) مع حقائق التاريخ والجغرافيا، وبعد عام 1967، توسع الغزو ليشمل الضفة وغزة وأراض عربية أخرى، وراحت مشاريع التسوية تتحدث عن قرار 242 وعن الفيدرالية وعن الهدف المرحلي بالعودة والدولة وتقرير المصير، وعن مبادرة بريجنيف وعن الكونفدرالية بين الأردن والمنظمة وسوى ذلك الكثير، ولكنها جميعاً تناولت أراضي 67 وكأنها الجوهري، بينما هي الفرع الذي لا يضمن تصحيح خطأ ما حصل عام 1948 ولا يضمن عودة الفلسطينيين إلى أملاكهم ولا يضمن عوامل الحرب ولا يعيد التجانس بين فلسطين ومحيطها، أي التجانس بين السياسة والتاريخ والجغرافيا. ولن تحصد أي مشروعات جديدة، سواء اسمها صفقة القرن أو غير ذلك، أي نجاح وطيد إلا إذا عاجلت الجذور واستجابت لجوهر الأشياء وتقديم حلول ديمقراطية لما طرأ من مستجدات، "فالتاريخ في نهاية الأمر يخلق المعضلات وحولها" (إنجلز)، ولا حظنا ذلك في جنوب أفريقيا وفي الجزائر وفي طي صفحة الكولونيالية عموماً.

2. الإرادة الكفاحية للشعب الفلسطيني، فحتى في لحظات خبونها كانت ناراً سرعان ما أشعلت السهل كله وفرضت نفسها كرقم لا يمكن تجاوزه. فالشعب الفلسطيني خاض نضالاً تضحياناً لسنوات بعد هزيمة 67 لكي يثبت وجوده السياسي وهويته الكفاحية ولم يتوقف تراجيديا مسيرته بما تخللها من مؤامرات الذبح السياسي والعسكري التي لم تنقطع يوماً. وحتى بعد "أوسلو" حين قال العالم "لماذا ثورون فقد وقعت على اتفاق وتحقق السلام"، اشتعلت أحداث النفق عام 1996 واندلعت مواجهات شعبية عام 2000 قمعها السلطات الاستعمارية الاحتلالية بشراسة فاندفعت نحو أعمال عسكرية غلب عليها الطابع الاستشهادي. وتعرضت الضفة لاجتياح يحركه عقل انتصاروي أشبه بالعقل الذي وجه حرب 1982، وما أصاب قطاع غزة في العقد الأخير من بطش وقصف تدميري وحصار وتجويع، وعلى الدوام لم يتوقف سيف



الاعتقال حيث يزرع اليوم أكثر من 6 آلاف أسير وأسيرة بينهم 400 اعتقال إداري و600 مؤبد بما ينطوي عليه ذلك من معانٍ.

هذه المسيرة المعقدة من صراع حق القوة وقوة الحق وهي في أسوأ شروطها، فما بالكم لو توافرت ساحة عربية واحدة يتمتع فيها الفلسطيني بحق الحرية والعمل دون مذابح؟

**العوامل الأبرز التي تتعرض على ولادة مرحلة جديدة:**

أولاً: العامل الذاتي الفلسطيني

فهناك 13 مليون، نصفهم في الداخل ونصفهم في الشتات، من بينهم ليس أقل من 5 مليون من الفئة الشبابية، وهؤلاء أن تعددت انتماءاتهم الطبقية والفكرية وتفاوتت اهتماماتهم فهم فئة حيوية وأكثر تعليماً وتطلعاً للحرية ولا مخرج لمعضلاتها من البطالة والفقر والتمهيش والمستقبل الضبابي إلا انخراطها في صنع مستقبلها. ولئن قال لينين "إن حزبنا حزب الشباب والمستقبل ملك الشباب وهم أول من يبادر إلى التضحية" فظاهرة عالمية واسعة تترك هذا الاستخلاص ولا سيما من الطبقة الوسطى ومنبعها الجامعات (إضافة للعمال والكادحين).

ويكفي تذكر أن قوة العمل في الضفة وغزة تربو على 1.5 مليون أكثر من 500 ألف عاطل عن العمل، ومن بين أكثر من 450 ألف خريج جامعي أكثر من نصفهم بلا عمل ونسبه قريبة من ذلك في التجمعات الأخرى ناهيك أن أكبر تركز للشباب الفلسطيني هو في جامعات الضفة وغزة. بما يزيد عن 220 ألف وضعفهم تخرج من الجامعات كطبقة وسطى يليهم العمال الذين يشكلون نحو 20% من قوة العمل بما يلازمهم من تبعثر وعدم استقرار الأمر الذي يسمح بالقول "أنهم طبقة في ذاتها أكثر منهم طبقة لذاتها" حسب التعبير الماركسي، فيكون بذلك هذين المركبين أكبر رافد للنضال الفلسطيني.

وثمة اختناق في فرص التنمية الاقتصادية. ففيما عدا أفراد وعوائل من الرأسمالية الخدمية والكومبرادورية فالمرابحة هي السمة الملازمة للبرجوازية الفلسطينية في شطري الوطن 67 و 48. ومنذ عقود وحتى اللحظة هناك 12 مصنعاً في 100 عامل وأكثر وضعفهم فيها بين 50 - 100 عامل، ولا أحد من بين هؤلاء في

أراضي 48. فالبرجوازية محجوزة على تطورها بينما سوقها الوطنية مستباحة من الشركات الإسرائيلية والأجنبية بما يتناقض نسبياً مع تطلعاتها ويزيدها توتراً اكتساح البرجوازية الكومبرادورية والبيروقراطية للمشهد الاقتصادي والسياسي.

ومرحلة أوسلو وما حايثها من سياسات ليبرالية جديدة فاقت أزمات الاقتصاد الفلسطيني وزادته إلحاقاً ومحوطة إلى درجة أن يختل الميزان التجاري للضفة وغزة على نحو مريع، فيبلغ حجم الصادرات مليار دولار والواردات أكثر من 5 مليار دولار في وقت يبلغ حجم الإنتاج الوطني مجرد 10 مليار دولار أو أكثر بقليل في حالة احتساب الاقتصاد غير الرسمي. أما فلسطينيو 48 فهم قوة عمل في الورش والمشاريع اليهودية لا أكثر وبلداتهم "فنادق سكن" لا أكثر وبطالهم ضعف البطالة في المجتمع اليهودي ومعدل أجورهم لا يصل 64% من أجره العامل اليهودي دون أي موازنات تطويرية للسلطات المحلية.

أما الأرض فهي على جانبي الحدود تتعرض للنهب والمصادرة ولم يتبق للفلسطيني في أراضي 48 الذي يشكل 17% من السكان سوى 5% ولا يستهلك من الماء سوى 2%. وفي أراضي 67 بعد استقطاع 6% للمستعمرات والطرق الالتفافية والسيطرة الاحتلالية على الأغوار التي تشكل 27% من الضفة و13% وراء الجدار و17% القدس لا يتبقى الكثير من الأرض المقطعة الأوصال والمدن المحاصرة بالمستعمرات.

ويشكل اللاجئ الفلسطيني أكثر من 60% من الشعب سواء في الداخل أو الخارج، فحقه بالعودة مشطوب تماماً في التصور الإسرائيلي - الأمريكي. وفي "أوسلو" تم ترحيل هذا الملف أما في "جنيف" فقد خضع للسيادة الإسرائيلية مع عودة رمزية لم تنفذ على غرار الوعود بعودة 100 ألف بعد نكبة عام 1948. واللاجئون هم "الشريحة" الأكثر انخراطاً في المسيرة التحريرية كما تذكر إحصاءات الشهداء وهم 68% حسب استبانتين شاركت في إعدادهما في سجن النقب وعوفر بين أعوام 1994 و 2012.

وعن القدس، المرأة المقعرة للصراع، جاء إعلان ترامب ليحدد مصيرها السياسي والقانوني حسب الرؤية الأمريكية بما يفتح المجال لهجمة استيطانية كولونيالية مكثفة وإجراءات متعددة تستهدف الفلسطينيين في أملاكهم ووجودهم، بل وتوسيع الحفريات تحت الأقصى والتهوؤ لبناء الهيكل ارتباطاً بعقيدة ظهور البقرة

الحمراء وعودة المسيح المنقذ وتأييد عشرات الملايين من الكنيسة الأنجليكانية الأمريكية لهذه الأسطورة!! بما فيهم المحافظون الجدد في إدارة ترامب.

ما جرى لفلسطين 48 ينسحب بجلاء على فلسطين 67، أما العقبة الكأداء فهي الوجود الفلسطيني وإرادته دون نسيان تطلعات السياسة الإسرائيلية التي تتجاوز فلسطين "أتم مجرد قضية ثانوية" (وزير التعليم بينيت)، إلى الخليج والعواصم العربية الأخرى الأمر الذي عكسه كتاب بيرس شرق أوسط جديد يتحدث فيه رأس المال العربي والعقل اليهودي بقيادة إسرائيلية. وهناك إفصاح في العلن لبعض ما يجري في السر لهذه العلاقة علاوة على وجود سفارتين إسرائيليتين في القاهرة وعمان واتفاق مع "الفلسطينيين".

وبالتالي لم يعد أمام الفلسطيني الساعي لوطنه وحرته إلا المواجهة، ولكن هل الشعب الفلسطيني قادر على المواجهة؟

أهم معالم تجذر الوطنية الفلسطينية هو تجلياتها السياسية - الكفاحية، فالمشهد الفلسطيني اليوم مجمع على رفض إعلان ترامب والسياسات الاحتلالية ويشارك في الفعل الميداني الاحتجاجي. وفي أعماقه لا يخفي تعطشه لنهوض وطني عارم يتناغم مع تحذيرات دوائر إسرائيلية من انتفاضة ثالثة.

ويقال الكثير عن النخب الفلسطينية المرتهنة للخيار الأمريكي - الإسرائيلي سواء الاقتصادية منها أو البيروقراطية أو السياسية (الأصح أنها متداخلة) وعناصر نافذة أنجزية بأنها حصان طراوده لصفقة القرن. والسؤال ما هو حجم هذه النخب وأين هي قاعدتها الاجتماعية وما أوراق قوتها وماذا لديها من عرض للشعب وقد "انكشفت" صفقة القرن ورأس حربتها ضم القدس الشرقية للقدس الغربية فيما توحدت الخارطة السياسية الفلسطينية ضد الصفقة؟!!

إذ رغم عشرات السنين من محاولات التدجين والأسرلة لفلسطيني 48 فإن صوتهم الأعلى هو القواسم المشتركة دفاعاً عن انتمائهم الوطني وحقوقهم الجماعية. أما في أراضي 67 فإن أكثر الأصوات اعتدالاً أدار ظهره للوسيط الأمريكي ويطلب بقدس ودولة. أما القاعدة الشعبية وامتدادات مختلف الفصائل "والمجتمع المدني" والتحركات الشبابية فهم على يسار القيادات وفاعليات الميدان تقف على يسار الجميع. والإجراءات التصعيدية لإدارة ترامب

وحكومة نتنياهو إنما ينجم عنها فيما ينجم انخياز فئات مترددة وواهمة للموقف المناهض. فالعظمة تصغر وتصغر والهراوة تكبر وتكبر.

وتحمل الاستطلاعات التالية بعض الدلالات:

52% يعتبرون السلطة الفلسطينية عبئاً على الشعب بينما يراها 41% إنجازاً و65% يريدون استقالة رئيس السلطة (حزيران 2016، "الشباب الفلسطيني والمصير الوطني"، مجموعة باحثين، تحرير د. جميل هلال).

أما المركز الفلسطيني للإحصاء في آذار 2016 فيشير إلى أن 79% من الشباب يعطون الأولوية لدحر الاحتلال والاستقلال.

ومركز البحوث والتنمية أورد أشار إلى عدم استعداد 69% من الشباب المشاركة في تظاهرات إذا دعت إليها فتح و79% إذا دعت لها حماس (نيسان 2016).

بينما أيد 76% من شباب غزة عمليات الطعن والدهس وفي الضفة 46% (المرجع السابق "الشباب الفلسطيني والمصير الوطني").

كل ذلك قبيل إعلان ترامب صفقة القرن، فما بالكم الآن! دون نسيان أن إمكانات قطاع غزة، رغم الحصار والتجويع، وتحديداً في الحقل القتالي، هي أعلى من أي تجمع فلسطيني آخر وقد أسقطت في تصديدها لثلاثة عدوانات واسعة المقولة الإسرائيلية "إذا ذهبت للحرب مع العرب تسلم بالورود" وبات لديها قدر ما من قوة الردع وقدرة على تكبيد العدو خسائر موجهة.

ولما نشأت نصف شروط لقاعدة ارتكاز في الأردن ولبنان بعد حرب 1967 رأينا نهوضاً سريعاً للمقاومة، دون انتفاء إمكانية نشوء بيئة ملائمة في قادم السنين في ساحات "محور المقاومة". أما الضفة وأراضي 48 فهما طاقة كامنة كبيرة لتحركات شعبية ومظاهر عصيانية وانتفاضية وإن كانتا تخضعان للسيطرة الأمنية الإسرائيلية.

ولأن الوضع غير ستاتيكي، ففي التحليل الأخير لا يجوز إغفال احتمالية "لعبة" أمريكية - إسرائيلية تحاول كسر وبعثرة الموقف الفلسطيني الموحد حيال إعلان ترامب وصفقة القرن. ولكن مهما كانت "الجزرة" فهي لن تستطيع اجتذاب قاعدة شعبية واسعة.

ثانياً: العامل الموضوعي العربي والاقليمي

ليس للتاريخ مكره فقط حسب التعبير الهيجلي بل وله مفاجآته أيضاً، فالاتحاد السوفيتي الذي دمرت له الحرب العالمية الثانية 20 ألف مدينة وقتلت 27 مليون مواطن أعاد إنتاجه القومي بعد خمسة أعوام وبات دولة نووية عظيمة.

"والحرب الكونية" على سوريا، بشكل أخص، أفضت لنشوء محور المقاومة الذي سحق أعتى قوة دموية متطرفة مسنودة من دول إقليمية وعالمية، علاوة على انتصارات العراق وانتقال حزب الله من دور لبناني إلى دور قومي وبات أكثر عدداً وعدة وخبرة. كل ذلك في إطار محور يتطلع لنفسه من موقع المنتصر الذي ينبغي أن يكون له الكلمة العليا في رسم مستقبل الشرق الأوسط وفي مواجهة لا هوادة فيها مع مشاريع الهيمنة الإمبريالية وامتداداتها. وهذا تغير استراتيجي سوف تشير روزنامة الزمن لما قبله ولما بعده.

والقضية الفلسطينية هي أحد مربعات الصراع بين أطراف صفقة القرن من جهة والمحور النقيض من جهة أخرى، حيث تتصادم مصالحهما ورؤيتهما ويتعذر التجسير بينهما، بما يحمله ذلك من احتمالات مفتوحة على كل الخيارات.

وفي هذا السياق يتعين التنويه لتحويلين؛ الأول: لقد تم تجاوز سايكس بيكو سواء من قبل الدواعش، أو من قبل نقيضهم، ولم يعد ممكناً اليوم صلب الحركة الموضوعية في الأطر القطرية. فعلاوة على أن المشروع القطري استنفد طاقته التقدمية منذ عقود، بل وكان في عداد أحد أسباب الأزمة أيضاً، فقد تجاوزه محور المقاومة، بما يفتح الطريق لخطوات على طريق مشروع عربي نهضوي مقاوم وسيادي.

والتحول الثاني، أن المخطط المعادي استنفر تقاطعات وصلت أحيانا حد التحالف بين قوى محلية (سوريا وحزب الله) وإقليمية (إيران) وعالمية (خصوصاً روسيا) للقتال صفاً واحداً ضد الهيمنة الأمريكية والإرهاب الدموي التكفيري، إضافة لقوى شعبية أخرى مع خصوصية في فهم الوضعية العراقية.

وما ينبغي لفت النظر إليه، أن قوى شعبية وازنة وليس مجرد ديكورات أو شعارات، باتت تصطف في محور المقاومة. أي ليس حزب الله فقط، بل والحشد الشعبي سيما كتائب حزب الله والحوثيين الذين يحكمون معظم اليمن سكاناً ومدناً وفي أيديهم السيطرة على باب المندب بما له من أهمية عالمية، وفرق أخرى في لبنان وغير

لبنان. وهذا كله سيكون له إسقاطاته الدامغة على فلسطين وخيارات فصائلها، دون نسيان إسقاطات العامل المصري بما له من ثقل فالجدلية في مصر لم تصل الخط النهائي بعد.

فمصر تواجه تحديات كبرى والإرهاب شديد المراس والأزمة الاقتصادية، وأحد أسبابها ترجمات الليبرالية الجديدة، حيث انفلات الأسعار وتزايد البطالة ومديونية مصر التي تجاوزت 80 مليار دولار، وعجز في الموازنة يصل 10% سنوياً وميزان تجاري خاسر (صادرات 32 مليار وواردات 58 مليار) وأزمة الديمقراطية وتخبط وازدواجية ووجع السلطة الحاكمة وتسارع التقاطب في الإقليم بما يستحث الجدلية الداخلية المشحونة بكل الفرص والمسارات.

ثالثاً: تراجع هيبة ونفوذ القطب الأمريكي في الإقليم والعالم. فن ظهر محور البريكس ومنظمة شينغهاي المنافستان، إلى المد اليساري في القارة اللاتينية (الحديقة الخلفية) رغم التقلبات، مروراً بنجاحات الديبلوماسية الروسية في غير بقعة سيما سوريا وأوكرانيا، وصولاً إلى اندفاع المشروع التنموي الصيني إلى درجة أن يصبح لدى الصين رصيداً يناهز 3,4 تريليون دولار ومديونية على أمريكا تتجاوز 1,5 تريليون دولار أمريكي واعتبار صندوق النقد الدولي الصيني أكبر جاذب للاستثمارات وما تهيء له من طريق الحرير بأبعاده على الصراع الاستراتيجي الكوني.

كل هذا وسواه رفع من أسهم القوى المناهضة للهيمنة الأمريكية، وانتقال العالم من أحادية القطبية الى تعددية القطبية دون اغفال الجفوه والفجوه بين عواصم الإمبريالية الأوروبية وواشنطن.

فالمشهد العالمي يصطبغ بتحولات يمكن الإفاده منها من كل من يعتزم التمسك بحقوقه وسيادته في وجه عولمة متوحشة. ولدى سوريا والعراق كما إيران ما يغري روسيا والصين وأوروبا، الأمر الذي انعكس في الموقف من الملف النووي والرئيس السوري وإعلان ترامب والعقوبات الأمريكية على الجميع؟

وتركيا أردوغان إلى أين هي ذاهبة بعد فشل المشروع العثماني و(من صفر مشاكل إلى كل مشاكل) فيما مصالحتها الحقيقة مع الجنوب والشرق وليس مع الغرب الذي يسد أبوابه؟

وقصارى القول، هناك عوامل في البيئة الإقليمية والدولية يمكن الاتكاء عليها للمواجهة.

ثمة صعوبة في قراءة الماضي كما رصد الحاضر، أما الصعوبة الأكبر فهي استشراف المستقبل. والمسيرة الفلسطينية عرفت كل النماذج (اقتلاع وتطهير عرقي، أردنة ووصاية، عمل فدائي، حروب وقواعد ارتكاز، انتفاض شعبي، هبات وتحركات، مفاوضات، سلطة دون سيادة، حروب دفاعية على أرض الوطن).

فما هو النموذج المتخيل في اللحظة الراهنة ومقدمات الشهور والأعوام؟

مهما اشتدت العصا الغليظة من ترامب - ننتيا هو لكسر موقف الإجماع الفلسطيني، فلن تفلح شيئاً، ومهما تبعها من مناورات وإغراءات فالجزرة فاسدة ولن تجنذ سوى نخب هامشية فاقدة لإمكانية أن تستولد مساراً سياسياً فلسطينياً.

الانزياح نحو اليمين الفاشي في دولة الاحتلال والنظام الأمريكي على حد سواء لا يمحلان إلا ما هو شر وتصفوي للحقوق الوطنية الفلسطينية حتى بلسان اللاهثين وراء أوسلو. وفي أحسن التقديرات توليفة كونفدرالية - إسرائيلية - أردنية - فلسطينية دون دولة وسيادة يكون الإقليم الفلسطيني مجرد مستعمرة إسرائيلية أحد شواهدا ضم القدس واستيطان استعماري قافز ومكثف وبطش لا يتوقف بالفلسطينيين. فهديّة ما بعدها هديّة أن يقع في البيت الأبيض أصحاب المليارات والجنرالات والكنيسة الأنجليكانية والمجمع العسكري، الذين لا تتماثل سياستهم مع تطاعات حكومة ننتيا هو فقط بل ويتبعون سياسة متشددة نحو العالم بأسره. وهذا نلحظه في الاستراتيجية "الدفاعية" التي أعلن عنها وزير الجيش متيس الذي خصص المزيد من المليارات للموازنة العسكرية الأكبر في العالم وتصل نصف الموازنات العسكري لكل الدول، واعتبر الصين وروسيا عدوين إضافة لإعادة النظر في الاتفاقية النووية مع إيران.

أما توجه القيادة الرسمية الفلسطينية نحو محافل الأمم المتحدة والعواصم الدولية، فهو وإن يحصد نجاحات دبلوماسية وإعلامية ولكنه لا يحمي أرضاً ولا يحرر وطناً ولا يردع استعماراً من جهة، كما أن حبله قصير من جهة أخرى. فإذا ستفعل بعد الصيف المقبل؟

ان الكلمة الفصل في أيدي رئيس السلطة وقيادة فتح، وهذه الكلمة تجمع اليوم بين الحركة الدبلوماسية والفعل الميداني منخفض المنسوب. لكن لا أحد يستطيع ضبط الفعل الميداني القابل للاشتعال رداً على أي إجراء احتلالي، وفي الذاكرة بدايات التحرك الشعبي عام 2000 والمآلات التي وصلت إليها. إذ ماذا لو تدرجت الحركة الاحتجاجية وانتقلت لمظاهر عصيانية وانتفاضية بما يتخللها من فعاليات تتواشى بالضرورة مع تفعيل جزئي لامكانات قطاع غزة؟

ان هذا النمط من الأسئلة لا يتفق مع تشاؤمية الذين يقولون بنحو الغليان وبنحاز لاحتمالية استمرار المواجهة وتموجها وتصاعدها. هذه الاحتمالية إنما يسندها عدة فواعل أهمها طابع المعركة فهي مصيرية، فالشي يستولد نقيضه والشعب الفلسطيني ليس خرافاً تساق إلى مذبحه التطهير العرقي والوطن البديل وتحليل الاستعمار العنصري، والاستدلال اليومي. وفي الطاقة الكامنة لدى الشعب وقواه وأجياله الصاعدة، هذه الطاقة هي التي صنعت مسيرته الكفاحية على امتداد عقود عندما كان مجرد ثلاثة ملايين فما بالكم وقد تجاوز 12 مليون وذاكرة نضالية لا يستهان بإرثها؟!

أما الفاعل الكبير فهو الجبهة الشمالية السوري لا يساوم على الجولان، "كنت اسبح في طفولتي على شواطئ طبريا" (الرئيس حافظ الأسد)، واللبناني لا يساوم على مزارع شبعا وكفار شوبا وأهدافه أبعد من ذلك، والإسرائيلي لا يهضم الوجود الإيراني في سوريا وتعاضم هذا الوجود، وإيران لن تسكت على الضغوط والتهديدات الأمريكية الإسرائيلية بما فيها إعادة النظر في الاتفاق النووي واستهداف الصواريخ الباليستية وحجز أكثر من 150 مليار دولار والعقوبات الخانقة.

الإقليم قلق وغير مستقر وقابل للاشتعال سواء بفلسطين أو دونها، فكيف والفلسطيني جزء بنيوي في قوى الصراع ومستهدف من الجميع من زوايا متضادة. وعليه فالجواب عن سؤال المستقبل هو أن النموذج الفلسطيني المتوقع في الزمن القريب هو استمرار حالة المواجهة وذهابها نحو مزيج من المظاهر العصيانية والانتفاضية مع سخونة متقطعة على حدود غزة، أما في الشتات فنحو تجميع وتركيم إرادة المقاومة وفعل المقاومة. هذا هو الاتجاه العام بصرف النظر عن التوجات.

ان بداية مرحلة جديدة تظهر في الأفق.



## هل يمكن تجديد حركة التحرر الفلسطينية؟

ينبغي الاعتراف أن مظاهر الشيخوخة والتحلل قد غلبت على م.ت.ف وفصائلها في مرحلة أوسلو، وإن تفاوتت بين فصائل وآخر وساحة وأخرى، غير أن التاريخ لم يتجاوز الحاجة لمنظمة التحرير وفصائلها.

من قبل اكتنف المسيرة الفلسطينية تجديدين كبيرين، الأول انطلاق فصائل المقاومة التي جاءت نفيًا ارتقائياً لأحزاب ما قبل 1967، وولادة حماس والجهد اللتان تجاوزتا الإسلام السياسي، في غمرة الانتفاضة الأولى وملاأ الفراغ الذي أحدثه الانسحاب الجزئي لفصائل م.ت.ف ما بعد أوسلو.

والمجتمع الفلسطيني الذي تطغى عليه البنية التقليدية اجتماعياً، ثقافياً، وبني اقتصادية ومشتت أيضاً، يفتقد القدرة على استيلاء حركة تحرر جديدة بمعزل عن الخارطة القائمة. والخارطة القائمة مأزومة، حيث تفاقمت تناقضاتها سيما عجزها عن الاستجابة لمتطلبات الصراع إلا في أضيق الحدود، وانفضاض كثير من قواعدها وكادراتها وقيادتها عنها، وعزفها في واد والجمهير في واد آخر (أشار أكثر من استطلاع أن 50% لا يؤيدون كل الخارطة السياسية) وانقساماتها المتكررة دون قدرة على توحيد الصفوف على المشتركات الميدانية والانشداد للتناقض الأساس، وفقرها الثقافي والفكري قياساً بما كانت عليه في عقود سابقة، واحتياها على مفردة التجديد، فبدل التجديد الذي يدفعها للأمام فهي بين استئثار وسوء اختيار يعيدها "التجديد" للوراء أداء وأداة ومهارات ومواهب.

هذه الأزمة التي تعني أول ما تعني العجز عن حل التناقضات، هي نفسها التي ستدفعها لتجديد نفسها من خلال الإرادة الشبابية الطليعية على نحو أخص، وبالالتكأ على ما هو تحرري وتقدمي في إرثها. فأمام هول المشروع التصفوي الجديد للمسيرة كفاحاً وأهدافاً، ستكون الحركة السياسية الفلسطينية مصلوبة وظهرها إلى الحائط. وحسب قراءة إدوارد سعيد "إن فكرة التخلص من الفلسطينيين كانت أمراً ثابتاً في الفكر الصهيوني منذ بدايات القرن العشرين سواء كان ذلك لدى اليسار أو اليمين أو الوسط. كل مفكر صهيوني رئيسي تحدث دائماً عن ترحيل الفلسطينيين، التخلص من الفلسطينيين، جعلهم يتلاشون في الهواء كالأرواح"، وبالتالي لم يعد لدى الحركة السياسية أوراق مراوغة فأوهام الحل السياسي تجرت وانتهى الأمر "ثمة مفاوضات وعود أمريكية \ العيب ليس فينا بل في قبطان السفينة \ الجماهير تنفض عنا ولا نعرف وسيلة لإقناعها \ لدينا ما

يكفي من مال لرشوة الناس والحفاظ على قاعدتنا (ستجف وتقلص مصادر المال) \ سنعقد مؤتمراً ونلهم الصفوف (لدى البعض لم يتبق ما يكفي لعقد مؤتمر لإعلان وفاة)".

والعين المتمرسة ترى ما يدور تحت السطح من جدلية حيوية سواء في الحركة السياسية أو في أوساط الشعب، حيث هناك يطبخ التاريخ ويتمظهر لاحقاً فوق السطح. ذلك أن "السياسة جبر لا حساب" بناء على لغة ريجيس دوبريه. وفي عبارات مكثفة لخص مهدي عامل هذه الموضوعية على النحو التالي "التاريخ عند ابن خلدون ليس سرداً للأخبار فالعلم يقتضي نقض الظاهر للوصول للباطن واستخراج الواقع من ظاهر يحجبه ... الواقع مجموعة مترابطة من العلاقات التي تولد الأحداث"، ذلك أنه ينبغي "أن نرى التناقضات الداخلية قبل أن نرى العوامل الخارجية، هذا قانون في التناقضات" (الدكتور حبش).

الشعب لا يموت وارادته السياسية التحررية لا تموت، واستناداً لذلك وما يتدفق في الجسم من دماء حارة مغذية سوف تنزل البنية بكل اركانها، فالكثير من الرموز الفاشلة سوف تذهب لحال سبيلها والكثير من الرموز سوف تتألق بعطائها، والكثير من الأفكار السياسية الخسبية والخائبة سوف تذوي ويحل محلها فكر سياسي يلامس ويعالج منطق الأشياء وحقائق الصراع، وكثير من المقولات النظرية الخسبية سوف تنطفئ ويزهر مكانها مقولات تدمج العلم بالملهوس الحي وتكون اسمناً يخلق تلاحماً في صفوف الشعب، وكثير من مخلفات القرون الوسطى ستفتح الطريق للعصر ومتطلباته، وتخبو سداجة الاداء والاداءه ويتقدم ما هو ارقى واكثر فاعلية. فالمسألة هي الفاعلية حسب التعبير الماركسي، وسيكون لطلائع الطبقة الوسطى من "المثقفين البنيويين" دور الشرارات "وكور الحدادة" بما يعيد الاعتبار لمقولة غرامشي عن المثقف والكلمة التاريخية وكلمة ماو عن "قابلات التاريخ" وكلمة باولو فريري عن "الحوار كفعل تحرري" ومقولة جيفارا عن الإرادة والحافز الاخلاقي) وكلمات الحكيم حبش عن "معسكر الاعداء وعدم انتهاك السياسة للايديولوجيا" ولينين عن "الحزب الطليعي كذاكرة جمعية وضمير جمعي"، ومقولة قائد المقاومة السيد نصر الله عن (الحرب الكبرى).

تقف فلسطين على منعطف التاريخ وتأهب لولادة جديدة.

أما كيف، فهذا يستحق وقفة أخرى استرشاداً بمقولة المفكر الفرنسي التوسير (نظرية الممارسة) وليس الوصفات الجاهزة.

## أين تتجه المسيرة الفلسطينية في المستقبل المنظور، نحو التصفية أم النهوض ولماذا وكيف؟

من الصعوبة بمكان قراءة الحاضر بالنظر لتشعبه وحركته، أما الأصعب فهو قراءة الماضي وذلك لأن مساحات منه مستغلقة ومعطياته ورواياته متناقضة، أما الأشد صعوبة فهو استشراف المستقبل. ودون مقارنة يتسلح بها الشعب ثبته البوصلة ويتبدد الجهد الجمعي بما يصب ربحاً صافياً في طاحونة الأعداء.

وعموماً، يمكن فهم المسيرة على مستويين:

(1) القضية الوطنية، (2) والنضال التحرري (الثورة المعاصرة). أما القضية فقد تجددت في أعوام ما بعد النكبة والاقْتِلاع عام 1948. فالشعب الذي كان مجرد 1.15 نسمة تشتت على نحو تراجمي وتباينت أولوياته، فيما حكومة عموم فلسطين حلت نفسها والتحق عدد من وزرائها بالحكم الأردني الذي ضم شرق فلسطين وبات يُعرف بالضفة الغربية إلى درجة دفعت الخارجية الإسرائيلية للكيان الصهيوني أن كتبت في وثائقها أن الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض، وشاعت مقولة أن "الكاريموتون والصغار ينسون".

غير أن مبادرات فلسطينية عديدة بما فيها ولادة حركة القوميين العرب بقيادة الدكتور جورج حبش التي اعتبرت فلسطين قضيتها المركزية ونشوء تنظيمها الفلسطيني عام 1963، وتأسيس م.ت.ف عام 1964 بطابعها العروبي والعلماني، وعبد الناصر الذي أطاحت حركته (الضباط الأحرار) بالملك فاروق عام 1952 وجمعت رؤيته التي تبلورت بتدرج بين العداء للاستعمار "إسرائيل" والرجعية العربية، وتأميم قناة السويس عام 1956 والإصلاح الزراعي عام 1958... كل هذا وسواه أبقى القضية الوطنية حية، لتكتسب زخماً حاسماً مع ولادة الفصائلية الفدائية وعملياتها المسلحة.

ولا يحتاج لكبير برهان القول أن الفصائلية الفدائية التي امتشقت البندقية قد كانت حاملاً ومحمولاً للقضية الوطنية. فهي قد اجترحت طريق الكفاح المسلح بما استوجبه من بنى تنظيمية ونضالات وتضحيات وشهداء وأسرى، وكل ذلك لتحرير فلسطين. أما القضية فقد أعطتها مشروعية كفاحها وفضاء حركتها ومسوغات التفاف الشعب حولها، وعليه باتت القضية والبندقية وجهان لعملة واحدة وصنوان لا يفترقان على امتداد

عقود. فانتعشت القضية كقضية تحرر وطني وتعاضمت قوة البندقية التي تعرضت لمؤامرات من الذبح العسكري والسياسي (أيلول 1970 في الأردن التي أعقبها مشروع الفيدرالية، الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975 - 1976 ومحاولة احتواء وتدجين البندقية، الغزو الإسرائيلي للبنان "وحرب بيروت عام 1982 لتمرير الحكم الذاتي في الداخل" (شارون) بما مهد لمشروع ريغن، وبعده مشروع فهد، تخلل ذلك حملات تنكيل وملاحقة لا تتوقف داخل الأراضي الفلسطينية).

ورغم الإخلالات التي اعتورت المسيرة الفلسطينية فقد نقلت الفلسطيني من لاجئ إلى مناضل ومن فاقد الأمل إلى متسلح بالأمل وقد تكرست هويته الوطنية وبات يتكلم بلسان نفسه وحقوقه دون وصاية، وراح يقيم علاقات واسعة عربياً ودولياً، رسمية وشعبية بل واستقطب الكثيرين الذين انخرطوا في ثورته.

والزعامة الفردية بما صاحبها من استزلام وهيمنة على القرار السياسي والمالي استشرت أكثر فأكثر في سنوات السبعينيات والثمانينيات، تساندها جغرافية سياسية عربية معادية لليسار الفلسطيني، وأمام مصاعب النضال واتساع البقرطة تنامى استعداد القيادة اليمينية التي دفعت استحقاقات تضحية هائلة، للمساومة والتساق مع الطروحات التسوية. وجاءت "لعم" لمشروع ريغن ونعم لمشروع بريجنيف والاتصالات السرية والعلنية بالعواصم الغربية مقدمة "لكادوك" الذي أسقط خيار البندقية ومهد للاعتراف وعقد مؤتمر مدريد الذي قاد لاتفاق أوسلو.

وبجول أوسلو إنما حلت مرحلة كاملة من الانقسام الفلسطيني والتنازل عن ثلاثة أرباع الوطن والغطس في أوهام بناء أجهزة دولة دون طرد الاحتلال الذي يستبيح كل ما هو فلسطيني. والتبس الوعي وتشظت الثقافة، هل الشعب في مرحلة تحرر ونضال أم بناء مؤسسات دولة... ونشأ فراغ كفاحي أتاح المجال لقوى الإسلام المناضل التمدد فيه فشهدت انحراب السياسة الفلسطينية تحولات جدية، وهذا حال البنية الفوقية والهوية الثقافية للشعب.

استعصاء المسار التفاوضي وعدم جلاء الاحتلال من أراضي 67 ولو مجرد إيقاف الاستيطان الاستعماري، والرهان والارتهان للمساعي الأمريكية التي لم تكن يوماً صديقة للفلسطينيين وتناغمت ودعمت الرؤية الإسرائيلية (إدارة أزمة لا حل أزمة وسيادة إسرائيلية واحدة من البحر للنهر) قد حشر أكثر فأكثر القيادة اليمينية والعمل

الفلسطيني بمجمله وصولاً إلى انتخابات المجلس الإداري "التشريعي" التي فازت فيها حماس بزهاء ثلثي المقاعد بينما في القائمة النسبية لم تحرز أكثر من 44% من الأصوات، تلاها اقتتال غزة وانقسام السلطة إلى سلطتين واكب ذلك إجراءات متبادلة وثقافة كراهية وعداء.

غير أن الشعب الفلسطيني بمكوناته وقواه الحية أشعل فتيل مواجهات واسعة وأعمال نخبوية موجعة (الانتفاضة الثانية) التي استمرت سنوات رغم عدم تواجد قيادة مركزية لها، وتعرض قطاع غزة لثلاثة حروب عدوانية لم تفرض من الناحية السياسية إلا عن صمود فلسطيني ودرجة من قوة الردع.

### ماذا يحاك للفلسطينيين في دوائر البيت الأبيض وتل أبيب اليوم؟

الأداة التحليلية التي ينبغي الاستناد إليها والتي لم تكن بهذه القوة من قبل هي التوتر العدائي بين السعودية وإيران. فالحكم السعودي يتطير كما لو كان الجيش الإيراني على أبواب الرياض وجدة. ولذلك بداهة خلفيات لا تنحصر في التنافس الذي يصل حد التكفير بين السنة والشيعة أو بصورة أدق بين المنظورات الوهابية والمذاهب الأخرى، وبالتالي التنافس على زعامة ما يسمى البلدان الإسلامية. فمثل هذا التنافس وهذا النزاع كان من قبل في عقود سابقة، ولكنه لم يقدر إلى العداء بوتائره الحالية وإلى الملح في الحكم الملكي السعودي على النحو الحالي آخذين بالحسبان تصاعد قوة الحوثيين في اليمن وعلاقتهم بإيران.

وما استجد هو فشل السياسة السعودية في العراق وسوريا ولبنان، وبالتالي فشل المشروع الإمبريالي والتركي والخليجي بعد الانتصارات الكبرى المتلاحقة التي يكاد الدواعش يلفظون فيها أنفاسهم الأخيرة، ولم يتبق لهم سوى الصحاري في العراق وبعض الجيوب في سوريا. ويبدو أن فرع العائلة الحاكمة في السعودية اليوم يختلف في نظرتة عن فرع العائلة الذي ورط السعودية في الدم السوري.

فالجيش العراقي والحشد الشعبي يكتسحان جغرافية ومدن داعش، والجيش السوري وحزب الله والحلفاء يقضمون مدن وجغرافية داعش دون أن يتركوا لها فرصة لالتقاط الأنفاس رغم الأثمان الباهظة. وفي لبنان بات لحزب الله وتيار المقاومة اليد العليا.

وبتدرج يتشكل محور رباعي إيراني - عراقي - سوري - لبناني يتقاطع على أرضية مصالح مشتركة مع روسيا، ليس في التصدي للإرهاب الدموي فقط بل وعلى قاعدة صفقات عسكرية ومشروعات اقتصادية وتبادل تجاري أيضاً، ناهيك عن مواجهة الهيمنة الأمريكية.

أما الحرب التي أعلنها الحكم السعودي بقرار من ولي العهد محمد ابن الملك على اليمن فلم تحصد سوى الفشل والدمار والمآسي، وبالتالي المساس بهيبة الحكم السعودي الذي ظن أن اجتياح اليمن لا يحتاج سوى أيام قليلة على غرار توقعات عواصم المؤامرة الدولية والإقليمية بأن دمشق لقمة سائغة وسوف تسقط في غضون أسابيع أو شهور.

لقد أنفقت السعودية عشرات وعشرات المليارات لضبط الساعة العراقية والسورية واللبنانية حسب توقيت القصر الملكي الذي لا يوجد لديه من مؤهلات الحضارة والتقدم سوى البترو دولار (دون نسيان الأبعاد الحداثوية النسبية لمشروع السعودية 2030) وأنفقت أكثر من ذلك في العدوان على اليمن بل وتكبدت خسائر بشرية وعسكرية أيضاً، فيما القوى المناهضة للعدوان سواء الحوثيين أو قوات علي صالح ومن يحالفهم من هيئات مجتمعية، غدت أشد بأساً.

ولليمن حدود مشتركة مع السعودية، وثمة خلاف حدودي يعج بخزون نفطي أيضاً، ويشرف على باب المنذب الشريان الدولي الذي يعبره ليس أقل من نصف النفط العالمي وخط تجاري نشط للبواخر، إذ له أهمية استراتيجية للغرب والكيان الصهيوني على حد سواء.

ومؤخراً لم تنجح في إخضاع قطر لعنجهيتها، ووجدت هذه الدويلة الصغيرة في إيران ملاذاً فيما أقامت تركيا قاعدة عسكرية في ذروة تهديد قطر ومقاطعتها. وجهود الكويت لرأب الصدع حصدت الريح بما يؤثر إلى تصدع في المعسكر الخليجي، الأمر الذي تنظر له أمريكا بارتياح لأنها ستبيع المزيد من صفقات السلاح للطرفين.

ورصيد السعودية الذي كان يناهز 850 مليار دولار تراجع إلى أقل من 500 مليار، سواء بسبب إنفاقها على مغامراتها الفاشلة أو بالنظر إلى انخفاض أسعار النفط وما يرتبط ببرنامج السعودية 2030، الأمر الذي أفضى إلى عجز في موازنة الدولة يقترب من 100 مليار سنوياً، ناهيكم لحياة الترف التي يعيشها آلاف الأمراء والأميرات

وتبديد الكثير من العوائد النفطية على مشروعات لم تُستكمل كما صرّح مرّة وزير النفط الأسبق أحمد زكي يمانى.

وأخر خطوات ولي العهد الذي يعبّد الطريق لخلافة والده وإقامة حكم أوتوقراطي فردي هو ما أطلق عليه "الحرب على الفساد" الذي شمل عشرات وعشرات الأمراء والوزراء السابقين وأكثر منهم من أصحاب المليارات الذين اعتقلهم في فندق وأطلق أيدي النائب العام للتحقيق معهم، فيما تسرب المصادر الصحفية أنه يعرض عليهم مساومات بمصادرة نسب من ثروتهم لقاء إطلاق سراحهم، أي استقطاع عشرات وعشرات المليارات. إنه تصدع آخر في العائلة الملكية والنخبة الرأسمالية الكبرودارية. أما ثلاثة الأثافي فهي ما تسرب من اتصالات سرية وعلنية مع القادة الصهاينة بما يتجاوز التطبيع إلى التمهيد لتعاون استخباري وأمني وعسكري.

فهل ستمضي العربية لإقامة تحالف أمريكي - إسرائيلي - سعودي - إماراتي معلن وهدفه الأساس مواجهة محور المقاومة وإيران؟ وهل ستضم مصر له؟

من الزاوية الفلسطينية، لم يكن هدف زيارة رئيس السلطة أبو مازن للرياض بروتوكولية، فالسعودية والجزائر هما الدولتان العربيتان اللتان تلتزمان بمبلغ شهري لكل منهما يصل 20 مليون دولار للسلطة. وكان للبترودولار في حقبة السبعينيات أثره على بنية م.ت.ف وما آلت إليه من توقيع اتفاق أوسلو. ولكن الأمر هذه المرة ابعث من ذلك، إذ هناك ما يسمى "صفقة القرن" والسعودية في التفكير الأمريكي، وتحديدًا كوشنر، هي الجسر الذي يعبّد لهذه الصفقة "المبهمّة" ومصر في مسعاها للّمّ الشمل الفلسطيني، إنما تهدف لتوحيد الممثل الفلسطيني فلا يخرط في محور المقاومة، وبالتالي تجريد محور المقاومة من الورقة الفلسطينية.

والسير على طريق الصفقة لا يخلو من العقبات، إذ بغض النظر عن التقولات الصحفية، ليس ثمة صفقة واضحة المعالم بعد رغم دوران عجلة الصفقة وإحدى فصولها إعلان ترامب بشأن القدس، الأمر الذي صدم قيادة السلطة التي لا تخفي رفضها للصفقة رغم استمرار خيارها للتفاوضي وهي تتسائل ما هي الصفقة؟ وهل هي إدارة أزمة وتطبيع للوقت وحسب؟ سيما وهي تلحظ هرولة بعض العواصم العربية بما يعود عليها بالخسارة.

أما حماس ومهما بلغت نزعتها البراغمية، فهي في المحصلة العامة منحازة لمحور المقاومة. ويكفي تذكّر أن عضو مكتبها السياسي العاروري قد قفز من المؤتمر الصحفي في القاهرة إلى طهران ومنها للقاء أمين عام حزب الله

حسن نصر الله. وهذا حال حركة الجهاد بما لها من ثقل عسكري في غزة، فهي على غرار إيران لا تعترف بالحدود بين أراضي 67 و48 وخيارها حاسم بالكفاح المسلح لتحرير فلسطين.

ويمكن قول شيء مشابه عن الجبهة الشعبية، فهي رغم الضباية والميوعة لدى البعض فهي أقرب لموقفها التاريخي الذي عمدته بالدم والتضحيات وهي مناهضة "للمحور" الأمريكي - الإسرائيلي - السعودي وما يسمى صفقة القرن بلا موارد.

وهناك بقية الفصائل الفلسطينية الأقل حجماً ووزناً، والتي تقف بين قلقها من المشروع الإيراني الثيوقراطي وبين عدم ثقتها بالسياسة الأمريكية ورفض الارتهان لها، وبين وشائج متفاوتة تربطها بالسلطة الفلسطينية وعطاياها وبين وبين... ناهيك عن التباعد بين مواقفها في ميادين عديدة.

وكمحصلة عامة، الساحة الفلسطينية وإن كانت غير موحدة غير أنها موحدة ضد صفقة القرن، ولا يوجد فيها فصيل واحد في اللحظة الراهنة جاهز للانخراط في الإملاءات السعودية التي تتعامل بازدراء وكأنها السيد مع لبنان وفلسطين، وبقدر ما مع السودان ومصر.

ولكن هذا لا يغمض العين عن توافر تيار فلسطيني في الساحة الفلسطينية على استعداد للذهاب للمحور الأمريكي - السعودي، فهو خارج محور المقاومة وضد أي مواجهة مع المحتل الإسرائيلي، ولكنه لا يجرؤ في اللحظة الراهنة لأنه دون غطاء سياسي وأمني.



### ما هي حقائق الحالة الفلسطينية التي تحدد خط سيرها؟

صحيح أن للنافذين دور كبير في رسم الخيارات السياسية، ومن الصحيح القول أيضاً أن هولاء لا يتطلقون من فراغ مهما بلغت فرديتهم ومصالحهم الشخصية، وأحياناً عنجهياتهم وإخلالاتهم وتلاعباتهم. كما أن السياسة الفلسطينية لا تقررهما عوامل فلسطينية فقط، بل وهناك العامل العربي والإقليمي والدولي أيضاً.



ولأن هذا النص خلاصة "حوار مباشر" كما هو حال بعض النصوص، في شروط الاعتقال، وليس بحثاً أكاديمياً. يجوز التعرّيج على المعطيات التالية المستخلصة من الحالة الفلسطينية والتي لها إسقاطات على مخرجات الخيار أو الخيارات الفلسطينية.

### ديموغرافياً:

يقرب الشعب الفلسطيني من 13 مليون، أكثر من نصفه على أرض الوطن وأقل من نصفه في دول الطوق والشتات. وثقله الأول في الضفة (3 ملايين والأردن أكثر من 3 مليون) وغزة أقل من مليونين ونحو مليون ونصف في 48 وبين ربع ونصف مليون في كل من سوريا ولبنان وأوروبا وأمريكا اللاتينية، وأكثر من ذلك في الخليج ونحو ربع مليون في أمريكا في أماكن أخرى.

وللضفة الفلسطينية أهمية خاصة كونها الهدف الأساس للسياسة الاحتلالية التوسعية وإجراءاتها، كما أنها المعقل المسيطر عليه من قبل سلطة أوسلو، وأي مواجهة محتملة لطرد المستعمر ومستوطنيه ستكون في مدنها وقراها ومخيماتها، سيما مدينة القدس المرأة المقرة للصراع.

ولفلسطيني 48 أهمية استثنائية، فهم في قلب بكان العدو. وعملية التفكيك وتشويه الهوية الوطنية وصرف الجيل الشباني عن أولويات الصراع، وإن أحرزت بعض النجاحات، غير أن المظهر الرئيس للإرادة الوطنية هو الانتماء الفلسطيني والاستعداد لمواجهة السياسات العنصرية ومخططات التطهير العرقي.

وهذا يتجلى في عدد من النصالات الشعبية والأعمال النخبوية، وفي نتائج انتخابات السلطات المحلية وانتخابات الكنيست رغم الجدل حول ذلك، وفي ارتفاع نسبة مقاطعة الانتخابات، وكذا بعض الاستطلاعات التي تدور حول الهوية. فالأغلبية العظمى تعرف نفسها (فلسطينية عربية) كما جاء في ورقة بحثية.

وما استجد هنا ليس الإفراط في القوانين العنصرية فقط، بل وفي محاولة انتزاع اعتراف من المفاوض الفلسطيني بأن "إسرائيل دولة لليهود" نكسوة تمهيدية للتطهير العرقي الأمر الذي زكاه قانون القومية اليهودية.

وبعد مسيرة عقود من الكفاح التحرري تركزت الهوية الكفاحية للشعب الفلسطيني وتكرس التضامن بين تجمعاته وأصبحت له أهداف سياسية واضحة تراوحت بين الدولة والدولة والعودة وتحرير كامل فلسطين. والتغيرات في الإقليم توفر مناخاً ملائماً لإعادة الاعتبار لشعار وهدف التحرير والحل الديمقراطي الجذري للصراع.

### سياسياً:

وبشكل أخص انخراطه السياسية. لقد طرأت تحولات كبيرة على انخراطه السياسية الفلسطينية في مرحلة أوصلو، فمن جهة وقع الفصل الأكبر الذي قاد م.ت.ف على اتفاق أوصلو واستحقاقاته السياسية والأمنية، رغم وجود تيار تحرري في مقاومة المحتل مختلف وسائل النضال إلى درجة أن يكون نصف الحركة الأسيرة من حركة فتح ناهيكم عن الشهداء. وفيما عدا مروان برغوثي وزياد أبو عين لا أحد من الصفوف العليا استهدفته سلطات الاحتلال بالتنكيل والاعتقال والقتل. وإن كان هناك غير عضو لجنة مركزية و مجلس ثوري يشهرون في وسائل الإعلام مواقف مغايرة لسياستها الرسمية، دون أن يرقى ذلك إلى مستوى جناح أو عدم انضباط للقرار الرسمي في نهاية الأمر. وحسب انتخابات التشريعي في 2006 وعدد من المنظمات الشعبية والبلدية ومجالس الطلبة، لا يقل تأييد فتح عن 35%.

أما حركة حماس التي تصاعد دورها وجمها وكان لها شرف تحمل العبء الأكبر في "حروب" غزة الثلاثة وسيل من العمليات الفدائية في الضفة، فجمها كمحصلة عامة لا يقل عن حجم فتح وإن كانت نسبتها في سجون الاحتلال بالكاد تصل 30% ونسبة أكبر من شهداء العقدين الأخيرين.

ومحاولتها التأقلم والغزل مع الشروط الغربية بالانحياز للبرنامج المرحلي (دولة، عودة، وتقرير مصير) بعد أن بهتت مصداقية هذا البرنامج في ضوء الحقائق التي خلقتها سلطات الاحتلال ورفضها المطلق لعودة اللاجئين وما غاب عن "برنامجها المرحلي" من مفردات الإمبريالية والرجعية ومحور المقاومة، فلم تحسن من أوراق اعتمادها لدى العواصم الإمبريالية، إذ أن إدارة ترامب وحكومة نتياهو تطلبان المزيد (الاعتراف بإسرائيل، والتخلي عن البندقية، والابتعاد عن محور المقاومة جهاراً نهاراً) على غرار الشروط التي فرضت على "أبو عمار" ما قبل

مدريد - أوسلو، أو أنها منظمة إرهابية. وقيادة حماس الجديدة رمت علاقتها مع إيران وعززتها مع حزب الله، وهناك وساطات لتطبيعها وتحسينها مع دمشق. ومن غير المتوقع أن تتساق مع "صفقة القرن" واشتراطاتها. وأي تكويعة في مواقفها تصب ربحاً صافياً في حساب حركة الجهاد.

الفصل الثالث من ناحية الحجم هو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كانت تشكل ما قبل أوسلو أكثر من 10% في الخارج وأكثر من 22% في الداخل، وأضحت اليوم بين 4-5% مع فقدان قياداتها الرموز والقامات الأكثر حضوراً ووزناً، أما في الحركة الأسيرة فنسبتها بين 6-8% ونسبة مشابهة بين شهداء العقدين الأخيرين.

وكان الخلل الأبرز في الضفة والأردن؛ فانشداداً "للوحدة الوطنية" توافقت مع فتح وسواها على البرنامج المرحلي، مع تشديدها على العودة وعدم الاعتراف والنأي تماماً عن مشروعات التسوية التي تكثرت بمسار مدريد - أوسلو واشتباكها الدائم مع نهج رئيس منظمة التحرير وصولاً إلى اشتباكها مع أوسلو والتزاماته. فهي أيضاً قاطعت انتخابات "التشريعي" عام 1996 وشيطنتها وأكدت أنها ليست تشريعية وإنما حلقة في سلسلة الحكم الإداري الذاتي وتحت مصيدة الاحتلال. لكن موقفها كان المشاركة في انتخابات عام 2006 بما أثار بلبلة ومقاطعة لا يستهان بها من قاعدتها. والميل الذي يتنامى اليوم في صفوفها هو العودة لثوابتها التاريخية بالمقاومة والهدف الاستراتيجي ونسج التحالفات بناء على ذلك وهي تحرص على أن تكون عامل تفجير ثوري بما يتقاطع مع رؤية الجهاد.

وحركة الجهاد التي لم تكن أكثر من 1% من الخارطة الفلسطينية أصبحت اليوم بين 3-4% حسب عدة استطلاعات، ونسبة أعلى في سجون الاحتلال لا تقل عن 5-7% فيما شهداؤها أعلى من ذلك. وكان لها دور بارز في حروب غزة وكانت التالية بعد حماس مع قدرة صاروخية يؤخذ التلويح بها بالحسبان. وقد أكسبتها محطاتها التلفزيونية وبرامجها المحلية وانسجام واتزان قيادتها احتراماً متزايداً في أوساط الشعب. ولا يبدو أن دورها في الضفة يجاري دورها في قطاع غزة.

أما الفصائل والقوى الأخرى سواء المحسوبة على اليسار أو الأقرب للفكر اليميني، فأهمها الجبهة الديمقراطية، ولكن ثقل كل منها لا يصل 1%، وفيما عدا الجبهة الديمقراطية التي لها أقل من 1% في الحركة الأسيرة وعدد من الشهداء، لا تصل أقدام الفصائل الأخرى بوابات السجن أو خندق الشهادة إلا لماماً، آخذين بالحساب

أن ثمة انفضاض واسع في أوساط الشعب الفلسطيني داخلاً وخارجاً عن الفصائل الفلسطينية، وظهور تمهلات وبدابات لبؤر وتوجهات ولجان منفصلة عن الفصائل سواء فيما يسمى "المجتمع المدني" أو مبادرات شعبية.

### ثقافياً:

منذ تأسيس م.ت.ف عام 1964 وتبوؤ الفصائل موقع القيادة عام 1969 مروراً بالسبعينيات والثمانينيات وصولاً لأوسلو عام 1993، غلب على الثقافة الفلسطينية والمؤسسة السياسية الفلسطينية الطابع العلماني من برجوازي وطني ويساري تحرري، فيما كان الفكر الديني إسلامي أو مسيحي محدود الحضور رغم البنية التقليدية للمجتمع الفلسطيني. فالحادثة كانت فاعلة في المؤسسات ولها الدور القيادي.

أما في مرحلة أوسلو فقد عرف المشهد الثقافي ما عرفه المشهد السياسي، تواليات هندسية في الفكر الديني وحركات المقاومة الإسلامية مستفيدة من دورها الكفاحي والبيئة التقليدية للمجتمع وما نتج من ديناميات عن الثورة الإيرانية عام 1978 وفوز القوى الإسلامية في الانتخابات التركية في التسعينيات وبالتالي ما تلقته من دعم بما في ذلك دعم جماعات وأنظمة خليجية.

وعليه، بات المشهد الثقافي يتوزع على اتجاهين رئيسيين هو الحدائي العلماني من يساري وبرجوازي وديني يتقاطع مع منظورات تقليدية وما هو سابق عن الحداثة القائمة على المواطنة المتساوية دون تمييز ديني أو جنسوي وعشائري وحق التفكير والاختيار وعلى قدرة البشر على إدارة شؤونهم دون تقييد بالدين. وكل اتجاه مكون من بنى سياسية ومنظورات ثقافية أكثر تحررية أو أقل تحررية وأكثر مرونة وأقل مرونة... أي لم يكن الاتجاه الأول منسجماً سياسياً أو ثقافياً، وهذا حال الاتجاه الثاني. ومن هنا قد تتقاطع قوى سياسية في هذا الموقف الثقافي مع قوى تختلف معها سياسياً، وقد تتقاطع سياسياً مع قوى تتناقض معها ثقافياً، وهذا يشمل مختلف القوى السياسية. لقد ارتبطت السياسة الفلسطينية بالثقافة الفلسطينية ولكنها لم تتطابق دائماً. فإرث م.ت.ف كان الأقرب ثقافياً رغم مساحة التناقض الكبيرة في غير ميدان، ومرحلة أوسلو جذبت قوى متقاطعة سياسياً ولكنها متباعدة ثقافياً في مساحات أيضاً.

وارتفعت أسهم العقل الجبري الذي يعزو كل شيء إلى السماء وتنامت العشائرية والهويات المحلية فيما تراجع الخطاب الطبقي رغم اتساع الفجوة الطبقية. وتأسست البرجوازية بثتى شرائحها وأصبحت سلطة، باستثناء

أصوات برجوازية قومية ناهضت أوصلو، ولكن ليغلب التفكك والتقهقر على القوى العمالية التي استنزفها اندماج الكثيرين في السلطة والمنظمات غير الحكومية. وانتشرت أيضاً مقولات ثقافية لم تعرفها الساحة من قبل، فأصبحت الإمبريالية وسيطاً والبيت الأبيض محجاً ولم تعد تذكر الرجعية ومفاعيل الحقبة النفطية إلا في مناسبات، والتنمية مجرد مشاريع نمو مموله غريباً، وتفشت بمجموع مقولات لا أمل في الانتصار ولا جدوى من النضال والاهم نفسي وعائلي والسياسة تجارة والريح سيد الموقف، والمزاحمة على الموقع الوظيفي، والمال هو المعيار، فيما تراجعت قيمة الفدائي والبطولة والتضحية والشجاعة والصدق والتضامن والأهداف الكبرى، والتبست الثقافة انعكاساً لالتباس السياسة وفيما إذا كان الشعب يمر بمرحلة تحرر وطني أو بناء دولة، وتعمقت خصوصية التجمعات إلى درجة بهتان الهدف الوطني العام، وأصبح النضال ضد العنصرية في 48 هدفاً منفصلاً عن هدف التحرير وتقويض العنصرية... وتفشى الخوف والإحباط وتعبيراتها المهزومة.

ويمكن الإسهاب أكثر، ولكن كل ذلك وسواه لم يمس الإجماع الفلسطيني من أجل الحرية والاستقلال ومقاومة المخططات الاحتلالية وأخيراً رفض صفقة القرن جنباً إلى جنب مع تنامي التعليم العالي واتساع المظاهر الثقافية المتعددة ولكن بشكل مبثوث ودون ارتباطها بالنضال الوطني.

#### التركيبة الاقتصادية - الاجتماعية في الوطن المحتل عام 1967:

كان للنمو السكاني الطبيعي الذي تراوح بين 5-7% سنوياً وللقفزة الهائلة للتعليم الجامعي أثرهما على التركيبة الاجتماعية. وهذا حال احتجاز وتخريب الوضع الاقتصادي وما صاحبه من ضرائب وسرقة أرض ومياه في فلسطين بشقيها 48 و 67. وفي الجمل هنالك نسبة 5% برجوازية، أقواها حضوراً هم الكبرادور وبعض أوساطها متداخل مع شرائح برجوازية بيروقراطية ونسبتها في الـ 48 لا تكاد تذكر، وليس ثمة زيادة في المشاريع الصناعية التي تضم أكثر من 50 عاملاً وأكثر من 100 عامل ولا يوجد مصانع من هذا القبيل في أراضي 48.

أما البرجوازية الصغيرة من أصحاب المشاريع والمحال التجارية والمطاعم والمكاتب ومختلف مرافق الخدمات والوظائف فهي تتجاوز 45%، كما أنها مبعثرة على نحو ملحوظ. وفئة فلاحية من أصحاب الاستثمارات الزراعية

تصل إلى 4-5% ذلك أن أغلبية الفلاحين تحولوا لعمال وموظفين فيما يشكل عملهم الفلاحي عنصراً ثانوياً، وهذه الفئة مشتتة، والحال في شطري فلسطين على قدر من التشابه.

أما العمال الذين يبيعون قوة عملهم لصاحب العمل البراجوازي، فهم يناهزون 20% ونسبتهم أعلى في أراضي 48 حيث يعملون في مشاريع يهودية فيما قراهم أشبه بأمكن سكن. وعمال الضفة يتوزعون بين العمل في الاقتصاد الفلسطيني والعمل في المشاريع اليهودية، وأغلبيتهم يعملون في ورش البناء بخصوصها التي لا تسم بالثبات. والأرقام متحركة وهذا حال العاملين وراء ما يسمى الخط الأخضر بين 140 - 160 ألفاً، أما أكثرية العمال فهم يعملون في الضفة وغزة.

والقطاع الحكومي في الضفة وغزة هو المشغل المركزي الأكبر، فهناك نحو 220 ألفاً ويزيد يعملون في السلطين، فضلاً عن عدد لا يقل عن 40 ألفاً من مقاتلي حركتي حماس والجهاد، وهذا في مجمله يتجاوز 20% من قوة العمل التي تصل 1.5 مليوناً بينهم 500 ألف عاطل عن العمل، أكثر من نصفهم خريجي جامعات ونسبتهم في غزة أعلى من الضفة وأراضي 48، دون نسيان نحو 40 ألفاً يعملون فيما يسمى "منظمات غير حكومية" بتعريفها الفضفاض وغير الدقيق.

ومع تراجع نفوذ اليسار تراجع التأطير النقابي والفكر الاشتراكي، ونفس النتائج العكسية شملت التأطير النسوي، فيما تنامي نفوذ الحركات الإسلامية والانفصاض عن الخارطة السياسية.

وبكلمة واحدة ليس ثمة مشروعات كبيرة وليس ثمة تمركز في قوة العمل. بما يفضي إلى تبهيت النضال الطبقي النقابي وتقدم قضية العاطلين عن العمل والفساد وغبوة الأجور والامتيازات واحتجاجات بعض القطاعات الوظيفية والشعبية.

أما انعكاسات الليبرالية الجديدة الثقيلة على الحياة الفلسطينية فهي لا تحظى بتعبئة ومتابعة، وتكاد تكون طلاس لا يفهمها سوى نخب قليلة، علماً أنها في صلب أوجاع الناس سيما ارتفاع الأسعار وغياب مشروع تنموي استقلالي واستشراء البطالة والفقر (هنالك حلقة نقاش أخرى عن أزمة حركة التحرر واليسار وفرص الخروج بالعودة إلى الوضع السياسي والحالة الاقتصادية الاجتماعية).

من المعلوم أن السلطة الفلسطينية في أراضي 67 تتبع نسبياً الليبرالية الجديدة فتعفي نفسها من إقامة مشروعات اقتصادية إنتاجية هي منصة الانطلاق الأولى للتنمية (ليس من المساعدات الخارجية بل من الضرائب التي تجبها من الشعب وهي تشكل أكثر من 90% من موازنة عام 2017) بينما تثقل كاهلها بمديونية تناهز 5 مليار دولار دون أي استثمار إنتاجي، وهي تتفاخر بأنها تبني "السوق الحرة" بينما السوق الفلسطينية تابعة وملحقة بالسوق الاحتلالية من جهة وهي مستباحة من قبل الشركات الأجنبية من جهة أخرى دون أي إجراءات حمائية لحماية المنتج المحلي، وكأننا دولة وعضو في منظمة التجارة العالمية، ولكن دون قدرة تنافسية.

وليس مبالغة القول أن الاقتصاد الفلسطيني في شطري الوطن 48 و 67 هو اقتصاد بضاعي صغير تتخلله قطاعات رأسمالية، وهو في مجمله تابع وملحق للسوق الاحتلالية ومنهوب من الشركات الرأسمالية المعولة. وتشكل المشروعات الصغيرة ومتناهية الصغر، سيما الإنتاجية، الفرصة الأوسع للاستثمار وتوفير فرص عمل سيراً على مبدأ "بدل أن تعطيني سمكة كل يوم، علمني صيد السمك" بدلاً لسياسة التسول والاقتصاد الاستهلاكي، الشيء الذي يوجب إعادة هيكلة موازنة السلطة وتقليص الفجوة في الرواتب وفرض ضرائب تصاعدية لا تشل العجلة الاقتصادية ووقف هدر المال العام وتحدي الاحتلال بحفر أبار عميقة لفك التبعية وإعادة النظر بحجم الأجهزة الأمنية وحصتها في الموازنة العامة. وهذا كله لا يمكن البدء فيه دون إعادة النظر في المنهج التعليمي وفلسفته.

□

## التصفية أو النهوض ولماذا وكيف؟

لقد عرفت القضية الفلسطينية أكثر من 60 مشروع سياسي لم يفلح في حلها أو تصفيتها مثلما عرف النضال العديد من المذابح العسكرية، والآن ترطن الصحافة "بصفقة القرن" الترامبية التي لم يتسرب منها إلا القليل. وهي من ناحية الجوهر إنهاء للصراع العربي - الإسرائيلي وتعبيد الطريق لتحالف أمريكي - إسرائيلي - سعودي - عربي لمواجهة إيران ومحور المقاومة وامتداداته الشعبية في طول وعرض الوطن العربي. ولا يوجد أي حديث عن انسحاب الاحتلال من أراضي 67 أو عودة اللاجئين إلى ديارهم، وتبذر الصحافة وعودات بمساعدة مالية للسلطة بمئات ملايين الدولارات بغية تحسين الوضع الاقتصادي، ومثل هذا الرقم "لا يضمن ولا يغني من جوع" وعن ضم المستعمرات ومساحات من المنطقة C.

إنها صفقة مفصلة على مقياس حكومة تل أبيب. ولم ينفك الضباب يحيط بهذه الصفقة، ولكن أياً كان الأمر، فلسان حال نتنياهو "القضية الفلسطينية ليست الأهم ويمكن إقامة السلام دونها" أو الالتفاف عليها وإن "مفهوم السيادة قد تغير"، أي لا حاجة لدولة فلسطينية ذات سيادة، بما يفتح الطريق لصيغة تكريس الهيمنة الإسرائيلية على المناطق الفلسطينية وإيجاد الترتيبات مع الأردن.

لن تستسلم الإمبريالية لهزيمة المشروع الداعشي وتحاول تل أبيب وواشنطن الإمساك بالمبادرة ثانية بعد أن سقطت حساباتها في سوريا والعراق ولبنان، مرعوبتان من تحوّل إيران لقوة إقليمية. وتأتي "صفقة القرن" ك رأس حربة لتصفية القضية الفلسطينية والانقضاض على محور المقاومة وامتداداته، وهنا تتحقق مقولة بيرس في كتابه الشرق الأوسط الجديد "المال العربي والتكنولوجيا الإسرائيلية..." فهل الساحة الفلسطينية محصنة ضد هذا المشروع التصفوي والذي يتجاوز التطبيع الإسرائيلي - العربي إلى التحالف ضد عدو مشترك؟

من ناحية الوعي الشعبي والوطنية الفلسطينية، فهما على الضد من هذا المشروع مهما كانت تفاصيله. فالشعب بمختلف مكوناته يتوزع على ميلين، دولة وعودة وتحرير كامل فلسطين ودولة ديمقراطية. أما بعض النخب ومراكز النفوذ والمدجنين فيمكن أن يصطفوا وراء الصفقة التي تؤمن لهم مصالح وتطلعات، ولكنهم لا يجرؤون وغير مهئين للانخراط فيها. ولقيادة فتح ورئيسها كلمة الفصل في التجاوب مع هذه الصفقة وتسهيل دوران مجلاتها أو الاعتراض عليها. ولكن بكل تأكيد لن تخلو فتح قيادة وقاعدة من رموز واتجاهات تناهض هذه الصفقة، وحالياً تقف فتح بكليتها ضد هذه الصفقة وتعرض لضغوط لكسر اعتراضها.

وفيما عدا هوامش من نخب طبقية ومتسلقين ومرتهنين فالشعب بأسره وبكامل طبقاته وتياراته في الداخل والخارج يقول لا لهذه الصفقة ويقاومها بكل السبل. فلا خير فيها سياسياً أو تنموياً. فالوطنية الفلسطينية عميقة والشعب يتطلع للحرية، وكانت العقبة الكأداء على امتداد سبعة عقود في وجه مؤامرات الذبح السياسي والعسكري وتجر الخطاب التخديري لأوسلو كما تعاضم الجرأة في الوعي الوطني التي ترفض "عقلية القطيع".

ونظرياً الساحة الفلسطينية إما تذهب بكليتها لمواجهة هذه الصفقة، سواء واجهتها بما تملك من إمكانيات أو اكتفى البعض بالقوة السلبية أي الامتناع عن المشاركة فيها، أو تنقسم إلى اصطفافين؛ من يتساقق ومن يناهض. ولكن اصطفاف المناهضة هو الحاسم والمعلن، أما الاصطفاف الثاني فهو غير ملحوظ ومستتر.



## نهوض الوطن هو الفرضية والخيار المتوقع ولكن كيف؟

الصفقة كفيّلة بإيقاظ الأحياء والأموات معاً، وهي تحدي يستثير إرادة الرفض والمواجهة في كافة تجمعات شعبنا. ولكن الأرض المحتلة 48 و 67 هي حجر الزاوية وساحة المواجهة الأولى، مهما كانت سطوة القمع والملاحقة، فثمة 6.5 مليون نسمة منهم أكثر من 2 مليون فئة عمرية بين 15-35 وتمركز طالبي في الجامعات ومدارس الثانوية يناهز نصف مليون وأكثر من 1.5 في المخيمات، وهؤلاء أسرع تجاوباً مع متطلبات المواجهة، وغابة البنادق في غزة، وريف واسع (بمقاييس محلية) في الضفة مع دور منتظر وكبير للطبقة الوسطى ومشاركة البرجوازية الوطنية التي تغلق الصفقة، أي فرصة للاستقلال السياسي وسيطرتها على السوق.

أما شعبنا في أراضي 48 فهو بين التهديد بالتطهير العرقي أو فرض الخدمة العسكرية أو معاملته "كسقاء ورعاة" دون أي اعتراف بهويته القومية الجماعية أو رفع العنصرية المتعاضمة عن كاهله. ومن المرجح أن يتداخل وأن يتشابك النضال بين شطري الوطن في 48 و 67 وإن تتخلص الفوارق بين التجمعين.

وبالعودة إلى الخبرة الفلسطينية، يمكن تخيل أن تعبر الإرادة الوطنية سواء منظمة أو عفوية، على نطاق عام أو محليات، بتحرّكات شعبية من تظاهرات ومسيرات أو إضرابات وكل أشكال النضال الناعم، كما يمكن تخيل انطلاق النشاطات النخبوية بوتائرهما المتعددة. وعن احتمالات اتساع المواجهة، فمن غير المستبعد أن يستخدم قطاع غزة إمكاناته الجاهزة، وكذا الشعب الفلسطيني في الخارج.

أما إن اندلعت "الحرب الإقليمية" وهذا التعبير لم يعد مستحيلاً بعد أن توّطد حلف الدم بين أطراف "محور المقاومة"، وما يُهبأ له من ناتو جديد أمريكي - إسرائيلي - رجعي عربي، فالكثير من قواعد الاشتباك المألوفة تتنحى وتحل محلها قواعد اشتباك جديدة تسعى لكسر عظام وصياغة مستقبل الإقليم بما في ذلك مستقبل الشعب الفلسطيني. وأخيراً، لعل هذه الحوارية تشكل أرضية، ويمكن الإضافة عليها، في حوارية أزمة حركة التحرر وتجديدها.

## "الكونفدرالية" مشروع سياسي جديد لما بعد أوسلو الأدوات والأهداف وسبل المواجهة

في الأشهر الأخيرة تطرقت لهذا الموضوع في غير جامعة ومناشئة ثقافية. وسواء سُقت على شكل محاضرة أو مقال، سيان بالنسبة لي. فما أعرضه مقارنة تتجاوز مجرد تحليل سياسي.

وسؤال المستقبل لا يخلو من بعض المجازفة النظرية، ذلك أن قراءة الحاضر أو الأمس أكثر يسراً ارتباطاً بتوافر المعطيات والمراجع، أما استشراف الغد فهو يستند إلى التنبؤ باتجاه حركة التناقضات وحسب. والإجابة عن سؤال الغد وإن كان مجازفة غير أنها ضرورة بغية الإمساك بما يحوكه ويرسمه الآخرون لفلسطين وما يوجهه ذلك على الفلسطينيين من وعي واستنهاض للإرادة وبناء للخطط والأدوات. فإن لم يصنع الفلسطينيون مستقبلهم تناغمًا مع أهدافهم وحقوقهم صنعه الآخرون وفق مصالحهم وأهدافهم. والافتراض في هذه المقاربة يزعم أن اتفاق أوسلو وصل نهايته. ولا أضيف شيئاً إذا أبحرت في تعداد وقائعه ونتائجه، فالأدب السياسي والإعلام يفيضان على هذا الصعيد.

ولكن ما ينبغي لفت الانتباه إليه، أن تصريح بيرس ("ان اتفاق أوسلو هو الانتصار التاريخي الثاني بعد إقامة الدولة") قد استنفد طاقته ولم يعد كافياً. كما أن الالتزامات السياسية والأمنية الفلسطينية لم تمنع مواجهات النفق 1996 والجيشان الانتفاضي 2000 - 2005 وما تخلله من اجتياح للضفة الفلسطينية وصولاً إلى صمود قطاع غزة. أما ثلاثة عدوانات هي أقرب لحروب لم تحصد أية نتيجة سياسية من نوع "تغيير سلطة غزة" وكسر إرادة المقاومة "وتجريدها من السلاح" أو إغلاق الانفاق" كما تمتت جهات رسمية احتلالية، مثلها ان كل مرحلة اوسلو واسقاطاتها لم تحل دون المبادرات الفردية والنخبوية على امتداد العام الاخير وما صاحبها من مواجهات.

صحيح ان "اتفاق اوسلو" شق الخارطة السياسية الفلسطينية عموديا واجرى حراكا دراماتيكا صعدت فيه قوى وبهتت فيه قوى وصولا الى اقتتال غزة وانقسام السلطة الى سلطتين والكيان الى كيانين وخلق اولويات

متناقضة للتجمعات الفلسطينية وديناميات تفكيكية للشعب وحقوقه وما توالت عن ذلك من مناخات ثقافية ومعنوية، غير ان مرحلة اوسلو لم تتيح في تصفية القضية الوطنية.

ومثلها اخفقت توقعات واثاق الخارجية الاسرائيلية بعد النكبة / التطهير العرقي 1948 في ان يتحول الفلسطيني لغبار الارض" وان "الكار بومتون والصغار ينسون" ارتفعت صدقية كلمات الشهيد عبد القادر الحسيني "شعب فلسطين سيظل يثور جيلاً بعد جيل الى ان تتحرر فلسطين" فقد اخفق "اوسلو" في تبديد الجماعة الوطنية الفلسطينية واسقاط اهدافها التحررية، بل والاعوام المقبلة مفتوحة على كل الاحتمالات في مواجهة الكولونيالية الاحتلالية.

### عوامل تدفع ومؤشرات تكشف المشروع الجديد

(1) العامل الاساس هو موضوعي ويمثل في استعصاء المسار التفاوضي الاوسلوي بعد اصرار حكومة يمين اليمين بزعامة نتنياهو على فرض اشتراطات لا يستطيع الوفاء بها المفاوض الفلسطيني وقيادته، من نوع، "الاعتراف بإسرائيل دولة لليهود" الامر الذي ينظر الفلسطينيون له مقدمة لطرد جماعي ل 1½ مليون فلسطيني في ال 48، وما خطة برافر في النقب باقتلاع وتجميع 40 تجمع يناهزون 70 الف فلسطيني في 4 مراكز ومصادرة معظم اراضيهم المكونة من 900 الف دونم سوى تزكية لما فضحه البروفيسور ايلان بايه بأن التطهير العرقي لم ينفك بندا على جدول اعمال المستوى الرسمي لدولة الاحتلال.

وكذا رفض المطلب الفلسطيني بتجميد، مجرد تجميد، الاستيطان الاستعماري القافر الذي ابتلع 3% من اراضي الضفة قبل اوسلو واصبح 7% اليوم، ناهيك عن الاغوار بنسبة 28% التي استبعدت تماما عن طاولة المفاوضات والجدار التوسعي الكولونيالي الذي قضم 14% من مساحة الضفة والتي تضم 220 موقع أثري وأهم خزانات المياه الطبيعية.

اما القدس بشطريها الشرقي والغربي فقد اعتبرت "عاصمة أبدية لإسرائيل" بل واصبح عدد المستعمرين اكثر من عدد العرب في القدس الشرقية وجرى توسيعها من 3% في العهد الأردني الى 17% في العهد الكولونيالي وزيادة الوجود الاستيطاني الاستعماري كل يوم وصولا الى اعلان ترامب.

ناهيك عن اسقاط تام لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم واملاكهم وهم الذين يناهزون 6,5 مليون لهم نحو 90% من اراضي 48 حسب الوثائق البريطانية وخرائط الدكتور سلمان ابو ستة التي عرضها على مجلس العموم البريطاني.

وبالتالي، فالقيادة الفلسطينية التي وقعت على "اوسلو" لم تستطع الذهاب لهذه المديات والاستخذاء لهذه الاملاءات، بصرف النظر من الجدلية حول سياسة هذه القيادة وآثارها وبالتالي رفضها لصفقة القرن .

(2) ما اعلنه وزير الجيش السابق ليبرمان بأن زمن "ابو مازن والمحيطين به قد انتهى". وهذا مصطلح امريكي وتم انتقائه بعناية، واذاف عليه لاحقا بأنه "التقى بالفين من رجالات الاعمال الفلسطينيين" دون نسيان شبكة الاتصالات الواسعة بين جهات احتلالية والمجتمع الفلسطيني بما في ذلك داخل قلاع السجون ودعم مالي اجنبي لشركات كبيرة لاهداف سياسية حسبما يصرح اهل المعرفة. اي ان ثمة تحرك سياسي، وعلى اقل تقدير، ثمة ورقة يجري التلويح بها مؤداها (اما ان تنصاعوا او نجد بديلا لكم).

ويبدو ان الكولونيالية الصهيونية تعلمت متأخرة، درس الكولونيالية العالمية عندما احتل "الشمال" واستعمر "الجنوب" في القرنين الاخيرين اذ كان يحرص على تسمين شريحة طبقية محلية لكيما يتفاوض معها او تكون حصان طرواده بعد الاستقلال الوطني، ومن هنا جاءت مقولة "يخرج الاستعمار من الباب ويعود من الشباك" وربما ان كتاب فرائز فانون (معذبو الارض) قد أسس لهذا المنظور.

وفي الحالة الفلسطينية جرى استهداف كافة مكونات وطبقات المجتمع الفلسطيني عام 1948، وكل مكوناته عام 67، وان بتفاوت، ولم ينجح الاحتلال في ابراز قيادات تقليدية منافسة ل م.ت.ف ولم يصمد مشروع روابط القرى، ولا "التقسيم الوظيفي" في أواسط الثمانينات، اما هذه المرة فالتوجه المعلن يأتي على لسان نتنياهو - ليبرمان (العصا والحزرة) المعتدل الذي يخلد للهدوء ويتساقق يكافأ، والذي يناهض يعامل كمتطرف وتنتظره العصا بأنواعها وهذا تقليد أوروبي معروف منذ أواسط القرن التاسع عشر.

وعليه، فرأس حربة المخطط الجديد هو فبركة نخبة فلسطينية جديدة وتصنيع "كغلة تاريخية" لها مع الاعتذار لغرامشي سواء على الطريقة الافغانية أو طريقة مبتكرة. فما هو المشروع السياسي الكامن وراء هذا المخطط؟

## الكونفدرالية

الكونفدرالية، هي الاسم السياسي والقانوني، ويفهم منها اتحاد بين دول مستقلة لها جيوش وسيادة وقانون، تجدد من مصلحتها لأهداف دفاعية او اقتصادية تشكل حكومة مركزية توحد سياستها الخارجية وحيانا القانونية... الخ على ان يكون لكل دولة حق الانسحاب من الكونفدرالية بيسر ودون حروب، ومثال على ذلك دولة الامارات في الخليج او الوحدة المصرية - السورية 1958 او المكسيك في بدايات القرن العشرين. وهناك تجارب اخرى في القرن التاسع عشر.

اما الفدرالية فهي اتحاد في اطار دولة واحدة اندماجية حكما وجيشا ودستوراً مع بعض الصلاحيات لمكونات الفيدرالية كما الحال في روسيا والولايات المتحدة وكندا وسويسرا وبلجيكا، وغير متاح الانسحاب منها طوعا. وفي الحالة المعنية، المشروع المتخيل لا يتسع لدولة فلسطينية ولا جيش فلسطيني ولا سيادة فلسطينية، فهو ترتيب يلائم الكولونيالية الاسرائيلية اولا.

واتفاق اوسلو كان بين القيادة الفلسطينية والقيادة الاسرائيلية، اما اليوم فما يجري التخطيط له هو عملية تراكمية بين نخبة فلسطينية جديدة وسلطات الاحتلال والسلطة الاردنية بدعم من اطراف عربية ودولية تمهد لتطبيع علاقات واصطفاف مناهض لايران ومحور المقاومة اي اتفاق ثلاثي يكفل عدم انسحاب الاحتلال بكافة مظهراته من الضفة ودور ما اردني ونخبة فلسطينية متساوقة، وبشكل اخص في الضفة الفلسطينية. اما اشراك قطاع غزة فهو مشروط باسقاط البندقية ورفع الراية البيضاء او يمكن تجاوزه. وبالتالي يكون الاقتصاد الاسرائيلي هو المركز والمهيمن والضفة هي المستباحة والاردن هو المحيط. ومفيد الاشارة هنا ان مساحة قطاع غزة هي مجرد 6% من مسحة الضفة و 1% من عموم فلسطين وهي مكتظة بنحو 2 مليون نسمة اما الضفة فهي تلامس 3 مليون نسمة. وبالتالي يسقط تلقائيا هدف الدول الفلسطينية وعاصمتها القدس ويفتح المجال لما اقترحه بنت وزير التعليم الاسرائيلي (حكم ذاتي على بعض المناطق وضم المناطق الاخرى).

ويجوز القول ان مشروع قناة البحرين من الاحمر الى الميت بطول 92 كم حيث تقام محطات تحلية ومنشآت بعد 12 كم، وكذا قانون صندوق الاستثمار الاردني الذي شرعن للرأسمال الاسرائيلي الاستثمار في الاردن،

واتفاقات الغاز والعمالة الفلسطينية في المشاريع الاسرائيلية التي تناهز 150 الف... والمشروعات المشتركة في الاغوار خطوات يمكن توجيهها في هذا الاتجاه.

ولئن كانت الحكومة الاسرائيلية بلا رصيد على غرار الادارة الامريكية والحكومات الاوروبية، غير ان الاحتكارات الرأسمالية الاسرائيلية كما الاوروبية والامريكية لديها مئات ومئات المليارات وهي مستعدة للاستثمار حيث نسبة الربحية اعلى، وهذا ما نلاحظه من توجهها للسوق الصينية وبنك البنى التحتية. وما يضاف في الحالة الفلسطينية هو مشروع سياسي بما يتطلبه من قاعدة اقتصادية تجميه وتدعمه. اي مشروع سياسي من فوق ومشروع اقتصادي من تحت. وهو يشعن بالتالي الاستيطان الاستعماري واخراس الاصوات الداعية لرحيل المستعمرين او المطالبة بقدس شرقية عاصمة لدولة فلسطين او استعادة الاغوار و 37 كم من شواطئ البحر الميت ويكف الحديث عن عودة اللاجئين الى ديارهم التي اقتلعوا منها عام 48.. وبالتالي تجاوز العقبات التي أدت الى استعصاء المفاوضات. اما ان سارت عجلة هذا المشروع فالضغوط جاهزة على حكومة الملك في الاردن للتجاوب مع هذا المخطط، او لتنظر لما حصل مع الدول المجاورة. ولا يبدو أن الحكم الأردني متحمس لهذا المشروع حتى اللحظة.

### التفكير الرسمي الكولونيالي

سواء في عهد راين، او عهد نتياهو، او بنود اتفاق اوسلو، لم يتحدث احد عن جلاء الاحتلال او دولة فلسطينية. فبرنامج الليكود صريح (سيادة إسرائيلية واحدة من البحر للنهر) وهناك من يأتلف معه وعلى يمينه، وبرنامج حزب العمل (ترتيبات انتقالية) محورها اتفاق اوسلو (باقامة سلطة فلسطينية للحكم الاداري الذاتي المحدود) مقابل التزامات سياسية وأمنية، تدير شؤون الفلسطينيين وتحصل على مساعدات دولية وعوائد ضريبية... آخذين بعين الاعتبار الانزياح اليميني في "الشارع الاسرائيلي وانحرطة السياسة الاسرائيلية". فما كان يسمى مركز بات يمينيا ومن كان يميني بات أكثر يمينية ومن كان يسار صهيوني بات مركز.

ويتردد في الصحافة العبرية وأصوات كبيرة و"بالغم المليون" "العرب في حالة تدمير ذاتي" "الفلسطينيون قبائل متصارعة وفي حالة ضعف" (الادارة الأمريكية سواء في عهد اوباما الذي (دعم اسرائيل اكثر من سواءه) او (ترامب الذي بفوزه انتهى مشروع الدولة الفلسطينية). وكلا الحزبان الديمقراطي والجمهوري والكونغرس كلها تتسابق لتعزيز السياسة التوسعية الكولونيالية ووصف المقاومة الفلسطينية بالارهاب. وعندما حاول كيري وزير الخارجية "تحريك عميلة التسوية" ادار له نتياهو ظهره فكافأت ادارة اوباما حكومة نتياهو ب 38 مليار دولار كمساعدات للاعوام العشرة القادمة.

وليس دون أساس القول ان السياسة الامريكية فشلت في العراق وسوريا ولبنان، وتخليع بن علي ومبارك فالرياح جرت بما لا تشتهي السفن الأمريكية رغم الدمار والموت. اما روسيا فهي تتقدم في هذه الحلقات، بل وجزئياً في الحلقة المصرية ومن قبلها الايرانية.

ومن المنطقي ان لا تستسلم الادارة الامريكية، ممثلة اليمين المحافظ الانجليكاني والمجمع العسكري الصناعي أولاً، لهذه النتيجة، وان تحاول شق مسار جديد لقلب المعادلات. ومن المتوقع والحال هذه ان تتطابق سياسته ترامب مع سياسة نتياهو وفي الذهن تعاضم قوة النفوذ الصهيوني في أمريكا وتصويت اغلب اليهود لمرشح الحزب الجمهوري خلافا لما دأبت عليه من تصويت الأغلبية لمرشح الحزب الديمقراطي وتتفد الصهاينة في الإدارة الأمريكية. وعليه، ليس ثمة أي توجه إسرائيلي للانسحاب من الضفة الفلسطينية، بل وترتفع نغمة ضم المستعمرات أو معظم الضفة.

## المشهد الفلسطيني – أين تصب أزمة فتح الداخلية

فتح ليس فصيلاً ثانوياً، بل الفصيل الأساس الذي يحكم الضفة، فيما غير استطلاع اشار ان تأييدها في غزة يفوق تأييد حماس بخلاف ما هو الحال في الضفة الفلسطينية. وفي الحركة الاسيرة تناهز 45%. وبقطع النظر عن الاتفاق او الافتراق عن سياسات فتح، فهي، بما تمثله، قوة التوازن في المجتمع الفلسطيني التي تمنع ذهابه باتجاه احادي متشدد، اي انها تلعب دور الطبقة الوسطى، حسب مصطلحات علم الاجتماع، وهي عندما امتشقت البندقية كان لها تأثيراتها الجوهرية وعندما وقعت على "اوسلو" كان لها تأثيراتها الجوهرية أيضاً. فلها

مثل هذه الخصوصية. وما يدور في أروقتها، له اسقاطات دامغة وثقيلة على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني سواء تجددت ام لم تتجدد.

لا غرو أن ثمة تنازعات وخلافات داخل فتح منذ زمن، وفيها مراكز نفوذ عديدة، ولكنها كلها تنضبط لقائد الحركة والجديد ان تهمة التجنيح قد شملت مجموعة من الكادرات المحسوبة على محمد دحلان الذي كان على توافق مع قائد الحركة الى سنوات قريبة الى ان تم فصله وترك للناس تاويلات عديدة لأسباب الفصل. وقد اثبت دحلان قدرة على بناء امتدادات وأنشطة في الشتات الفلسطيني كما في الوطن المحتل و اخر استطلاع في غزه أعطاه 16%.

حتى اللحظة لا يتكلم هذا "الجناح" عن توجهات سياسية مغايرة لسياسية فتح الرسمية، او عن نيته الانشقاق عن فتح. فهو يدعو للاصلاح بعبارات غامضة، فيما اوساط قيادية في فتح تنفي وجود ازمة في فتح.

ومنذ ربع قرن ويزيد لم تعرف فتح انشقاقا، وان عرفت تكالات وتباينات في اطار وحدتها. ويبدو أن مؤتمرها السابع عزز وحدتها مسنوده بسلطه في الضفة وأجهزة أمنية لا يستهان بقوتها والجميع يعلن التفافه حول رئيسها، رئيس السلطة ورئيس م.ت.ف.

ويبقى السؤال: ان ظهر للعيان مشروع سياسي عنوانه الكونفدرالية، خطوة في طريق ترتيب اوضاع اقليمية، هل تبقى السلطة في الضفة واجهزتها وقيادة فتح موحدة؟

اما عندما اعلن رئيس السلطة قبولا لكونفدراليه اسرائليه - فلسطينيه- اردنيه صرح بعد يوم او يومين ملك الأردن ( مع من الكونفدراليه ) ويقصد لا يوجد دوله فلسطينيه .

**هل الشعب الفلسطيني محصن؟**

الشعب الفلسطيني أسوة بكل الشعوب غير محصن، ويمكن العثور على تطلعات زعاماتية ونخب اقتصادية لها روابط ومصالح بالسوق الإسرائيلية، وهناك بيئة واسعة من الفقر والبطالة (نحو 40% بطالة في اراضي 67



وقدر يناهز 60%) ملائمة لكل الاحتمالات من الميل الجيفاري الى الميل التفريطي، يمكن ان تزرع فيها كل الطروحات وهناك ايضا نخب يجري تسمينها منذ وقت عبر التمويل الاجنبي المشبوه، ولا اقول كل التمويل ولا كل النخب.

ويجوز القول ان ثمة ثلاثة تيارات سياسية في اوساط الشعب الفلسطينيين (تيار الدولتين + تيار الدولة والعودة + تيار التحرير والدولة الديمقراطية) اما ثقافيا فهناك تيار اقرب للعلمانية وتيار اقرب للدينية، وهما يضمن اليمين الوطني واليمين الديني والتيار اليساري. وكانت الهوية الغالبة للفلسطينيين قبل اوسلو هي "العلمانية" اما اليوم فهي "الدينية" و ان كانت اغلبية النخب اقرب للعلمانية .

وعن هجوم القوى المنظمة، نجد تقاربا بين فتح وحماس بنحو 35% وتقارب بين الشعبية والجهاد بنسبة 4% وهناك قوى اقل وزناً دون ان ننسى ان هناك نسبة متحركة صعوداً وهبوطاً تتراوح بين 30 - 50% لا تؤيد كل الخارطة السياسية الفلسطينية.

وقد حصل حراك في ثنائية فتح - الشعبية قبل اوسلو فأصبح فتح - حماس بعد اوسلو وفي العدوان الاخير على غزة 2014 كانت الثنائية القتالية حماس - الجهاد. ويمكن القول ان اللوحة الفلسطينية انتقالية ومتداخلة فهي لا تشهد انقساماً سياسياً عمودياً وافقياً مكتملاً. فالمرجبات تتحرك وتتقاطع وتتناقض وفي نفس التقاطع السياسي هناك تناقض ثقافي يتقاطع مع اطراف متناقضة سياسياً، ونفس الحال في المسألة الاجتماعية...

والحال نفسه ينسحب على التركيبة الاقتصادية - الاجتماعية. ففي الضفة وغزة هناك اقل من 6% برجوازية من رجال الاعمال و 30% قطاع صغير وما عدا ذلك عمالا وموظفين وبرجوازية صغيرة في القطاع الحكومي والخاص والانجوزي اما الذين يعتمدون على الفلاحة فهم اقل من 7%. وقوة العمل نحو 1,5 مليون الناشطين قرابة المليون اما الباقي فبطالة اكثر من 50% من خريجي الجامعات.

ويدرس في الجامعات الفلسطينية اكثر من 250 الف طالب اكثر من نصفهم طالبات ومثلهم في سنوات 11 و 12 في المدارس ومن بين 2 مليون نسمة في غزة زهاء 70% لاجئين غالبيتهم في الخيمات ومن اصل 3 مليون نسمة في الضفة اقل من 30% لاجئين غالبيتهم خارج الخيمات.

وساحة الكونفدرالية الاساس هي اراضي 67 وعلى نحو خاص الضفة الفلسطينية، وساحة المواجهة الاساس هي اراضي 67 وعلى نحو خاص الضفة الفلسطينية أيضا في حالة نهوضها اما غابة البنادق فهي اليوم في غزة. ودون تردد يمكن القول ان العامل الاساس في تمرير او اسقاط المشروع الجديد هو مكونات الشعب الفلسطيني، اي العامل الذاتي.

## عقبات أخرى تقف أمام المخطط الجديد

لو انتقلنا من السيناريو الاقتراضي للمشروع الى السيناريو السياسي، فما هي مقومات دحر هذا المشروع الذي هو في عداد مرحله اعلى في الهجوم الكولونيالي لانهاء حق العودة والقضية الفلسطينية.

عرفت القضية الفلسطينية اكثر من 60 مشروع سياسي لتسويتها او تصفيتا، ولكنها اخفقت، فكانت اشبه بالونات اختبار او ادارة ازمة، وهي كلها تقريبا لم تذهب لجوهر القضية. فجوهر القضية هو التطهير العرقي لثلاثي الشعب الفلسطيني عام 48 اما تفريع هذا الجوهر وجوهرة الفرع أي ما حصل عام 67، فيبدو ان ذلك احد الاسباب الرئيسة لفشل هذه المشاريع.

واليوم تنتصب الوطنية الفلسطينية عقبة كؤود، فهذه الوطنية تسعى للاستقلال وتحرير الوطن، وقد عمدت صدقيتها بشلال من الدماء والشهداء ومئات الاف الأسرى وانتاج واعادة انتاج فصائل مقاومة لم تترد في مواجهة كل مؤامرات الذبح السياسي والعسكري.

ويتمتع الشعب الفلسطيني الذي يصل 13 مليون اكثر من نصفهم على ارض الوطن، وفي الضفة وغزة ليس اقل من 2 مليون اعمارهم بين 16-30 سنة، بطاقة تحدي لا حدود لها ومطلب بالحرية لا شبهة حوله.

وهناك تيارات تحررية غير مثلومة في كل الفصائل والقوى والهيئات المدنية، ستواجه لا محالة هذا المشروع، ناهيك عن امكانية توحيد الارادة الفلسطينية في كافة التجمعات وفي المقدمة 48 حيث تنامي الهوية الوطنية والشعور القلق من مخططات التطهير العرقي سيما وقد اشترع قانون القومية اليهودية، فضلا عن غابة البنادق في

قطاع غزة، بما يفسح في المجال، اصطفاقات جديدة واسعة. ولئن كان العامل الذاتي هو العامل الحاسم، فيمكن التحليق الذهني ايضا لابصار متغيرات سديدة عربيا بعد ان انكشف عجز المشروع القطري وتملل قوى لارساء بدايات مشروع قومي نهضوي. على قاعدة انتصارات محور المقاومة و تنامي المواجهه المباشره بين ايران و الحلف المعادي لها. وايضا لا يخلو المشهد الاقليمي والدولي من قوى ومحاور تتعاطف مع النضال الفلسطيني يمكن التفصل معها على قاعدة مناهضة الهيمنة الامبريالية واحادية القطبية.

اما الوضع الراهن الفلسطيني، فهو يتأرجح بين فشل المسار الاوسلوي في تحرير الوطن ووقف سرقة الارض والمياه الفلسطينية والتنكيل اليومي بالفلسطينيين، وبين حصار غزة الخناق حيث يتلازم الفقر والقهر والاحتقان وتحفز ارادة المقاومة، وبين ما يحاك من مخطط تصفوي، وبين جيل شبابي قادر على المبادرة. كل ذلك يضعه على بركان ساخن ومنعطف حاسم، فهو يراكم عوامل تأزمه وانفجاره واكثر ما يفيدته تكتيكا تشكيل مجلس وطني جديد (انتخابا و توافقا) لتجميع كل اطياف ومرجات الارادة الفلسطينية، مجلس يعكس الوحدة والتناقض في آن.

## حق العودة جوهر الصراع

تتمحور هذه الورقة على أن عودة اللاجئين إلى ديارهم وممتلكاتهم هي قضية أصيلة استوجبتها عملية التطهير العرقي التي تعرض لها ثلثي الشعب الفلسطيني عام 1948. ففي سياق العمل المنظم للمشروع الصهيوني لإلغاء الطابع العربي لفلسطين، قام بهدم 530 قرية منها 39 قرية جرى تهجير أهلها الى داخل 48 (الغائبون الحاضرون) فضلا عن هدم ما يمكن من المدن الفلسطينية و بنى مدن استعمارية على أنقاضها، و احلال مستعمرين غرباء محل أهل البلاد الأصليين. وبالتالي أنشئ كيان استعماري عنصري على 78٪ من فلسطين الانتدابية بينما لم يكن لليهود سوى 5.6٪. حسب الوثائق البريطانية من جهة و اقتلاع و تشريد 800 الف فلسطيني، هم اليوم 6.5 مليون نسمة من جهة أخرى.

كان ذلك بالاستناد إلى مقولات زائفة "فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض" و"أن الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض" كما جاء في وثائق الخارجية الاسرائيلية، وأن "الكار يموتون، والصغار ينسون". أما خطة اقتلاع و تهجير الفلسطينيين فقد أعدت عام 1944 عندما كان الجنرال يادين رئيسا للتخطيط في الحركة السرية، أما الجنرال رايبن فقد كتب في مذكراته عن ترحيل نصف مليون عربي بناء على أوامر من بن غوريون.

وهذا أكد عليه مجددا لقاء فايس مسؤول الكيرن كيميت مع شاريت وزير الخارجية في أيار 1948 فاتفقا على الخطة د التي أشار البند الثالث فيها على إخلاء القرى العربية و هدمها، و البند الرابع "على طرد العرب و منع عودة اللاجئين العرب." و ذات الشيء في لقاء فايس مع بن غوريون في حزيران حيث اتفقا على تنفيذ الخطة المذكورة و"توطين اليهود محل العرب و سن قوانين تمنع عودة العرب و محاصرة من تبقى منهم في الدولة، حسبما جاء في مذكرات بن غوريون."

وكانت المذابح والقوة القسرية سلاح اقتلاع الفلسطينيين كما تبين وثائق و معطيات البروفيسور إيلان بايه في مؤلفه التطهير العرقي، وهذه العقلية الاستعمارية العنصرية الإقتلاعية الإحلالية لم تنفك البوصلة الأساس للسياسة الرسمية الاسرائيلية، وقد تجلت على نحو ساطع ليس عام 1948 فقط بل وفي تهجير نصف سكان

الضفة وغزة في حزيران 1967 اللتان لم يتبق فيهما سوى نصف السكان أي 3\4 مليون بعد أيام من الحرب، وفي الإجراءات القمعية الاحتلالية وتدمير ما أمكن من مقومات الحياة بما أفضى لنزيف هجرة لم تتوقف لليوم، إلى أن بات الشعب الفلسطيني منقسم اليوم الى جناحين، نحو 6.5 على أرض الوطن 48 و 67 ونحو 6 مليون في دول الطوق و الشتات.

أما الأرض فمن أصل 78٪ من فلسطين 48 ثمة 3٪ في أيدي الفلسطينيين و في الضفة الفلسطينية جرى توسيع حدود القدس الشرقية من 3٪ ال 17٪ و ضمها بقرار كنيست عام 1981 وإغراقها ب 260 الف من المستعمرين اليهود و دمجها مع القدس الغربية التي احتلت عام 1948 بما فيها 40 قرية فلسطينية تقع في لواء القدس، و مؤخرا اعترف بها ترامب "عاصمة لإسرائيل" ونقل السفارة الأمريكية إليها، يضاف لذلك نحو نصف مليون مستعمر اسرائيلي في الضفة يستولون على 7٪ من الأرض، علاوة على 27٪ هي مساحة الأغوار و 13٪ هي الأراضي الواقعة وراء الجدار التوسعي.

أما قطاع غزة الذي يشكل 1٪ من عموم فلسطين و 6٪ من مساحة الضفة فهو محاصر و مَجَّوع أخلاه الاحتلال دون أن ينسحب منه و ما فتئ يسيطر على السماء و الماء و الحدود و تفتن آتته العسكرية في الاعتداء عليه.

وفلسطين الانتدابية التي تناهز مساحتها 27 الف كم<sup>2</sup> كانت موزعة قبل النكبة على ستة ألوية تضم 16 قضاء، غدت من البحر الى النهر في يد الاستعمار الإسرائيلي، التي تتسابق أحزابه على سفك الدم الفلسطيني (العربي الجيد هو العربي الميت)، أما الفلسطيني فيجرد خطر لا قضية عادلة، و الأحزاب الأكثر يمينية سيما الليكود وائتلافه الحكومي لا تخف برامجها (سيادة واحدة من البحر الى النهر) والوفاء لنهج التطهير العرقي الذي يطل برأسه بوضوح في النقب و قانون القومية اليهودية.

لقد تناولت قضية اللاجئين الفلسطينيين لأكثر من سبعة عقود بما حايثها من تشريد وإذلال ولجوء و عذابات، غير أن الفلسطيني حوّل مخيمات اللاجئين لخدق مقاومة وبؤرة صلبة للنضال الوطني، فن رحم المخيمات ولدت البندقية المقاتلة و من بيئة المخيمات تدفقت طاقات كفاحية لا تتضب. ولا يعوزنا البرهان والشواهد على خاصية الترابط والتضامن بين المخيمات واللاجئين عموما متشبثين بحلم العودة و تربية أطفالهم على ثقافة

التحرير والعودة بما أسقط وهم "الكار يموتون والصغار ينسون". وجاءت مسيرات العودة في قطاع غزة المدفوعة الثمن بالدم والتضحيات مؤثر ساطع على التمسك بفلسطين التاريخية والنفس الطويل لتحقيق هذا الهدف العظيم.

واستطلاعات متكررة كشفت أن الشعب الفلسطيني متشبث بحق العودة، ولم يقل ولو استطلاع واحد أن نسبة الذين يتمسكون بهذا الحق يقلون عن 85٪، أما بين اللاجئين فالاستطلاعات تشير إلى أن 95٪ متمسكون بحق العودة.

أما القرار 194 الصادر عن الأمم المتحدة في 11\12\1948 فنص على "وجوب السماح للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم في أقرب وقت ودفع التعويضات" والإيعاز "للجنة التوفيق تسهيل عودة اللاجئين وتوطينهم من جديد وإعادة تأهيلهم الاقتصادي والاجتماعي ودفع التعويضات لهم"، ومعلوم أن حق العودة للديار هو حق فردي وجماعي مقدس ويستمد شرعيته من الحق التاريخي والطبيعي للفلسطيني في وطنه وأملاكه وأراضي أجداده، وهو لا يسقط بالتقادم ومكفول في المعاهدات والاتفاقيات الدولية ومنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان 1948 الذي جاء في مادته رقم 13 "أن لكل إنسان الحق في العودة لبلاده" وتأكد ذلك في اتفاقية جنيف الرابعة أيضا.

وجاء تأسيس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في كانون أول 1948 كشاهد دولي على حقيقة اقتلاع الفلسطيني من وطنه، ومسؤولية دولية لتغطية تكاليف عمليات الوكالة التي باشرتها في أيار 1950 بتقديم ما هو دون الحد الأدنى من الملابس والغذاء والرعاية الطبية والتعليمية في خمسة مناطق هي قطاع غزة والأردن والضفة الفلسطينية ولبنان وسوريا دون أن يشمل ذلك اللاجئين في الأقطار العربية الأخرى والمهجرين داخل 48 الذين يناهزون اليوم 300 ألف يتوزعون على 40 بلدة وتجمع ويشكلون 40٪ من مدينة الناصرة العربية.

وفي الوقت الذي راوغت الحكومة الاستعمارية الاسرائيلية منذ عام 1949 عندما استدعى مندوبها الى الجمعية العامة وأبدى (الاستعداد للتجاوب مع موضوع اللاجئين في حالة الاعتراف بإسرائيل عضوا رسميا في الأمم المتحدة) وعود بن غوريون في مؤتمر لوزان بإعادة 100، وتكرار هذا الوعد في وثيقة جنيف بإعادة 100 ألف من الجيل الأقدم، دون أن يعود ولو فلسطيني واحد، فهي لم تنفك تراوغ لهذا اليوم. وفي "اتفاقية أوسلو"

جرى ترحيل القضية شأن القدس والمياه والأرض والحدود، وبصرف النظر عن الائتلاف الحاكم في تل أبيب فالعقل الرسمي الصهيوني يغلق الباب أمام عودة اللاجئين الفلسطينيين. وقد نلخص رئيس الاستخبارات العسكرية الأسبق شلومو غازيت هذه المسألة بالقول:

١- ان مئات آلاف العرب تركوا البلاد عام 1948 لأنهم غير متمسكين ببلادهم. وإن وعيا متزايدا قد نشأ في أوساط م.ت.ف بأن العودة باتت غير واقعية.

٢- العودة تعني تفويض النسيج المجتمعي لإسرائيل و تهديد للدولة اليهودية.

٣- ضرورة توطين اللاجئين في البلدان العربية.

٤- إيجاد حلول اقتصادية لا سياسية لقضية اللاجئين.

٥- استبدال الأونروا بالدول المضيفة.

أما خطة شامير 1989 فقد اقترحت "حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين على أساس أنها مسألة إنسانية، والعمل على تخفيف تعاستهم وتحسين الأوضاع المعيشية لهم"، غير أن مؤتمرات حق العودة ولجان العودة تذهب لمنحى معاكس، وعلى سبيل المثال المؤتمر الذي شارك فيه 19 من مخيمات الضفة عام 1995 بحضور جيل النكبة وجيل الانتفاضة المجيدة وقوى سياسية ومجتمعية أكد "أنه من رحم الجوع ولدت الثورة، أن قضية اللاجئين خط أحمر لا يمكن تجاوزه، أنها القضية المركزية وهي قضية سياسية لا اقتصادية، رفض التوطين والتعويض، العودة للديار حق فردي وجماعي مقدس". فالعودة محط إجماع لدى مخيمات اللاجئين في الوطن والشتات، بل محط إجماع فلسطيني، أما إن وجدت نخب فلسطينية لديها القابلية للتفريط بحق العودة لقاء دولة، فالدولة ليست على جدول أعمال قادة الكيان الصهيوني وإدارة ترامب، وكل ما فعله أوباما الرئيس الأمريكي السابق ووزير خارجيته كيري هو خداع القيادات الفلسطينية التي لهت وراء الحل السلمي، ومسار تسوي لربع قرن لم يفرض لذلك (فنن ثماركم نعرفكم) فلا دولة ولا دولة بحدود مؤقتة، ولا انسحاب ولا مجرد وقف الاستيطان الاستعماري.

وعليه، وبصرف النظر عن الانقسام السياسي حول "أوسلو" وانقسام "سلطة أوسلو" إلى سلطتين في الضفة وغزة، فإن الاصطفاف حول حق العودة يمكن أن يكون قاسماً مشتركاً لكل اللاجئين ومعظم إن لم يكن كل الخارطة السياسية الفلسطينية. فهو جوهر القضية الوطنية، بما يتعين عدم تفريع الجوهر وجوهرة الفرع. فأراضي 67 هي الفرع أما الجوهر فهو فلسطين 48، ونفس الشيء يقال عن وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التي تعمل إدارة ترامب بدأب لتجريفها وشطبها، وبتظاهرات ذلك الدعوة لإعادة تعريف اللاجئين الفلسطيني بما لا يشمل الابناء والأحفاد وبالتالي حصر اللاجئين بعشرات الالاف، وكذلك وقف الالتزام الأمريكي البالغ 360 مليون دولار سنويا من أصل 1.2 مليار دولار هي الموازنة السنوية لوكالة الغوث، بيد أن جهود متعددة أفلحت هذا العام في التغلب على الأزمة. ومن المتوقع أن تتكرر المحاولات الأمريكية لاحقاً.

وخلافا للموقف الأمريكي المعادي لفلسطين وشعب فلسطين فقد عرّفت الأمم المتحدة اللاجئين الفلسطيني في قرار الجمعية العامة في 12\1949 (أنه الشخص الذي كانت فلسطين محل إقامته العادية مدة لا تقل عن سنتين قبل نشوب الصراع العربي - الإسرائيلي مباشرة عام 1948 وفقد دياره ومورد رزقه) ويمكن ملاحظة النقص في هذا التعريف لأنه يتجاهل الذين كانوا خارج الإقليم قبل هذا التاريخ وكذا الذين هجروا من أراضيهم وقراهم داخل 48 (الغائبون الحاضرون).

أما الموقف الفلسطيني وكما جاء في الميثاق الوطني فقال: "الفلسطينيون، هم المواطنون العرب، الذين كانوا يقيمون إقامة عادية في فلسطين حتى عام 1947 وكل من ولد لأب عربي فلسطيني بعد هذا التاريخ داخل فلسطين أو خارجها"، وأضافت المادة 19: "أن تقسيم فلسطين الذي جرى عام 1947 وقيام إسرائيل باطل من أساسه مهما طال الزمن"، وفي المادة 29: "م.ت.ف مسؤولة عن حركة الشعب الفلسطيني في نضاله من أجل استرداد وطنه وتحريره والعودة إليه وممارسة حق تقرير مصيره".

ومن جانب آخر أشار بيان لجان العودة إلى أنه سيتواصل الكفاح إلى أن يعود اللاجئين إلى أملاكهم وديارهم وأية اتفاقات سياسية لا تكفل حق العودة هي باطلة وغير ملزمة، فلكل عائلة لاجئة حقوق وممتلكات وفلسطين هي وطن لكل الفلسطينيين وليست ملكا لقيادة سياسية أو جيل دون غيره.



وفي البعد الأممي نص قرار الجمعية العامة 11\1981: "ليس هناك حل عادل وشامل إذا لم يراع حق اللاجئين العرب في العودة الى ديارهم التي هجروا منها). وفي أيلول 1985 جاء (إن التدابير الرامية لتوطين اللاجئين الفلسطينيين في الضفة وغزة بعيدا عن ديارهم وممتلكاتهم التي شردوا منها يشكل انتهاكا لحقوقهم غير القابل للتصرف في العودة". وقرار عام 1996 نص على أن: "من حق اللاجئين الفلسطينيين في ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة وحماية حقوقهم في التمتع بملكيّتها".

فيما المعاهدة الدولية للحقوق المدنية والسياسية نوهت "أن حق العودة لا يسقط بالتقادم" فهو "حق مطلق" حسب اتفاقية دايتون وكرواتيا فضلا عن المعاهدة الدولية لإزالة التمييز العنصري التي أفادت في مادتها الرابعة بأن "الحق في مغادرة أي بلد بما في ذلك الشخص نفسه و العودة لبلده".

أما القرار الأكثر شهرة فهو القرار 194 الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في 11\12\1948 بناء على تقرير الكونت برنادوت الذي اغتالته أيدي صهيونية، ولأن الأمم المتحدة لم تنفذ القرار 194 القاضي بعودة اللاجئين أنشأت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين.

لا يحتاج إلى شروحات القول إن اللاجئين الفلسطينيين يناهزون 6 مليون نسمة وتزيد أراضيهم عن 70٪ من جغرافية فلسطين الانتدابية ونحو 90٪ من فلسطين 48 (الكيان الصهيوني) بينما لجنة التوفيق الدولية التي تشكلت عام 1949 لتوفير الحماية وتسهيل عودة اللاجئين تنفيذ (أن 80٪ من الأراضي والأماكن العربية) وهي تخضع لقانون أملاك الغائبين التي أجازت لاحقا تشريعات اسرائيلية بيعها للقطاع الخاص.

ولم تلتزم الحكومة الاسرائيلية بهذا القرار شأن عدم التزامها ببروتوكول لوزان في أيار 1949 الذي نص البند الرابع فيه "على عودة اللاجئين وحقوقهم في التصرف بأموالهم والتعويض للذين لا يرغبون بالعودة"، وكذا قرار الجمعية العامة 11\1974 الذي أكد "على حق تقرير المصير وحق الفلسطينيين الثابت في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم التي شردوا عنها واقتلعوا منها" وشيء مشابه في قرار الجمعية العامة 5\1976 الذي أكد على حق العودة للديار بناء على القرار 194.

من "أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين وأن العمل الفدائي هو نواة حرب التحرير الشعبية، وأن الشعب الفلسطيني يرفض كل الحلول البديلة عن تحرير فلسطين" جاء في الميثاق الوطني، أعلن رئيس منظمة التحرير أبو عمار في رسالته لرايين رئيس الحكومة الاسرائيلية في 13\09\1993 "الاعتراف بحق دولة إسرائيل في الوجود والعيش بأمن وسلام وموافقة م.ت.ف على القرارين 242 و338 والالتزام بمسيرة السلام والتخلي عن الإرهاب وعن أي عمل من أعمال العنف." وأصبحت لاغية مواد ونقاط الميثاق الوطني التي تنكر حق إسرائيل في الوجود وأيضا نقاط الميثاق التي تتعارض مع التعهدات الواردة في هذه الرسالة. نظير ذلك رد رايين: "أود أن أعلن لكم أنه في ضوء تعهدات م.ت.ف الواردة في الرسالة فقد قررت الحكومة الاسرائيلية الاعتراف ب م.ت.ف كممثل للشعب الفلسطيني" أي الاعتراف بدولة الكيان لقاء الاعتراف بالمنظمة!

وهذا فسره الدكتور أبوسته\* بأنه "إلغاء وتعديل الميثاق يعني إلغاء حق تقرير المصير وحق العودة والهوية الفلسطينية" أما بلال الحسن فرأى "أن التعهدات الفلسطينية يترتب عليها الإقرار بأن فلسطين هي الوطن القومي لليهود من خلال إسقاط البنود التي تتحدث عن الحق التاريخي الفلسطيني في أرض فلسطين بما يؤدي الى نفس فكرة حق العودة للاجئين الفلسطينيين" وهذا بالتالي يشمل إلغاء ما جاء في الميثاق "يعتبر باطلا وعد بلفور وصك الانتداب وما ترتب عليهما من دعوى الترابط التاريخي والروحي بين اليهود وفلسطين، وأن الصهيونية حركة سياسية مرتبطة عضويا بالامبريالية العالمية وهي حركة عنصرية وعدوانية وتوسعية، وأن النضال الفلسطيني يستهدف استرداد وطنه وتحريره والعودة إليه."

وهذا الانعطاف في الفكر السياسي مهد للتوقيع على "مبادئ أوسلو" بإقامة مجلس إداري للحكم الذاتي المحدود وشرط "التنسيق الأمني" بمنع وملاحقة المقاومة الفلسطينية والتوقيع على اتفاقية باريس. ولكن سبق ذلك الفصل بين التحرير والعودة، إذ كان يتماهى في الفكر السياسي الفلسطيني ومركزه الميثاق الوطني (التحرير والعودة) فالتحرير يشمل عودة اللاجئين إلى وطنهم التي أشارت المرحلية التي تبناها المجلس الوطني في دورته 12 (العودة والدولة وتقرير المصير) فأصبح للعودة حيزا منفصلا وغير مرتبط بالتحرير. وهذا فهمته قوى

فلسطينية بأنه هدف مرحلي على طريق التحرير وقوى أخرى خاتمة للنضال الفلسطيني بما مهد للاعتراف بإسرائيل.

وأبعد من ذلك، ففي وقت انتقل الشعب الفلسطيني للهجوم الانتفاضي في أواخر 1987، أفضي بيان الاستقلال في الدورة 14 للمجلس الوطني 1988 للقبول بالقرار 242، الذي كان شرطاً أمريكاً كتوتئة لمشاركة م.ت.ف في أي مؤتمر دولي، الأمر الذي عبد الطريق لمسار مدريد - أوسلو أما العودة وتقرير المصير فهما يتحققان في إطار الشرعية الدولية والتسوية السياسية وليس الكفاح المسلح والتحرير، وإن كان هنالك قوى تحفظت على القرار 242 وظلت تؤكد على الكفاح المسلح.

أما ثلاثة الاثافي والمصائب فهي التوقيع على "مبادئ أوسلو" في تشرين اول 1993 ومصادقة المجلس الوطني في دورة نيسان 1996 على اعتراف المنظمة بإسرائيل وما يتصل بذلك، فجرى ترحيل حق العودة. ومما جاء في الاتفاقية (أن هدف المفاوضات الاسرائيلية-الفلسطينية ضمن عملية السلام في الشرق الأوسط أن تؤدي لحل نهائي على أساس قراري مجلس الأمن 242 و 338... وأن المفاوضات النهائية سوف تعالج قضايا القدس، اللاجئين، المستوطنات، الحدود..). وبالتالي تشكيل لجنة رباعية فلسطينية - مصرية - أردنية - اسرائيلية خاصة باللاجئين والتي أشارت اجتماعاتها في 1996 وبعثت الى اهتمامها بالقضايا المعيشية والصحية للمخيمات.

ليعلن باراك رئيس الحكومة الاسرائيلية الأسبق في مفاوضات كامب ديفيد عام 2000 بمشاركة عرفات رئيس منظمة التحرير وكلينتون الرئيس الأمريكي "رفضه عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم حسب القرار 194 ورفض الاعتراف بأملاك الغائبين، مع استعداد اسرائيلي للمساهمة في صندوق دولي يعنى بشؤون اللاجئين مع عودة رمزية لبعض منهم".

ولكن هذا لم يكن الوجه الوحيد، إذ كان هناك وجهاً آخر هو تعاضم ثقل التيارات السياسية والشعبية التي تمسكت بهدف التحرير وحق العودة ورفض الاعتراف بالكيان الصهيوني والتطبيع معه. وهنا طرأت تحولات راديكالية على انخراط السياسة الفلسطينية، فن ثنائية فتح - شعبية وباقي الفصائل في إطار م.ت.ف الى ثنائية فتح - حماس وباقي الفصائل، وتراجع وزن فتح والشعبية وانقسمت سلطة أوسلو الى سلطتين وتحول

قطاع غزة الى غابة بنادق وصموده في ثلاثة حروب لم تحصد فيها الترسانة العسكرية الاسرائيلية العدوانية سوى الفشل.

## الجديد

لقد وصل مسار أوسلو الى نهايته، فلا دولة ولا انسحاب ولا وقف استيطان استعماري، بل استباحة لكل ماهو فلسطيني، فتبددت أوهام التسوية بأنها ستفضي لحل يعيد بعض الحقوق للفلسطينيين. وذهبت إدارة اواما وحلت محلها إدارة ترامب الأكثر يمينية فنقلت السفارة الأمريكية للقدس واعتبرتها بشرطها عاصمة لإسرائيل متناغمة في ذلك مع الإجماع الصهيوني وحكومة نتياهو.

ورغم الخرائب في الساحة الفلسطينية والانقسامات أجمع الفلسطينيون على رفض صفقة القرن الترابمية التي أعلنت نذرها بضم القدس والعقوبات المالية على وكالة الغوث ومن قبلها على السلطة الفلسطينية واعلان السيادة الاسرائيلية على الجولان وسوى ذلك.

وتبدل الإدارات الأمريكية لايعبر من استراتيجيتها الداعمة على كل الصعد للكيان الصهيوني، فهو الجوهرة والخنديق المتقدم، ولم يتبدل الموقف الأمريكي منذ خمسينيات القرن الماضي والداعي لتوطين اللاجئين الفلسطينيين بمساعدة مالية امريكية، وتكرر ذلك في الستينات وعشية الانتفاضة الشعبية 1987 عندما تقدم ريغن بتصوره لتوطين اللاجئين الفلسطينيين وإنشاء صندوق مالي دولي لهذا الغرض.

أما الموقف الشعبي الفلسطيني فقد تجلى في استطلاع في أواخر 1993، الذي قال فيه 95٪ لا للتوطين خارج الوطن، وفي مؤتمر الفارعة الذي أكد على حق العودة للديار حق مقدس وملك للأجيال. إنه لأمر طبيعي، إذ لا يوجد شعب في التاريخ باع وطنه، وكما يترأى فمعركة العودة لم تبدأ بعد، وشرارتها هي مسيرات العودة في قطاع غزة المستمرة منذ عام وأكثر.

أما قانون الدولة القومية اليهودية فقد قرع جرس الإنذار للفلسطينيين سيما داخل أراضي 48 بأن مخطط التطهير العرقي على طاولة القيادة الصهيونية، بما يغذي الوطنية الفلسطينية ويوحد الإرادة الفلسطينية في كل مكان على قاعدة وحدة الشعب والأرض والمصير.

أما التحولات في الإقليم سيما انتصارات محور المقاومة فإنما تمهد لانطلاق مشروع نهضوي عربي، سيما وقد تراجع النفوذ الإمبريالي وسقط إلى غير رجعة المشروع الداعشي كما المشروع العثماني جنبا إلى جنب مع استنفاد المشروع القطري لطاقة استمراره.

إن إقليم الشرق الأوسط على أبواب تغييرات كبرى والعالم بأسره على أبواب تغيرات كبرى بما يضعف القبضة الإمبريالية وقبضة الحلفاء والتوابع، وهذا يصب في التحليل الأخير في طاحونة النضال الفلسطيني، بما يستوجب أول ما يستوجب وضع حق العودة على رأس الأجندة فهو الحلقة المركزية في النضال التحرري الفلسطيني، ودون العودة يستمر الصراع. أما أية إغراءات أو ضغوطات على اللاجئيين الفلسطينيين وعلى مجمل الشعب فلن تفضي للتفريط بحق عودة اللاجئيين الفلسطينيين إلى ديارهم وممتلكاتهم.

## نعم، الشعب الفلسطيني قادر على الصمود والتصدي للمرحلتا

جرفت هزيمة حزيران 67 معها نصف الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة، ولم يتبق في الأولى سوى نصف مليون وفي الثانية ربع مليون، فيما الطبقة الوسطى المتعلمة كانت مجرد نخب مبعثرة، ومع ذلك فالأراضي المحتلة عام 67 كانت ساحة مقاومة وهذا حال شعبنا في دول الطوق حيث كان مركز ثقل البندقية في الأردن.

أما اليوم فيلامس سكان الضفة وغزة خمسة ملايين وطبقة وسطى واسعة (20% من قوة العمل حسب الدكتور جميل هلال)، وهناك نحو 250 ألف طالب وطالبة في جامعات الوطن، ناهيك عن مليون ونصف في 48 يتعرضون ليس لتمييز عنصري فقط، بل ولتطهير عرقي سيما في النقب. وهناك أكثر من ستة ملايين في

الشتات نصفهم في الأردن. وكل هؤلاء تجمعهم مها تفاوتت ظروفهم ومطالبهم المباشرة هوية وطنية واحدة وروابط تضامنية وأهداف مشتركة.

وخصوصية الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة أنه التجمع الأكبر الذي يجثم على صدره احتلال عسكري كولونيالي عنصري اجلائي يصادر أرضه يوميا ويستبيحه على كل الصعد. فهو المستهدف الأول، مثلما أنه المرشح أكثر من سواه للمواجهة بعد أن انتقل مركز ثقل القضية الوطنية للأراضي المحتلة عام 67.

والمعطيات تتحدث عن زيادة طبيعية تصل 6% ومدارس تضم مليون وأكثر أعمارهم بين 16-26 سنة، وطبقة عمالية تصل 20%، ونساء يخترطن في سوق العمل بما لا يقل عن 18% من قوة العمل بينما النسبة 25% في القطاع الحكومي.

أما التمركين الكبيرين فيقعان في مدن الضفة بما لا يقل عن 40% من السكان و55% في مخيمات غزة (نسبة اللاجئين 67%). فالشعب ليس مشتتا في مناطق جغرافية متباعدة ونائية، وبتدرج تتكون طبقاته وفتاته، أما مركباته السياسية فهي قوية النفوذ والخبرات. وهذا كله يجعل من المتعذر تبديده (سيتحول الفلسطيني لغبار الأرض) وثائق الخارجية الإسرائيلية بعد النكبة. ومهما اشتد ظلام المرحلة السياسية، فثمة خمسة ملايين لا يمكن ازاحتهم من التاريخ، وهذا حال الشعب عموماً، وله متطلبات وجودية وبنوية لا مهرب منها (تعليمية، صحية، تنمية، و... واستقلالية). إذ أن اسكات الشعب "بعلفه" برواتب شهرية هو مجرد وهم ... قيل عن المخبرات الأمريكية أنها كانت تحمل حقائب مملوءة بالدولارات لاستمالة زعماء القبائل الأفغانية ... هذا لا يفيد كثيراً في فلسطين)، وأحد مؤشرات ذلك أن غالبية الأسرى الذين اعتقلتهم سلطات الاحتلال بناء على نشاطهم المقاوم إنما يعملون ويتلقون رواتبهم. ووعود تحويل مناطق السلطة لتمر من النمر الأسود السبعة كما روجت بعض الأقاليم أيام التوقيع على "أوسلو" وخطة كيري في البحر الميت وسوى ذلك لم تمنع تفاقم البطالة والفقير... بل وثمة إجماع لدى الأوساط الأكاديمية والاقتصادية ان التنمية الحقيقية مشروطة باستقلال حقيقي.

فالطلب الوطني الاستقلالي هو مطلب أصيل لا يمكن الاحتيال عليه. ورغم كل الانتقادات للقيادة الفلسطينية، كيف نفسر أن المفاوضات قد استعصت ووصفها رأس السلطة "أنها غير مجدية" ألا يعني ذلك أن المخطط الاحتلالي لا يتسع حتى لمطالب النخب الأكثر اعتدالا وبراغماتية!

السياسة الاحتلالية لا تعترف إلا بسيادة واحدة من البحر إلى النهر، وبقدس واحدة وبتوسيع استيطاني وتكريس للجدار وضم للأغوار و... وهذا كله لا تقبل به الخارطة السياسية الفلسطينية بكليتها من اليسار إلى اليمين وكيف نفسر أن يخوض قطاع غزة ثلاث معارك كبرى 2008 و 2012 و 2014 دون أن تنكسر ارادته بل وبات يتمتع بقوة ردع ميدانية لا تستخف بها القيادات العسكرية الاحتلالية بعد أن تكبد جيشها عشرات القتلى في العملية البرية في العدوان الأخير؟ أي أن اجتياح غزة بات في ذمة التاريخ.

وفي ظل انسداد افق التسوية، وازدياح الشارع الإسرائيلي نحو اليمين المتطرف وتنامي النزعات الدينية، من يستطيع أن يضبط الشارع الفلسطيني حسب "التوقيت الإسرائيلي" حتى في الدوائر الأكثر التزاماً بالقرار الرسمي؟ ألا يوجد أكثر من 300 عنصر من الأجهزة الأمنية الفلسطينية في سجون الاحتلال. أليس نصف الحركة الأسيرة تقريباً من فتح!

ومن يستطيع أن يكبح آلية التمدد الداعشي في المجتمع الفلسطيني، بعد أن أحرز انتصارات باهرة بالسيطرة على أكثر من نصف العراق وسوريا في زمن قياسي؟ ليس ثمة مجتمع في العالم محصن من التطرف بما في ذلك المجتمع الأمريكي.

وتأسيساً عليه، لا توجد قوة قادرة على إبادة الشعب الفلسطيني أو الالتفاف على حقوقه أو تفكيك بناه ومنظومة وجوده... فصموده تحصيل حاصل، وهذا الصمود هو مقدمة انطلاق ارادته لصناعة مستقبله. ومهما اختلقت موازين القوى، ومهما تحسنت دينامياته، فقوة الحياة لديه، شأن أي شعب آخر، ستشق أديم الأرض لإنبات أجيال جديدة وقيادات جديدة. فهذا منطلق الحياة.

ومثلها أثار شعبنا الطريق عندما نفشت عتمة الأنظمة العربية عام 67، فهو قادر، بل هو مجبر أن يشق الطريق ثانية يحفزه درس الطازج للتحوّلين الكبيرين في تونس ومصر. فالسياسة جبر لا حساب. وبالتالي، فالشعب لا يتشبث بحق العودة فقط، بل وقادر على المواجهة من أجل كافة حقوقه وأهدافه.

# الفصل الرابع: اقتصاديات



## مداخلتة في علم الاقتصاد

أصبوحة طيبة،

أحدكم اقترح علي أن أذهب للاقتصاد فيما كنا نتمشى في الساحة أول أمس، في سياق حديثي حول العولمة. وهذا ذكرني بنصيحة الحكيم قبل نحو عقدين ويزيد "علينا أن نقرأ ريكاردو وآدم سميث والكينزية ...".

ولكي يكون الأمر جلياً، ليس ثمة فرصة لفهم سياسي متسق دون فهم متسق لعلم الاجتماع، ولا متسع لفهم متسق لعلم الاجتماع دون فهم صحيح لعلم الاقتصاد، وهذه كلها تتطلب منظوراً فلسفياً وخلفية فلسفية. وأظنكم لاحظتم في "أمسيات الأكاديمية" أقصد سلسلة المحاضرات التي عرضتها مساءً قبل نحو شهرين أو ثلاثة حول النظر العقلي أو المنهاج، ذكرت غير مرة أهمية الفلسفة "كعلم العلوم" التي تحضر في خصوصيات كل علم. وبعضكم كان حاضراً في تلك الأمسيات.

ومثلها أن المجتمع بنية فالفكر بنية كذلك. ولكن في الجامعات المحلية والرأسمالية عموماً لا يدرسون الطلبة على هذا النحو، بل يفصلون الاقتصاد عن السياسة والسياسة عن الاجتماع، وعن الثقافة والتاريخ وهكذا وصولاً إلى فصل الفلسفة وجعلها مقولات يجري صياغتها في أبراج عاجية ... وهذا يفتقد للرباط فيما بينها ولا يساعد في تكوين فهم علمي، بل تجزئتي، وهذا مقصود، أي تعمية الطلبة بدل توعيتهم.

أما في المدرسة الماركسية، فالأمر على نحو مغاير. ولا ازمع أنني في هذه المحاضرة سوف أجسر المسافات وأستوفي الموضوع من كل جوانبه، وإنما سأكشف الترابط، ولكن بالتركيز على الاقتصاد، أو بصورة أدق على النظريات الاقتصادية، كونها عنوان المحاضرة. وفي النقاش أضيف، وإذا عدنا لهذا الموضوع مرة أخرى سوف استفيض. وهذا مرهون بمدى تجاوزكم وجاذبية الموضوع لكم.

لا يجهل احد أن أكثر الموضوعات جاذبية لكم هي المتعلقة بالسياسة والتحليل السياسي، كوننا نعيش السياسة يوميا ونتنفس سياسة كل وقت. ولدى الجميع خلفية ما تجعله أكثر تفاعلاً. ولكن كما نوهت ثمة بنية والشخصية الفكرية التي نحاول تأسيسها أو تعزيزها داخل السجن هي شخصية فكرية شاملة أو على أقل تقدير غير مجتزأة. ودون ذلك لن تصمد قناعاتنا أمام طوفان النظريات والإعلام والأدوات التي تضخها الرأسمالية بانتظام ومنهجية في عقول البشر عبر الوسائل المتنوعة والطاغية، كما لن تصمد أو بصوره أدق لن تستطيع أن تكون قوة تغيير في بنية فكرية وثقافية تقليدية وجبرية حملها الموروث لنا منذ مئات السنين وهو معشش في كل ما تتعلمه في المدارس وفي معتقداتنا والطقوس والتربية العائلية والتعبئة المثابرة للقوى السياسية المنحازة لهذه البنية بصرف النظر عن التفاوتات فيما بينها، ومدى الانفتاح والانغلاق في صفوفها، وإن كنت ألحظ أن التيار الأقوى والأكثر انتشاراً هو الأقل انفتاحاً على حرية العقل والحق بالتفكير وما نتج عن ذلك من معطيات معاصرة.

وهذه المعضلة يعاني منها الشرق الأوسط على نحو أخص وليس جنوب آسيا وأوروبا أو الأمريكيتين أو معظم إفريقيا. وطالما نتخذ في جبهة القتال من اجل الحرية ومن اجل الحقوق الجماعية والفردية ومشروع انهاء استغلال الانسان لأخيه الانسان وإنهاء القهر القومي والجنسوي، بما يتطلبه ذلك من مشروع تنموي شامل ومستدام، فلا مهرب من بناء المحركات الفكرية في رأس كل واحد فينا، التي تشكل انتماءً وانحيازاً وقدرة سجالية مشفوعة باحلام كبرى للمستقبل. إننا دعاة تجاوز الحاضر والمضي للمستقبل، الذي صنعتة شعوب أخرى، ولكن بخصائصها القومية.

وواقعنا العربي والفلسطيني في غنى عن الشرح، وهو بحاجة ماسة، بل ضرورة وجودية، أن يشرع بعملية ثورية تهدم وتبني؛ تهدم كل ما يعيق، وتبني كل ما يطلق الطاقات ويحرر الإنسان كفرد وجماعة.

من هنا أنطلق، ماذا سأقول في محاضرة ارتجالية أحرص أن تكون متسلسلة ما أمكن؟

وبالمناسبة، إذا كان أفلاطون قبل 2300 سنة تقريباً قد عرف السياسة، ضمن حيثيات زمانه، ولمعت أسماء فلسفية إغريقية وصينية وهندية، في تلّم المرحلة وقبليّذ، فعلم الاقتصاد ليس واضحاً في مقولات المجتمع الإقطاعي والرقي، أو بصورة أكثر حسماً في مرحلة ما قبل التحول الرأسمالي وحلول تشكيلة اقتصادية اجتماعية

رأسمالية، نتوجت بعد انتصار الثورة الفرنسية 1789 وتأسست جذورها مع الانتقال للصناعة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ومنعطفها الأكبر بعد ذلك تزامناً مع الثورة الصناعية التي تركزت تماماً في القرنين التاسع عشر وما صاحبها من ثورة علمية واستكشافات واختراعات وما نتج عنها بالتالي من نظريات باتت تدرس أكاديمياً في الجامعات الأوروبية (كون أوروبا هي وطن الثورة الصناعية) والمجتمعات التي سارت على هذا الدرب في مختلف القارات، مع التفاوت الزمني فيما بينها، إذ عرفت المستعمرات، بما فيها المنطقة العربية تاريخاً مفوتاً تأخرت فيها التحولات البرجوازية الاقتصادية الإجتماعية ارتباطاً بفقدانها السيادة السياسية وعدم استثمار ثروات العرب في خدمة الأمة العربية. حيث جمدنا الزمن العثماني أربعة قرون ونهينا الاستعمار الغربي بعدها وحرص على تجزئتنا. ناهيك عن قصور الدينامية الداخلية على امتداد القرون، ولم نتحرر من هذا الإرث الثقيل حتى اليوم، وإن كنا نتحررنا منه جزئياً. بل وضاعت فلسطين كأحد تجليات التخلف العربي بما فيه الفلسطيني وجرى تفتيت الأمة.

ولئن كانت بدايات الصناعة قد ظهرت في إيطاليا، غير أن النهضة الصناعية الحقيقية انطلقت في بريطانيا. إذ أن نهوض الزراعة في القرن الثامن عشر في الأرياف تطلب آلات ومعدات وعقول الأمر الذي استدعى إنتاجات صناعية وتعليمية، وقد ارتبط ذلك بما راكمته بريطانيا من فائض المستعمرات، وهي الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، ومستعمراتها تشمل الهند في أقصى الشرق إلى أمريكا الشمالية في أقصى الغرب، وما بينهما هنا وهناك، فنهبت شركاتها ثروات الشعوب.

طبعاً لقد ارتبط بهذا التحول الانعطافي ثقافة موازية، كالإدخار والدأب على العمل، ورحابة العقل الذي استوعب المنجزات العلمية، جنباً إلى جنب مع الشعور بالتفوق (الشوفينية) والنظرة الاستعمارية التي لا تتورع عن إبادة الغير إذا لزم الأمر كما حصل مع البوشمنز في أستراليا أو التقتيل الجماعي للأفارقة. كتب غارودي انه "تم قتل 20 مليون إفريقي" من قبل المستعمر الأوروبي اثناء اصطيادهم ونقلهم في شروط مميتة إلى القارة الجديدة (أمريكا) بعد اكتشافها من قبل كولومبوس وأميركو فيسبوتشي، وقتل 57 مليون من الشعوب الأصلانية في أمريكا.

وقد انتقلت أسرار الثورة الصناعية إلى معظم أوروبا عموماً وبلدان أخرى كاليابان في أواخر القرن التاسع عشر، والذي شاهد منكم فيلم ذا لاس ساموراي يلاحظ ذلك، وذات الأمر ينسحب على روسيا القيصرية

وإن كان بثناقل وتباطؤ. أما العرب والصين والهند والمستعمرات في العالم الثالث (المحيط) فلم تبلغ هذا الشأو بعد بسبب "تقسيم العمل العالمي" أمم تتطور وتنتج وتستغل وتستعمر وأمم منهوبة مستعمرة بلا استقلال، انها الحقبة الإستعمارية، "مستعمر ومُستعمر."

وفيما كانت أوروبا تصنع الآتيا التي تصهر الحديد وتنتج النسيج وتوفر الفحم الحجري ثم الكهرباء وتصنع البواخر والقطارات بما تقتضيه من علم جامعي وأيدي عاملة ماهرة ولكن في أشق الظروف الانسانية، وتنبه بالتالي المواد الخام من المستعمرات بل والذهب والفضة والنحاس والأخشاب والقطن... وكل ما تحتاجه الثورة الصناعية، ومدنها المعاصرة المضاءة بالكهرباء وطبقاتها الاجتماعية الجديدة (البرجوازية - والطبقة الوسطى المتعلمة في الجامعات والطبقة العاملة) كانت شعوب المستعمرات ترسف في العتمة والتخلف والزراعة البدائية والكاتيب التعليمية والبنى الاجتماعية التقليدية من عشائر وقبائل وعائلة بطيركية وإمرأة محجوزة في الطبخ والنفع بما جعل ثروات أوروبا تتضاعف مرات ومرات و ثروات الشعوب تتناقص وتدفع حكوماتها التابعة لطلب القروض.

والكلمة الفصل التي يتعين الانتباه لها هي ترابط الثورة الزراعية بالثورة الصناعية. أي لقد خدم النهوض الزراعي النهوض الصناعي والعكس صحيح. فيما بقيت شعوب المستعمرات تلهث ليلاً نهاراً من أجل أن تلي الاستثمارة الفلاحية البسيطة متطلبات الحد الأدنى من سبل الحياة. فالزراعة فلاحية وأشبه بالاقتصاد المنزلي اليوم، دون أن يتحول معظمها للسوق، ودون أن تحتاج طرائقها البدائية معدات حديثة، فيما كانت هذه الشعوب في مجملها فلاحين وبدو رحل أما مدنها فهي مدن صغيرة ونادراً كبيرة ولكن خدماتية وليست صناعية ومعاصرة، حتى أن البنوك كمتطلب لم تعرفها هذه الشعوب. بينما بتدرج اتحد الرأسمال الصناعي بالرأسمال البنكي ليشكل الرأسمال المالي القوة القائدة للمجتمعات الرأسمالية في أواخر القرن التاسع عشر وما بعده. والذي يقرأ كتاب لينين الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية يلاحظ ذلك. طبعاً هناك كتابات أخرى، ولكن لينين كقائد ثوري وحزبي أبدع في رصده للتحويلات الرأسمالية وانتقالها للمرحلة الإمبريالية.

معروف أن لكل تحول للأمام إيجاب وسلب كما حال كل ماهية وشيء ولكن البلدان التي شقت طريق الثورة الصناعية إنما شقت طريق التطور والقوة وما نتج عن ذلك من استعمار كما تفكك اجتماعي للبنية القديمة وغيرها.

هذه خلفية ولكن، ما هي أهم النظريات الاقتصادية التي استخرجت من الممارسة الرأسمالية ووجهتها؟ ذلك أن الممارسة الرأسمالية لم تكن عفوية، وهي لم تكن عاقراً، بل ثمة جدلية بين الفكر والممارسة، كما الحال دائماً. أهم المدارس:

(1) المدرسة الاقتصادية الكلاسيكية، وتحديداً آدم سميث في كتابه الأشهر ثروة الأمم وريكاردو. والأول اسكتلندي الأصل. وقد ركز على المصلحة الشخصية للإنسان، ومن هنا دعا لأوسع حرية اقتصادية. وهو يعتبر إجمالاً أب الاقتصاد الحديث. وقد عكف عقد من الزمن لكتابته ثروة الأمم الذي لم ينفك لهذا اليوم من أشهر الكتب وأكثرها أهمية. وهو منظر الثورة الصناعية، أي لقد واكب المتغير الأكبر حين انتقلت بريطانيا من الإقطاع إلى الرأسمالية.

أما ريكاردو فهو بريطاني من أصل يهودي وقد نبذه والده لأنه تزوج من مسيحية. وعاش في نفس فترة سميث، وإن تأخر قليلاً، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ولكن في نفس مرحلة التحولات الرأسمالية، ومدرس اقتصاد وتميز بتشريحه للدخل القومي وتوزيعه، ويعتبر من الأثرياء وتأثر بكتاب آدم سميث ثروة الأمم وقد انحازا معاً للرأسمال الصناعي ونقداً معاً الريع العقاري الذي يحصل عليه الإقطاعي من الأرض، سار على نهج سميث في تبيان قيمة العمل والحرية الاقتصادية السوقية "دعه يعمل دعه يمر، دعه ينتج دعه يبيع" بل ونادى ريكاردو بتأميم الأرض في ظل عدائه للإقطاع الذي يستنزف ربح رأس المال الصناعي.

وهناك اقتصاديون ليبراليون كلاسيكيون آخرون، ولكنهم كلهم لم يركزوا على حرية السوق كناظم للحياة العامة بما يستوجبه من تحطيم لعلاقات الإنتاج الإقطاعية وبنائها السياسية والثقافية - الدينية.

وكل الذين يؤمنون بحرية السوق يؤمنون بأن النظريات الاقتصادية الكلاسيكية قادرة على التوظيف الشامل لقوة العمل والتوظيف الشامل للموارد. طبعاً سقطت هذه الزعم مع الركود العظيم، أقصد الأزمة الكبرى بين 1929-1933 التي مات فيها الملايين جوعاً وانهار اقتصاد أوروبا وأمريكا وأفلست الآلاف والآلاف من الشركات وأغلقت مصانع أكثر منها والتي ملايين وملايين العمال في الشارع وهذا ما أفضى لظهور الكينزية. بل ويمكن القول أن هذه الأزمة كانت توطئة لظهور النازية والفاشية وبالتالي الحرب العالمية الثانية أيضاً.

واتكأء على حريات السوق تقوم النظرية الكلاسيكية الرأسمالية على قاعدتين: (أ) التنافس الذي يولد إنتاجاً وبالتالي استهلاكاً، أي أن حريات السوق القائمة على المنافسة تؤمن سلع وخدمات وأسعار وأجور وأن هناك توازناً بين الإنتاج الكلي والإنفاق الكلي، أي ثمة دخل يوازي في قوته الشرائية حجم الإنتاج. فلا يحصل اختلالاً بين الطلب والإنفاق. وعليه تؤمن حريات السوق مصلحة متبادلة بين المنتج والمستهلك وكذا توازناً بين العرض والطلب.

ورداً على الادخار ذلك أن الناس يدخرون لا يستهلكون قالوا إن الفائدة التي تؤمن للمدخرين تستوجب إيداع مدخراتهم في البنوك ليستثمرها رجال الأعمال (البرجوازية) وأن نسبة الفائدة مرتبطة بحال السوق وهذا يخلق توازناً. أي لن تؤسس استثمارات جديدة تؤمن نسبة فائدة ما إذا تم استهلاك المنتج، وإلا تقلصت الاستثمارات بما يوجب تخفيض الفائدة. أي ثمة توازن بين الادخار والاستثمار وسعر الفائدة .

(ب) القاعدة الثانية: تقوم على التوازن بين الأسعار والأجور أي التوازن بين الإنفاق الكلي والتوظيف الشامل. أي أن قيمة النقد المتداول في الدورة الاقتصادية، أو فترة ما، إنما تعادل قيمة الخدمات والسلع المتداولة. وحتى لو كانت تكاليف الإنتاج أكثر، يتم تخفيض الأجور فلا تحدث بطالة.

ويستمر التوازن بين قيمة الأجور مع قيمة الخدمات، وحسب اعتقادهم أن قيمة النقود تعكس قيمة المنتجات أخذين بالحسبان سرعة التداول فلا يحدث انهيارات أو تضخم مالي. أي أن سرعة النقود وسرعة التداول تتناسب مع الأسعار، وبالتالي يتساوى العرض الكلي مع الطلب الكلي ولكن هذا كله أصابه الاهتزاز مع اشتعال الأزمة الاقتصادية الكبرى، وإن كان قد أدى دوراً تقيدياً في مرحلة إنعطفية هي انتقال المجتمعات من الإقطاع إلى الرأسمالية، فظهرت المدرسة الكينزية.

(2) المدرسة الكينزية: وكينز بريطاني الجنسية وضع كتاباً مهماً عام 1936 التوظيف الكامل ناقداً النظرية الكلاسيكية بأنها، أي اقتصاد السوق الرأسمالي غير قادر على توفير الميكانيزم الذي يؤمن التوظيف الكامل فتحصل البطالة. وقد أثار جدلاً لأن ما سبقه كان من قبيل المسلمات، ساعده في ذلك الأزمة التي هزت قلاع رأس المال حينذاك.

وأهم ما أضافه كينز ( الكينزية): (أ) ثمة عدم انسجام وتوازن بين المدخرات والاستثمار. وأن الادخار يعني تقليص الاستهلاك بالتالي فائض في العرض والخدمات وليس توسعاً في استثمار "رجال الأعمال". فانكماش الطلب لا يفضي إلى زيادة الاستثمارات، بل ودوافع الادخار ليست نفسها أهداف الاستثمار.

(ب) ثمة عدم توازن وتجانس بين الأسعار والأجور، أي أن انخفاض الأجور قد يقود إلى مزيد من الاستثمارات وبالتالي التوظيف الكامل، وقال أن هناك برجوازيون (مستثمرون) مسيطرون على السوق (احتكاريون) ولا يسمحوا بتخفيض الأسعار عندما ينخفض الطلب، فتواجههم النقابات العمالية القوية التي تعارض تخفيض الأجور.

وبالتالي تحدث عن الإنفاق الكلي والطلب الكلي فقال أن الاقتصاد يتكون من (قطاع الإنتاج والأعمال، قطاع الاستهلاك، القطاع الحكومي، القطاع الخارجي) وكانت النظرية الكلاسيكية تركز على قطاعين (الإنتاج والاستهلاك) بينما همّست القطاع الحكومي الذي غدا دوره كبيراً أو يمكن أن يكون كبيراً في النشاط الاقتصادي بما يشكله الإنفاق الحكومي من نسبة في الإنفاق العام، وإن تخفيض الضرائب يفضي إلى زيادة الاستهلاك لدى الأفراد بما يزيد الإنفاق الكلي، وقد أطلق على الإنفاق الحكومي وتخفيض الضرائب اسم "السياسة التوسعية" التي يتعين على الحكومة إتباعها في حالة الانكماش والركود، أما تخفيض الإنفاق الحكومي وزيادة الضرائب فأسمها "السياسة الانكماشية" التي تتبعها الدول في حالة التضخم المالي. وكلا السياستين أسماهما "السياسة المالية للدولة". وأن التوازن في ميزانية الحكومة يتحقق من خلال ضبط الإنفاق بما يعادل عوائد الضرائب، أما إذا زاد الإنفاق وبقيت الضرائب على حالها حينذاك يحصل خللاً وعجزاً.

وأخيراً القطاع الخارجي أي الصادرات والواردات، والتعامل هنا يتم بالنقد وللنقد بدهاءة عدة فوائد (قياس القيمة للتبادل/لادخار) ويعادله رصيد ذهبي أو فضي مودع في البنك، أو للمضاربة، بينما كان للنقد وظيفة واحدة في النظرية الكلاسيكية (التبادل). وكلما كان التصدير أكبر كان الميزان التجاري راجحاً أكثر.

وكلمة أخيرة، لا يمكن الاستهانة بإضافات كينز النظرية في حقل الاقتصاد، ومحاضرتي لست متخصصة في هذا الشأن، وما أود التنويه له أن كينز أعطى دوراً للدولة، ولم يترك المسألة فقط سوق حرة. وروزفلت الرئيس الأمريكي وسواه أخذوا بأطروحاته وبوجه عام لقد سيطرت الكينزية إلى أواخر الثمانينيات تقريباً.

ولكن ظهر في أمريكا اللاتينية اجتهاد في الخمسينيات والستينيات واستمر لما بعد ذلك، أُسِمِي المدرسة النيوية. (3) المدرسة النيوية: في أصلها مدرسة أدبية تقرأ النص الأدبي أو الشعري كبنية في كليته وليس في أجزائه، وهي مدرسة فرنسية في الأساس. وليس هذا موضوعنا، ولكن ما يهمننا هو ترجمة هذه المدرسة في الاقتصاد، كونها إحدى المدارس التنموية.

وقد نظرت لمجمل العناصر التنموية ككل، موارد وثروات وبشر وظروف خاصة قومية، وغرضها بدهاءة كما سواها أعلى معدل تنموي، ولكنها قالت أيضاً بأن تكون التنمية في مصلحة الأغلبية وأن تكون مستدامة، ولتلا ينشأ التباس، فهذه المدرسة كما السابقات تندرج في إطار الرؤية الرأسمالية إجمالاً، ولكنها أول مدرسة تنموية انبثقت من العالم الثالث، المحيط، ولم يكن مركزها أوروبا أو أمريكا، وهي أشبه بمركز أبحاث نشأ في تشيلي وأنتج سياسات تنموية تركزت في قبضة أطروحات أهمها التصنيع، توفير فرص عمل، الدولة كضمان، تنمية الابتكار وزيادة التنافسية، عدم تركيز الثروة في أيدي أقلية لأن ذلك يعود بالضرر على التنمية.

ولكنها تجاهلت نظرية التبعية ولذلك أخفقت على نطاق واسع وارتفعت أسهمها ثانية بعد الأزمة الاقتصادية 2008، وزعيمها هورأول بريش، وثمة ترجمات جزئية لهذه المدرسة في البرازيل اليوم بالاعتماد على الذات والموارد المحلية وليس القروض الخارجية لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي وسواهما. كما دعت لاستثمار ثروات البلاد في الداخل، أي المدخرات، وليس تصديرها للخارج كما حال الرأسمال العربي الذي بلغت حجم ودائعه في الخارج أكثر من 1.4 تريليون دولار.

وبريش اقتصادي أرجنتيني أنتقد المدرسة الكلاسيكية كما نظرية المركز والمحيط، الذي لا يفهم خصائص المحيط ومتطلبات تنميته. وهذا مألوف عادة، أقصد التناقض بين "خطاب الشمال وخطاب الجنوب" في كافة الميادين وليس في الاقتصاد فقط. وقد اشتد التناقض في عصر العولمة، حيث تحاول الاحتكارات المعولمة وأقواها الاحتكارات الأمريكية الهيمنة على العالم، ولذلك صلة بالمدرسة الجديدة.

(4) الليبرالية الجديدة: معروف أن الثورة الصناعية بدأت في الغرب (أوروبا) وتحديداً في بريطانيا، وفي علاقة جدلية معها نشأت الليبرالية، ومفكرها الأكبر آدم سميث الذي دعا لعدم تدخل الدول في الشؤون الاقتصادية ورفع القيود عن التصنيع والتجارة. وقد استمرت هذه الرؤية التنموية حوالي القرنين حتى الأزمة الاقتصادية



الكبرى 1929-1933 ومجىء الكينزية، كما ذكرت في حديثي أمس. وكينز دعا لتدخل الحكومات والبنك المركزي بما يكفل نمواً كاملاً للرأسمالية والتوظيف الكامل للموارد وقوة العمل.

ولكن الشركات العملاقة (الاحتكارات) في السبعينيات والثمانينيات، أي الشركات متعددة القومية، استعانت ثانية بالنظرة الليبرالية وأصبح أسمها الليبرالية الجديدة وقد جاءت في عصر الثورة التقنية، وتعززت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وأنظمة أوروبا الشرقية، وظهور العولمة والشركات متعددة الجنسيات التي بات مشروعها التنموي المهيمنة على الكرة الأرضية وتحويلها إلى سوق واحدة تحت سيطرتها مما اقتضى تأسيس منظمة التجارة العالمية التي تشترط فتح الحدود ورفع الحماية الجمركية وحرية تنقل البضائع ورأس المال. وبالتالي فالليبرالية الجديدة هي:

(1) هيمنة السوق تماماً ورفع القيود التي تفرضها الحكومات وشطب دور الدولة في الرقابة والتنمية والتشغيل، بل وذهبت لتخفيض الأجور وتقليص الموازنات للتعليم والصحة وتأمين الشيخوخة والبطالة. أي دون اهتمام بالنتائج الاجتماعية المترتبة على وحشية السوق وتمركز الثروات ومراكز القوى في أيدي الاحتكارات العملاقة أي نسبة لا تزيد عن 1% من البشرية.

(2) الحرية الواسعة لرأس المال استثماراً وإنتاجاً وتسويقاً، بما نتج عن ذلك من تلويث للبيئة واستهلاك لثروات الكرة الأرضية و مساس بالأمن الصناعي وأمراض.

(3) الخصخصة، أي بيع مشروعات القطاع العام الذي تمتلكه الدولة إلى الرأسماليين (قطاع البنوك، السكك الحديدية، الكهرباء، الهاتف، المستشفيات، الجامعات، المناجم، المشروعات الصناعية)، بما زاد من مركزة الثروة وتسريح أعداد من العاملين فارتفعت نسبة العاطلين عن العمل وهي اليوم أكثر من 600 مليون في العالم وفقريشمل أكثر من 2 مليار نسمة.

وهذا كله يتطلب غطاءً ثقافياً وايدولوجياً موازياً يركز على الحريات الفردية والمسؤولية الفردية باسم المصلحة العامة فيما يتقلص دور الدولة فأتسعت الطبقات الفقيرة وانتهكت على نطاق واسع حقوق الإنسان والأطفال والشعوب في المحيط، ويقوم البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية بتسويق وترويج هذه الثقافة.

أما المنظر الأكبر لهذه الليبرالية فهو ميلتون فريدمان، وكانت هذه الليبرالية السبب الجوهري في اشتعال الأزمة المالية التي استحوطت اقتصادية عام 2008 ولم يخرج منها العالم لهذا اليوم، حتى أن الروس والصينيين في اجتماعات الدول العشرين قد اقترحوا تدخلاً للدولة في مراقبة البورصة، أي مركز ثقل رأس المال اليوم، حيث تباع أهم الوحدات الاقتصادية والمرافق على شكل أسهم، بما يصاحب ذلك من مضاربات، غير أن بوش الابن اعترض واعتبر ذلك مساساً إيدولوجياً، ولم تتوافر الشروط إلا بعد فوز أوباما، الذي نجح في دورته الثانية في تمرير قانون التأمين الصحي خلافاً لرغبة الحزب الجمهوري.

كل ما عرضته أنما يتواشج وهو في صلب الرؤية التنموية الرأسمالية الأكثر تطرفاً أو الأقل تطرفاً، أما المساحة المتبقية من محاضرتي فهي المدرسة الأخرى، المدرسة الاشتراكية.

\*\*\*\*\*

أصبوحة طبية

محاضرتي الثالثة حول الاقتصاد الاشتراكي، وهذا الاقتصاد يقوم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، أي الملكية الاجتماعية للدولة، كما على الملكية التعاونية سواء كانت إنتاجية أو زراعية أو خدمية، وهي تعود للتعاونيين.

وهذا يقتضي بعض التوضيح:

(1) أن الرؤية الاشتراكية قادت دولاً كبرى وعظمتى وبلدان أصغر شأنًا، أي أنها ليست نبتاً شيطانياً أو شعارات مزعومة، ورغم انهيار الاتحاد السوفيتي فقد أنجز ما أنجز، واليوم هذه الرؤية مرجعية للتجربة الصينية والعديد من البلدان كفيتنام وكوريا الشمالية وكوبا وبعض بلدان أمريكا اللاتينية حيث يحكم اليسار سيما في بوليفيا والارغواي ونيكاراغوا وفنزويلا.

(2) يقصد بوسائل الإنتاج المصانع والمناجم والبنوك والشركات والمزارع والأرض وكافة المرافق الخدمية، أي كل ما يمت بصلته للعملية الاقتصادية بجملة ما في ذلك المستشفيات والجامعات والمؤسسة الإعلامية والثقافية.

3) يقصد بالملكية الاجتماعية ملكية الدولة كشخصية اعتبارية وكلها تطور الاقتصاد تكون ملكية الدولة أكبر سواء بفعل التأميم بعد انتصار الثورة بالسيطرة على السلطة، والتأميم قانون اشتراكي، ولكن الرأسمالية الصاعدة أقدمت عليه في بدايات عهدها عندما انتصرت الثورة الفرنسية 1789 وسواها، وهي اليوم تعارضه بقوة.

والتأميم عادةً يشمل وسائل الإنتاج الثقيلة (بنوك كبيرة، مصانع كبيرة، ومناجم، أراضي واسعة، تجارة خارجية، مرافق هامة كالكهرباء، الهاتف، الجامعات، المستشفيات) وهذا مرهون بمستوى التطور وتمركز الثروات، والتأميم لا يذهب للملكيات المتوسطة والصغيرة.

وكلمة ماركس مهمة هنا كونه مؤسس ومنظر الفكر الاشتراكي "أن الاشتراكية تشترط تطور قوى الإنتاج" أي لا تقوم في بلدان متخلفة وفقيرة، بل ترتبط بالمجتمعات الأكثر تطوراً، إلا إذا قامت دولة اشتراكية بمساعدة بلد متخلف على السير نحو الاشتراكية، وعندما لا تكون متطورة تقوم السلطة اليسارية بأحداث تنمية متعددة النماذج على طريق الاشتراكية، وهذا أتق له لاحقاً، ولا أنسى أنه يضاف لملكية الدولة المشروعات التي تؤسسها بعد انتصار الثورة في كافة المجالات.

وعليه فللدولة دور كبير وحاسم وملكيته كبيرة وحاسمة وتضمن توزيعاً عادلاً للثروات كتنقيض للاقتصاد الرأسمالي الذي يقوم على حرية السوق والملكية الخاصة للرأسمالية والاحتكارية. لكن هناك سوق في الدولة الاشتراكية، وهو السوق الاشتراكي بين وحدات الإنتاج الاشتراكية والتعاونية، وهذا يتحقق بتدرج والمراحل الانتقالية تسع لوحدة اشتراكية وغير اشتراكية (ملكيات خاصة، ورأسمالية دولة أي ملكية مشتركة للدولة والقطاع الخاص سواء كان داخلياً أو خارجياً).

وموظف الدولة سواء كان الرئيس أو الغفير، مديراً أو حاجباً، هو مجرد موظف ليس له حصة خاصة في ملكية الدولة، فالدولة شخصية اعتبارية وأملكها ملكية جماعية لكل الشعب. أما الملكية التعاونية فهي التي يؤسسها الحرفيون (نجارون، حدادون، حياكة، أخشاب) من أصحاب الإنتاج الصغير الذين يرون في تشريك وسائل إنتاجهم فرصة لاستخدام التكنولوجيا والتكامل بما يعود عليهم بدخل أعلى، وتصبح التعاونية وأرباحها ملكية جماعية لهم.

وهذا حال التعاونيات الزراعية التي قد تشمل الواحدة عشر عائلات أو أضعاف ذلك، فيساهم التعاونيون الزراعيون بما يملكونه من أراض وحيوانات وأدوات وتصبح ملكيتهم تعاونية ولنفس الغرض السابق وفي الحالتين تقوم الدولة الاشتراكية بمساعدة هؤلاء التعاونيون بتكنولوجيا حديثة وخبراء بغية زيادة منتوجهم وتحسين شروط حياتهم.

4) تشريك وسائل الإنتاج: أي تصبح الملكية الاقتصادية مشتركة واشتراكية بما تشترطه من تطور في قوى الإنتاج، أي الإنسان بمهاراته ومؤهلاته ورؤيته الفكرية الاشتراكية وأدوات العمل من آلات ووسائل عمل. وهذا كله نابع من قانون "الطابع الاجتماعي للعمل والطابع الخاص للملك" الذي يسود في الرأسمالية، فتقوم الاشتراكية بحل التناقض لكي يصبح "الطابع الاجتماعي للعمل والطابع الجماعي للملكية"، وبذلك يتم التخلص من القانون الأساسي في الرأسمالية، أي فائض القيمة، وأظنكم تذكرون محاضرتي قبل شهرين وأكثر حول هذا الموضوع، وملخصه التبسيطي لكي أربط سياق محاضرتي وحسب، أنه مصدر الربح لدى الرأسماليين من أصحاب وسائل الإنتاج ذلك أنهم يدفعون أجره للعامل والشغيل والموظف فيما يسمى يوم العمل الضروري أي ساعات من العمل، فيما يستأثرون بساعات أخرى، أي يوم العمل الإضافي الذي يولد الربح، أي فائض القيمة، وهذا حال الأرباح الناتجة عن التصدير حيث تنهب جيوب الشعوب المستهلكة وتذهب الأرباح للاحتكارات الرأسمالية.

ومعروف لكم أنه في المجتمع الإقطاعي يسود قانون الربح العقاري، أما في الرأسمالية فيسود قانون فائض القيمة مصدر استغلال العمال والشغيلة ومصدر تراكم الثروات لدى الرأسماليين واحتكاراتهم، علاوة على العلاقة المبنية بين دول المركز واحتكاراته والبلدان النامية حيث يتعاونون موادهم الخلام بأسعار زهيدة ويبيعون لهم مواد مصنعة بأسعار مجزية فينهبون ثروتهم ويسدون طريق نموهم، وشيء مماثل تقوم به البنوك وقروضها حيث ناهزت مديونية العالم النامي اليوم 2 تريليون دولار وهي في أساسها لا تتعدى 700 مليار دولار تراكت فوائدها سنة بعد سنة ومطلوب من الشعوب تسديد هذه الفوائد والمبالغ الفلكية.

5) هدف الاقتصاد الاشتراكي تلبية حاجات الناس بأكبر قدر من العدالة بحيث توزع الكعكة على المجتمع ولا تستأثر بها الاقيلة، ففي أمريكا مثلاً هناك 3% يسيطرون على 90% من الاقتصاد، وشيء مشابه في اليابان وألمانيا.

وثمة فارق نوعي بين أن يكون هدف الاقتصاد الاشتراكي إنتاج سلع وخدمات في خدمة الانسان، وبين الاقتصاد الرأسمالي الذي يستهدف الربح. وكى يتحقق الربح عليه إنتاج سلع وخدمات لها قيمة استعمالية، علما أنه ينتج احيانا لوحات وتحف بملايين الدولارات بما لا يشكل حاجة حقيقية أو على الأقل ليس لها الأولوية، دون أن ننسى أزمات فيض الإنتاج حيث ينتج سلعاً تتجاوز القدرة الشرائية للمواطنين فتتراكم السلع وهذه المرحلة الأولى من الدورة الاقتصادية أو الأزمة الاقتصادية بما يتولد عنها من انهيارات ودمار.

6) يقوم الاقتصاد الاشتراكي على التخطيط المركزي، أي خطة تضعها الدولة بالاستناد إلى الخطط المحلية للشروعات والوحدات الاقتصادية بما يضمن توظيف موارد الدولة وقوة العمل دون بطالة تذكر أو أزمات فيض إنتاج تذكر.

طبعاً يمكن أن تحصل إخلالات بسبب البيروقراطية ولكن هذا ليس في صميم النظريات الاقتصادية الاشتراكية، وإنما في صميم النظام السياسي عندما يكف عن التجديد وتراخي فيه الرقابة والنقد والضغط القاعدي، وهذا الموضوع عموماً يتصل بالديمقراطية الأمر الذي يستحق وقفة منفصلة، وأختم حديثي عن الاقتصاد الاشتراكي بالإشارة إلى:

أ- الطور الاشتراكي هو الطور الأدنى حيث يسود قانون من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله، أي ليس فائض القيمة كما في الرأسمالية، إذ لا أحد لديه ملكية اقتصادية استغلالية وبالتالي لا يقوم بتشغيل أيدي عاملة ويستغلها، إن قوة العمل أياً كان إسمها في قطاع الدولة أو في القطاع التعاوني إنما تبذل طاقتها وما تنتجه وتقاضى أجراً عليه، وأية استقطاعات لا تذهب للبرجوازية، إذ ليس ثمة برجوازية وإنما للدولة التي تؤمن تعليماً مجانياً وعلاجاً مجانياً وتوسع مرافق الرفاهية المجانية وتبني جيشاً لحماية الوطن وتحرس على تأمين سلع شبه مجانية (الكهرباء، الطاقة، الماء) أو مجانية أي لخدمة الجميع.

وهنا ثمة التباس، فمن جهة لا يتحقق ذلك إلا بتدرج، أي أن الاقتصاد يمر بمراحل انتقالية إلى أن يبلغ تشريك وسائل الإنتاج، أي ثمة قطاع برجوازي صغير او متوسط وأحياناً كبير في المراحل الانتقالية، أنظروا للتجربة الصينية اليوم، فهي تقول تنمية على طريق الاشتراكية، ولكن قطاع الدولة والقطاع التعاوني ينمو سنة بعد أخرى إلى أن تذوب الملكيات الخاصة.

ولكن الملكية الفردية تستمر، أي البيت والسيارة والراتب وحديقة المنزل والمقتنيات، ولكن هذه لا تعود برحمة على صاحبها فهي للاستهلاك فقط. وهذا الطور مرت به تجارب الاشتراكية المحققة، أي التي عرفتها البشرية، ولم تكتمل بل وانهارت في عدة حلقات وأهمها القلعة السوفيتية، أي ثمة صراع هنا وقد تنتصر قوى الاشتراكية أو قوى العودة للرأسمالية.

ومن جهة أخرى ان السلطة الاشتراكية لا توجه سهامها للقطاع الصغير والمتوسط في مراحل تأسيس الاشتراكية بل تؤمم الصناعات الكبرى والموانئ والتجارة الخارجية والبنوك والشركات التي يتركز فيها رأس المال، وهذه في البلدان الرأسمالية المتطورة تشكل بين 80-90% من الكلفة الاقتصادية ويملكها بين 1-5% من الناس بينما يعمل فيها 50-60% من قوة العمل.

أما القطاع الصغير والمتوسط فهو الذي يشكل 10-20% من الاقتصاد فيملكه بين 30-40% من الناس، واحتكار رأسمالي واحد يملك ما يملكه كل هؤلاء وبالتالي فهم ليسوا هدفاً للتأميم.

وفي بلادنا يجرى أعداء الاشتراكية قائلين أنكم تريدون تأميم بيتي أو بستاني أو مشغلي، وهذه سخافة ذلك أن هذا القطاع غير مستهدف بل وتقوم الدولة بتقديم الخبراء والتكنولوجيا والري الحديث والقروض وتعاقد معهم لمساعدة هذه القطاع لمضاعفة إنتاجه.

وأحياناً يقولون "تريدون تأميم النساء" وجعل النساء مباحات للجميع بينما العائلة النووية أي رجل لأمرأة بما لهما من أطفال تستمر في الرأسمالية والاشتراكية، فهذا تطور تاريخي ويستمر، أما النظرة التقليدية للمرأة بانها حبيسة البيت ومهمتها الطبخ والنفخ فقط فهذا يندثر سواء في الرأسمالية أو الاشتراكية، ذلك أن المرأة إنسان ومن حقها أن تختار دورها في الحياة كإنسان وليس ككاتب، طبعاً تندثر سيطرة الرجل وانجلز ناقش هذه المسألة في كتابه أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة.

والجديد أن الأخلاق الليبرالية الرأسمالية قد سببت بطالة في صفوف النساء بما دفع البرجوازيين لاستغلال أجسادهن مقابل المال، أي التمتع في بنات الفقراء، وهذه الظاهرة تندثر إذ تتوفر الشروط التي تؤمن للمرأة كرامتها وسبل عيشها الكريم فلا تضطر لبيع نفسها وتختفي بالتالي بيوت الدعارة المنتشرة في الرأسمالية.

استذكر أن الوفد الفيتنامي الذي استقبل وفداً قيادياً للشعبية على رأسه الشهيد أبو علي عام 1989 تحدثت رئيسة اتحاد المرأة الفيتنامي وهي عضو م.س قائلة "لقد أورثنا الاستعمار الأمريكي في سايجون (هو تشي مين) نصف مليون عاهرة" وهذه الظاهرة اندثرت بعد أن أعدنا تأهيل النساء ووفرننا لهن فرص عمل.

جدير أن أخصص محاضرة للمرأة، علماً أنني تناولت زوايا في كتاب مداخل لصياغة البديل وقد لاحظت أنه في مكتبتيكم، وهذا سرني فهو محاضرات ألقيتها قبل حوالي من 20 سنة في سجن النقب.

ب- الطور الشيوعي، وهذا طور أعلى ولم تصله البشرية بعد، وفيه تختفي الحدود بين الدول وتنطفئ الدولة كجهاز للقمع الطبقي (حسب التعبير اللينيني)، وترتقي التكنولوجيا ومهارات الإنسان وتصبح قادرة على تلبية حاجات الإنسان فيتحقق قانون "من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته" وصولاً إلى ظهور الإنسان الشامل أي القادر على مزاولة عدة مهن ومهارات بإنتاجية عالية، كما تزول الفوارق بين الريف والمدينة، وهذا تصور مستقبلي، لكن ينبغي أن نلاحظ أن دول أوروبا الرأسمالية توحدت في ظل الرأسمالية، فلماذا لا نتوحد البشرية في مرحلة مستقبلية عندما تزول عوامل الحرب والمهيمنة والاستغلال، وبديهي أن التاريخ لا يتوقف فهو في صيرورة دائمة ولا نهاية له.

والآن أنتقل إلى الرؤية التنموية المستقلة في بلدان المحيط أقصد البلدان التي تمردت على المركز الرأسمالي.

ولئن قال ماركس "يا عمال العالم اتحدوا" وأضاف عليه لينين "يا عمال العالم وشعوبه المضطهدة اتحدي" أي الشعوب الثائرة على الاستعمار والإمبريالية، واعتبر الثورة التحريرية المعادية للإمبريالية جزء من الثورة الاشتراكية فهذا يمكن أن ينطبق على الرؤية التنموية الاستقلالية في البلدان المتحررة.

والنموذج الفيتنامي هو نموذج أصيل هنا، فالشعب الفيتنامي قاتل ببسالة إلى أن طرد المستعمر الياباني ومن بعده الفرنسي تلاه الأمريكي بقيادة حزب الشغيلة (الحزب الشيوعي اليوم) وكان نمط الإنتاج السائد هو الفلاحي والبضاعي الصغير والاقطاعي إذ لم يكن ثمة مصانع ضخمة أو زراعة حديثة أو شركات رأسمالية كبيرة وهذا كله كان تابعاً للمستعمر.

وبعد الانتصار وتوحيد البلاد 1975 راحت السلطة الاشتراكية تسرع الخطى في مشروع تخوي مثير سيما في حقل الإنتاج من زراعة وصناعة وكذا قطاع خدمات، فكهربت البلاد وأسست الجامعات وشقت الطرق ومدت شبكات المياه والصرف الصحي وهذه العملية مستمرة.

بعلاقات قوية مع الإتحاد السوفيتي السابق وبقدر أقل مع الصين، ولكن بالاعتماد على الذات أولاً، وفيها بدهة نماذج اقتصادية متعددة (قطاع الدول الاشتراكي، القطاع التعاوني، القطاع الفلاحي، القطاع البضاعي الصغير الخاص، قطاع رأسمالية الدولة، القطاع المشاعي من أراضٍ وأنهار تابع للدولة) وشيء مشابه في الصين، وفي كوبا، وفنزويلا، مع تفاوت في مستوى التحول الاشتراكي.

ولكنها جميعها فكت ارتباطها وتبعيتها للسوق الرأسمالية، وحررت ثروات البلاد من النهب الإمبريالي، وباتت موارد البلاد تستثمر في تنمية البلد وفي خدمة الطبقات الشعبية، والفارق هنا درجة الاستقلالية وفي نسبة الملكية العامة والتعاونية في الاقتصاد القومي كما في تجذر الحزب الحاكم وكفاءته وانتشار الثقافة الاشتراكية.

وعريباً لقد حاول عبد الناصر (تأميم ملكيات الإقطاع، توزيع الأراضي على الفلاحين، تنمية صناعية معينة، استقلال سياسي يحرص على سيادة الدولة التي اضطرت لخوض معارك ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية، التحالف النسبي مع المعسكر الاشتراكي، توسيع قطاع التعليم المجاني).

ولكن لماذا أرتد النظام المصري ولم يرتد النظام الكوبي أو الفيتنامي؟

ذلك أن القوة الاجتماعية وحزبها الحاكم مختلفان في هذه الدول. فسلطة البرجوازية الصغيرة والمتوسطة حكمت مصر وبالتالي ارتقت شرائح فيها إلى مواقع البرجوازية التابعة في زمن السادات فأرتدت التجربة، كما لم يكن لها حزبها الماركسي الاشتراكي بينما في فيتنام أو كوبا فالحزب الحاكم يساري ماركسي ويمثل القوى الاجتماعية الشعبية التي تثبت خياراً اشتراكياً ولا يسمح اقتصادها أو سياستها بتسلق شرائح برجوازية إلى الحكم.

والمهم هنا أن النظرة أو النظرية التنموية المستقلة وسلطتها الحاكمة لا تسمحان للشركات الإمبريالية بنهب ثروات الوطن، ولا تسمحان بصعود طبقات برجوازية تستأثر بحصة الأسد من الاقتصاد الوطني، أي لا برجوازية كومبرادورية تابعة للمركز الإمبريالي ولا برجوازية قومية تستغل الشغيلة على نطاق واسع وتستأثر بالاقتصاد الوطني.



من جهة أخرى، السير في خط تراكبي على صعيد اقتصادي وتعليمي وثقافي وسياسي لفك التبعية وإنتاج ما تحتاجه السوق الوطنية وإقامة علاقات متكافئة مع دول صديقة لا أهداف استعمارية لها، والدول هنا تنشئ المصانع والمزارع وقطاع الخدمات والجامعات والإعلام والثقافة والفنون. دون الارتهان لمديونية وشروط البنك الدولي وصندوق النقد الدولي أو اشتراطات منظمة التجارة العالمية، فالدولة هي عامل التنمية الأول.

يمكنني أن أضيف على هذا العرض الموجز عند الإجابة على الأسئلة والمداخلات، ولكن قبلئذ، من المفيد التذكير أن الفكر الرأسمالي الليبرالي يقول بأن التنمية المستقلة في بلدان الجنوب مستحيلة، أي يدعو لحرية السوق وارتباطها بمنظمة التجارة العالمية، ذلك أن السوق العالمية مترابطة وقوة العمل كما رأس المال باتا عالميين. ولكن كل ذلك لكي يتاح للشركات العملاقة نهب موارد بلدان المحيط، ولكن التجربة السوفيتية سابقاً والصينية حالياً وبلدان التوجه اليساري والتنموي قالت بغير ذلك، إذ لا مهرب من تنمية وطنية مدعومة بإجراءات حمائية لا تجيز للشركات المعولة باستباحة الأسواق المحلية، ويكفي أن ننظر للتجربة البرازيلية مثلاً حيث بات لديها اكتفاء ذاتي في اللحوم والحمضيات والزراعة عموماً وقفزت الصناعة التي تلي احتياجات الزراعة والسوق المحلية كما التصدير حتى على الصعيد التكنولوجي (الطائرات والدبابات والنسيج) وصولاً إلى إحراز وثبات في المدن باتت تستوعب أكثر من ثلاثة أرباع الشعب الذي يناهز 200 مليون نسمة بما أهلها للانضمام أو المشاركة في تأسيس محور البريكس مع روسيا والصين والهند وجنوب إفريقيا.

أي أن التجربة الإنسانية أثبتت خطأ منظور الرأسمالية الليبرالية.

وشكراً لكم

## نقاط حول الاقتصاد الاجتماعي

**في التعريف:** كآية مسألة سيولوجية ثمة تعريفات عديدة ومتباينة، ولكن جوهر التعريفات ان الاقتصاد الاجتماعي التضامني الشعبي، محوره خدمة جماعات من الناس وليس الأفراد أو حاجة السوق الرأسمالية القائمة على الملكية الخاصة الاستغلالية، وذلك بما ينتجه من سلع أو خدمات لهدف تحقيق الرعاية والعدالة

لأشد الفئات عوزا وحاجة. فإذا كانت غاية السوق الرأسمالية احراز أعلى درجة من الربحية فغاية الاقتصاد الشعبي التضامني هو خدمة الناس بما يقلل من الفقر العام ويخفض من نسبة البطالة، سيما في اوساط الشباب والمرأة.

### معطيات عن الوضع الفلسطيني في الاراضي المحتلة عام 1967 (الضفة وغزة)

يبلغ عدد السكان 5 مليون سمة (3 في الضفة و 2 في غزة) يتوزعون على نحو 900 الف عائلة حيث معدل الاسرة حوالي 6 أفراد، وقوة عمل تصل 1.5 مليون بينها 500 الف عاطلين عن العمل، وينضم سنويا لهم ما لا يقل عن 60 الف. يتقدم لامتحان الثانوية العامة 90 الف يرسب اكثر من 30 الف ويتخرج من الجامعات الفلسطينية التي تضم 250 الف طالب وطالبة حيث نسبة الاناث 55%، ما لا يقل عن 45 الف يعثر اقل من نصفهم على عمل.

اما نسبة ارباب العمل (البرجوازية) فهي اقل من 6% فيما العاملون لحسابهم الخاص 30% من أصحاب المشاريع الصغيرة والفلاحين والمهنيين المستقلين واصحاب الدكاكين والمحلات التجارية. ويعمل في السلطة الفلسطينية 170 الف في الضفة وغزة وهناك 50 الف من توظيفات سلطة حماس كما حوالي 50 الف مقاتل لحماس والجهاد وباقي القوى. ومن المنظمات غير الحكومية بتعريفاتها النضفاضة التي تضم مراكز ثقافية ونقابية وشبابية ونسوية وبلديات وجامعات وغيرها ليس اقل من 45 الف. وما عدا ذلك فهم عمال يكدهون في ورشهم وفي المصانع ومن بينهم الموظفون الصغار بأجورهم المنخفضة (الحد الادنى للأجور اقل من 400 دولار مع اختراق واسع لهذا الحد) يضاف اليهم شريحة واسعة من الطبقة الوسطى تعمل لدى اصحاب العمل. ونسبة البطالة في اوساط خريجي الجامعات هي الاعلى وفي المقدمة العنصر النسائي بما لا يقل عن 55%، وكذا في اوساط الطلبة الذين تركوا مقاعد الدراسة.

وعن الانتاج الوطني السنوي فهو يصل 10 مليار دولار يضاف لها اكثر من مليار دولار عوائد العمالة في المشاريع اليهودية علاوة على نحو 2 مليار مساعدات خارجية تقلصت الى اقل من 1 مليار في السنوات الاخيرا تذهب معظمها للسلطة الفلسطينية والتي بلغت موازنتها عام 2018 اكثر من 5.5 مليار دولار، ونسبة المراه

في السلطة تناهز 25% وحوالي 18% في الاقتصاد الوطني، بما يصل الى 20% كمتوسط عام وهذه نسبة معقولة قياسا بالمعدل العام عالميا. ورغم هبوط معدل الاجور حيث اكثر من 70% لا يتلقون اكثر من 600 دولار شهريا.

ولئن كانت البطالة تناهز 35% فالفقر يتجاوز 50% دون الوصول لمجاعات يمنع حدوثها وزارة الشؤون الاجتماعية التي تقدم مساعدة شهرية تصل 100 دولار تقريبا لأكثر من 100 الف عائلة، وتضامن اجتماعي عائلي ومن الجيران، ناهيك ان 85% يملكون بيوتهم الخاصة دون دفع اجرة، هناك 60% من اهالي الضفة يقطنون في الريف بما لديهم من استثماره فلاحية (اشجار زيتون، حديقة منزل، ثروة حيوانية)، بما يوفر لهم بعض الدخل، وقسم كبير من هؤلاء يعملون عملاً اثنيياً، أي عامل او موظف كما فلاح وان كان اعتماده الاساس على عمله او وظيفته مدفوعة الاجر.

لقد تراجعت الزراعة من اكثر من 60% قبل 1967 من الدخل الوطني إلى أقل من 5% حسب الإحصاءات الرسمية، يضاف لها نسبة لا تقل عن ذلك اقتصاد منزلي وتجارة على الارصفة. وحجم الواردات الفلسطينية من السوق الاسرائيلية او غيرها تناهز 5 مليار دولار، اما الصادرات فهي بالكاد تصل 1 مليار، ليس اقل من 40% اغذية. وبناء عليه، فأكثر ما ينبغي استثمار الجهد فيه هو الزراعة بشقيها النباتية والحيوانية، ذلك ان المجتمع الفلسطيني تاريخيا هو مجتمع زراعي فلاح، ويمكن مبدئياً تسويق انتاجه الزراعي محليا بديلا للاستيراد. ولكن تقف عقبات مهمة مثل القروض والتسويق والمياه وتكاليف اصلاح الأراضي وضرورة رفع المستوى المهني والانتاجية للعاملين في الزراعة.

**التوجه:** أكثر ما يمكن ان يعود بالفائدة على المهمشين والعاطلين عن العمل هو تأسيس مشروعات زراعية صغيرة ومتناهية الصغر. ومن فائض الربح يمكن تأسيس المزيد افقيا او تطويرها عموديا. بتجميع المهتمين في تعاونيات، كان لها انتشارا واسعا في سنوات الانتفاضة الأولى بين اواخر عام 1987 - 1992، على ان يستبق كل تعاونية مشروع جدوى اقتصادي وشروط نجاح، ومثل هذا الخط التعاوني منتشر اليوم في الكثير من بلدان العام الثالث.

وعلاوة على الحقل الزراعي هناك التعاونيات الانتاجية اذ ثمة بعض الفرص لتأسيس تعاونيات انتاجية في حقل الخياطة والنجارة والحدادة... أي من الحرفيين الصغار. كما يمكن تأسيس تعاونيات تسويقية وتعاونيات استهلاكية وتعاونيات مصرفية بتقديم قروض بفائدة بسيطة. لكن كل ذلك يتوجب ان يسبقه حملة توعية واكتساب مهارات دون رسم توقعات كبرى كصياغة استراتيجية فلسطينية عامة ودمجها في التعليم المدرسي والمناهج الجامعية، فهذا لا يتحقق قريبا.

### الآلية الاكثر نجاعة:

تأسيس منتدى او مركز يضم التخصصات التالية:

- (1) دائرة لإنتاج مشاريع جدوى مدروسة علميا سواء من قبل العاملين في المنتدى او بالتعاقد مع كفاءات
  - (2) تأمين تدريبات مهنية بالتعاقد مع كفاءات... تدريب حقيقي
  - (3) القيام بعملية توعية ماثرة تبرز اهمية الاقتصاد الاجتماعي وفرصة في فلسطين وتبادل الخبرات مع تجارب شعوب اخرى وتجارب محلية ناجحة
  - (4) تأمين تسهيلات نسبية للتعاونيين الانتاجيين والزراعيين وفي ميدان الخدمات والتسويق بما في ذلك انشاء مصرف لهذه الغاية وتأمين الحماية المالية للتعاونيات
  - (5) تدعيم المبادرات الابتكارية، فالمجتمع الفلسطيني وان كان ادائه اقل من المتوسط بشكل عام، في كافة الميادين، ارتباطا بمستوى تطوره، يتصف بمبادرات شبابية متميزة وعقول شبابية ابتكارية، يمكن تشجيعها وفتح البوابات لها لتأدية دورها البناء في الحياة (الخير العام) بلغة جرامشي.
- وختاما، ليس ثمة حاجة للإسهاب في تبيان اهمية الاقتصاد الاجتماعي فهذا لا يضيف شيئا، وكذا في الحديث عن المواطنة والمشاركة في القرارات وبناء اقتصاد فلسطيني مستقل، وعلى اقل تقدير فك بعض الارتباط والتبعية... فثل هذه المقولات معروفة ومستهلكة.

كما ليس ثمة حاجة للقول ان هدف الاقتصاد الاجتماعي ليس اقامة شوارع وشبكات مياه وكهرباء وتأمينات صحية ... فهذا تقوم به السلطة الممولة خارجيا كما منظمات ال NGO's. فالمطلوب الذهاب لمساحة أخرى مساحة الاقتصاد الانتاجي بشكله التعاوني الاجتماعي ... والزراعة العضوية غير الملوثة بالكيماويات والحرف الانتاجية المرتبطة بالبيئة المحلية.



## قراءة في الخطة الاقتصادية للحكومة الفلسطينية

تتكون الخطة من ستة محاور (تشجيع المنتج الوطني، تشجيع الاستيراد والاستيراد المباشر، حماية المنتج الوطني، تعزيز الشراكة بين القطاعين العام والخاص والمجتمع المدني، تنظيم القطاع الزراعي، إعمار غزة). وقد أبدى القطاع الخاص ارتياحاً واستعداداً للتعاطي مع الخطة كما جاء في صحيفة الحدث (العدد 33).

### خلفية

عرفت البشرية نموذجين تمويين كبيرين في القرنين الأخيرين ذلك أن المجتمعات الإقطاعية ومجتمعات نمط الإنتاج الآسيوي التي امتدت قرونا وقرونا كرسست قصوراً في الديناميكية جعلها تراوح مكانها أماماً طويلة. النموذج الأول: الرأسمالي الذي اكتسح أوروبا ولاحقاً أمريكا ومن بعدها اليابان... الخ، فنجح في بناء تشكيلة اقتصادية - اجتماعية بما اتصل بها من بنى فوقية وثقافية وعلمية وديمقراطية وليبرالية. وهو النموذج الأقوى عالمياً اليوم.

أما القوى الاجتماعية والطبقية التي قادت وانجزت هذا المشروع الاضخم، بل المرحلة التاريخية، فهي البرجوازية الصاعدة التي قادت ثورات في بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا، أمريكا وغيرها، وقد تحولت هذه البرجوازية إلى رأسمالية احتكارية والآن احتكارات معولة في عصر الثورة التقنية وانهار المعسكر السوفييتي.

وسواء كانت هذه البرجوازية - الرأسمالية قطاعاً خاصاً أو دولة رأسمالية - احتكارية بما أقامته من قطاع عام يصل أحياناً 20-30% من الاقتصاد الكلي فهي التي أمسكت بدفة هذه العملية. وعلى امتداد قرن ونصف وأكثر كان تركيزها على الاقتصاد الانتاجي وبدايته "الثورة الصناعية" الذي استوعب الشغيلة واسس المدن المعاصرة بما فيها من طبقات وشرائح جديدة وتنظيمات اجتماعية ونقابية ونسوية واحزاب سياسية ومؤسسات أكاديمية واعلامية وقواعد ضغط وحریات وحقوق... الخ.

النموذج الثاني: التنمية في مصلحة الطبقات الشعبية التي عرفتها التجربة السوفيتية والصينية وأكثر من نصف القارة اللاتينية اليوم وبعض الولايات الهندية وفيتنام. وهي لئن قادها اليسار الماركسي فأساسها الاجتماعي "كلمة تاريخية" (غرامشي)، تضم عمالاً وفلاحين وفئات وسطى ومهمشة، ثارت على الاوضاع من أسفل على أعلى، وحسنت الصراع الطبقي سواء بالثورة او بالانتقال السلمي البرلماني وأحرزت خطوات على طريق التحول الاشتراكي. والبداية كانت الثورة الروسية عام 1917 والصينية عام 1949. وقد سارت على نفس النهج البرجوازي من ناحية بناء قاعدة اقتصادية انتاجية وعلمية ثقافية ومؤسسات دولة عصرية، جنباً الى جنب مع تحرير ثرواتها من نهب شركات العواصم الرأسمالية، ولكن بمضامين طبقية وعلاقات إنتاج مغايرة.

والتنمية هنا انجزتها بشكل اساس الدولة التي استحوذت على مساحات واسعة من الاقتصاد والمؤسسات المتصلة به تراوحت بين 30-50% في بلدان و 70-80% في بلدان أخرى، ناهيك عن حصة التعاونيات الانتاجية والخدمية. وللصين الشعبية التي تنافس اليوم أمريكا في حجم الانتاج القومي السنوي (اكثر من 20 تريليون دولار لكل منهما) قصة أكثر تشعباً.

وعلى صعيد ان "الديمقراطية صنو الاشتراكية" (لينين)، كانت لدى هذه التجارب "سكر قليل" رغم نجاحها على صعيد الديمقراطية الاجتماعية من ناحية توزيع الثروات والمنافع العامة وغياب الفجوات الطبقية الكبيرة وعدم تبلور رؤيتها للديموقراطية.

ويبدو لي ان البشرية لم تصل بعد المرحلة الاشتراكية ذلك ان الطور الاشتراكي مرهون اولاً بتطور عالٍ في "قوى الانتاج" (ماركس)، أي الاقتصاد والتكنولوجيا ومهارات العمال وقوتهم الانتاجية، فيما الثورات الاجتماعية التي قادها اليسار اندلعت في البلدان الاقل تطوراً "روسيا نصف الاقطاعية، نصف البرجوازية" (لينين)، "الصين الاقطاعية" (ماو)، و"فيتنام الانتاج البضاعي الصغير" (هو تشي منه)، وامريكا اللاتينية التي بالكاد غادرت المحوطة وحكم العسكر وتشهد بدايات تحول تنموي.

النموذج الثاني فك تبعيته وارتباطه بالمركز الامبريالي، اما النموذج الاول فلم يعرف التبعية والمحوطة اصلاً، ولكن نشأت فيه قوى طبقية رأسمالية أفضت الى حربين عالميتين. وعليه، فالسؤال النظري هنا: ما هو النموذج التنموي

الذي تسعى له السلطة الفلسطينية، وكذا البرجوازية الفلسطينية من "رجال أعمال"، النموذج الذي تسعى لتأسيسه في الاراضي الفلسطينية المحتلة؟

سؤال طليق وإجابة طليقة. بداهة فالفقاعات الشعرازية التي روجت بعد اوسلو عن "النور السبعة" وما قيل عن "ثورة زراعية في اريحا" قد تبخرت، وهذا حال الاحتفال بانجاز الف مشروع والفي مشروع، ذلك ان كل هذه التمنيات لم تحقق الهدافين الكبارين للتنمية (تخفيض نسبة البطالة وتخفيض نسبة الفقر) فالإحصاءات الرسمية تشير إلى بطالة تناهز 25% ونحو 50% في اواسط الشباب والاغلبية من خريجي الجامعات لعام 2014 (الدكتور سمير عبد الله)، اما الفقر فيتخطى 50% والنسبتين بداهة اعلى في قطاع غزة.

لكن ثمة نموا في المشروعات والجامعات... في مرحلة اوسلو. ولولا القطاع الحكومي الذي يستوعب ما لا يقل عن 25% من قوة العمل لتضاعف الفقر وتضاعفات البطالة.

### ملاح بارزة في الوضع الفلسطيني الذي تتحرك فيه الخطة الحكومية

ليس الهداف تقديم دراسة معمقة او التطرق للشأن السياسي، انما يخلص الحديث فيما يتصل بالخطة الاقتصادية للحكومة وحسب.

كان المجتمع الفلسطيني في الضفة وقطاع غزة قبل التوقيع على مبادئ اوسلو عام 1993 نحو 2.3 مليون، اما اليوم فقد أصبح 5 مليون (3 مليون ونيف في الضفة و2 تقريبا في غزة) بزيادة طبيعية تتراوح سنوياً بين 5-6% يتوزعون على نحو 900 الف عائلة. اما قوة العمل الناشطة فهي تصل للمليون، اي (20%) (دائرة الاحصاء) بما هو أقل من 10-12% من نسبتها في الاردن ومصر على التوالي. وحسب دائرة الاحصاء المركزية هناك 45% يعملون في القطاع الحكومي و46% في القطاع الخاص و9% في القطاع غير الحكومي (2012).

وهذه ارقام تحتاج الى تدقيق، ذلك انها تتجاهل توظيفات حماس في سلطة غزة (هنا ثمة رقمين 42 الف او 52 الف) ناهيك عن اكثر من 40 الف مقاتل لحماس والجهاد في القطاع، والاف اخرى على ملاك التفرغ وهذا حال حركة فتح وارقام اخرى محدودة لبقية الفصائل التي يقيد تفرغها وضعيتها المالية. اي ان القوام



الذي يتلقى راتباً شهرياً لا يقل عن 300 الف وليس 170 بحسابات السلطة الفلسطينية ناهيك عن 100 الف عائلة تصرف لها وزارة الشؤون الاجتماعية مساعدة شهرية.

اما حجم الزراعة في الداخل الوطني فهو بالكاد يصل الى 6% (دائرة الاحصاء) يمكن اضافة نسبة مشابهة اقتصاد منزلي وغير رسمي، بينما كانت نسبة الزراعة 62% قبل عام 67. اي لقد تدهور قطاع الزراعة دون ان يتحول لمجتمع صناعي. اذ لم تنفك الصناعة المتوسطة التي تضم بين 50-100 عامل واكثر على حالها اقل من 20 مصنعاً. اما النمو فقد وقع في المصانع والورش الصغيرة دون نسيان ان 92% من الورش تضم 1-9 عمال (الدكتور هشام عورتاني).

وبالتالي فقط قطاع الخدمات والبناء هو القاعدة الاوسع، علاوة على شريحة تبلورت وغدت مركز ثقل البنية الاقتصادية؛ الكمبرادور التجاري الذي يسوق السلع الاجنبية بشكل اخص، والمؤسسة البنكية التي تبلغ ودائعها (12مليار). والعين المراقبة ترى تداخلاً بين بعض دوائر المساهمين الكبار في البورصة (5 مليار) انخفضت قيمتها السوقية في السنوات الأخيرة ودوائر بيروقراطية سياسية واخرى تجارية وثالثة مصرفية. ويمكن ان نلاحظ وزن الوسطاء التجاريين (الكمبرادور) عندما تنتبه الى حجم وارداتنا السنوية التي تناهز 5 مليار دولار من السوق الاسرائيلية وعبرها فيما صادراتنا لم تصل بعد 1 مليار دولار بعجز تجاري 400% الامر الذي لا تشاطرنا فيه اي دولة اخرى.

ولكن كيف يتدبر المجتمع شؤون حياته في ظل هذا العجز الذي يذكرنا بحال جزر الهنولولو في اواخر القرن التاسع عشر. فتحت وطأة سوء الاحوال الاقتصادية ذهب وفد قبائلي الى واشنطن قائلاً: خذوا الجزر! وضمتمها امريكا لها.

1- المساعدات الخارجية لتمويل المشروع السياسي التسويي، وحسب الدكتور خليل نخلة (ناهزت 27 مليار دولار) باشكال مختلفة. سواء الذي صب في خزينة السلطة الفلسطينية او مشروعات وكالة الغوث (التي ضاعفت عملياتها لدعم عملية السلام) او المنظمات غير الحكومية، ناهيك عن المساعدات التي حصلت عليها حركتي حماس والجهاد.

ومنذ عام 1994 حين تلقت السلطة 370 مليون دولار (الدكتور شعث) مروراً بـ 500 الى ان اصبحت 2.5 مليار واكثر. واحياناً تشكل المساعدات 30 او 40% من الموازنة وفي سنوات الاجتياح عام 2002 وبعدها اصبحت 60-70% (الدكتور ماجد صبح). وقد تراحت جذريا فيما بعد.

وهذه المساعدات غير ثابتة، وقد تقلصت عقب ذهاب القيادة الفلسطينية للأمم المتحدة وانتزاع قرار (دولة غير عضو) وتشددت العقوبات من امريكا واوروبا وكندا عام 2014 الى درجة أن حجت حكومة نتياهو المستحقات الضريبية الفلسطينية بعد التوجه لميثاق روما ومحكمة الجنايات الدولية.

وما يزيد الطين بلّه مديونية السلطة على البلديات في مجال الكهرباء وحجب أو اتلاف فواتير المقاصة في غزة مما رفع مديونية السلطة الى 4.5 مليار دولار و حاليا اكثر من 5 مليار .

2- عمالة نحو 150 الف فلسطيني (غالبيتهم من القدس الشرقية) في مشروعات إسرائيلية بما يعود سنوياً بأكثر من مليار دولار وهذا الرقم متحرك ايضاً ارتباطاً بوتيرة الصراع الوطني.

وسوف اذهب لما هو أبعد من ذلك بالقول ان ما يسمى "سوق حرة" و"حرية السوق"... من المقولات الليبرالية هو كذبة كبرى. فالاحتكارات المعولة مسيطرة عالمياً "30 شركة تسيطر على 70% من السوق العالمية" (هيكل). ومعظم دول العالم التحقت بمنظمة التجارة العالمية، وليس هناك سوى الدول "المتمردة" على شروط المعولة لديها قدر من السوق الحرة، وبكل تأكيد السوق الفلسطينية التي يطبعها ارث سياسيات الاحتلال واتفاق باريس الذي يحرمها من التبادل التجاري الحر مع العالم مثلها يحرمها اتفاق اوسلو من الاستثمار في منطقة ج التي تعادل 60% من الضفة الفلسطينية علاوة على القدس التي كانت مساحتها 3% في العهد الاردني والآن 17% في زمن الاحتلال، دون ان ننسى الخلل المريع في الميزان التجاري.

بل ولم يخف الوفد الاسرائيلي في مفاوضات التسعة اشهر ان الاغوار خارج البحث بما تحويه من ثروات وهي التي تصل نحو 27% من مساحة الضفة. واكثر من ذلك، فبرنامج الليكود صريح (سيادة واحدة من البحر للنهر) وهذا حال القوى المتحالفة معه. أي ليس ثمة تسوية قريبة او استقلال قريب حتى لو على مدينة واحدة طالما استمر ميزان القوى الراهن.

وهذا يوجب بالتالي الجمع بين النضال التحرري والمشروع التنموي والنضال الديمقراطي في آن والتخلص من أوهام أن ثمة مفاوضات ومبادرات وحل سياسي قريب. فليس ثمة فرصة لحل سياسي قريب لا سلمي يعيد الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية في ظل الخلل في ميزان القوى، ولا استسلامي تقرره املاءات حكومة اليمين الاسرائيلية الامر الذي لن توقع عليه اي قياده فلسطينية لا براغماتية ولا معتدلة ولا مبدئية متشددة.

وكي لا ينشأ أي التباس، فلست من أنصار الرأي الذي يتداوله البعض بأن "ليس ثمة تنمية دون زوال الاحتلال" فثل هذا الاستخلاص يغلق الباب امام اي توجه تنموي. وهذا غير علمي، ذلك ان ثمة مساحات يتحرك فيها القطاع الخاص وثمره نموا كميًا وهذه حقائق يمكن البناء عليها، وهي شاهد قوي رغم وجود الاحتلال. ولو كان هناك ابداع اكبر، اي "تحليل ملموس للواقع الملموس" (لينين) بروحية الانتماء للوطن لا الفصائليه او النخب الطبقية، تمهد لها تشريعات وسياسيات ومشروعات واضحة المعالم فمن شأن ذلك اختراق الحصار الاحتلالي، بما يتطلبه ذلك من مواجهات. وهذا الموضوع يستحق ورقة منفصلة.

كان يقال في مصر (تضخم سكاني، مديونية، فرار رأس المال) واستمر الحال عقوداً متأثراً بهذه المقولات الى ان برزت ملامح تفكير جديد مؤخراً (ضرائب تصل 22%، حد أدنى واعدى للأجور، بتقليص الفارق من الف ضعف الى اقل من 20 ضعف، تحديد عشرة قطاعات للاستثمار والتقدم بـ 50 مشروع استثماري برأسمال بعشرات المليارات، حفر قناة السويس ثانية، مدينة جديدة "القاهرة الإدارية") وهذه بداية يمكن أن نتطور فيما لو نأى النظام عن الليبرالية الجديدة. والسلطة الفلسطينية تستطيع أن تضطلع بدور استثماري في قطاع الانتاج من عوائد الضرائب لا المساعدات، وهي تناهز سنوياً 3 مليار دولار وان ترفع حصة الزراعة. ويمكن ان تتابع ما يدور في اليونان اليوم، فثمة تشابهات مع وضعنا الفلسطيني من ناحية (الزراعة 6% ونسبتها في الموازنة 1% وميدونيتها تعادل انتاجها السنوي مرة ونصف) والتوجه في هذه الدولة وسواها من البلدان المأزومة يقضي فيما يقضي رفع حصة الزراعة في الموازنة الى 10% ومثال على ذلك دول الكوميسا الافريقية و كذا الصين الشعبية.



المهرون بالعملة الرأسمالية والذين يرهنون انفسهم بها او يتلقون "المساعدات والتسهيلات" منها، يضبطون ايقاعهم على ايقاع ايديولوجيتها، ويعطسون ان عطس البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، وهذا حال أبقاها من الاقتصاديين الاختصاصيين وبالتالي فهم لا يرون دوراً تنوياً اقتصادياً للدولة، تاركين ذلك لقوانين السوق على نهج تاتشر وريغان وبوش الاب والابن واضرابهم الذين اطاحوا بالكينزية التي قالت بدور للدولة بعد الركود العظيم (ازمة 1929-1933) الذي عبد الطريق لصعود النازية والفاشية والحرب العالمية الثانية، وبدل الكينزية نحازوا لليبرالية الجديدة ورمزها الالمع ميلتون فريدمان واقل شأنًا جرين وروستوف، والتي قضت بالغاء دور الدولة حتى الرقابي على المضاربات في البورصة (مركز الثروة الاقتصادية العالمية اليوم) بما أفضى للازمة المالية عام 2008 التي تحولت لأزمة اقتصادية اسفرت عن خسائر تناهز 30 تريليون دولار في انحاء المعمورة بما هو اكثر من ثلث الإنتاج العالمي، حيث اصبحت مديونية امريكا اكثر من 20 تريليون دولار ومديونية اوربا 10 تريليون دولار ... الخ. اما الدولار فخرس اكثر من 10% ورفعت اسعار المواد الغذائية باكثر من 40% وانحسار كانت عالمية، وهذا شمل فيما شمل الاقتصاد الفلسطيني الهش والحدود. ويكفي التذكير بالبورصة الفلسطينية الناشئة التي خسرت حوالي 45% من قيمتها السوقية، ناهيك عن الودائع بالدولار، فهل ثمة مؤشرات ولا اقول مرجعيات يستند لها العقل الاقتصادي الفلسطيني في دوائر السلطة او النخب العليا من برجوازية القطاع الخاص؟ وما هي؟ وما رأيها في مقولة بريجنسكي مستشار الامن القومي في عهد كارتر "امريكا تفكر لكم، امريكا تنتج لكم" اي لا داعي ان تفكر او تنتج الشعوب، وما عليها سوى ان تكون استهلاكية تستعذب عبوديتها، ام تراها تتمرد على هذه المقولة بنقيضها" لا خير في أمة تأكل مما لا تنتج وتلبس مما لا تصنع" وتتجاوز مقولة المصلح الكواكبي "أعجب من أمة تنفق على السجائر اكثر مما تنفق على التعليم".

والمسألة هنا ليست مزاجية او مصالح نخبوية فقط، بل أبعد من ذلك، نخطة اقتصادية لا تقطع شوطاً في التنمية يليها خطط أخرى واشواط أخرى هي افضل وصفة لنزيف الهجرة (أشار استطلاع ان 70% من الشباب لديهم استعداد للهجرة) وبيئة مناسبة لاحتضان اكثر التوجهات التكفيرية دموية، ويكفي الالتفات

لدول الجوار دون خداع النفس بأن بيئتنا الفلسطينية محصنة، فضلاً عن زيادة البطالة والفقر والقهر الاجتماعي وغيرها.

كما ثمة حاجة للاجابة عن سؤال: هل ثمة امكانية لمشروع تنموي فلسطيني متدرج؟ الجواب، نعم. سواء في الحقل الاقتصادي او العلمي او الثقافي او الاجتماعي، إلخ. اذ ما الذي يمنعنا ان يكون لدينا جامعة حقيقية متقدمة تنتج ابحاثاً يتحول بعضها لتكنيك وهذا تكنولوجيا؟ فالجامعة غدت قوة انتاج. او دراسات علمية يستند لها القرار الفلسطيني في كافة الميادين. وما الذي يمنعنا ان يكون لدينا مستشفى يغنينا في كثير من الاحيان عن الذهاب للعلاج في مستشفيات غير فلسطينية؟ وما الذي يمنعنا من تطوير تلفزيوننا وصحفنا او نظام السير او تجميل بيئتنا او تشجيع مبادرات شبابية أو مضاعفة إنتاجنا الزراعي...؟ الجواب: اداءنا المتوسط او دون المتوسط. اي العامل الذاتي في كثير من الاحيان. ولكن ما ان "يعطى القوس باربها" فلدى الشعب طاقات قادرة على انجاز روايات نجاح، نرى بعضها مبعثراً في عموم الوطن. أي لسنا شعباً عاقراً او مصاباً بالعقم، بل على العكس "لدينا عبقرية التاريخ" فلم نندثر كما تمتت واثق الخارجية الاسرائيلية بعد سنوات من النكبة والتطهير العرقي "الفلسطيني سيتحول لغبار الارض"، كما لم يستسلم شعبنا للعجز، وما محاولات القطاع الخاص سوى محاولة، وما قتال بيروت 82 وحمود غزة 2014 او استعدادية الحركة الاسيرة للمواجهة سوى محاولات في سيل المحاولات.

ان الذي يحدد الحصاد في التحليل الاخير هو ما سبقه من حرث وزرع. واننا ملزمون بالسير في مشروع تنموي شامل تتحقق أهدافه بتدرج ودون ذلك ننفاقم معضلات الشعب ويغدو الحديث عن صمود الشباب في الوطن وعن ثقافة حداثة تؤكد المواطنة وحق الاختيار والابداع والتنوع وحرية التفكير وحقوق الانسان. وكل ما يمكن ان يصد المنظورات المنغلقة الاحادية التي يمكن ان تززع الصمود المجتمعي في ارض الوطن هي بخار يتطاير في الهواء.

ان الديناميات التدميرية في دول الجوار ليست بعيدة عن اوساط شعبنا، وما رأيناها في مخيم نهر البارد مثلاً. وما سقناه اعلاه يمهد بل يتواشج مع ما تبقى من المقاربة.

مقدمة لا مندوحة عنها، من الكتب الاكثر شهرة علمياً كتاب آدم سميث ثروة الأمم والذي كان توطئة لكتابات ريكاردو في الاقتصاد وقانون ن - ب - ن (نقد - بضاعة - نقد وبيع) ورأس المال لماركس الذي تضمن التراكم البدائي كمهد للتراكم الرأسمالي والانتقال من الحديث الضبابي عن الربح الى قانون فائض القيمة كميكانيزم حاسم للتركيم.

ولولا فعل هذا القانون الريكاردوي وفائض القيمة الماركسي لما حدثت تنمية رأسمالية في العالم ولما تم تجاوز المجتمع الإقطاعي الراكد. ودون أن تفعل هذه القوانين بأنسيابية لن تخرج الوضعية الفلسطينية الاقتصادية من ازمته البنيوية من عجز دائم في موازنة السلطة، وارتهان كبير للمساعدات الخارجية، اختلال مريع في الميزان التجاري، والحاق السوق الفلسطينية التي لا يصل انتاجها 12 مليار دولار بالسوق الاسرائيلية التي تجاوز انتاجها 240 مليار دولار سنوياً، مديونية على السلطة والشعب معاً دون حيوية كافية للسداد، تهقر قطاع الزراعة ونهب نحو 80% من الثروة المائية (60% حسب صندوق النقد الدولي) بطالة متنامية الى درجة ان يؤثر الجيل الشباني انتظار فرص عمل لن تأتي عوضاً عن خلق فرص عمل بالاعتماد على الذات من خلال مشروعات صغيرة ومتناهية الصغر.

ولا تفوتني الاشارة الى خلل بنيوي آخر بتوسيع قطاع الخدمات والاستيراد الخارجي على حساب القطاع الاتجاعي (صناعة، زراعة) الشيء الذي يفضي الى تعطيل كبير لقانون التراكم البدائي الذي يؤدي للتراكم الرأسمالي. اي القانون الذي نقل اليابان في القرن الاخير ومجمل اوروبا في القرنين الاخيرين والصين في العقود الاخيرة (رغم الخصوصية) الى ما اصبحت عليه.

ربما يخطر في بال أحد، من باب السفسة الاغريقية، ليس في نشأته الفلسفية باثبات الشي وتقيضه بل من آت اليه من ثرته لا قيمة علمية لها، بأن شعبنا خارج التاريخ وفوق التاريخ ويصنع تاريخاً افتراضياً لا يشبه أحد. وهذا بداهة اقرب الى الهزل منه للجد، ذلك ان تاريخ البشرية "متمازج كثيراً ومتداخل كثيراً" ادوارد سعيد، والقوانين العامة في كل مرحلة هي ذاتها والقوانين الدائمة هي ذاتها، ولكنها تحضر ضمن الخصوصية القومية. اي لا مناص من الامسك "بالعام" والانطلاق منه "للخاص". ("من الفكر العام المجرد الى الملموس الخاص" (ماركس)).

مثلاً: هل تستطيع اي خطة تنموية او قوانين السوق ان تقفز عن قانون الزيادة السكانية؟ وفي حالتنا نحو 6% سنوياً فيما فرص العمل والخدمات لا تنمو 2% واحياناً تكون سلبية، اي تراجع في زمن الاجتياحات والعدوانات التي تتكرر دورياً.

وهل تستطيع اي خطة تنموية "او قوانين السوق" ان تقفز عن الجيل الجديد الذي ينضم لصفوف العاملين سنوياً. وفي حالتنا يتقدم لامتحان الثانوية نحو 90 الفا سنوياً ينجح اقل من 60 الف ويلتحق بالجامعات نحو 45 الفاً فيما يتخرج نحو 40 الفاً وبالتالي ثمة حاجة ل 70 الفاً فرصة عمل كحد ادنى سنوياً.

وهل يستطيع أحد أن يتجاهل فائض القيمة، أو علاقة المركز بالحيط، أو التوافق بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج؟

فالسلطة اليوم (بل السلطتين) في حالة اشباع، بل ثمة بطالة مقنعة (معهد ماس) ضمن منطلقات عديدة منها "مكافأة المقاتل" وكأنه لا يوجد وسيلة للمكافأة سوى التوظيف! ومرت سنوات على السلطة انتهجت فيها فلسفة الرئيس الامريكى روزفلت بعد الحرب العالمية الثانية (توظيف في جهاز الدولة، رفع الرواتب، قوة شرائية، دوران العجلة الاقتصادية) دون انتباه الى ان سل المشتريات الامريكية كان من المنتجات الامريكية اي قانون ن- ب- ن وبالتالى تدفقت العجلة الاقتصادية وذهبت الضرائب لخزينة الدولة وهذه بدورها دفعت الرواتب. اما فلسطينياً فمعظم مشترياتنا من السوق الخارجية اسرائيلية وسواها، وبالتالي لم تندفق العجلة الاقتصادية بل تطلب الأمر المزيد من الارتهان للمساعدات الخارجية والمزيد من الالحاق بالسوق الاسرائيلية عوضاً عن فك متدرج للارتباط الذي يتطلب بشكل قاطع زيادة المنتوجات الوطنية.

ومثال معاكس: قررت الحكومة الصينية ونفذت تقليصاً لمجم جيشها من 4.6 مليون الى 3.7 مليون، تسريحات مع توفير فرص عمل، علماً أن معدل النمو في الصين في العقد الأخير يتراوح بين 8-12% سنوياً واحتياطها يبلغ 2.4 (أصبحت 3.4) تريليون دولار علاوة أنها ابتاعت سندات حكومية امريكية ب 1.1 تريليون دولار.

ويفيدنا كفلسطينيين ان نتابع وان ندرس التجربة التنموية البرازيلية في السنوات الأخيرة أو ماليزيا، من باب تلاحق الافكار والفائدة المتبادلة. وهذا ليس ترفاً فكرياً، فلربما ذلك يكون له أصداء على تفكيرنا الاقتصادي.

تأسيساً على ما تقدم لا يبدو ان الخطة الحكومية معنية بالتذكير بالاستراتيجيات التنموية، ولا بالمؤشرات النظرية الموجهة للخطة، كما أنها لم تنطرق سوى بصوت منخفض للبيئة الاقتصادية - الاجتماعية الفلسطينية، التي تشكل تربة فعل الخطة، وانما ذهبت مباشرة للمحاور. وفيما تبقى من مقاربتني سوف أذهب لهذه المحاور مباشرة.

نشرت صحيفة الحدث (33) خطة الحكومة كما مقابلات مع رجال أعمال واكاديميين.

المحور الاول: دعم المنتج الوطني والترويج له واعطائه اولوية في العطاءات والمشتريات الحكومية.

وعلى امتداد صفحة ونصف، اي حوالي 60% من مساحة الخطة جرى التركيز على الترويج الاعلامي والقيام بحملة توعوية للتعريف بالمنتج الوطني، ودفع مستحقات القطاع الخاص واعداد دراسات جدوى وانشاء مراكز للابتكار وترشيد استهلاك الطاقة ورفع القيود عن استغلال المناطق "ج" من خلال الضغط الدولي وتنظيم السوق الداخلية وتفعيل الرقابة ومكافحة منتجات المستوطنات، الخ.

البنود كثيرة، وهي في مجملها ايجابية، ولكن يعوزها بندين: 1- الاولوية، أي ما هو البند المركزي الذي بالامسك به يتم الامسك بالبنود الاخرى، وبالتالي تركيز الجهود والامكانيات فيه. هل هو الترويج الدعائي ام التسويق ام تحسين جودة المنتج المحلي ام تعظيمه وتحسينه، وما هي مراحل تحقيقه؟

فبنود الخطة لا تتساوى من ناحية اهميتها، فهناك الرئيسي والثانوي، المحرك لغيره والذي يتحرك بفاعلية غيره. واعتقد ان البند الاساس هو التعظيم والتحسين بما يتطلبه من استثمارات ومراحل وتشجيع المشروعات الصغيرة.

2- غياب التوجه لجوهر العملية التنموية أي الاستثمار في القطاع الانتاجي من قبل السلطة وراس المال المحلي، فهذه الآلية هي التجربة عالمياً لبناء التنمية، فالاستثمار اي "ن" هو الذي ينتج "ب" اي البضاعة التي تحقق ربحاً اي "ن" وتكرر الدورة وتوسع افقياً ورأسياً. وطالما ان الخطة تحدثت عن دراسات جدوى، فمن شأن



ذلك التحرر من الضياع والتهيه، وذلك بتقديم 20-30 مشروع جدوى على قدر عالٍ من الاعداد. فمثلاً لقد اعلنت الحكومة المصرية عن سياستها الاستثمارية واجرت تعديلات تشريعية جاذبة، وحددت 10 قطاعات للاستثمار واكثر من 35 مشروع استثماري برأس مال يصل 100 مليار، ناهيك عن بناء قاهرة جديدة مرحلتها الأولى ب 45 مليار دولار. بالتالي أصبح على طاولة راس المال المصري والعربي والدولي قاعدة بيانات بل مشاريع جدوى يمكنه ان يختار منها كما يمكنه ان يستثمر بناء على دراساته الخاصة على أن يتحرر الاقتصاد من الليبرالية الجديدة والتبعية.

واتصلاً بذلك فالمطلوب تنمية مستدامة، وبشكل اخص في القطاع الاتاجي الذي يراعي خصائص الوضع الفلسطيني، فهو القادر على تخفيض البطالة والفقر معاً وصولاً الى توسيع المنتج المحلي الذي يكفل فك متدرج للارتباط والالحاق.

ولئن لم تتحقق هذه الاهداف فما جدوى اي خطة اقتصادية؟ بل سوف تفشل، واكثر ما يمكن ان تحققه هو نمو كمي هنا وهناك واستمرار لما هو قائم بما يحمله من مخاطر وازمات.

اما المحور الثاني: فتناول في نصف صفحة تنظيم الاستيراد وتشجيع الاستيراد المباشر من خلال قاعدة بيانات وتحديد السلع التي يمكن استيرادها واجراءات عديدة لها صلة بالعمل الاداري والبيروقراطي.

والمحور الثالث: امتد على ربع الصفحة الاخيرة داعياً لحماية المنتج الوطني بدراسة الرسوم الجمركية واعداد دراسة حول البدائل للمنتجات الاسرائيلية.

المحور الرابع: مكون من سطرين داعياً لتعزيز الشراكة بين القطاعين الخاص والعام والمجتمع المدني.

والمحور الخامس: تعرض في بضعة سطور لتنظيم قطاع الزراعة بالتركيز على قطاع التبغ وتنظيمه وتوسيع الاستثمار فيه.

واخيراً المحور السادس: قال باعادة اعمار غزة من خلال استخدام المواد الاولية الوطنية وتوسيع معبر كرم ابو سالم وتسهيل الحركة فيه.

والمحاور الاربعة الاخيرة غطت نصف الصفحة الاخيرة، الامر الذي يستحق وقفة من خلال النقاط التالية:

1- الزراعة: كان توزيع السكان في عموم فلسطين قبل التطهير العرقي عام 48 على النحو التالي (70% ارياف و20% مدينة و10% في الصحراء) من كتاب "الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع للثورة، اي ان المجتمع الفلسطيني زراعي وفلاحي بالدرجة الاولى، وشكلت الزراعة 62% من الإنتاج الوطني قبل عام 1967 (اقتصاديات الجوع).

ويمكن الزعم ان الزراعة في الضفة الفلسطينية من ارض وثروة حيوانية وتصنيع غذائي هي المجال الارحب المتاح للتنمية رغم كل عقبات التسويق وشح المياه وغيرها. ودون دعم الفلاح والزراعة سوف تنقلص المساحات المزروعة اكثر فأكثر والاعتماد على السوق الاسرائيلية اكثر فأكثر، وباسعارها العالية، وهذه مشكلة تعاني منها اليونان على سبيل المثال وهي أحد اسباب فوز اليسار مؤخراً وكذا فنزويلا.

وعليه، ينبغي ان تحظى الزراعة في خطة الحكومة باهمية كبيرة كما في موازنتها ايضاً، اذ لا يعقل ان تكون حصة وزارة الزراعة مجرد 1% او حول ذلك! فيما ينحصر الحديث في الخطة عن زراعة التبغ! وحرى وضع خطة كاملة للنهوض بالزراعة والارياف وهذا تسير عليه العديد من البلدان غير المتطورة "لمحاربة الفقر والهجرة الى المدينة حتى أن هذا الخلط أصبح من نصائح البنك الدولي. وهل يصدق أحد أن حكومة التشيلي في بداية السبعينات قبل انقلاب بينوشيت الدموي كانت توزع نصف زجاجة حليب مجانية لكل طفل؟ وان فنزويلا اليوم توزع وجبة طعام مجانية لتلاميذ المدارس! وكل ذلك من انتاجها الوطني، وان مصر أقرت بعد سبات طويل استصلاح 4 ملايين فدان؟

وعلاوة على ذلك لماذا لا تتهياً الحكومة لاعداد قائمة باسعار السلع الضرورية والتي تباع باسعار متفاوتة بين مدينة واخرى وبين سوپر ماركت واخر.

وينهض سؤال على الدوام: من أين تأتي بالأموال؟ في حالة رفع موازنة الزراعة الى 10% كما حال العديد من البلدان النامية، او اقامة صندوق للاقراض او شق الطرقات أو إقامة مشروعات للتصنيع الغذائي، الخ.

الجواب، ما يفعله غيرنا، ان توسيع الاستثمار لتلبية الاحتياجات الحيوية يوفر سلماً أرخص وتدفقات ضريبية لخزينة السلطة في آن. وحينها يكون لمقاطعة منتجات المستوطنات واعداد قائمة بالسلع المستوردة معنى وامكانية عملية.

ويمكن أيضاً اتخاذ اجراءات حمائية كما تفعل الكثير من الدول حتى التي التحقت بمنظمة التجارة العالمية وهذا يحمي المنتج المحلي ويزيد من الضرائب التي تذهب لخزينة السلطة.

فلسنا "سوقا حرة" والسوق لا تنظم نفسها من تلقاء نفسها، والبرهان الأزمات الاقتصادية الدورية وأخرها أزمة 2008 التي لم تخرج منها البشرية بعد. ان سوقنا الفلسطينيه مستباحة كما حال شعبنا ووطننا.

2- أن أي حديث، وثمة غزارة هنا فيما يعقد من ورشات ومؤتمرات وما يصدر من تقارير عن محاربة البطالة ودعم صمود الشباب. دون مضاعفة الاستثمارات مرات ومرات في القطاع الانتاجي هو مجرد هباء. والدليل ان البطالة كانت في بداية التسعينيات بين 6-8% بينما هي اليوم ترحف الى 30% وربما أكثر في حالة احتساب النساء في سن العمل او إحصاء دقيق للبطالة.

"وتحسين جودة المنتج الوطني" كما جاء في الخطة من المتعذر أن يتحقق بانتظام دون تطوير البحث العلمي في الجامعات والكليات ذي الاختصاص، فالجامعة ليست مؤسسة تعليمية كما المدارس، بل مؤسسة بحثية وقوة اقتصادية في آن. وهذا يمكن السير فيه بتدرج، مع التأكيد على ما جاء في الخطة من اعداد مهني بما يتطلبه من متابعة جادة. فالمهارات المهنية تتطلب قفزة نوعية.

والتأييد أيضاً يشمل المحور المقتضب حول تعزيز الشراكة بين القطاعين العام والخاص والمجتمع المدني. ولكن ليس في اعداد الدراسات فقط بل في تأسيس مشروعات مشتركة أيضاً (أي رأسمالية الدولة) وهذا خط مجرب في العديد من البلدان.

اما إعادة إعمار غزة، فقد جاء ذكره بسطر، والخطة معذورة هنا من ناحية ان الاعمار حتى اللحظة هو مجرد تنميات وحبر على ورق، رغم الترميمات والمساعدات المحدودة، فالموضوع سياسي بامتياز.

اذ تعرض القطاع لثلاثة عدوانات في 6 اعوام اخرها كان اقرب لمجزرة بعد اتباع تكتيك الضاحية الجنوبية، في مخيم الشجاعية وبيت حانون، ودون تسوية القضية العالقة المتصلة بحرس الرئاسة وفتح معبر رفح يتعذر اختبار صدقية الدول والجهات المانحة التي تحدثت عن 5 مليار دولار تقريباً نصفها لإعادة الاعمار ونصفها لخزينة السلطة، كما يصعب اطلاق سبيل من الضغوط على سياسات الاحتلال التي تماطل ولا تأبه بزيادة عدد الشاحنات، بغية معاينة غزوة على نموذجها القتالي والصمودي... الخ.

"فالسيساسة اقتصاد مكثف" في النهاية والعكس صحيح.

ثمة جزئية على قدر من الأهمية، هي زيادة مداخيل السلطة كيما تفي بالتزاماتها. وهذا يمكن من اجراء مستويات ضريبية وتسديدات لمديونية البلديات وبشكل أخص اسعار الكهرباء، والارقام تتحدث هنا عن مليارات الشواقل، مما يتطلب وقفة ابداعية خاصة للمعالجة، كما يمكن اتباع سياسات تقشفية، وما قرره الحكومة بشأن الرواتب في الشهور الثلاثة الاخيرة احدى الآليات.

ولكن يبقى الاستثمار في قطاع الانتاج الذي يؤمن فرص تشغيلية كبيرة كما يؤمن دخلاً ضريبياً، وقبل هذا ذاك ينتج فائض قيمة لأصحاب العمل لتوسيع استثماراتهم. كل هذا من شأنه أن يقلص الخلل في الميزان التجاري والفك المتدرج للتبعية واللاحاق.

ولا خوف حقيقي من تقليص الاستيراد الذي يؤدي لتقليص المقاصة لأن زيادة الانتاج الوطني يعود بمزيد من الضرائب. كما لا خوف من تسهيلات ضريبية على الاستثمارات لفترات محددة، لأن نجاحها يعني في المطاف الاخير زيادة الضرائب.

وكان جيداً ما جاء في الخطة من ضريبة تصاعدية تبعاً للدخل فهذا قانون أثبت جدارته في دول أخرى و المهم تطبيقه عملياً.

وختاماً، يتعين نشر الخطة على أوسع نطاق لخلاق حوار اجتماعي حولها بحيث تصبح التنمية وخططها همّ وطني عام وليس مجرد احاديث صالونات لبعض النخب.

اما ان يكون أصحاب القرار في واد والناس في واد، فلذلك اسقاطات سلبية على أي قرار سواء كان صائباً او نصف صائب. ولعل الخطة أيضاً تعبد الطريق لخطط مستقبلية تسهم في التوغل عميقاً بحيث تنطوي على بنود

تحدث عن زيادة المنتج الزراعي بنسبة 20% والمنتج الصناعي 15% مثلاً من خلال مشروعات محددة وبيع محددة واعداد مشروعات جدوى " لرأسمالية الدولة.

## □ المرأة والعمل والتنمية في الأراضي الفلسطينية عام 1967

بمناسبة الثامن من آذار

### خلفية

1. كان للعامل السياسي الأثر البالغ على وضع المرأة الفلسطينية منذ أن تعرض الشعب الفلسطيني لتطهير عرقي منظم عام النكبة 1948 حين نجحت الحركة الصهيونية باحتلال ثلاثة أرباع فلسطين وأعلنت قيام "إسرائيل" وبالتالي اقتلاع ثلثي الشعب الأصلي وتشريده.

أما في عدوان عام 1967 فقد احتلت القوات الاستعمارية الإسرائيلية الضفة الفلسطينية وقطاع غزة وأراضٍ عربية أخرى أو اقتلعت نصف سكان الضفة وغزه. واليوم بات 6.5 مليون فلسطيني يعيشون على أرض فلسطين التاريخية (1.5 وراء "الخط الأخضر" و3 في الضفة و2 في غزة) ونحو 6.5 مليون في الشتات (أكثر من 3 في الأردن، و0.3 في سوريا، و0.3 في لبنان، و0.5 في شبه الجزيرة العربية، و1.5 في أرجاء العالم).

2. كان المجتمع الفلسطيني ما قبل 1948 مجتمعاً فلاحياً بصورة أساسية، حيث كان يعيش 70% في الأرياف و20% في المدن و10% في البادية، وقد أسمى علماء الجغرافيا في أواخر القرن التاسع عشر فلسطين "القارة الصغيرة" بالنظر لتعدد مناخاتها وما ينتج عن ذلك من أنماط اقتصادية - اجتماعية.

أما بعد نكبة 48 فقد افتقدت أغلبية الشعب وسيلة الإنتاج الأساسية (الأرض) وتحول الفلاح قسراً لعامل في ورش البناء والأعمال غير الرسمية أو عاطل عن العمل يتلقى مساعدة بسيطة من وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة ويفترسه شظف العيش في خيام هزيلة انتشرت في الضفة وغزة وبلدان الجوار العربي.

3. قبل احتلال 67 شكلت الزراعة في الضفة وغزة نحو 62% من الإنتاج الوطني يعمل فيها نحو 45% من قوة العمل الفلسطينية، تدهورت بفعل سياسات الاحتلال (مصادرة الأراضي والثروة المائية، الضرائب والأسعار اللتان ارتبطتا بالسوق الإسرائيلية، السيطرة على الحدود وإلحاق الاقتصاد الفلسطيني البضاعي الصغير بالاقتصاد الإسرائيلي الرأسمالي المنخرط في العولمة بقوة)، أفضى ذلك إلى أن يهجر معظم الفلاحون أرضهم والعمل كأجراء في المشاريع اليهودية الاستعمارية سيما قطاعي البناء والمطاعم والعمل الأسود.

أصبحت حصة الزراعة في الإنتاج الوطني الفلسطيني ما قبل أوصلو/93 نحو 12 - 13% أما اليوم فهي حوالي 5٪. وهي نسبة منخفضة قياساً (بمصر 14% والمملكة المغربية 19% - البنك الدولي 2007) وهي تشغل 15% من قوة العمل الفلسطينية بينما تشغل 28% في البلدان العربية (البنك الدولي).

لم يصبح المجتمع الفلسطيني صناعياً، بل تدهورت زراعته وحسب. فيما توسع قطاع الخدمات الى اكثر من النصف .

4. إضافة لاحتلال 78% من فلسطين عام 48 لم يكن لليهود سوى 5.5% حسب الوثائق البريطانية قامت سلطات الاحتلال بعد 67 بضم القدس واشترع البرلمان الإسرائيلي قانوناً بذلك عام 81 بعد توسيعها من 3% من مساحة الضفة إلى 17% يقطنها اليوم 280 ألف مستوطن استعماري يهودي ونحو 240 ألف فلسطيني عربي، وبناء جدار غربيّ الضفة بطول 760 كم ، فيما يقع خلفه 13% من مساحة الضفة وخزانات المياه الاستراتيجية، ناهيك عن وضع يد الاحتلال على الشريط الحدودي من نهر الأردن (الأغوار) بمساحة 28% من الضفة الفلسطينية. واعتبار ذلك خارج أي بحث كما أعلن الوفد الاسرائيلي في مفاوضات التسعة أشهر.

5. يمكن القول بصورة أولية أن قوة العمل الفلسطينية تتوزع اليوم على النحو التالي:

16% صناعة و15% زراعة و69% خدمات وبناء وهي 45% قطاع حكومي و46% قطاع خاص و9% قطاع غير حكومي (بما يشمل الجامعات، البلديات، الاتحادات النقابية والنسوية والنوادي) حسب الإحصاءات الرسمية دون احتساب 50 ألفاً يعملون في المشروعات الاستعمارية وأيضاً دون احتساب

نحو 50 ألف ووظفتهم حماس في سلطة غزة ونحو 40 ألف مقاتل لحماس والجهاد، ناهيك عن متفرغي التنظيمات سيما فتح.

وهؤلاء في مجموعهم يناهزون 60% من قوة العمل. ذلك أن قوة العمل المشغلة تصل مليون و500 ألف عاطلين عن العمل. كما أن الرقم الرسمي لقوة العمل والبطالة يتجاهل النساء اللواتي لا ينخرطن في الحياة الاقتصادية بأجر، وينظر لهن كربات بيوت بينما يتولين العمل المنزلي والاقتصاد غير المنظم، ناهيك ان إحصاء البطالة غير دقيق، فمجرد ان يعمل المرء شهرين او ثلاثة سنويا لا يعتبر عاطل عن العمل .

6. يقيم في المدن الفلسطينية حوالي 35% من السكان و25% في الخيميات و40% في القرى، والقرى هي مجرد حفنة في غزة بينما تناهز 480 قرية في الضفة.

ومعظم اللاجئين في غزة الذين يشكلون 70% من السكان يعيشون في الخيميات، ومعظم اللاجئين في الضفة الذين يشكلون أقل من 30% من السكان يعيشون في المدن.

7. لا تعرف الصناعة الفلسطينية التمركز، فنحو 90% من المشروعات الصناعية هي مشروعات حرفية يعمل فيها بين 1 - 9 عمال، وهناك فقط 7 مصانع فيها أكثر من 100 عامل/ة و12 مصنع فيها بين 50 - 100 عامل/ة، أما القطاع الطليعي في الصناعة فهو صناعة الحجر.

والزراعة أشد تبعثراً، والمزارع الرأسمالية محدودة فيما تغلب الزراعة الفلاحية دون استخدام عمل مأجور، أما القطاع الطليعي فهو شجرة الزيتون بما تنتجه من زيت.

ونجد أن معظم العمال والموظفين المنحدرين من الريف يملكون حيازات فلاحية، ويزرعونها كما لديهم بعض الثروة الحيوانية، ولكنهم يصنّفون كعمال او موظفين، ذلك أن اعتمادهم الأساسي في دخولهم على بيع قوة عملهم كأجراء.

أي ثمة عمل اثنيي ولكن صفته الغالبة العمل المأجور وليس الاعتماد على الحيازة الفلاحية.

8. لئن كان قوام الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة نحو 5 مليون نسمة 50% منهم أعمارهم فوق 15 سنة فإن متوسط عدد الأسرة الفلسطينية 6 أفراد، أما عدد الأسر فيناهز 900 ألف عائلة 7% منها تشهد تعدد



زوجات من امرأتين، ونادراً ثلاثة، سيما في الأوساط الدينية حيث يسمح الدين بالزواج بأكثر من امرأة، أما نسبة الخصوبة الطبيعية فتصل إلى 5% وهي في غزة والأوساط الشعبية أعلى منها في الضفة والطبقة الوسطى التي تصل نسبتها (25% وهي في رام الله 49% - د. جميل هلال، الطبقة الوسطى)

أما العاملون النشطاء فلا يتعدون 20% من إجمالي عدد السكان، وهي نسبة منخفضة قياساً ببلد متطور كالإبان 52% ونامي كمصر 35% وهذا حال البطالة (التي تصل إلى 15% على صعيد عربي ترتفع إلى 25% في القطاع الشبابي، أما فلسطينياً فتنازع البطالة 40% وفي قطاع الشباب 45% - تقرير منظمة العمل الدولية - 2007"، وهي اليوم أعلى.

9. دخل المجتمع الفلسطيني في الضفة الفلسطينية وقطاع غزة مرحلة جديدة بعد توقيع مبادئ أوسلو. وكانت الوعود التي أطلقتها القيادة الرسمية لمنظمة التحرير "أن التسوية ستفضي لإقامة دولة فلسطينية مستقلة وستكون كما النور السبعة في جنوب آسيا." لتكشف الحقائق بعد سنوات أنه تم تشكيل "سلطة فلسطينية للحكم الإداري الذاتي المحدود بمرجعية عليا إسرائيلية" حسبما جاء في أوسلو، وأن وتأثر مصادرة الأرض الفلسطينية قد تضاعفت وصولاً إلى بناء الجدار النقي العنصري ومصادرة الأغوار والتهويد المتسارع للقدس الشرقية وتقسيم الضفة لثلاثة معازل منفصلة عن معزل غزة المحاصرة حد التجزيع، ناهيك عن ثلاثة حروب في أقل من عقد.

واندلع الاشتباك الانتفاضي عام 2000 حيث بلغت الخسائر الفلسطينية 5 مليار دولار أي أكثر مما أنتجه الاقتصاد الفلسطيني في ذلك العام، وأربعة آلاف شهيد واغتيال مأسس بقرار حكومي ل 500 ناشط فلسطيني وجرح نحو 30 ألفاً واعتقال 60 ألفاً بينهم في سجون الاحتلال في ذلك الوقت 11 ألفاً، منهم 450 طفل و70 امرأة و400 معتقل إداري دون محاكمة أو تهمة.

دون أن ننسى ثلاثة عدوانات على قطاع غزة 2009 و 2012 و 2014 بنتائجها الكارثية على البشر والاقتصاد والحياة الاجتماعية، رغم صمود الشعب والمقاومة وتفشيل أهداف العدوان، والتفاصيل هنا كثيرة وتستحق وقفة منفصلة.

\*\*\*\*\*

ما أشرنا إليه آنفاً، هو الأرضية الموضوعية، التي لا مهرب منها لعرض التقرير. فمسيرة "المرأة في العمل والتنمية" هي براكسيس تتواشج فيه الظروف الموضوعية والفعل الذاتي على حدٍ سواء.

وما سنأتي عليه، أدناه، إنما يستند لمعطيات عديدة مستقاه من إحصاءات رسمية وأوراق عمل لا يخلو بعضها من فائدة، إذ ثمة كتابات عديدة على صلة بالموضوع، ولكن يغلب على معظمها مساحات من الإنشاء والمعلومات المتشظية التي لا تتناول الموضوع كبنية في ترابط بين الجزء والكل.

السؤال: هل ثمة تنمية في الضفة وغزة؟

بصرف النظر عن التباينات في تعريف التنمية، شأن أي مسألة سييسولوجية تعدد تعريفاتها، وأقربها أن التنمية "عملية شاملة متواصلة جوهرها الإنسان وهدفها الإنسان بما يزيد من قدرة الشعوب على تقرير مصيرها، وإطلاق طاقات الناس وتحسين حياتهم من تأهيل وتمكين وحرية وتلبية متطلباتهم الاقتصادية والاجتماعية بما يخفف الفقر والبطالة. لا مهرب من أن ينطلق تعريف التنمية في فلسطين من:

أنه لم يتبق في أيدي الفلسطينيين في الضفة وغزة سوى أقل من 50% من الأراضي، فيما الضفة وغزة يشكلان 22% من عموم فلسطين قبل احتلالها عام 1948. أما مستودعات المياه فتستولي سلطات الاحتلال عليها إلى درجة أن يستهلك المستوطن ستة أضعاف استهلاك المواطن الفلسطيني، أما البنك الدولي فيقول في أيلول 2009 مجرد أربعة أضعاف، دون نسيان أن معظم مياه قطاع غزة باتت مالحة ولا تصلح للاستخدام الآدمي بعد أن أقامت إسرائيل خزانات تمنع وصول المجرى المائي الطبيعي المتدفق تحت طبقات الأرض من الضفة إلى غزة وبالتالي تدفق مياه البحر المالحة إلى الخزانات الجوفية.

وهذا حال إلحاق السوق الفلسطينية بالسوق الإسرائيلية ضمن اختلال جذري في الميزان التجاري فالواردات الفلسطينية خمسة أضعاف صادراتها للسوق الإسرائيلية (5 مليار مقابل أقل من مليار) إضافة لقيود عديدة على الإنتاج الفلسطيني بناءً على اتفاق باريس واحتكار مبادلات السوق الفلسطينية من خلال السوق الإسرائيلية بنسبة تصل 92%.

ومن جهة أخرى، بعد أن سكتت مدافع حرب حزيران 1967 تقلص عدد سكان الضفة وغزة من 1.5 مليون نسمة إلى حوالي 0.75 مليون بفعل التهجير أثناء الحرب، وقد أصبحوا اليوم 5 مليون نسمة، تشكل

النساء 50.2% وخصوصية وصلت عام 1999 نحو 6.4% هي في غزة 7.2% في الضفة 5.4% (د. فكتوريا شكري، تقرير عن وضعية المرأة الفلسطينية، ص 172). ولم يكن ثمة جامعة واحدة بينما يوجد اليوم سبع جامعات تضم 250 ألف طالب/ة يتخرج منها سنوياً 40 ألفاً فيما يتقدم لامتحانات الثانوية 90 ألفاً يلتحق 45 ألفاً بالجامعات، وهذا كله يتطلب تنمية شاملة مستدامة لاستيعاب عشرات الآلاف الذين ينضمون لسوق العمل سنوياً.

هذا لا يتحقق، بل وفي مرحلة أوسلو، منذ عام 2000 فرض حصار على الضفة وغزة بما قلّص عدد العاملين الفلسطينيين في المشاريع الإسرائيلية. إذ كان يعمل حوالي ثلث قوة العمل في المشاريع اليهودية أما اليوم فأقل من 15%. والذين يعملون اليوم سواء بصورة رسمية أو غير رسمية بالكاد يصلون 150 ألفاً غالبيتهم من منطقة القدس.

"لقد تعهد المجتمع الدولي بتخصيص 5.1 مليار دولار بعد توقيع مبادئ أوسلو بين 1994 - 2001 من أجل التنمية والإعمار في فلسطين، 40% بنى تحتية 12% قطاع إنتاجي 24% موارد بشرية اجتماعية و20% بناء قدرات مؤسسية" (د. خليل نخلة، أسطورة التنمية في فلسطين، ص 24)

بينما وصل فعلاً كما يؤكد نخلة مجرد 4 مليارات حيث "لم ترأع مصالح المرأة في جميع خطط ومشروعات التنمية، في مجتمع تنتشر فيه أيديولوجية تمزج بين الإقطاعية البطريركية والرأسمالية المشوهة" (د. إيلين كّاب، الجندرية والتنمية، ص 25).

وكتب الدكتور نخلة أن المفوضية الأوروبية اعتمدت منذ توقيع أوسلو ثلاثة خطوط: 1- تقديم 60 مليون يورو سنوياً لتدعيم عملية السلام 2- تقديم مساعدة سنوية لوكالة الغوث 3- تقديم مساعدة سنوية للمجتمع الفلسطيني ضمن برنامج الميدا (MEDA) تماشياً مع رؤية البنك الدولي (الاستثمار من أجل السلام). وهو يخلص إلى أن "التدخل الخارجي بما في ذلك زمان ومكان المشاريع المقترحة لم تأخذ بالحسبان رأي السكان الفلسطينيين" (ص 175).

وتناعماً، وضعت الخطة الفلسطينية للفترة 1999 - 2003 الأهداف التالية: 1- خلق فرص عمل والنمو 2- إعادة إحياء وتنمية المناطق الريفية 3- تحسين الظروف الاجتماعية وتنمية الموارد البشرية 4- بناء المؤسسات ووضع السياسات المالية.

إضافة لذلك أقر مؤتمر القمة العربي في القاهرة 2001 تخصيص مبلغ 1 مليار دولار تم تحويل 600 مليون فقط عبر البنك الإسلامي وجهت للسلطة وقطاع الخدمات، أما الذي استثمر في الزراعة والصناعة فهو 5.5% هي في معظمها رواتب للوزارات أكثر منها مشروعات تنموية ومساعدة للمزارع الفلاحية.

و"خبراء" البنك الدولي منذ 2003 تحدثوا مراراً عن ضرورة تقليل نسبة الفقر وإحداث تقدم على طريق المساواة بين الجنسين وتمكين النساء من الحصول على نظام الرعاية الصحية والإنجابية. كما ونص البرنامج المشترك بين الاتحاد الأوروبي ودول الشراكة المتوسطة عام 2005 ومدته خمسة أعوام على "خلق المزيد من فرص العمل وعلى التنمية الريفية والإنتاج الزراعي"، وهذا أكدّه اجتماع وزراء خارجية اليورو متوسطة في نوفمبر 2008 في مارسيليا الذي أشار "لأهمية الزراعة والتنمية الريفية المستدامة".

غير أن النتائج تقول أشياء مغايرة: وحسب الدكتور نخلة "1- إن الاقتصاد الفلسطيني يعاني من ركود 2- تراجع قدرة السلطة وانخفاض دخل المواطن 30% 3- انخفاض الإنتاج الوطني 20%... أما سماسة التنمية المتحدثين بالإنجليزية في المشهد الفلسطيني، فلغتهم غالباً ما تكون فارغة المضمون ودون علاقة منطقية بمنهج التفكير الأساسية... مما أدى لتقويض جملة المفاهيم الثقافية..."

ويخلص الدكتور نخلة: لقد أخفق الهيكل المفروض في إطلاق عملية التنمية بل ونجح في عرقلتها... والسلطة الفلسطينية لا تختلف جوهرياً عن حالة اللاتينية وقد فشلت في الحكم الرشيد وحقوق الإنسان (ص198). بل وانقسمت سلطة أوسلو وإزدادت فتوتها بما يخدم مصالح النخب السياسية - البيروقراطية... في الضفة وغزة .

ولهذا لم يكن صدفة أن يقول "تقرير الأمم المتحدة عام 1999 أن الإنتاج الوطني الفلسطيني بين 94 - 1999 قد تراجع 20% واستهلاك الفرد تراجع 22% والبطالة ارتفعت من 16 - 27%" (د. أحمد قطامش، محاضرة في جامعة بيرزيت).

بل والبطالة ارتفعت اليوم إلى أكثر من 35% والفقير تضاعف إلى 60% أما رواتب موظفي السلطة الفلسطينية 170 ألفاً والنفقات الأخرى فهي ترتبن تماماً "للممول الأجنبي" وعائدات المقاصة (بما جعل السلطة أكثر خضوعاً لظروف وعوامل خارجية - الدكتور ماجد صبيح. ورقة اقتصاد السوق. أبحاث ومدخلات. ص134) وصولاً إلى القول "أن المعونات الخارجية تغطي 75% من الموازنة العامة في بعض الأعوام." وهي عموماً بين 30 و40 ومؤخراً انخفضت الى اقل من 10% لاهداف سياسية.

وكل ما قيل مراراً وتكراراً أن أهداف المساعدات الخارجية وفي مقدمتها المساعدات الأوروبية، وهي الممول الأول "لوضع حدٍ للتدهور الاقتصادي والتخلص من التبعية الهيكلية لإسرائيل نحو اقتصاد فلسطيني يعتمد على قاعدة إنتاجية وعلاقات تجارية متوازنة نحو السلام والدولة الفلسطينية" قد ذهب أدراج الرياح. بل وتم اجتياح الضفة عام 2002 وثلاثة عدوانات اسرائيلية تدميرية على غزة واستبيح كل ما هو فلسطيني، أرضاً، شعباً، كرامةً، كما تفاقمت المعضلات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية و مؤخراً نقلت أمريكا سفارتها الى القدس واعتبرتها بشطريها الشرقي والغربي عاصمه لإسرائيل. ويتوعد نتياهو بضم المستعمرات وسواها ... حتى أن "إسرائيل"، حتى اللحظة، ترفض التوقيع على معاهدة مناهضة التعذيب التي "تحرم أن يقوم أي موظف رسمي بممارسة تعذيب جسدي أو معنوي ضد أي شخص" بل وأجازت محاكمتها العليا "لممارسة عنف محدود" هو عبارة فضفاضة لتغطية جهاز المخابرات قانونياً، حيث يمنع محاكمة أي ضابط رغم سقوط 22 شهيداً فلسطينياً في الزنازين وموت أكثر من 120 في سجون الاحتلال، كل ذلك بدعوى "أن إسرائيل تعيش ظروفًا استثنائية". بل وإسرائيل وأمريكا، على حدٍ سواء، ترفضان التوقيع على العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الذي تنص مادته 17 على عدم جواز تجريد أحد ملكيته تعسفاً، حيث تتم مصادرة الأملاك الفلسطينية بانتظام، والمادة 22 التي تنص على حق كل عضو في المجتمع بالتمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فيما ينتهك هذا الحق على نطاق واسع في فلسطين.

أما الإعلان العالمي للحق في التنمية عام 1988 فجاء فيه: "حق الشعوب بممارسة السيادة التامة الكاملة على مجمل ثرواتها والقضاء على انتهاكات حقوق الإنسان الخاصة بالشعوب والأفراد الناتجة عن الاستعمار والفصل العنصري..." هذا الإعلان يتم قبره في فلسطين.

وعليه، يمكن الاتفاق مع الدكتور نخلة أن ليس ثمة تنمية في فلسطين، بل ثمة تنمية معاكسة أحياناً وان كان يوجد بعض النمو. ناهيك عن اختراق الاحتلال الإسرائيلي للحقوق الجماعية والفردية للفلسطينيين بما زاد أوضاعهم تدهوراً على كل الصعد، أما الضحية الأولى فهي المرأة بداهة "مضطهدة المضطهدين" كما كتب بيبل قبل قرن ونصف.

## المرأة والعمل والتنمية في الضفة وغزة: معطيات تشي بوضع المرأة الفلسطينية

لم تنفك قضية عمل المرأة قضية محورية في الأراضي الفلسطينية، ذلك أن 80% من النساء يحتسبن خارج العملية الاقتصادية الرسمية، بما يجعلها أولوية في مسألة تحرر المرأة ومسألة الصمود المجتمعي ومسألة التنمية على حدٍ سواء، ناهيك عن البطالة المتنامية.

وإضافة لحق المرأة في العمل كجزء من حقوق الإنسان، فإن حرمان أغلب النساء من العمل هو تهديد للموارد البشرية بما يضعف الإنتاج الوطني ودخل العائلة ويعمق من تبعية المرأة للرجل في آن كما المنظورات الذكورية التقليدية. (وبعد الاعتراف بأن نسبة المرأة العاملة باجر في الأراضي الفلسطينية هي أقل من نصف نظيرتها في الشرق الأوسط التي تصل 26%. ففي الأردن على سبيل المثال 25.4% وفي المغرب 37% وفي لبنان 31% وفي مصر 30% - المرأة والرجل في فلسطين - 2008 - العدد 3 - جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني) فإن كل ما تزعمه العولمة المتأمركة عن حرية المرأة ومساواتها هي بالونات مملوءة بالهواء يكذبها تقرير لصندوق الأمم المتحدة الإنمائي 2009 الذي أشار أن هناك 67 امرأة مقابل 100 رجل في قوة العمل العالمية، وهي نفس النسبة التي سجلت عام 2007 بأن هناك 1.2 مليار امرأة عاملة مقابل 1.6 مليار رجل عامل.

وحسب BiT فالاتجاهات العالمية لعمل المرأة بين 1997 - 2007 أي نسبة المرأة النشطة قياساً بالرجل على امتداد عقد:

حيث يلاحظ هنا زيادة نسبة النساء في قوة العمل في أمريكا اللاتينية وأفريقيا أكثر من سواهما من الأقاليم. أما في الأراضي الفلسطينية فالأمر لم يتبدل ولو جزئياً إذ ما قالته الشراكة الأوروبية ومتوسطة عام 2003 (بإدماج

حقوق المرأة في الشرق الأوسط وإدماج المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية) بل ومنذ بيان الشراكة الأوروبية ومتوسطة في برشلونة 1995 الذي نص على (إشراك المرأة في سوق العمل) ومؤتمر اسطنبول الوزاري عام 2006 الذي قال "بتعزيز دور المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية" بل وذكر فلسطين بالاسم وذات الشيء قالتها الرئاسة البلجيكية في برنامجها الإقليمي لأعوام 2006 - 2009 بتمويل من المفوضية الأوروبية ويشمل 10 دول شرق أوسطية حيث أكد "على دمج المرأة وتحسين وضع المرأة والاستقلال الاقتصادي للمرأة... كما البرنامج الإقليمي 2008 - 2010 تعزيزاً لمؤتمر اسطنبول... لم يبدل من الصورة شيئاً."

وفي الوقت الذي يشير تقرير البنك الدولي الصادر 2004 أن نسبة المرأة قد ارتفعت 5% في دول الشرق الأوسط بين 1980 - 2000 ويعزو الأسباب للتقدم في التعليم وأسباب أخرى، فهذا لا ينطبق على فلسطين فنسبتها في قوة العمل تتراوح بين 16-18% في الأعوام الأخيرة.

إذ ثمة فجوة واسعة بين الرجال والنساء في سوق العمل الفلسطيني، أما البطالة فهناك 16 امرأة مقابل 9 رجال في المغرب أما في فلسطين فالوضع أسوأ والنسبة 1:2 دون احتساب أغلبية النساء ضمن قوة العمل الرسمية، علماً أن نسبة المرأة في الجامعات الفلسطينية هي أكثر من 55%. وأن بعض أصحاب العمل نساء ورغم تدني أجور النساء فهذا لم يبدل من الصورة شيئاً.

والأمر نفسه يقال عن زيادة نسبة قوة العمل في الشرق الأوسط 6% بين 2003 - 2007 ارتباطاً بارتفاع أسعار النفط بيد أن الحال استمر في فلسطين بل وثمة ارتدادات للوراء أيضاً جرّاء الاجتياح الإسرائيلي للضفة الفلسطينية 2002 والعدوانات الثلاثة على غزة فكان لهما أبلغ الأثر على البنية الاقتصادية - الاجتماعية.

وكل "المساعدات" المالية الخارجية، بما فيها المساعدات الإيرانية التي تصل لحماس والجهاد، إنما تذهب رواتب لأجهزة السلطين في الضفة وغزة وللمقاتلين دون أية استثمارات إنتاجية، أي أن انخياز السلطة لشعار "السوق الحرة"، علماً أن السوق الفلسطينية ليست حرة ويحجم على صدرها الاحتلال الاستيطاني الكولونيالي، بل وانخيازها لليبرالية الجديدة في جوانب معينة يعيد السلطة عن أي دور تنموي إنتاجي، وبالتالي لم تصلها الحكمة الصينية القديمة "بدل أن تعطيني كل يوم سمكة علمني صيد السمك". والأمر نفسه ينطبق على رأس المال الذي يغلب عليه الكومبرادور ورأس المال العقاري والمضاربات المالية في البورصة.

أما قرار مجلس الأمن للشؤون الاقتصادية والاجتماعية رقم 55 الصادر 2005 الذي أكد "على التشاركية" بين المرأة والرجل، فهو رغم بلاغته يصطدم بحقيقة أن غالبية النساء الفلسطينيات خارج العملية الاقتصادية الرسمية. أما قلق المفوضية الأوروبية عام 2006 بأن فارق الدخل بين أوروبا وبلدان البحر المتوسط بلغ 1:12 وأنه سيصبح 1:20 عام 2020 فهو قلق أخلاقي لا يساعد الفلسطينيين على رسم خطط تنمية حقيقية تقوم على التنمية الإنتاجية والريفية كما على المواطنة وعدم التمييز بين الجنسين واحترام العمل بما يتطلبه ذلك من تحويل للثقافة السائدة، بل وتحقيق الاستقلال حيث تتداخل التنمية مع الاستقلال، وعلى الأقل السير الفعلي نحو الاستقلال وليس خداع الفلسطينيين وتخديرهم بشعار بيكر (حكومة ذاتية أقل من دولة وأكثر من حكم ذاتي) وحل الدولتين الذي يتحدث عنه أوباما أما في الممارسة ففلسطين مستباحة على كل الصعد من البحر إلى النهر.

إن الانقلاب على المرأة تجلي في التوراة الابراهيمية التي جاء فيها أن حواء غرّرت بآدم وكانت سبب طرده من الجنة. وقد أبدع الفيلسوف فورباخ في حواريته حول "مأساة إبليس" وطرده من الجنة متسائلاً لماذا يكلفه الله بمهمة عكس طبيعته، وأنه لم يفعل سوى أنه رفض السجود سوى لله وحده... الخ.

وهذا كله حسب انجلز صاحب انتقال المجتمعات الرعوية والجماعيات الأولى إلى مجتمعات زراعية ونشوء الملكية الخاصة والطبقات (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة). وبالتالي الثقافة التقليدية ما قبل المجتمع المعاصر سواء كان رأسمالياً أو يخطو باتجاه اشتراكي.

إن خروج المرأة للعمل هو مدخل تحررها، بما يتطلبه ذلك من تعليم ومهارات مهنية، ولكن العمل وحده ليس كافياً لتحررها، إنه المدخل الذي يمكنها من تعزيز ثقافتها بنفسها ويمنحها قوة اقتصادية ويساعدها على تنظيم نفسها في حركات نقابية وحركات نسوية وخوض النضال المشترك مع الرجل والحركات التقدمية... وشيلاً وروبتهم كتبت "مثلاً أن العمال يحرون أنفسهم، على النساء أن يحرن أنفسهن أيضاً" - (في قضايا تحرير المرأة...)

وهذا كله يتطلب رؤية ثقافية - فكرية نقدية وتغييرية "لأن الفلسفات القديمة قامت بتفسير العالم بينما المطلوب تغييره" (ماركس)، رؤية تغير المقولات المنتشرة بأن "المرأة أقل ذكاءً من الرجل" (أرسطو) و"إذا وجدت امرأة تفكر فاعلم أنها أعراض الرجولة" (مثل ألماني)، و"هذه العصا من تلك العصية وهل تلد الحية إلا الحية"



(مثل عربي) "وأنها مدبرة منزل ولا شأن لها بالسياسة والثقافة ولا يدخل عليها أحد دون علم زوجها" (أرسطو). وأن "الرجل سيد المرأة وعليها أن تبقى في بيتها ولا تخرج منه إلا بإذنه" (الإسلامي الغزالي). كما يتطلب الأمر بيئة قانونية قائمة على المساواتية؛ أجر متساوي للعمل المتساوي، وتأمينات اجتماعية للبطالة والشيخوخة، وتأمينات صحية خلافاً لما هو الحال في الأراضي الفلسطينية... والمتضرر الأول هنا هو النساء. ناهيك (أن القانون - كتب المحامي ربحي قطامش - حرم 27% من النساء العاملات في الزراعة من قانون العمل، إضافة للعاملين في المشاريع العائلية دون أجر، ونسبة المرأة في هذه المشاريع في الضفة 76% وفي غزة 82%، وحرمان العاملين في المشاريع الصناعية الصغيرة بأقل من 5 عمال من الحقوق النقابية، ونسبة النساء هنا 73%، ذلك أن القانون الأردني 1965 الذي لا يزال سارياً في الضفة والقانون الفلسطيني في غزة 1964، قد استثنيا من قانون العمل 1- المشاريع الصغيرة بأقل من 5 عمال 2- خدم البيوت والبساتين 3- أفراد العائلة في المشاريع العائلية - ربحي قطامش - المرأة العاملة. ص 149).

وذهبت دراسة لوزارة العمل الفلسطينية عام 1997، وشيء أقل بقليل عام 2007 أن 68% من المنشآت لا توفر تأميناً صحياً و46% لا توفر إجازات مدفوعة الأجر، و36% دون الحد الأدنى للأجور وغالبيتهم من النساء.

ويستخلص المحامي قطامش أن أهم معضلات المرأة:

(1) انخفاض نسبة مشاركتها في العمل المأجور، حيث الأغلبية خارج العملية الاقتصادية الرسمية، وهي في غزة أكثر منها في الضفة.

(2) ارتفاع نسبة البطالة، وقد تزايدت اليوم إلى 35% وفي غزة أكثر من 60%.

(3) ارتفاع نسبة الأمية لدى النساء التي تصل 20%.

(4) الخصوبة العالية التي تصل 5% وارتفاع متوسط عدد أفراد الأسرة بما يزيد عن 6 أفراد.

وبطبيعة الحال ارتفاع نسبة الفقر الذي كان 25% عام 1998 حسب تقرير الفقر - وهو يناهز اليوم 60%. ويستطرد قطامش أن 30% من النساء بلا أجر وأن 70% من الأسر الأشد فقراً ترأسهن نساء (نفس المرجع ص11).

أما اريكا لانغ واعتماد مهنا، فذهبتا في دراسة عن المرأة والعمل في مخيم الشاطئ في غزة ... بأن أفردتا حيزاً لحديقة المنزل التي تشمل زراعة الخضراوات والشجريات وتربية الحيوانات والتعشيب ... بأن 39% من هذه الحدائق ترعاها النساء و21% برعاية عائلية دون أجر (ص 103).

وتقرير الفقر الوطني - وزارة التخطيط - عام 1998 أكد على أن مزيداً من الأطفال يعني مزيداً من الفقر، وأن ما تركزه برامج الدعم الاجتماعي الرسمي وغير الرسمي هو صورة المرأة كمخلوق ضعيف وبحاجة للمساعدة لا إلى التمكين الذي يوسع خياراتها، بما يعيد إنتاج فقر المرأة وتبعيتها (ص 28). ويذهب الدكتور يوسف داوود في - محددات المشاركة النسائية في سوق العمل - بأن "كل طفل يقلص فرص عمل المرأة بنسبة 40% وأن قلة الحضانات وتكاليها العالية يقفان عائقاً أما عمل النساء." (ص 30)، وبالتالي نفروج المزيد من النساء من سوق العمل يعني المزيد من الفقر، وتقرير الفقر أشار أنه يشمل الوطن بأسره 25% في المخيمات و43% في القرى و32% في المدينة، وأنه يتركز أولاً في الأسر كثيرة الأفراد، فهو 64% في الأسرة أكثر من 6 أفراد، و26% في الأسرة بين 4 - 5 أفراد، و10% في الأسر بين 1 - 3 أفراد، وهو في شمال الضفة بنسبة 24% وجنوباً 15% ووسطها 10% و23% شمال غزة و20% في جنوبها و8% في وسطها، وهذا عام 1998 أما اليوم فالصورة أكثر بؤساً.

وندوة المرأة التي انعقدت عام 2002 استخلصت أن "المساعدات" الخارجية بين 1994 - 2000 كان نصيب النساء فيها أقل من 1% بينما نصيب المعونات الإنسانية حوالي 3.8%. والدكتورة إصلاح جاد في نفس الندوة أشارت إلى أن "7.8% من الأسر الفلسطينية هي أسر لنساء أرامل يتلقى منها 40% مساعدات من أقارب و35% من وكالة الغوث و22% من قوى مجتمعية" (ص 55). وهذا يجد تفسيره بأن 27% من العائلات هي عائلات ممتدة، ومن بين هذه الأسر 62% بلا خدمات كهرباء أو ماء و54% بلا خدمات مياه و95% بلا تلفزيون، بينما الأسر المماثلة ولكن لرجال فهي على التوالي 36% و45% و40%. وعن الحالة الاجتماعية لهذه الأسر من النساء ف 60% أرامل و15% مطلقات و15% عزباوات (ص 60).

وبلا شك أن تعبير النوع الاجتماعي قد شاع فلسطينياً ولكنه في نفس الوقت تعرض للتجريف والالتباس مما حال دون أن يتحول لأداة تنموية ذلك أنه لا توجد خطط حقيقية واضحة المعالم تدفع عربة المرأة للمشاركة على قدم المساواة مع الرجل في كافة شؤون الحياة، فأية نجاحات تحرزها المرأة إنما ترتبط بمبادرتها أولاً وبأجواء مساعدة جزئية هنا وهناك. والأنكى من ذلك أن الثروات الفلسطينية تتركز أكثر فأكثر في أيدي نُخب طبقية، هي في الجمل، من الرجال، وأن التغيير الذي يتحدث عنه بعض الأوساط النافذة عن "إعادة توزيع الثروة" هو كذبة كبرى إلى درجة يجوز القول معها أن تعبير تأنيث البطالة وتأنيث الفقر له قسط كبير من الصحة، ويمكن إضافة تأنيث العنف أيضاً رغم النجاحات التي أحرزتها بعض أوساط نسائية.

### قطاعات العمل - تكثيف وأرقام

أولاً: كما أشرنا فنسبة الإناث في المجتمع الفلسطيني تتراوح بين 50 - 50.2%. أعمارهن 45% دون 14 سنة و49% بين 15-60 و6% أكثر من 60 سنة، وبالتالي فالأغلبية الساحقة في سن العمل. ولما كانت نسبة الإناث في الثانوية والجامعات بين 45 - 50% وحسب دائرة الإحصاء الفلسطينية 8 حالات في العلمي الثانوي مقابل 11 حالة ذكور و23 للإناث في الأدبي مقابل 20 حالة للذكور، وفي الجامعات 7 طالبات مقابل 8 طلاب وفي الكليات والمعاهد 51% طالبات و49% طلاب. وهناك نحو 60% في كليات التجارة وإدارة الأعمال والتربية والعلوم الطبية والاجتماعية والدين... بينما تتقلص النسبة في كليات الهندسة والقانون، هذا في سنوات سابقة أما اليوم فنسبة الإناث في الجامعات تزيد عن 55%.

وهذه النسب تعني مستودعاً للطموح والأحلام بأن تمتلك المرأة قرارها وأن تختار طريقها وأن تأخذ فرصتها في الحياة والعمل. والعمل كما أشارت استطلاعات عديدة وكما جاء في دراسة اريك لانغ "يؤمن دخلاً مالياً، سعادة، مجال للحركة والانطلاق، بيئة ملائمة للصدقات والاختيار، تأمين ادخار للشيخوخة".

"وتنوزع أعمار العاملات من 15 - 24 سنة 25% ومن 25 - 44 سنة 55% وأكثر من 45 سنة 20%.

أما الحالة الاجتماعية للعاملات ف 42% غير متزوجات و52% متزوجات و6% مطلقات وأرامل...

وعن سنوات الدراسة صفر 10% ومن 1-6 سنة 13% و7-12 نسبة 33% وأكثر من 13 سنة 44% (د. يوسف داود، محددات المشاركة النسائية).

وقوة العمل الفلسطينية كانت موزعة عام 1999 على النحو التالي 17% قطاع حكومي 5% قطاع غير حكومي 44% قطاع خاص و34% في المشاريع الإسرائيلية. أما اليوم فيمكن القول أنها 55% وأكثر قطاع حكومي (بما في ذلك المقاتلين ومتفرغي التنظيمات) و30% قطاع خاص والباقي قطاع غير حكومي ومشاريع يهودية. بما يناهز مليون ناشط ونحو 500 ألف عاطل عن العمل، وتقول الإحصاءات الرسمية الفلسطينية حسب مسح القوى العاملة عام 2007 أن 42% من السكان يشتغلون في سوق العمل ممن يبلغون أكثر من 15 سنة، 67% ذكور 15% إناث. بين هؤلاء 45% قطاع حكومي و46% قطاع خاص و9% منظمات غير حكومية، وأن نسبة المرأة في القطاع الحكومي 23% ولكن هذه النسبة تتضاءل عندما نتذكر عشرات الآلاف من المقاتلين والمتفرغين، والأغلبية الساحقة هم من الرجال.

ثانياً: تتوزع قوة العمل بين 6-7% أرباب عمل (برجوازية)، ومن هؤلاء فقط 1% نساء و31% يعملون في مشروعاتهم الخاص، ومن بين هؤلاء 13% نساء و58% بأجر رجال و11% دون أجر 23% نساء. لكن ينبغي إضافة أغلبية النساء اللواتي يعملن عملاً منزلياً دون أجر حيث أن 75% من الاقتصاد المنزلي يقع على كاهل النساء (محمد خليفة - ورقة القوى العاملة) وهناك تعبير دقيق يجدر استخدامه هو العمل غير الرسمي، أي الذي لا يظهر في مسح القوى العاملة كونه لا يخرط في العملية الاقتصادية بأجر.

وهنا من الصعب الحديث عن نسبة دقيقة، ولكن معظم المجتمع الفلسطيني يقوم بعمل غير رسمي إضافة للرسمي و"فاتن وظائفي - وزارة الزراعة - كتبت أن المرأة تقوم بمعظم الأعمال الزراعية كاللحصاد، القطف، التعشيب، التسميد، وأحياناً التسويق... وأنها تقوم بجميع الأعباء الخاصة بحديقة المنزل وما يرتبط بها من حلاية الأغنام وتنظيف البركسات والتصنيع الغذائي كالألبان، والمخللات والمربيات والمعجنات وتجفيف وحفظ الخضراوات والفواكه" (ندوة المرأة والعمل - ص 69). أما الفلسطينية للإقراض - فاتن، فأشارت أن النساء يعملن أسبوعياً 50 ساعة دون أجر في البيت وفي البيع المتجول وتصنيع المواد الغذائية وتصنيف الشعر في البيوت وأن 55% من العمل غير الرسمي في الخيمات يقمن به نساء (الندوة، ص 126).

طبعاً يقوم العمل غير الرسمي بتخفيف مصاريف العائلة، ولكنه أيضاً يأتي بدخل إضافي للعائلة من مبيعات المحاصيل الزراعية ومنتجات الثروة الحيوانية ومن التصنيع الغذائي وطهو الطعام الذي يباع للجيران وفي السوق. ثالثاً: في العقد الأخير لم يطرأ تحولات جذرية على توزيع المرأة في قوة العمل الرسمية إذ لم تبدل اللوحة فيما عدا زيادة محدودة في قطاع الخدمات والزراعة، والأرقام كانت تتحدث في 1999 ان المرأة تشكل 35% في قطاع الخدمات من بينها 35% في التعليم و20% في الصحة و12% في الخدمة الاجتماعية و9% في التجارة والفنادق، وكذلك 30% في القطاع الزراعي و17% في القطاع الصناعي معظمهم في الصناعات التحويلية (ملابس، نسيج، تصنيع غذائي...)، وفي القطاع الحكومي 20%. أما عام 2007 فتشير إحصاءات المرأة والرجل في سوق العمل "تشكل المرأة 46% في قطاع الخدمات، والرجل 33%، و7% تجارة والرجل 23%، و9% صناعة والرجل 13%، و36% زراعة والرجل 11%. ونسبتها ضئيلة في النقل والبناء والتشييد بما هو أقل من 2% فيما يحتل الرجل النسبة المتبقية من الـ 20% (دائرة الإحصاء، العدد الثالث).

واستطراداً يستخلص مركز الإحصاء بين عامي 2004 و2007: كانت النساء في الصناعة 8% أصبحن 9%، وفي الزراعة 33% أصبحن 36%، وفي الخدمات والفروع الأخرى 33% أصبحن 36% (التقرير السنوي، 2008). ومع التراجع الجذري للعمالة في المشاريع اليهودية وتقلها تضاءل حجم العاملات الفلسطينيات في هذه المشاريع من 3 آلاف إلى مجرد مئات وأقل.

رابعاً: من المفيد التذكير أن نسبة المرأة في النقابات المهنية تكاد تتشابه مع نسبتها في قطاعات العمل المهني، وهي في النقابات: 11% في نقابة الأطباء، و19% صيادلة، و20% أطباء أسنان، و12% مهندسون، و9% محامون، و17% صحافيون، و11% اتحاد كتاب، وفي مجال القضاء هناك 7% نساء في الضفة و4% في غزة قاضيات عام 2006، ومن بين 116 مدعون عامون هناك 14 امرأة. أما المرأة في النقابات العمالية والجمعيات حسب إحصاءات الجهاز المركزي 2008 فهي حوالي 8%.

وفي وزارة الخارجية هناك 340 موظفاً بينهم 80 امرأة، وفي السفارات هناك 5% سفيرات و95% رجال. وفي المجلس التشريعي 17 امرأة من أصل 132 عضواً، أما في السلطات المحلية فنسبة المرأة ترتفع إلى 22%.

وكانت المرأة في مؤتمر حركة فتح 25%، وفي الجبهة الشعبية 10% في اللجنة المركزية العامة، وفي الجبهة الديمقراطية 17%، بينما لا توجد معلومات عن الحركة الإسلامية (المرأة والرجل في سوق العمل، ص124). وفي مجالس الطلبة فتشكل أقل من 100 من أصل 400 تقريباً أي 24% نساء.

ومثل هذا الحضور الفاعل في النقابات المهنية والعمالية والطلابية والأطر والاتحادات النسوية هو بلا شك عامل إيجابي، غير أن النسبة ليست عالية ولم يستطع هذا الحضور أن يحقق شعار الأجر المتساوي للعمل المتساوي. فحصول أجور النساء قياساً بأجور الرجال تصل 70%، رغم أن المرجعيات القانونية تنص على عدم جواز التمييز على أساس الجنس أو التمييز في الأجور في العمل الواحد. أما فرص التدريب والتأهيل المهني فيصل الفارق 35% لجهة الرجل حسب دراسة ميدانية للمحامي ربحي قطامش.

وعلى صعيد القروض من البنوك ومؤسسات الإقراض فالمرأة تحصل على قروض أقل، أما مؤسسات الإقراض النسوية فإجمالي قروضها بالكاد يصل 5% من حجم الإقراض الكلي. والبطالة كما أشرنا هي أعلى في قطاع النساء، وبشكل أخص النساء اللائي أنهين أكثر من 13 سنة دراسية حيث تصل أكثر من 50%، بينما هي 12% للواتي درسن 7-9 سنوات. وهذا حال الفقر كما أسلفنا.

## خاتمة ومقترحات

يكشف جهاز الإحصاء الفلسطيني عام 2008 خريطة قوة العمل للقوى العاملة بأجر على النحو التالي:

للذكور؛ 23.5% قطاع حكومي، و65.2% قطاع خاص، و11.3% في إسرائيل والمستوطنات.

للإناث؛ 22.7% قطاع حكومي، و76.3% قطاع خاص، و1% في إسرائيل والمستوطنات.

ومن الجلي أن عمل المرأة يتركز في قطاعي الزراعة 35% والخدمات 40%. وهناك أيضاً عمالة الأطفال وتشمل الأعمار من 10-17 سنة. ونسبتهم من مجمل الأطفال 4.4% ونسبة الإناث إلى الذكور 1:4 تقريباً.

ورغم أن النص أعلاه مجرد تقرير، لكن لا ضير أن نتكلم خاتمة بطائفة مقترحات وتوصيات. إذ ثمة مشكلة نسائية ضخمة ومتعلمة دون عمل منظم، وهذا مثابة هدر ساطع للرأسمال الإنساني، وبشكل أخص النسوي، بما

تتمتع به المرأة من طاقة ومزايا، بل ويكاد لا يطير أي طير في أعالي السماء دون جناحين، جناح المرأة وجناح الرجل، وهذا ينسحب على المجتمع. وربما أننا بحاجة لاستحضار أسطورة جليجامش التي أنست فيها امرأة بابل أنكيديو نصف الإنسان ونصف الحيوان، بل والرجل لا يمكن أن يتأنس إلا إذا أنسن المرأة وكف عن اضطهادها. "فالعلاقة بين الرجل والمرأة هي الأكثر طبيعية بين الإنسان والإنسان وتكشف الى أي مدى أصبحت الماهية الإنسانية ماهية طبيعية" (ماركس)، وهذا ينطبق على المجتمع والعمل والتنمية والثقافة، فهذه كلها بنية واحدة مكوناتها مترابطة، ولا يمكن أن يقلع المجتمع الفلسطيني للأمام إلا إذا أقلعت المرأة، "فتحررها هو مقياس تحرر المجتمع" ومشاركتها في العمل والتنمية يحدد مستوى العمل والتنمية. بل "وتنتصر الثورات بقدر مشاركة النساء فيها" (لينين).

وعليه:

- (1) لا مهرب من خطة فلسطينية شاملة تربط التعليم بالاقتصاد والاقتصاد بالنوع الاجتماعي وتشغيل الأيدي العاملة العاطلة عن العمل، وهذا لا يمكن دون الاستثمار أولاً في الاقتصاد الإنتاجي، بناءً على تجارب الشعوب التي حققت تنمية في أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر وعدد من شعوب البلدان النامية كالصين التي تحرز وتائر نمو سنوي تبلغ 10% والبرازيل والهند وفنزويلا وماليزيا وفيتنام وروسيا هذه الأيام. وعلى الأقل خطوط تنمية تراعي الوضع السياسي، وفي نفس الوقت استمرار الضغط والنضال لطرد المحتل الإسرائيلي من الأراضي الفلسطينية بالنظر لارتباط الشرط السياسي بالشرط التنموي.
- (2) إعادة النظر بحجم الأجهزة الأمنية في السلطة الفلسطينية، فهي بين أجهزة رسمية (70 ألفاً) وعشرات آلاف المقاتلين في غزة، تصل إلى 45% من موظفي القطاع الحكومي وهذا يستنزف الميزانية الفلسطينية وهي نسبة لا يحتاجها الشعب الفلسطيني كلها. ولم يكن صدفة أن تقوم نظرية كينيدي في كتابه حضارات سادت ثم بادت أن السبب الأساس لانهاية عدد من الممالك الأوروبية في القرنين 16 و17 هو ضخامة الإنفاق العسكري بما يفوق قدرة الاقتصاد. ولهذا لم يكن صدفة أن تختصر الصين جيش الشعب من 4.6 مليون إلى 3.7 مليون، وبالتالي توظيف هذه المستقطعات في الميادين المدنية.

- (3) توسيع الاستثمار والعمالة في القطاع الزراعي وتقديم القروض الميسرة، فالمجتمع الفلسطيني زراعي أولاً، ومع ذلك فهو يستهلك أكثر من 60% من احتياجاته الزراعية من السوق الإسرائيلية!! وبالتالي مضاعفة الدورات المهنية والقروض للنساء
- (4) نشر ثقافة تنظيم وتحديد النسل، فثمة انفجار سكاني في الأراضي الفلسطينية وهذا يعمق الفقر والبطالة وتمهيش النساء وتبعيتهن.
- (5) تدعيم بناء حركة نسوية، وليس مراكز نسوية، لممارسة ضغط على السلطتين الفلسطينيتين ورأس المال والمنظورات الذكورية المعادية لمساواة المرأة وتحررها وانخراطها في الحياة العامة من موقع الشريك.
- (6) خلق أوسع تضامن عالمي مع مطلب المرأة الفلسطينية بالأجر المتساوي للعمل المتساوي، والمشاركة في موقع القرار في كافة الميادين وإسناد تحركاتها الميدانية في الشارع.
- (7) إقامة صناديق تضامنية مع النساء لخلق فرص عمل وتأمين منح تعليمية للدراسة الجامعية والمهنية.

وفي الثامن من آذار، تحية لمعيار الجمال في الحياة؛ المرأة. فما راكمته صيرورة نجاحاتها تجعل الارتداد عليها أمراً مستحيلاً وإلى الأمام.



# الفصل الخامس:

## قامات عالية

## في ذكرى رحيل الحكيم: الدكتور جورج حبش

"علينا أن نرقي إلى نماذج عيسى ومحمد وعمر وخالده،" هكذا كتب في بداية الثمانينات. وفي نفس النص أنشأ "ينبغي قراءة آدم سميث وكينز وميلتون فريدمان، جنباً إلى جنب مع قراءة ماركس وسمير أمين والتجارب الاشتراكية."

وفي مطلع السبعينات اطلق تصريحاً "لقد انتقلنا الى مواقع الماركسية - اللينينية" وعرف نفسه لاحقاً بالقول "انا ماركسي، يساري الثقافة. التراث الاسلامي اصيل في بنيتي الفكرية والنفسية. معني بالاسلام بقدر اي حركة سياسية اسلامية وثمة فارق بين اسلام السعودية واسلام المقاومة. كما ان القومية العربية مكون اصيل من مكوناتنا. لقد نشأت القومية في تضاد مع الدين في اوربا بخلافها في التاريخ العربي ... انا في حال انسجام مع قوميتي العربية ومسيحيتي وثقافتي الاسلامية وماركسيتي التقدمية." وفي انطلاقه من الخصوصية قال "علينا الباس النظرية كوفية وعقال" و"الذي يريد ان يفهمنا عليه ان يفهم اننا نفكر."

وتجربته الشخصية في بدايات شبابه تركت بصماتها الدامغة "لقد هزني طرد الفلسطينيين، فتحت تهديد السلاح وباعتقاب البنادق اقتلعونا، وقتل ابن جيراننا كما توفت اختي ودفناها في باحة البيت" قبل ان يقرأ مقولة لينين "الشعوب تتعلم من تجربتها الخاصة." وفي زمن مبكر أثناء فترة الاستخفاء وكان في السنة الخامسة من دراسة الطب في الجامعة الامريكية قال "ادركت ان الاغتيالات بعد النكبة لا تحرر فلسطين، وانما يجب اطلاق حركة سياسية، يجب بناء تنظيم حديدي يتولاه شباب شجعان يندرون انفسهم للقضية ... وبدأ تفكيري يتجه نحو الجماهير" و"كنت قد درست انا وديع القرآن وقرأنا كتابات للينين وعن الثورة الفرنسية وعن الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية ودار نقاش حول الاشتراكية... وكانت اولويتنا فلسطين." وكرر مقولة كاسترو "اخلاقياتنا غير اخلاقيات رأس المال ... ولا أخشى الموت، فالموت في سبيل الوطن والحرية حياة."

وبذلك كان في الخط الأممي على الدوام، وأثناء حصار بيروت 1982 تدخلت أكثر من جهة لانتشاله من براثن الموت "عليك دور كبير" قال السفير السوفيتي. "انت عنوان خط سيرنا واملنا فلا ترحل عنا" قالت

الراحلة ام العبد البرغوثي، فرد مازحا "لو شاء الموت أن يأتيني لأتاني تحت زخات الرصاص وقذائف المدفعية، عندما امتنع الاهالي عن قبول تعويضا لهم من الجحش الذي دهسته سيارتنا ...".

سوف اشرح واعلل هذه المقتطفات في سياق هذه العجالة، فهي مفتاح للاسماك بقسط من نسيج شخصية الحكيم، البراكسيس الذي وحد النظرية والممارسة في جدليتهما، الممارسة التي أنتجت نظرية، والنظرية التي أنتجت ممارسة فتوحدتا في ذات ثورية فاعلة.

في 2008/1/28 رحل الحكيم، وقد اعتذرت عن اجراء مقابلة فورية مع فضائية الجزيرة بعد ما رشح لها الخبر النازف. وما أن مللت شتات نفسي هممت بكتابة "هل رحل الرجل الجليل الكرزماقي الذي كان يرى ابعده من السطح، ام رحل المشروع الذي يمثل؟" ومقالة أخرى في ذكرى الاربعين وثلاثة ... فلم يكن رحيله مجرد خبر وقد جعلني اعيش حالة النخطف على امتداد زمني الواعي، متماهياً مع احلام كبرى من الرأس الى الكعب. "فأي عقل قد انطفأ وأي قلب توقف عن الخفقان. كان العبقري ونحن الموهوبون" قال انجلز في رثاء صديقه ماركس.

وصف الرئيس البوليفي موراليس، القائد التاريخي الكبير فيديل كاسترو "انه رجل حكيم" اما الدكتور جورج حبش فكان اسمه السري في حركة القوميين العرب "الحكيم" ومسيرته اسبغت عليه لقب "حكيم الثورة" تماشياً مع منظور لينين "ليس المهم ارتداء لقب الطليعة، بل ان تعترف الجماهير بذلك". وكانت هافانا قد جمعت فيديل والحكيم عدة مرات الى درجة ان يفاجئ الرئيس الكوي، الحكيم في زيارة بعد منتصف الليل في مكان اقامته دون حراسة وشكليات، تضرفهما اهداف مشتركة وقيم اخلاقية سامية.

ثوري حقيقي غير مثلوم النصل لثوري حقيقي غير مثلوم النصل، قائدان لا يحوزان من متاع الدنيا سوى ملابسهما، وهي على اية حال اكثر طراوة من ملابس تشي غيفارا التي لم تكن سوى لباس الخاكي واخر بديل معلق على مسمار. وكلهم ساروا على درب ماركس "اياكم والمساومة على المبادئ، اياكم والتنازل النظري" فغادر ماركس وغادر ابنه من قبله دون قدره على دفع تكاليف العلاج. وكاسترو ترجم مقولة ماركس "تغرق الجزيرة في البحر ولا نسلها للرأسماليين ... علينا أن نبدع، علينا أن نكون دياكتيكيين" اما الحكيم فأعلن "لا

ينبغي ان ينتهك التكتيك الاستراتيجية، ولا أن تنتهك السياسة الأيديولوجيا" دون ان تخدشهما اغراءات الزمن ومؤامرات الاعداء ومحاولات التصفية والاعتقال.

اما زيارة غوربا تشوف الاولى والاخيرة لكوبا فلم تثمر، الى ان قطع زيارته منزعجا، فلم يُطب له المقام، خلافا لزيارته لالمانيا الديمقراطية التي كانت ايدانا بانهباء نظامها الاشتراكي، اما اشتراكية كوبا فلم تتزعزع رغم الحصار الامبريالي واغلاق بوابة التبادل التجاري مع الاتحاد السوفيتي بمقدار 5 مليار دولار سنويا وتوقف النفط الروسي الذي انقطع عن كوبا بما جعل نظام هافانا يشتري 1/2 مليون دراجة هوائية.

وكاسترو قال "لنا تجربتنا وهذا خيارنا" اما الحكيم فكان تعليقه على البرويسترويكا الغوربا تشوفيه التي كانت عاملا من عوامل تدمير النظام وتفكيك سبيكة الدولة (الصراع وليس توازن المصالح هو قانون العلاقة مع الرأسمالية الامبريالية).

والحكيم وان كان يقود تنظيماً فلسطينياً محدوداً فهو "لا يرفع المظلة كلها أمطرت في موسكو" وكانت له ملاحظاته ونقاطه الخلافية مع السياسة السوفيتية سيما ما يتعلق بالقضية الفلسطينية. وهذا كان يلهمنا ويثبنا فينا الفخر، نحن الجيل الشباني.

من هنا فهمت ما جاء في رأس مقالي (ينبغي أن نرقى... بالاندفاع لقراءة تاريخ العرب وتبع العقائد الأمورية والاشورية والكلدانية منذ اربعة الاف سنة ويزيد في العراق ومن بعدها الكنعانية والفينيقية في بلاد الشام وفلسطين، عرجا على الفرعونية والتوراة والانجيل والقرآن وصولا الى العهد العربي نهاية بعام النكبة 48 والتطهير العرقي والمسيرة التحررية الفلسطينية.

واستنتجت ان نصيحة الحكيم لم تكن صدفة، فمن أرض فلسطين انبثقت المسيحية بإيمانها وتسامحها كدعوة اخلاقية لا تسعى ان تكون دولة سياسية كما فعل الرومان في عهد قسطنطين وما نتج عن ذلك، ومن ارض شبه الجزيرة العربية انبثقت الدعوة الاسلامية التي انتشرت وكانت حاملاً ومحمولاً للقومية العربية فأنشأت دولة في عهد عمر بن الخطاب تجاوزوا للقبائلية المتناحرة بما تميز به من عدالة احدى تظاهراتها "العهدة العمرية" في القدس، اما علي فهو مجتهد كبير وفارس جسور وقد ذهب وولديه وعشرات من عائلته متمسكا بنقاوة انجازه لفقراء عصره... وعندما قرأت كتاب خالد محمد خالد أهل البيت بهرتني شخصية علي اكثر وهزني حتى النخاع

ظلم التاريخ، ولكنني تفاعرت ايضا بما قرأت عن "ابو ذر الغفاري" الذي رفض ان يكون واليا وغادر دون ان يترك سوى "بحشته". ففي تاريخنا تقشف غيفارا ايضا، وهذا ترك بصماته.

والحكيم عندما اعلن عام 1978 "ان لسياسة كامب ديفيد جذورا اقتصادية" قلت ان وضعنا الفلسطيني مغاير وكلنا في المعركة الوطنية سواء ونكابد معاً في سجون الاحتلال. وكان على امثالي ان يتعمقوا اكثر في درس الحقبة النفطية واسقاطاتها على المجتمعات العربية سيما على النخب النافذة.

وجاءت حرب عام 1982 وحصار بيروت والقتال الاسطوري للمقاومة والذي وثقه لاحقا اللواء عز الدين في (العسكرية الفلسطينية)، وما صاحب ذلك من وحدة قتالية ولوجستية واجتراح بطولات جماعية، وانقسمت فتح ونشب اقتتال مرير تلاها حرب المخيمات المدمرة "والوحدة الميدانية".

وجيلي الذي تربى على شعارات الوحدة الوطنية يرتبك أشد ارتباك، ويكاد لا يقتنع بمسوغات اية نزعات معاكسة. اذ كما مشبعين بالرومانسية الفلسطينية واللغة الافلاطونية عن "المدينة الفاضلة" وشدتنا تجربة الفيتكونغ في فيتنام وما كتبه ديمتروف عن الجبهة الوطنية ضد الفاشية.

غير ان "مشروع ريغن" وكذا "مشروع فهد" وما نشأ حولهما من خلافات دقت ناقوس الخطر الى ان اتاحت الفرصة لي الاطلاع على الاستخلاص الذي توصل اليه الحكيم "ان اهدافنا الوطنية غير قابلة للانتصار بقيادة اليمين البرجوازي" والذي صاغه لاحقا في خطاب لاتحاد الصحفيين الفلسطينيين في 1984/1 بالقول "لقد تصدرت البرجوازية الكفاح المسلح وكانت صادقة... لكن امام صعوبات المسيرة بدأت بالتراجع البرنامجي، مرحلة بعد مرحلة،... ان العناصر المتنفذة توصلت لقناعة: لقد بذلنا كل شيء ولناخذ ما يمكن أخذه... ان لديها استعدادات حقيقية للتعاطي مع الحلول الامريكية في الوقت المناسب" وفي مكان اخر استخرج "ان هؤلاء تركيبة معقدة ولا ينبغي التسرع في القول انهم ذهبوا في طريق الارتداد".

وجاء زمن الانتفاض الشعبي في اواخر عام 1987 الذي استمر خمسة اعوام ونيف، وتوحدت الارادة الفلسطينية في صنع انتفاض شعبي حقيقي، كمبادرة هجومية تاريخية، واحرزت ما احرزت من نجاحات ودفعت ما دفعت من استحقاقات واثمان، وكانت فقرة نوعية في الوطن فدخلت مفردة "انتفاضة" في كل

اللغات الى ان حل مسار مدريد - اوسلو والذي اصبح مرحلة لها تراكيبها والتزاماتها ونخبها، واقتتال غزوة وانقسام السلطة الى سلطتين والكيان الى كيانين.

كان ابو عمار والحكيم يختلفان، ولكنهما بمسؤولية يتقنان مهارة اعادة توحيد الساحة، اما اليوم فالشيطنة التي تصل حد التخوين والشعاراتية التي تبث الكراهية هي الصوت الاعلى الذي يعطل امكانية الوصول لقواسم مشتركة مشحونة بعقل نمطي لم يعد صالحا اليوم.

"اقروا هيجل قبل ماركس" كتب والمنطق الارسطوري سبق المنطق الديالكتيكي. "وما فعلناه اننا اقعنا الديالكتيك على قدميه بعد ان كان على راسه" (انجلز). و"النظرية مرشد للعمل وليست عقيدة جامدة" (لينين). ورحنا نقرأ ارسطو ومنطقة الميكانيكي الذي كان قفزه في التفكير الانساني، ولم يعد تفسير الظواهر والاحداث طلاسمًا. وبعد ألفي عام اكتشف هيجل قوانين الديالكتيك، وماركس كشف حضورها في الحركة التاريخية واكتشف تعاقب التشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية والتناقضات التي تفضي للثورة الاشتراكية، ولينين حلّ المرحلة الامبريالية واثبت كفاءة عالية في بناء حزب ثوري قادر وظافر اطاح بالنظام ودشن بداية مرحلة تاريخية جديدة في بلاد مساحتها سدس الكرة الأرضية، رافعاً شعار "يا عمال العالم وشعوبه المضطهدة اتحدي". وروزا ركزت على الديموقراطية وغرامشي على دور الثقافة والهيمنة والمجتمع المدني. ونشبت أزمة اقتصادية رأسمالية (الركود العظيم) في اواخر العشرينات وبعدها ظهرت الكينزية والحرب العالمية الثانية وموجة التحرر الوطني والثورتين الهندية والصينية في اواخر الاربعينات تلتها الفيتنامية والكوبية وازدادت د. سمير امين عن "التراكم البدائي" وثنائية "مركز ومحيط".

كانت كلمات الحكيم محفزاً لإلتهام المزيد من الدراسات والمؤلفات، وصولاً الى الامسك المنهجي بقانون الوعي الاجتماعي المرتبط بالوجود الاجتماعي وتوافق البنية الفوقية مع البنية التحتية والتوافق بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة بما ازال الكثير من الاستغلاق، والسداجة في فهم الأشياء والظواهر.

والحكيم لم يكتفِ باستهلاك المعرفة وما تتطلبه الممارسة من فكر وعلم، بل وله اسهاماته النظرية ايضاً، سيما ما يتعلق بالمسألة القومية، ليس كمنظر فقط وانما كمؤسس لحركة سياسية قومية قادت النضال لتحرير اليمن الجنوبي من المستعمر البريطاني وكان لها صولات وجولات في عمان، ودور في سوريا، وغير قطر عربي، وشريكا في

المسيرة الوطنية الفلسطينية، في محاولة لاكساب المسيرة بعداً طبقياً وفكرياً يتجاوز المجتمع التقليدي البطريركي ومساومات النخب اليمينية ويربط الوطني بالقومي بالأمة.

وقد انتقد باتساق "نظرية التطور اللارأسالي" السوفيتية وكانت له ملاحظاته على البقرطة واحلال الحزب محل الطبقة والجمهير، وأعجبه مقولات غرامشي عن "الكلمة التاريخية" و"المثقف العضوي" و"المجتمع المدني" كما مقولة لينين عن "الثبات على المبدأ كعامل لتغيير ميزان القوى" وذكر قصة صن يات صن (ابو الصين الحديثة) عندما عاد من حملته الفاشلة الثانية عشر في ثورة 1912 مثخناً بالجراح مهزوما هو وجيشه قائلاً لمساعدته "لا بأس انها مجرد الحملة الثانية عشر" ولكنه في الحملة التالية اجتاح مدينة كانتون. هذا درس كبير لنا.

اما اسهامه الذي لا ينبغي اغفاله، فهو، مثارته دون كلل في زرع قيم الديمقراطية من حق تفكير ومواطنة متساوية دون تمييز ديني او جنسوي وتعددية وحق الاختلاف والتنظيم وانحيازه الصريح للطبقات الشعبية وهو المنحدر من عائلة تجاربه ميسورة وتعليم اكاديمي في الجامعة الامريكية.

وهذه المفردات لم تكن واضحة في الفكر السياسي العربي في حقبة الخمسينات من القرن الماضي، بل ورفض حل حركة القوميين العرب بعد ان صعد نجم عبد الناصر قائلاً "عبد الناصر الدولة يحمل القومية العربية اما نحن فحركة شعبية".

لقد تميز الحكيم بثقافة واسعة، فهو سياسي مثقف وتربطه وشائج واسعة مع المثقفين العرب، وخطيب مفوه، تنزلق عباراته بوضوح تأسر مستمعيه على امتداد ساعات بما يذكرنا بخطابات فيديل كاسترو ولينين. اما الخلاصية التي يشترك فيها مع هوثي مين فهي شفافيته الاخلاقية، فهو يتمتع بأخلاقية شفيفة، وكأنه متصوف في معبد، حيث لا تجتمع السياسة والاخلاق الا لدى حالات نادرة بما يعرف عن السياسيين من تلاعبات وكذب.

ولسنا هنا بصدد الاشارة لاخلاقيات التفاني لاقصى الحدود والجمعية التي تأبى الانانية والحسابات الذاتية والصدق الذي لا يعرف المراوغة وقوة المثال التي تشحن وتولد الآمال على قاعدة (اتبعوني لا تقدموا) متجاوزا غيره في طاقته الانتاجية وصفاء بصيرته كاستراتيجي، في مسيرة طويلة محاطة بالاعداء من كل جانب لا نتوقف فيها مؤامرات الذبح السياسي والعسكري وتجنيف الموارد، حتى من بعض الرفقاء، "عندما أعود بذاكرتي للوراء ألاحظ الاستنزاف الذي سببه بعض الرفاق".

ومعروف عن الحكيم نظافة اللسان والقلب، والابتعاد عن المشهية وحب الظهور، فهو يتفادى الجلوس على رأس الطاولة في الاجتماعات الوطنية، ويتحدث بعد غيره في الاجتماعات المركزية، ولكن رأيه ينفذ أكثر من سواه، وكما لينين يعرب عن رأيه في اللحظة المناسبة بعيداً عن الجعجات الاكاديمية التي تحرث الهواء، وعلى الدوام يتدفق لطافة وقوة وتواضع مرهف دون ان تعرف همته الفتور في اقسى الظروف والمحطات. ولم يغمض عينه عن مصر "علينا ان نحافظ على الاشتباك اما التحرير فلا يتم دون مصر والعمق العربي".

ومذ كان لقاءه بعبد الناصر فصلياً عام 63 وانقطاع علاقته بالنظام في عهد السادات وتحليلاته لكامب ديفيد عام 1978 "لإعادة تشكيل المنطقة سياسا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا" تنفيذاً للشروف الأمريكي بقي يردد "تابعوا ما يدور في مصر فهي مفتاح رسم المستقبل العربي".

وكل من يجالس الحكيم يلمس قلق الفيلسوف لديه، فهو يستولد أسئلة جديدة باستمرار، ومن خلال حوارهِ مع الواقع ومحاورته مع الآخرين يبني اجابته. فالاجابات ليست جاهزة لديه ومصدرها ليس الكتب. وبلغة بابلو فريري (الثورة عملية حوارية) متحرراً من الأوامرية العجفاء كما ويتمتع بخاصية الاصغاء. وعلى رأي شاعرنا الراحل الكبير درويش (كنا نذهب للاستماع اليه فيستمع الينا)، دقيق المواعيد ويؤمن ما يلزم من وقت للمناسبات الاجتماعية "منذ يومين ذهبت مع ام جهاد زوجة الشهيد الكبير لزيارة ضريحه، وفي الايام الاخيرة استقبلت عائلة شقيقي وفي الامس غادرت اخر اجتماع مع بزوغ الفجر. اما زيارتنا الأخيرة لكوبا فهي اكثر من رائعة. هناك لم تنفك الدولة ثورة والثورة دولة ... ولا تتصور مقدار حبي لعائلتي ... وهذا حفيدي المعجب بنصر الله أكثر مني ..."

وأخيراً لا أحد يجادل في كاريزما الحكيم التي تزداد تألقاً بتواضعه الجم ورقة طباعه الممزوجة بفولاذية مواقفه. تتحد حميميته الأبوية بروح قتالية شبابية غير هيابة ولا تعرف الوهن. انها معادلة كيميائية ينظمها منطق لا يحضر الا في شخصه.

لن ننساك، فأنت باقٍ في قلوب محبيك وصفحات التاريخ.



## شذرات عن الحكيم الدكتور جورج حبش

ما أن هممت بالكتابة، انتابني الحيرة، فأنا أشخص بعيني وذاكرتي الى قامة عالية وبراكسيس غزير يمتد لسته عقود، وحدّ النظرية والتطبيق وكان في ذاته جدلية حية لوحدة النظرية والتطبيق. والنص الذي أسوقه هو الرابع ويتمحور حول الاثر التاريخي للحكيم لا التعريف بسجاياه التي تكونت واستجابت لشرطه الموضوعي زمانا ومكانا، فانفعل به وفعل في إطار صيرورة متشعبة ومتحولة تركت بصمات على محطات غدت مقاطع تاريخية يتعذر الافتئات عليها أو محوها، متفاديا ما أمكن ما نشرت في مقالات سابقة.

أنشأ غيفارا "أت لحظات، لولا فيديل لما استمرت الثورة الكوبية" ومثل هذا الاستخلاص ينسحب على الحكيم، أو يصعب نشوء حركة القوميين العرب ومن بعدها الجبهة الشعبية وما مثله من دور دون الحكيم. فقد استقر اسمه في ذاكرة ملايين الناس وصبح برؤيته مئات الآلاف ان لم يكن أكثر، الأمر الذي يفسر عشرات الفعاليات في الوطن والشتات والعواصم العربية احتفاءً به وتفجعاً على رحيله.

### نظرية الممارسة

أطلق المفكر الفرنسي التوسير على الثورة الكوبية توصيف "نظرية الممارسة" اي ان نموذجها النظري، كتجريد عام، مستقى من تجربتها العملية. فالممارسة انتجت نظريتها، ومفتاح فهمها هو البؤرة الثورية التي اعتمدت على نفسها وقادتها شخصية كرزمانية بلغت شأوا ان تستقبله قاعة اخر مؤتمر للحزب الشيوعي السوفييتي بالاف المؤتمرين والضيوف وقوفا وسط عاصفة من التصفيق بما فاق كثيرا الحماسة لامين عام الحزب حينذاك غورباتشوف. وان يقطع الاخير زيارته لها فانا منزحجا من ثبات كاسترو على المبادئ "اياكم والتنازل النظري، اياكم والمساومة على المبادئ" (ماركس)، بينما استقبل فيديل القائد الفلسطيني الدكتور جورج حبش عدة مرات الى درجة ان يفاجئه في مقر اقامته بزيارة بعد منتصف الليل دون حراسة وشكلايات، ثوري ثوري.

وصف الرئيس البوليفي موراليس كاسترو بالرجل الحكيم. وحكيم كوبا تناغم مع حكيم فلسطين على نحو فريد. "رب أخ لم تلده أمك"، وتماها معا في المشروع التاريخي التغيير، دون ان تهتز لهما قناه في مرحلة

انهيار القلعة السوفيتية وصعود العولمة المتأمركة. رد الحكيم على تساؤل مثقف عربي يساري "ان قلتي ليس بالحجم الذي نتصوره. لقد توصلنا لفكرنا السياسي كعملية تراكمية بصرف النظر عن وجود او غياب السوفييت. ولكن هناك دروس ينبغي استخراجها."

ويسر يمكن ملاحظة ان "نظرية الممارسة" حضرت في مسيرة الحكيم. فهو من دعا لاجتماع نحاسي سري ضم قبضه من الفلسطينيين والعرب في بدايات خمسينات القرن الماضي لتأسيس النواة الاولى "لحركة القوميين العرب"، وكانت فلسطين الهدف المركزي. وراحت النواة تتوسع في الجامعة الامريكية وخارجها. واشتق مع رفاقه الخوصية اليمنية، كعشقب قبلي صحراوي محدود السكان وقرى صغيرة وميناء اقرب لمرفأ، نهج حرب العصابات، واطلقوا شرارات الكفاح المسلح ضد المستعمر البريطاني، وبعد سنوات انتصرت الثورة وتحرر اليمن الجنوبي، ولم يتوقفوا هنا بل توحدت عدة مشارب ومركبات يساريه في الحزب الاشتراكي اليمني.

وفي عام 63 استجاب الحكيم لمقترح الدكتور وديع حداد بتأسيس التنظيم الفلسطيني لحركة القوميين العرب تجاوبا مع متطلبات الهوية الوطنية. وبعد هزيمة حزيران 67 تأسست اول قاعدة فدائية في الاغوار بقيادة (ابو علي مصطفى) كمقدمة لاطلاق فصيلة فدائية في 1967/12/11 هي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

هذا كله لم يكن تقليداً ميكانيكياً او نمذجة لتجارب اخرى. وفي مسيرة "الشعبية" في الوطن المحتل، سيما في مرحلة صعودها في عقدي ما قبل "اوسلو" شقت طريقها اشداداً للهلوس الى درجة تجاوز "البداهيات" (يمكن العودة لرسالة الدكتوراة - احمد قطامش) والحكيم كان حارسها الاول الى درجة ان استخلص في زمن الانتفاض الكانوني عام 1987 "لقد انتقل مركز ثقل القضية الوطنية الى الداخل بما يستوجب ذلك من استحقاقات تنظيمية في المركز القيادي والقرار."

والمسيرة التحررية الفلسطينية وهيكلها الاساس الفصائلية الفدائية بما فيها الجبهة الشعبية، لم تنقيد بنموذج واحد او "نموذج مستورد" فهي جمعت اعمال المقاومة في الداخل دون الوصول لقواعد حمراء محررة وما يشبه قاعدة ارتكاز في الاردن قبل مذابح ايلول 1970، وقاعدة ارتكاز في لبنان بما آلت اليه الامور. وحرب دفاعية في عام 1982 باستخدام الصواريخ والمدفعية، وانتفاض شعبي عارم، بقيادة مركزية وامتدادات محلية في الوطن المحتل 67 في اواخر الثمانينات، صاحب كل ذلك نضال دبلوماسي واعلامي وجماهيري وصولا الى المفاوضات

المباشرة التي انقسم الموقف حولها، وما يشبه انتفاضة مسلحة عام 2000 وخوض ثلاثة حروب دفاعية في غزة ما كان للمقاومة ان تصمد لولا شبكة الانفاق. انها نماذج متعددة. "ممارسة نظرية" متعددة، وللعقل القيادي الفلسطيني دور مركزي في ذلك، والحكيم في صلبه.

## جدلية الذاتى والموضوعي

كانت نكبة فلسطين (التطهير العرقي عام 1948) حيث اقتلع ثلثي الشعب واحتل ثلاثة ارباع الوطن، منعطفاً نوعياً، انتقل بموجبه الطالب الجامعي جورج حبش من اهتماماته الثقافية كرئيس لمجلة العروة الوثقى، الى ميدان العمل السياسي، فأثار سؤالاً استراتيجياً: لماذا هزمنا؟ وانهمك مع صديقه وديع حداد في قراءة التاريخ العربي والديانات والتجارب القومية في ايطاليا وفرنسا والمانيا وغيرها. وفي سياق الاجابة قال بضرورة بناء تنظيم حديدي وان القيادات العربية التقليدية اخفقت مما يستدعي قيادات اجتماعية جديدة، وان التفتت العربي احد اسباب الهزيمة.

وكانت الاولوية فلسطين، قبل ان يقرأ لينين والحلقة المركزية بما جعله يختلف مع البعث والاخوان المسلمين وسواهم الذين لم يضعوا فلسطين كأولويه من جهة، ومع الشيوعيين الذين اعترفوا بإسرائيل من جهة اخرى. وبذلك امتد "التنظيم الحديدي" في اوساط الطبقة الوسطى والخيميات وعدة اقطار عربية.

وبعد هزيمة حزيران 67 استخلص "ان البرامج العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية" للبرجوازية القومية قد فشلت وان الدور القيادي للأظمة القومية قد سقط دون أن يسقط دورها التاريخي، وانغمس في معمان جديد هو بناء فصيلة فدائية تتبع نهج "حرب الشعب" لا الحرب النظامية، وبنيتها شعبية لا برجوازية. فهو قد استجاب للمتغيرات قبل أن يقرأ مقولة لينين "ان التعاسة في السياسة هي عدم تمثل المتغيرات"، وبذلك بات يُمثل يسار المقاومة التي انتشرت كما ينتشر النار في الهشيم.

والحكيم كمحترف ثوري هجر عيادته منذ أواسط الخمسينات وانخرط بجماع شخصيته في معمان النضال العنيد، وقد عاش سحر البدايات، بل هو صانع للبدايات وشق دروب جديدة بما يتوالد عن ذلك من أسئلة واجابات وتعقيدات وتضحيات، وما تتطلبه ايضا من قوة مثال، كان هو نفسه عنوانها الابرز، فسار معه واقتفى اثره

اعداد متزايدة والتفت حوله قاعدة جماهيرية متنامية، في مسيرة ملحمية لا تعرف الوهن او التهاون. وبتدرج خلعت عليه الجماهير ووسائل الاعلام "الايدولوجي والجذري".

وكانت م.ت.ف قد عقدت مؤتمرها الأول الذي شارك فيه الدكتور وديع حداد، ومؤتمرها الثاني، وبعد تراث التحقت فتح والشعبية وسواهما. وعندما لاحظ فردية القرار عارض ولكن في اطار وحدة المنظمة. ومنذئذ باتت المنظمة تتسع للتحالف والخلاف، للقيادة الرسمية التي يمثلها ابو عمار وللمعارضة التي يمثلها الدكتور حبش، يتحالفان ويفترقان ويتحالفان ثانية دون المساس "بالممثل الشرعي والوحيد".

اجل، لقد اشتق الحكيم قانون الوحدة والتناقض؛ وحدة تقتضي القتال المشترك المعمد بالدماء، وتناقض يتدرج من التباين السياسي الاعلامي وصولا الى تجسيد عضوية الجبهة في اللجنة التنفيذية. وعلى الدوام كان يتعرض لضغط رفقاء لكي يخفف وتيرة التناقض وضغط رفقاء آخرين يدفعون لرفع وتيرة التناقض.

والصمود الاسطوري للمقاومة في بيروت لثلاثة اشهر لم يحل دون ان تنفام تناقضات فتح الداخلية وانشقاقها الدموي الذي سقط فيه المئات، فرغ الحكيم صوته "مجرم من يحمل السلاح، مجرم من يحرض عليه..." وتدخلت الجبهة وسواها لحقن الدماء. غير انه دفع ثمن موقفه، اذ حجب ابو عمار مخصصات الجبهة من منظمة التحرير في محاولته ان تنضم الجبهة اليه، وحجب القذافي مساعدته الدورية للجبهة في محاولته ان تنضم الجبهة لانتفاضة ابو موسى، واستمر الحجب سنوات.

وما ان ضعف الوضع الفلسطيني الداخلي، انبرت قوى لبنانية لشن حرب ظالمة استمرت نحو عامين لتنظيف بيروت من الخيما الفلسطينية. وهنا حصلت المفاجأة اذ توحدت البندقية الفلسطينية التي اقتتل في الامس دفاعا عن الدم الفلسطيني تحت شعار الوحدة الميدانية. اذ توحد الموقف الميداني رغم الانقسام السياسي "ولعم" لمشروع ريغن. والحكيم هو احد ابرز الذين دفعوا بهذا الاتجاه.

ومن جانب اخر تقدم بتحليلاته عن "البرجوازية الفلسطينية التي تنتظر اللحظة المناسبة للتساوق مع المشروع الأمريكي. لقد بذلنا كل شيء ولناخذ ما يمكن أخذه" كما جاء في خطابه لاتحاد الكتاب في نيسان 1984.

واندلج الجيشان الانتفاضي في اواخر 1987، كمبادرة هجومية تاريخية، وضعت الاحتلال في موقع الدفاع واعادت للقضية الفلسطينية وهجها. واستخلص الحكيم "لقد انتقل مركز الثقل للداخل" وتداول عام 1989 مع

مسؤول الجبهة في الداخل رغبته بإنهاء مهامه كأمين عام. وشرح لاحقاً "اعتزم التفرغ لتأريخ تجربة حركة القوميين العرب، فإن لم افعل اموت وفي قلبي حسرة، كما تأسيس مركز بحثي يتصدى لقضايا عربية ويحجب عن سؤال: لماذا هزمننا؟"

وتعرضت الجبهة في الداخل لضربات قوية بين 1991-1992 ومارس رفقاته ضغطهم عليه لثلا يتنحى عن الامانة العامة. ورغم الازمة "القلبية القاتلة" عام 1972، وتزيف الدماغ الذي اورثه شللا جزئيا عام 1981 وزحف قوانين البيولوجيا، استمات في تأدية مهامه وقال: "أسوأ ما عرفت هو انفصال الوحدة المصرية - السورية وبعدها حرب حزيران ومذابح الثورة في الاردن اما الاسوأ فهو انشقاق الساحة ... وعندما اعود بذكريتي للوراء الحظ الاضرار التي سببها بعض الرفاق ايضا" متجلداً ومجالداً، صامداً في معمعان العمل القيادي، بل وكان على خط القتال الامامي اثناء حصار بيروت حيث "قصف الطائرات والمدفعية يومين او ثلاثة من اجل التقدم بضعة امتار" وتم سحبه من برائن الموت غير مرة. "لا يجب ان تموت، عليك دور كبير" قال السفير السوفيتي، فيما كان تاكتيكة اطالة امد الحرب. وفي مقارنة قال رداً على الذين انتظروا تدخلا دوليا "كان ظهر ستالينغراد غير محاصر اما بيروت فمحاصرة من كل الجهات ولن يأتي احد لانقاذنا، ولكننا نستطيع الاعتماد على أنفسنا" وحذر من مناورات فيليب حبيب المبعوث الامريكى الذي لم يفعل شيئاً لمنع مجازر صبرا وشاتيلا على ايدي الكتائب بعد اغتيال بشير الجميل وبتواطؤ من شارون كما اعترفت لجان التحقيق الاسرائيلية.

وقد ناهض مسار مدريد - اوسلو بانسجام حتى اواخر ايامه واجتماع اللجنة التنفيذية وامناء الفصائل في تونس الذي اجاز لقاء "الداخل" مع شولتز وزير الخارجية الامريكى الاسبق في جولته التمهيدية قاطعته الجبهة الشعبية في الداخل ليتوحد موقفها في جولة شولتر الثانية. والتقى بالدكتور عبد الشافي رئيس الوفد الفلسطيني ونبهه لخطورة "مدريد" وبعد جولات انسحب الشافي وتم توقيع "اوسلو" دون علم الوفد الفلسطيني المفاوض ودون علم قيادة الانتفاضة والامناء العاميين واللجنة التنفيذية وغالبية اللجنة المركزية لفتح. وانقسمت الساحة على نحو لم تعرفه من قبل.

في السنوات اللاحقة تبدلت الخارطة السياسية الفلسطينية وتعاظمت قوة حماس والجهاد كما تركز التحول في الساحة اللبنانية فأعلن الحكيم "تحالف مع قوى الاسلام السياسي المقاوم" وكان بجوزته خط هاتف قائد المقاومة السيد نصر الله الذي وصفه "بالصادق والقائد الحقيقي الذي يعجب حفيدي به اكثر مني ..."

### قارئ استراتيجي للتناقضات نأى بنفسه عن أخطاء مميتة

أول مهمة للمفكر هي قراءة التناقضات، الاعداء والاصدقاء، التقدم والتخلف، الهيمنة والحرية، العلم والخرافة، الاهداف الاستراتيجية والتكتيكية، اشكال النضال العنيفة وغير العنيفة، التناقض الاساس والتناقض الثانوي ... الخ، وقد اصطف الحكيم في الخندق الذي يعبر عن قناعاته.

ومنذ "الاستراتيجية السياسية والتنظيمية" التي كتبها في مطلع عام 1969 حدد معكسر الاعداء ممثلاً بالامبريالية والصهيونية والرجعية واطاف عليها في السبعينات البرجوازية المستسلمة اتصالاً بما اصبح عليه نظام السادات. وانسجاماً مع ذلك دأب على موقف معادٍ لهذا المعسكر ولم يلجأ له او يتفاوض معه لتسوية القضية الفلسطينية، وذهب لنسج علاقات تحالفية مع المناهضين له.

وعندما انشقت الديمقراطية عام 1969 رفض اللجوء للعنف مع المنشقين وقال "طلاق ديمقراطي" وعليهم اختيار اسم آخر لهم غير الجبهة الشعبية. اما انشقاق الجبهة الثورية عام 1972 فقال "اذا صمدوا ثلاثة اعوام سوف اعترف بهم كفصيل" لكنهم تبددوا. وهذا الفهم في التعاطي مع الانشاقين نابع من نظريته لطابع التناقض، فهو ثانوي حتى ولو كان انشقاقاً. ومثل هذا المنظور لم يستفد منه انشقاق فتح - فتح وما توالد عنه عام 1983.

وذات الشيء يقال وقتما ارتفعت وتيرة التناقض بين القوى الراضية للتسوية وقوى القبول بعد جنيف عام 1974 حين تعرضت الاولى للقصف المدفعي فنشأ اجتهاد لدى قيادات الرفض ان أبا عمار قبض ثمناً ويريد تمهيد الساحة للانخراط في التسوية، مما يستوجب الرد على النار بالنار. اما الحكيم فقال: انهم يضغظون لاسكات صوتنا وحسبنا تحريك الجماهير والحلفاء ... وتم احتواء التوتر ولم يتحول لازمة.

والسبب ان التناقض غير تناحري ولا يجوز تسويته باللجوء للسلاح، ومثل هذا الدرس النظري لم يستفد منه ايضا في اقتتال غزة عام 2007. خلافا لتعريفه للتناقض الاساس الذي يستمر باستمرار المرحلة سواء كان طبقيا بين الطبقات الدنيا والطبقات العليا الى ان تزول علاقات الانتاج الرأسمالية، او قوميا بين حركة التحرر والمستعمر كما الحالة الفلسطينية. وتعريفه للتناقض الرئيس، أي السياسي المتفجر، وفي الحالة الفلسطينية ان التناقضين الاساس والرئيس مع المستعمر لا يزولان الا بزوال اسبابهما. ومثل هذا المنطق لا يستقيم مع منطق "اوسلو" والعقلية الكامنة وراءه. وبالنسبة للتناقضات الثانوية والفرعية والجزئية، فهي كلها تجد حلولها بالوسائل الديمقراطية من نضال فكري في أوساط الجماهير وانتخابات وتوافقات.

وكان القانون الذي استوحاه في العلاقة مع الأنظمة البرجوازية القومية هو (التحالف والتناقض) التحالف في مواجهة معسكر الاعداء ومخططاتهم، والتناقض في مسائل الديمقراطية ومطالب الطبقات الشعبية وفي حالة المساس بالنضال الفلسطيني. ولم يتزحج عن هذا القانون حتى في علاقته مع عبد الناصر الذي يكن له بالغ الاحترام وقد استقبله في بيته وكان لقاؤهما فصلياً منذ عام 1963.

ولأن أمريكا "رأس الحية" حسب تعبيره وتزعم المعسكر الامبريالي، امضى عمره كله وهو يقاوم سياساتها ومشاريعها. ونشب اكبر خلاف مع ابو عمار عندما تساوق مع هذه السياسات رغم نضالهما المشترك وامتلاك كل منهما مهارة التفاهم بعد خلاف ما قبل توقيع "اوسلو".

وشأن القوى اليسارية، عموماً، فهو قرأ ثلاثة تناقضات كبرى على مستوى عالمي بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، وبين الطبقة العاملة ورأس المال في البلدان الرأسمالية، وبين حركات التحرر في "الجنوب" والمركز الامبريالي في "الشمال".

تحالف مع الاشتراكية دون اذئاب وكانت له خلافاته مع السوفييت سيما موقفهم من "اسرائيل" ونظرية التطور اللارأسمالي واحلال الحزب وقيادته محل الطبقة والجماهير وصولا الى البيروقراطية. وكانت علاقاته مميزة مع الثورة الكوبية وقيادتها وبقدر أقل الثورة الفيتنامية، ونسج علاقات واسعة مع العشرات من القوى اليسارية، ولم يتردد في تقديم يد العون تدريبا وايواءً واسناداً. "اذا كانت الامبريالية سلسلة مترابطة علينا مواجهتها في جبهة واحدة" (غيفارا). وثابر على قراءته للوحة التناقضات وحركتها ذلك "ان الفكر يحدد والسياسة تحسم" ردد

غير مرة بعيداً عن اي عشوائية او تساوق مع البراغمية التي تفرط بأهداف كبرى وبنود برنامجية من اجل مكاسب جزئية. وقال "اننا مع الواقعية الثورية التي تنطلق من الواقع لتغييره لا الارتهان له." وهذا نجد جذوره في التعريف اللينيني للسياسة "انها الصراع الطبقي والقومي" اي ليس فن الممكن الذي لا يسمح الا بالاستخذاء لموازين القوى.

وفي المعركة الفكرية لم يفتخر الحكيم، وكان دائم التدفق والتوهج لتحرير العقول من الجبريات والعجز وتعزيز الثقة بالبشر بانهم قادرون على صنع التاريخ وادارة شؤونهم، لا امام سوى العقل، بلغة المعري، وقد انحاز للمشروع التغييرى وللعلم والاخلاق وليس للعلم الذي يخدم 3% من البشرية فقط. وحسب جورج طرايبيشي لقد انحاز "لنظرية النقدية الكبرى" ورأى في السياسة "عملية فلسفية" غرامشي بتعبئة الجماهير وتحريرها من هيمنة الفكر الاستغلالي وانتزاع حريتها واعادة توزيع ثروات الكرة الارضية بعدالة دون استغلال الانسان لاختيه الانسان، وفي المقدمة تحرير فلسطين وعودة اهالي البلاد الى ديارهم.

ومثل هذه القراءات للحكيم وجدت طريقها لصفوف الكثيرين وعلى اقل تقدير عشرات الالاف من نشطاء واصدقاء الجبهة.

### الحكيم مزيج من السياسة والأخلاق

يمكن القول بحزم ان الاخلاق ركن ركين في شخصية الحكيم وممارسته ولا يصعب ملاحظة ان بصمته الاخلاقية حاضرة في يومياته. واكثر الصفات التي نبذها الكذب والمراوغة، وما يسميه الحكيم "الدجل السياسي". وأسوة بالثوريين الاقح استخرج معادلة كيميائية هي مزيج من السياسة والاخلاق، ليس بالمفهوم الافلاطوني والارسطوي اللذان خاضا في هذا المضمار منذ 2300 سنة فقط، بل وبالمفهوم المعاصر حيث السياسة والاخلاق "ممارسة مجتمعية" (ماركس).

فكان "مثقفا عضويا" متماهيا مع "الكلمة التاريخية التقدمية" في مواجهة المثقف الشمولي المنتمي للسلطان وجبهة الاعداء واننا "ضد كل اشكال الاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي والديني والجنسوي" (لينين) ومن أجل "الخير العام" (غرامشي).



والحكيم صادق ليس في علاقاته الداخلية والوطنية، وإنما تبني ايضاً مقولة لينين "الصدق في السياسة هي مطابقة الاقوال بالافعال" ومسيرته كلها شاهد على ذلك، حتى خصومه لا يشككون بنزاهته وصدقه، دون ان يتردد في نقد نفسه "لقد حاول جيلنا ان يقوم بواجبه، وكان يمكن ان يعمل افضل وان يتفادى الاخطاء الكبيرة ونحن مستعدون لتحمل مسؤولياتنا." وهو أبعد ما يكون عن التلاعبات والكولسات القزمية وقد تمس لشعار "الهدف" الذي نحتة الشهيد غسان كنفاني "الحقيقة كل الحقيقة للجماهير."

ومن خصال الحكيم الساطعة حميمته الابوية، فهو في غاية الدفء واللطافة، ودمايته يستشعرها كل من يخالطه مثلها يستشعر آلام الناس ويتابع شؤونهم حتى العائلية منها. ويصغي لآوجاع الناس ويسعى لايجاد حلول لها. وهو طاهر اللسان، قويم السلوك ولا أحد يسجل شائبه عليه.

وعندما رحل لم يترك رصيماً في بنك لعائلته إذ لم يكن للمال حيزاً لديه. وهذا حال عبد الناصر الذي ترك 67 دولاراً لعائلته وغيفارا الذي لم يكن لديه من متاع الدنيا سوى لباس الخاكي واخر معلق على مسمار دون حاجة لخزانة!

لقد انتمى بجوارحه للمعذبين والفقراء وهجر عيادته الطبية ومن قبلها وظيفة محاضر في الجامعة الأمريكية، ليستغرقه النضال من رأسه إلى كعبه، وكان يدفع أيام العيادة، وهذا حال الدكتور وديع والدكتور أحمد الخطيب 90% من الراتب اشتراكاً حزبياً!

والحكيم رغم تفولذه وجذرية مواقفه، فهو رقيق الطباع شفيفاً ولم تكن دمعته عزيزة امام عذابات الناس وتضحياتهم، بما يعيدنا الى هوتشي مينة قائد الثورة الفيتنامية الذي كان يبكي مع كل خطاب للجماهير. وكان شديد الوفاء للشهداء والأسرى وللأهداف التي ضحوا من أجلها. ولا يفرط بهذه الأهداف ابداً.

والحكيم صديق صدوق، وقد عرّف الصداقة "انها مصارحة بلا حدود، يحمل الواحد هم الآخر دون أن يسأله وتجمعهما أهداف مشتركة." وقد أولى المتميزين والموهبين من رفقائه عناية خاصة. كما أنه عالي الهمة، ورجل مبادئ، وحالم كبير، ولا يكف عن رسم مهام مشتركة يجتمع عليها من حوله ويبتث الامل فيهم، وهو لا يعرف الاحباط واليأسية وأعجبته كلمة غرامشي "إن تشاؤم العقل لا يبغي تفاؤل الإرادة"، وثمة عبارة يرددها مع الشهيد وديع "الحياة قصيرة وعلينا أن نعمل شيء لشعبنا." ومعروف عن وديع أن لا نظام نوم لديه، فهو ينجز

مهامه وينام في الليل أو النهار، بعد يوم أو يومين، أما الحكيم فساعات عمله اليومي كانت تمتد الى 16 ساعة وأكثر في فوران الشباب وعنفوان الصحة، أما انتاجيته فهي اضعاف انتاجية غيره، وعلى رأي احد المقربين (الحكيم 50% والقيادة 50%) لما يتمتع به من صفاء ذهن وتعدد مواهب وقدرة على المتابعة (المتابعة جوهر العمل الحزبي) لينين وكل من يلاحظه عن قرب يلاحظ المسافة التي تفصله عن سواه. فهو القائد الاستراتيجي. وبلغة النجلز في رثائه لصديقه ماركس "اي عقل قد انطفأ، اي قلب توقف عن الخفقان. انت العبقري ونحن المهووبون."

والحكيم شخصية متحضرة وقادر على التعامل مع مختلف الشرائح، وله حضور كرزماتي في مختلف الطبقات. وهو تربوي من طراز رفيع وقوة مثال للكثيرين الذين عرفوه مباشرة او احتدوا به عن بعد، انتزع مكانته من المآثر التي اجترحها والجسارة التي تميز بها في لحظات المد أو الجزر وتحت زخات الرصاص، وفيما كانت الاخطار تحيط به كان شعاره (اتبعوني لا تقدموا).

ولا يدعي الحكيم احتكارا للحقيقة، وعقله منفتح على اجتهادات غيره، ولا يتردد في مراجعة تفكيره والتدقيق في موافقه، فعقله ديبالكتيكي يقرأ الواقع وتناقضاته والتحويلات ومحركاتها ولا يتيب من القول "لقد شاخ هذا وذاك جديد".

ومشروعه أبى تقسيم خارطة الوطن. سكب رحيق عمره في عمل متواصل وبروح جمعية لا تعرف المشهدية أو الذاتية. وحينه للعودة لا يضاهيه حنين وصرح "لا اعود دون عودة ملايين اللاجئيين" الى الديار ومدينة اللد وبيته الذي هدمته سلطات الاحتلال بعد رحيله في محاولة لاجتثاث جذوره، غير ان ذاكرة التاريخ اقوى واثبت.

### قلق الفيلسوف راييتا ومنارة

ينظر للحكيم كمتقف موسوعي تربطه وشائج واسعة مع المثقنين العرب. ومنذ ارهاصات عمله الاولى ربط الفكر بالسياسة قبل ان يطالع على مقولة لينين "حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة" وصولا الى قوله "الفكر يوجه البندقية". ومقارباته كانت اساس تمايز حركة القوميين العرب والجهة الشعبية.

ومعروف عنه انه يسبق غيره في التفكير. أما الأشد اهمية فهو مشفوع بقلق الفيلسوف الذي يثير السؤال الأكثر الحاحية في اللحظة المناسبة، وينبهي للاجابة عليه من خلال مونولوج داخلي وديالوج مع الآخرين وحوار مع الواقع. فالاجابات لديه ليس مصدرها الكتب. ولهذا كان يردد "الذي يريد أن يفهمنا عليه ان يفهم اننا نفكر". وشكلت الأسئلة - الاجابات الكثيرة لديه راية تتبعها جماهير غفيرة. تحول الكثير منها لممارسة وأحداث.

(1) السؤال الفكري: اذ اجاب ان الهوية الفكرية للقوميين العرب قومية تحررية عنوانها الاول تحرير فلسطين. ومع صعود الثورة الفيتنامية والثورة الكوية والضبابية التي لفت الثورة الجزائرية وهزيمة حزيران 67 اثار سؤال: لماذا؟ ودراساته للفكر الماركسي والتجارب الاشتراكية لم تنقطع، منذ ان كان على مقاعد الدراسة، غير أن الفرصة كانت أرحب اثناء فترة اعتقاله في السجن السوري 1968، كما لم يكن بعيداً عن جدل الأفكار في عاصمة الثقافة العربية بيروت. فتوصل الى قناعات ماركسية ولكن بمنطق ماركس "من المجرّد العام الى الملموس الخاص" اي "الباس النظرية عقال وكوفية" حسب تعبيره منسجما مع لينين "تحليل ملموس للواقع الملموس" و"مرشد للعمل وليس عقيدة جامدة".

والحكيم ليس مجرد مستهلك للفكر بل منتج ايضا وله مقاربات عديدة واسهامات عديدة سيما ما يتصل بالمسألة الوطنية والمسألة القومية ونظرية بناء الحزب والتحالفات والمشروع الاشتراكي وصولا الى انخيازه للموقف النقدي من البيروسترويك والتفكير السياسي الجديد لغورباتشوف.

ومن مقولاته الشهيرة فلسطينيا "نحن ام واب الوحدة الوطنية ... ولكننا نعارض القرار الفردي ولا اعرف كيف يتخذ القرار الفلسطيني" (خطاب في جامعة المستنصرية، 1977). و"ان اهدافنا الوطنية غير قابلة للانتصار بقيادة اليمين البرجوازي ..."

(2) سؤال التنظيم الطليعي: الحكيم قائد ثوري وليس اكاديميا يخلق في الهواء او صحافيا يعلّق على الأحداث، فقد افنى عمره في معمعان بناء حركة ثورية، بدءاً بالقوميين مروراً بالجبهة الشعبية عرجا على حزب العمل الاشتراكي العربي، كتجارب حدثية لا تميز ديني أو جنسوي أو عرقي فيها وتوحدت في شخصية الحكيم القيادة الحزبية والزعامة الجماهيرية في آن وهذا نادر الحدوث. وفي مرحلة صعود عبد الناصر لم يوافق على حل حركة القوميين قائلا "عبد الناصر قومية الدولة اما نحن فقومية شعبية" وعندما اقترح عليه القذافي

الاقامة في ليبيا "انت اكبر من الحلقة الفلسطينية" رد "ألويتي فلسطين" ونصح بعدم تغطيس الجيش الليبي في رمال تشاد. وعلى مسمع الرئيس صدام لم يخف عدم تأييده لاجتياح الكويت. ولكنه زاره في بغداد أثناء الحصار خلافا للرجبة السورية. وقال له الرئيس الاسد "انت قومي مخلص" بعد أن توقعت بعض الاوساط طرده من سوريا فأطلق تصريحاً "انا عربي ومن حقي الاقامة في سوريا."

(3) السؤال الطبقي: باتت هويته اليسارية اوضح بعد عام 1967 واعتبر احد أهداف تأسيس الجبهة الشعبية "اكساب الثورة مضمونا طبقياً ثورياً."

ورغم حرصه على الوحدة الوطنية اشتبك مع نهج القيادة اليمينية دون توقف، وكان دائم الحفز لتوسيع نسبة العمال والكادحين في المستويات الحزبية الكادرية والقيادية، وقال "الحزب الماركسي يلتزم بمصلحة الأغلبية من المستغلين والمضهدين والتحرر والديموقراطية والعدالة الاجتماعية، اما التنظيم البرجوازي الصغير فسوف يفشل."

وقد امسك بالتحليل الطبقي والقضية الطبكية باعتبارها القضية الاولى في الماركسية، ولكنه ادرك ايضا طابع المرحلة التاريخية التحررية للشعب الفلسطيني وخصائص الوضع الطبقي في فلسطين.

(4) السؤال الديمقراطي، كسائر المثقفين التقدميين لقد انحاز للديموقراطية التي تنطلق من الحق في التفكير و التعبير والتنظيم والاختيار والمواطنة الامر الذي لم يكن بديهياً قبل نصف قرن، وبطبيعة الحال تجازوت رؤيته الطائفية والمذهبية والعشائرية والنصوص الجامدة وكل المظاهر الازموية التي نواجهها اليوم ولم يتورط في أي صراع عنيف داخلي ودفع ثمن هذا الموقف الصحيح والتبيل .

وتميز الحكيم بخاصية الاصغاء "كنا نذهب للاستماع اليه فيستمع الينا" (الشاعر درويش) ولا يضيق صدره بالرأي الاخر، وليس مستبعداً ان يعانق من يختلف معه، ويلتقط فوراً أية فكرة سديدة او حتى مفردة مفتاحية وقد وقف سداً أمام اية نزعات لحسم التناقضات الثانوية بالعنف، أو شخصنة اية خلافات سياسية. ناهيك انه كان قوة دفع للتجديد القيادي والأدائي، ولم يكن صدفة ان يزكي ترشيح اكثر من كادر للمكتب السياسي فيما اعمارهم لم تصل الثلاثين، كما أنه لم يكن اميناً عاماً لحزب العمل الاشتراكي وتنحى طوعاً من قيادة الجبهة الشعبية وقد تبادل الرأي مع أحدهم عندما أصر الأخير "ان الديمقراطية تعني اول ما تعني

المبادرة، فالتاريخ كله مبادرة جماعية، اما عقد الاجتماعات والمؤتمرات فهي تكتسب اهميتها عندما تأتي لتنظيم هذه المبادرات الناجحة ودون ذلك يموت كل شيء والمؤتمر يعيد انتاج الفشل والازمة."

### سؤال التحول اليساري

لقد انطلق من امكانية تحول حركة ديمقراطية ثورية، كأحد شرائح البرجوازية الصغيرة، الى مواقع الاشتراكية الماركسية. وفي هذا السياق دارت جدلية، البعض عارض التحول وغادر، والبعض قال بتعذر ذلك وانشق وثالث قاده الحكيم بتوفير شروط ومتطلبات التحول، وتجلي ذلك فيما أصبحت عليه الجبهة الشعبية وحزب العمل الاشتراكي وفروعه.

وكرس جهوداً مضيئة للعبئة الفكرية اليسارية وإنتاج مقاربات يسارية وتأسيس مدرسة كادرية وايضاً دورات للبدان الاشتراكية كما كان للسجون دورها التثقيفي منذ عام 1970 عندما أعلن الحكيم "لقد انتقلنا لمواقع الماركسية - اللينينية" وكان هذا المعيار الاول في التحول والشرط التنظيمي كان المعيار الثاني بتركيم بنية متماسكة صلبة، دينامية، منتشرة في كل مكان، قادرة على تفريخ كادرات باستمرار وتمتع بعقل دياكتيكي في الممارسة وحل التناقضات.

والشرط السياسي "لا ينبغي ان ينتهك التاكتيك الاستراتيجية ولا ان تنتهك السياسة الايديولوجيا" كتب. والامساك بقانون توسيع معسكر الأصدقاء وتقليص معسكر الأعداء، ومتابعة المتغيرات "لأن التعاسة في السياسة هي عدم تمثل المتغيرات" (لينين). وجهده كان استثنائياً في صياغة برامج الحركة والجبهة واستخراج تكتياتهما، وأعجبته مقولة لينين عن "اللحظة المناسبة" "وأمس لم يحن بعد" وغداً يكون قد فات الآوان... و مسيرة الجبهة السياسية اجمالاً انما انطبعت بتفكير الحكيم واجتهاداته. والشرط العملي بالانخراط الفعلي في الممارسة المجتمعية بكافة حقولها وفي المقدمة منها مسيرة المقاومة ومعاركها ومحطاتها حيث سقط للجبهة أكثر من 2500 شهيد وأكثر من 40 ألف اسير وكان لها اسهاماتها في الحقل الثقافي والنقابي.

والشرط الاجتماعي النسوي، اذ مشكوك فيه وصيغة يمينية ان تكون المرأة مجرد ديكور او نسبتها ضئيلة في التنظيم اليساري فيما هناك نظام هيمنة ذكوري يقهر المرأة كنوع. ومن الطبيعي ان يولي الحكيم اهمية مضاعفة

لاشراك المرأة وتحريرها فهي "مضطهدة المضطهدين" يبيل وفي نفس الوقت تتمتع بكل المزايا التي تؤهلها أن تكون شريكا كاملا في صنع الحضارة الانسانية والنضال الفلسطيني . "المرأة تستطيع تأدية كل المهام" (غيفارا).

وكانت نسبة المرأة نحو 17% في الجبهة بينما كانت اكثر من 25% في الداخل، في عقدي صعود الجبهة ما قبل اوسلو. وقد تجاوزت الجبهة الخطاب الليبرالي عن المرأة والقوانين الى بناء امتدادات وصفوف كادرية نسوية لها دور ملموس في النضال يجمع الخطاب التحرري والخطاب الجندري في آن، ويخوض نضالات ويتجشم تضحيات ويكتسب مهارات الصراع... وهذا كله تجسد في تعبئة يومية وبرامج تعظم من وزن المرأة ودورها، انعكاسا للمنظور اليساري الذي يقول "ان قضية المرأة ليست مجرد علاقات انتاج وملكية خاصة، بل وهناك قهر قومي وقهر ذكوري وثقافة رجعية تنظر لها بدونية، لمجرد كونها امرأة وحسب.

لقد أسس الحكيم النهج وهناك من سار عليه. وتأسيسا، لقد صنع الحكيم مقطعا تاريخيا ابقاه حيا في قلوب محبيه وذاكرة التاريخ. كان علامة بارزة على درب التحرير والنهضة والديموقراطية والاشتراكية والوحدة. وتحقيق أهداف هذا الدرب انما هي مهمة الاجيال التالية. فدوره كان قراءة للحاضر بأفق المستقبل. قاتل بشرف ورحل بشرف.

## كلمة في ذكرى استشهاد مصطفى الزبري (أبو علي مصطفى)

دون مقدمات، المفتاح في فهم شخصية ودور أبو علي مصطفى هي أنه تمثل بعمق دور الفرد في التاريخ، فهو من ناحية الجوهر، استجابة لتطلعات الجماهير وقضاياها العادلة، وفي غمرة الممارسة المتشعبة تبلورت شخصيته ورؤيته، فهو براكسيس أسوة بالقادة الكبار. فلم يبدأ كبيراً أو خبيراً، إنما تفاعلت إرادته ووعيه مع الفعل المتصاعد، فكان فاعلية وتجسيداً لمفردة مركزية في المنظور الماركسي، فاعلية الفرد، فاعلية الجماعة الثورية، فاعلية الشعب. وان لم يكن قد اطلع على المنظومة الفكرية للماركسية في البدايات، غير أنه انهمك في دراسات مثيرة لاحقاً، وبتدرج تنامي دوره واتسع. وتناغمًا مع صيرورة الواقع والمهام تنامت صيرورته ومسيرته، فلم يتخلف عن الدور المناط به ولم يغتر، "اذ ليس ثمة ما هو أسخف من الرضا عن النفس" (لينين).

وسواء انخرطه في العمل الحزبي ما قبل هزيمة حزيران 1967، وما صاحبه من مهام نوعية، ذلك أن القوميين العرب مبكراً، وتحديدًا عام 1957 "راحت بعض الامتدادات في الضفة الفلسطينية تتدرب على السلاح وتخزين السلاح" (أديب عساف)، الأمر الذي تبلور أكثر مع ولادة التنظيم الفلسطيني في الحركة بعد زيارة الدكتور وديع حداد لقطاع غزة عام 1963، واتفاق الحكيم الدكتور جورج حبش مع الرئيس جمال عبد الناصر على تدريب كادرات من الحركة في قاعدة أنشاص العسكرية عام 1964. وتماشياً مع ذلك قام أبو علي بعدة جولات استطلاعية سرية داخل أراضي 48.

وذاً على هذا النهج قام بتأسيس أول قاعدة تدريبية في الأغوار بعد هزيمة حزيران، ولم يكن لديه من الإمكانيات سوى الإرادة الثورية "لولا ان يقال عني انني إرادوي لقلت يمكن عمل ضعف ما نعمل" (الحكيم). حيث اجتمعت قيادة نحاسية في الأردن، وكانت إحدى قراراتها تأسيس قاعدة الأغوار التي لولا وجود قاعدة عسكرية عراقية في الجوار رأسها ضابط من القوميين العرب لما توافر الحد الأدنى من الطعام والعتاد. ومن هذه القاعدة التدريبية تسلل عشرات الفدائيين للوطن بما فيهم أبو علي الذي أمضى بضعة أشهر في جبال رام الله إلى أن انسحب عائداً للأردن. وفي تلك المرحلة الجنينية لم تكن قد توافرت خبرات وتصورات واضحة

حول التخفي الذي أجاده لثلاثة أعوام محمد الأسود الذي استشهد في غزة عام 1972، وظاهرة أبو منصور التي عمرت في أرياف الخليل فترة أقصر.

وشارك أبو علي في المؤتمر الأول للجهة الذي انعقد في آب 1968 بينما كان الحكيم في السجن السوري، وانطلقت طاقاته وأهم مزاياه "أنت تعرف سر قوتي فأنا لا أضن بنفسي" (دزريجنسكي، المرشح للمكتب الساسي للحزب البلشفي الذي استشهد في ردهات الكرملين فيما كانت ساعات عمله اليومي تقترب من العشرين). وهذا كان حال الشهيد أبو علي الذي لم يبخل بوقته أو جهده، بخلفيته الفلاحية وتعليمه المحدود. فهو ليس من حملة شهادات الدكتوراة والاختصاص، ولكنه انغمس في تثقيف نفسه إضافة للثقافة الحزبية التي تلقاها "كلما ارتفع الموقع القيادي تطلب المزيد من الثقافه" (وزير الدفاع الفيتنامي تشينه الذي روح أبو علي كتابه في بعض الأوساط). وانتقل من مثقف ريفي إلى مثقف مديني (غرامشي)، مثقف الكله التاريخية التقدمية، في ترجمة حية لكلمات لينين "كلما استأنسنا الخير في كادر قنا بتدوير مهامه وتحويله لمحترف"، فانتقل من العمل السري إلى العمل العلني، ومن المهام التنظيمية للمهام القتالية، ومن النشاط في أوساط الشعب إلى قائد للشعب، ومن النشاط الداخلي إلى النشاط الوطني دون أن تضعف كلمات هوتشي منه التي تشرها في عقله وروحه؛ "الحزم يعني المزيد من الجهد والمزيد من الإنجاز".

وعلى هدي مدرسه الدكتور جورج حبش الاستراتيجي بلا خدوش وصاحب الرؤية المتميزة دون مساومة الوفي لكلمات ماركس "إياكم والتنازل النظري، إياكم والمساومة على المبادئ"، قام الشهيد أبو علي بقراءة التناقضات، الأساس والرئيس والثانوي والمؤقت وجدليتها ووسائل حلها، لكن دون التباس. فالهدف الوطني هو "فلسطين ديمقراطية دون تمييز ديني أو جنسي أو عرقي، والهدف القومي دولة الوحدة الديمقراطية الاشتراكية".

ولأنه من الحراس القدامى كان عليه اجتراح البطولة وقوة المثال، فهو من زمن السحر، زمن التأسيس، فتكلل بالبطولة وقوة المثال وبالشجاعة والجرأة "الجرأة اولا، الجرأة ابدأ" (دانتون)، جرأة ثمنها الدم والروح. وحقا كانت روحه على كفه في سنوات المجد الشامخه في الاردن ولبنان، فهو من الذين تسلحوا بمقولة "يُصنع التاريخ من فوهات البنادق" (ماو تسي تونغ) و"ان طبقه لا تتعلم حمل السلاح تستحق ان تعامل معاملة العبيد" (لينين).



صحيح أن هذا الطريق لم ينتصر في فلسطين ولكنه انتصر في لبنان ومن قبله في فيتنام، ناهيكم أن العسكرية الإسرائيلية تتردد في اجتياح غزه كما تنشر الصحافة الإسرائيلية، أي بات لقطاع غزة المحاصر والمجوع قوة ردع ما.

\*\*\*\*\*

لوقوف في الصف الأممي استحقاقات، وقد تبوأ موقعه في الصف الأممي. وعلى امتداد العقود، وحيثما كان وفي أشد لحظات القصف في عمان أو الجنوب اللبناني، كان على خط النار "الفريق الأفضل يكون حيث الظروف أكثر صعوبة" (ماو تسي تونغ). وهناك من بث قلقاً عن وجود المقاومة في سوريا، فوقع في شرك كبير حين عاد للوطن "عدنا لنقاوم لا لنسأوم" فالسلطات الاستعمارية لم تمهله طويلاً.

وفي سنوات الانتفاض الثاني مع بداية الألفية الجديدة، تجاوز عدد الذين تعرضوا لاغتيال ممأسس 510 ناشط وكادر وقيادي، وكان بين اهم القادة، وكأن التاريخ وضعه في المقعد الامامي سواء حيا او كهلا، اما المداد فكان هذه المره دما وروحاً. وكانت جنازته مهيبه. ومثلها كانت مسيرته ومصداقيته كانت جنازته، فقد احتشدت كل الالوان في لحظة رحيله.

للقيادة الثورين خصال ذهنية وأخلاقية وايدولوجية تجعلهم يستشعرون أكثر من غيرهم ويتفاعلون أسرع من غيرهم ويفعلون أكثر من غيرهم. "الثوري حاله ثورية" (لينين) وعندما تتفقم الأزمات نتقدم شخصيات ملحمية يتوحد فيها "الإيمان الثوري وخطة العمل" (كاسترو) ويلتحم فريق ثوري "أعطني دزينة عن الثورين أقلب روسيا رأساً على عقب" (لينين)، وهم يتأهون في مشروعهم التحرري بل التحريري بلغة فرائز فانون تحركهم أحلام الشعب الكبرى "والعمل المنمّم" (لينين)، ولكن في الاتجاه الصحيح. "اذ ما فائدة الركض ان لم تكن على الطريق الصحيح" (مثل ألماني). بيد أن المسيرة الفلسطينية جاءت "حافلة بالأخطاء والخطايا" (الدكتور حبش)، وكان لذلك أثمان باهظة على كل الصعد.

كانت الشروط الموضوعية بعد 48 و 67 وما تعرض له الشعب الفلسطيني من تطهير عرقي واقتلاع في الحالتين، حافزاً لتجديد الخارطة السياسية الفلسطينية والانطلاق، أما وقد أتت مرحلة أوسلو التي تستفز الأموات والأحياء، ولكنها خدرت الناس أيضاً، فجاءت الاستجابة غير الاستجابة المنتظرة. "تأتي لحظات في التاريخ اما

إن تتخبط فيها أو تبقى في معزل" (إنجلز). فالذي استجاب أكثر من سواه هو الإسلام السياسي المقاوم، أما اليسار المقاوم فقد انكمش وتبدد تركيبه واستغرقتة أزمة بنوية لم يخرج منها لليوم.

غير أن الخيانة التي شغلها اليسار القومي الذي يمثله الشهيد أبو علي كان له حيز أصيل، ولم تنطفئ فيه الجدلية (لماذا حصل، وما السبب الأساس، وكيف يمكن تجاوز ذلك، وما الخطوة الأولى) عاصفة من الأفكار التي تكبحها مستويات فاشلة، وظروف مجافية وتحديات نظرية تستوجب القبض على التحولات "فالتعاسة في السياسة هي عدم تمثل المتغيرات" (لينين).

وما يبشر أن التاريخ اختبر قوى اجتماعية ورؤى فكرية سياسية ولكنها لم تشق طريقاً للخلاص، علماً أن سقوطها القيادي لا يسقط دورها التاريخي، إذ لم ينفك لها دور، بما يخرض موضوعياً لصعود قوى اجتماعية ورؤى فكرية جديدة، وهذا بدرجة أو أخرى ينسحب على الوطن العربي بجممله.

ان النموذج الذي يمثله الشهيد ما برح يحافظ على راهنته، فهو ليس ساموراي، والشهيد ان لم يكن من الفريق المؤسس لحركة القوميين (د.حبش، و د. وديع، د. أحمد الخطيب الكويتي، والجبوري العراقي، وشبل الفلسطيني) فقد كان من الفاعلية والاستجابة بالقدر الذي جعله من الفريق المؤسس للشعبية وواكب الانتقال الايديولوجي من الديمقراطية الثورية الى الماركسية اللينينية في مضامينها التحررية نحو "التحرر الشامل للإنسان" (ماركس).

كان الحكيم البوصله والشهيدان وديع وابو علي واليماني وكنفاني، كلهم ساروا على الدرب وجسدوا الامتداد الاكثر وفاء والتصاقاً. اما الامتداد الديالكتيكي لكل هذه النماذج فلم يلد بعد. وهذه القبضة الديالكتيكية (علينا ان نكون د يالكتيكيين) كاسترو، هم برسم المستقبل. وتربتها القوى الصاعده في المجتمع التي تربط اللحظي بالمستقبلي وتبرهن على موهبة واقتدار وتسترشد بكلمات الحكيم (لا ينبغي ان ينتهك التكتيك الاستراتيجية ولا ان تنتهك السياسة الايديولوجية) في اطار مشروع عربي نهضوي يمهّد لازالة كل الاغترابات.

وشكراً

# الفصل السادس: بين السياسة والإعلام

## هل فنزويلا ذاهبة لحرب أهلية؟ □ كيف يمكن قطع الطريق على احتمالية الغزو العسكري الأمريكي؟

مقدمة:

في إحدى لقاءاتي قبل سنوات مع السفير الفنزويلي السابق لويس، ادار شاشة الحاسوب لكي أرى وأسمع ما خاطب به الرئيس الراحل هوغو تشافيز، قائد الثورة البوليفارية، الرئيس الأمريكي بوش الابن باللغة الانجليزية "السيد الرئيس أنت حمار حمار" وأكل بالإسبانية "إذا خطر ببالك يوماً أن تغزو فنزويلا سأكون بانتظارك في الأدغال، أنت رجل خطير وجبان ومجرم ومدمن كحول، إنني أعرفك جيداً."

مثل هذه الإرادة الصلبة المتحدية كانت إحدى عوامل تراجع البيت الأبيض الذي كان قد أرسل بجافل قواته فاحتلت أفغانستان ومن بعدها مناطق واسعة في العراق. ولما رفض الرئيس السوري بشار الأسد اشتراطات كولن باول قائد الجيش الأمريكي، كانت الفرصة ذهبية بعد اشتعال أزمة عام 2011 لدعم وتسليح أكثر الاتجاهات تطرفاً (داعش) باعتراف هيلاري كلينتون ومعها حكام أنقرة وعواصم الخليج، وبالتالي التمدد العسكري الأمريكي في مثلث التنف وشرق الفرات. وكان يمكن مضاعفة قوات الاحتلال الأمريكي لولا انتصارات الجيش العربي السوري والحلفاء الذين اختل ميزان القوى الاستراتيجي لصالحهم بعد تحرير مدينة حلب وما تلاها.

ومنذ ثلاثة عقود تقريباً، لم يتردد البيت الأبيض في إرسال جحافل لاجتياح بنما، وراح يرغد ويزبد أن الدور على كوبا. في كوبا كان ثمة قائدٌ فريد هو فيديل كاسترو وقيادة ثورية متفولدة، فأعلن فيديل "نُغرق الجزيرة في البحر ولا نسلها للإمبرياليين"، أما السفير الكوبي في دمشق فأعلن في لقاء مع وفد قيادي فلسطيني "لقد بنينا هافانا تحت هافانا وسلحنا 2 مليون مواطن لحرب طويلة الأمد." حينها تراجعت الإدارة الأمريكية

وفي ذاكرتها فشل عملية خليج الخنازير غداة انتصار الثورة الكوبية حين قاد القتال فيديل وجيفارا وراؤول الأكثر مراساً في حرب العصابات.

رحل فيديل وحل محله راؤول الذين أنهى مهامه كرئيس وأعقبه الأكاديمي ميغل دياز، لكن النهج هو النهج، والخيار هو نفس الخيار، إلى درجة أن تعلن كوبا التعبئة العامة دفاعاً عن الثورة الفنزويلية.

### سردية- المواطن تشافيز- سرالعداء الأمريكي للثورة البوليفارية

أصاب ماركوزة صاحب كتاب الإنسان ذو البعد الواحد عندما كتب "أن الثورة المضادة لا تتوانى عن بذل جهود منظمة للحيولة دون وقوع الثورة" ولكنها كما يبدو تبذل جهوداً مضاعفة بعيد انتصارها "فهي تحلم باستعادة السلطة" (لينين).

ما أن انتصر هوغو تشافيز في انتخابات عام 1998 راحت القوى المضادة ترمس الخطط وتبيء الإمكانيات للإطاحة به. وتشافيز انتقل بسرعة من ديمقراطي ثوري تحرري إلى مواقع الماركسية اللينينية للتخلص من كل أشكال الاعتراض "من أجل التحرر الشامل للإنسان" (ماركس). وكان نموذج الأب الروحي للثورة في أمريكا اللاتينية فيديل الذي كان أيضاً ديمقراطياً ثورياً قبل أن يصبح ماركسياً لينينياً. وكلاهما فهم خصوصية بلاده، والمشهد العالمي في زمانه "من الفكر المجرد إلى الملموس الخاص" (ماركس). "وتحليل ملموس للواقع الملموس" (لينين). وبكلمات ماو تسي تونغ "لو حدثني شيوعي صيني عن الماركسية دون أن يربطها بالواقع الصيني، أعتبر كلامه فارغاً".

لقاءات مباشرة عديدة جمعت فيديل وتشافيز وخبراء كوبيين كثر استقدمهم تشافيز في حقل الطب والتعليم والرياضة والأمن إلى مراكز المدن الفنزويلية وأكثر البقاع الريفية نأياً.

ولكن ما أن أمسك تشافيز بالسلطة اصطدم بحقائق الإرث الثقيل للعهد السابق، ففي إطار الليبرالية الجديدة لحكم كارلوس أندريس ومن سبقه تفتى الفقر في الإرياف فتقلص الفلاحون بنسبة 90% وزحفوا لأحياء البؤس في المدن، الأمر الذي أفضى إلى تقهقر الزراعة إلى مجرد 6% من الإنتاج القومي، وارتفاع نسبة الفقر

إلى 65%، أما العمل الهامشي غير الرسمي فبات 53% وانتشرت أحزمة الصفيح والجريمة المنظمة والفساد. غير أن النخب اليمينية الحاكمة والطغمة العسكرية الأوليغاركية تضخمت ثروتها مستفيدة من الفترات الذي تحصل عليه من تفريطها بالثروة النفطية التي احتكرتها الشركات الأجنبية. أما المجتمع المدني من نقابات عمالية وطبقة وسطى وحركة نسوية فكانت ضعيفة وفي غاية الهشاشة (المرجع كتاب غيرغوري وليبرت، تغيرات فنزويلا).

وبالنسبة للسياسة الخارجية حدث ولا حرج، فهي تماثل مع إملاءات البيت الأبيض وجهاز مخابراته CIA في انتهاك واضح للسيادة القومية والكرامة القومية. ولهذا لم يكن صدفة أن يخصص هوغو تشافيز كتابه الأزرق للتعريف بثلاث قادة كبار في القرن الثامن عشر (سيمون بوليفار، سيمون رودريغيز، أتيكيل تامورا)، وكان في بدايات شبابه. وقد راجعت هذا الكتيب وأضفت عليه نصوص أخرى لهوغو تشافيز بعد أن أصبح قائداً ورئيساً، بما في ذلك كلمته في الأمم المتحدة عن فلسطين.

ولهذه الأسباب وسواها فاز تشافيز بالانتخابات الرئاسية عام 1998 وفاز رفاقه بـ 125 من أصل 131 في الجمعية الدستورية عام 1999، بما سلحه بأوراق القوة للتخلص من النخب اليمينية النافذة والقضاة الفاسدين وصياغة دستور جديد. وأصبح اسم فنزويلا (جمهورية فنزويلا البوليفارية) نسبة إلى بوليفار الذي حرر عدة بلدان في أمريكا اللاتينية. وجاء تأكيد الدستور على استقلالية القضاء، والمساواة بين جميع المواطنين أمام القانون دون تمييز عرقي أو جنسي أو في العقيدة، كما إلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة، واعتبار العمل المنزلي نشاط اقتصادي يخلق قيمة مضافة. وفي تجاوز صريح لليبرالية الجديدة شدد الدستور "على أن الدولة مسؤولة عن تعزيز الصناعة الوطنية والزراعة والفروع الأخرى" وخصصت استثمارات كبيرة في هذا الاتجاه. وجاءت كلمات الشاعر الفنزويلي علي بريميرا موحية "حقيقة فنزويلا لا ترى في الحى الراقي في كراكاس، بل في التلال حيث الشعب ومتاعبه" فكانت الثورة البوليفارية تعبيراً عن تطلعات الشعب ومتاعبه.

\*\*\*\*\*

لم تمهل الثورة المضادة السلطة الثورية طويلاً ففي نيسان 2002 قامت مجموعة من الضباط يدعمهم رأس المال المحلي والمخابرات الأمريكية والاطراف الصهيونية (كما جاء في كراسة الانقلاب بالانجليزية) بمحاولة إنقلابية لم تستمر سوى يومين، حيث خرجت الملايين إلى الشوارع ومعهم قطاعات عسكرية بينهم الجنرال راوؤل بادول، والجنرال لويس كارنيروا، رفضاً للانقلاب. أعيد تشافيز من جزيرة عزله إلى القصر الجمهوري ومهامه القيادية، وبذلك تأكد المنطق الماركسي أن القوة هي صناعة التاريخ، لكنها ليست بكلمات ماو تسي تونغ "التاريخ يصنع من فوهات البنادق" بل من قوة الجماهير في تماهي مع كلمات الدكتور جورج حبش "الجماهير هي صناعة الثورة وهي حاميتها" الشيء الذي دفع القيادة التشايفية خطوة أخرى للأمام من ناحية التوجه اليساري بإعلان برنامجها الاشتراكي في انتخابات عام 2005.

ملاً تشافيز بشخصيته الكرزمانية وحيويته الفائقة والتحامه بالقواعد الشعبية ومواقفه الجسورة حيال القضايا العالمية، ملاً الدنيا ووسائل الإعلام، وأصبح منارة ثورية وبوصلة للثوار، وامتداداً ديكالكتيكياً لفيديل كاسترو، وناطقاً لا يعرف التردد في تحديه الإمبريالية وأدواتها. كتب بليخانوف في دور الفرد في التاريخ قبل قرن وعقدين "أن الأفراد العظام في التاريخ إنما يمثلون تطلعات الجماهير" ومن هنا تأتي قوتهم. وعلى هذا النحو كان تشافيز ولكنه ما كان ليكون لولا أن مزاياه الشخصية القيادية استجابت على نحو فعال لهذا الدور واستحقاقاته وهنا تتجلى جدلية الذاتي مع الموضوعي.

وبفوزه في انتخابات 2005 على قاعدة برنامجه الاشتراكي زاد عداء رأس المال الإمبريالي والمحلي له. وبناء على اقتراح السفير الفنزويلي القانوني الأسبق الذي أخبرني أن تشافيز معجب كبير بعبد الناصر، وهذا لاحظته في بعض المقالات، كتبت له رسالة ترجمتها للإسبانية وسألت السفير، بم أخاطبه الرفيق القائد أم الرئيس؟ أجبني أنه يفضل صفة المواطن هوغو تشافيز. فأشرت إلى أن التجربة الناصرية اعتمدت على الفرد فحلت الكاريزمة محل الحزب وهذا خلل كبير، كما أن التعاونيات كانت تعاونيات اشتراكية دون اشتراكيين وهذا خلل ثاني. وشددت على بناء الحزب الثوري والتعبئة بالفكر الاشتراكي والإفادة بشكل جدي من التجربة الكوبية، وأن الجيش هو الذي انقلب على اللندي في التشيلي، وأن تحالف البورجوازية الفرنسية وجيشها مع البورجوازية الألمانية وجيشها، هو الذي ذبح كومونة باريس عام 1870، ولم يكن قد تأسس الحزب الاشتراكي الموحد بعد.

وعام 2006 تأسست المجلس الشعبية المحلية، وفي عام 2010 تأسست قيادة الثورة (للمليشيات البوليفارية من العمال والفلاحين والشباب والفئات المهمشة والشعبية).

### المنجزات الحقيقية للثورة البوليفارية

إنها ثورة وليس مجرد انتفاضة، ذلك أن الانتفاض نهوض شعبي يطيح بالطبقة الحاكمة ونخبها، أما الثورة فالانتفاضة إحدى مراحلها أما المرحلة التالية فهي تغيير جذري في علاقات الإنتاج وحلول سلطة طبقية بديلة تمثل (كلمة تاريخية) بلغة غرامشي تتوافق فيها البنية الفوقية مع البنية التحتية الأمر الذي تحقق في الثورة الفرنسية بطابعها البرجوازي عام 1879، وثورة أكتوبر الروسية عام 1917، والثورة الصينية عام 1949 بطابعها الذي تجاوز الرأسمالية وأسس لزمان تاريخي جديد.

والثورة البوليفارية، شأن الكوبية، هي تجسيد حي لمفردة براكسيس الغرامشية، حيث جدلية الفكر والممارسة، فهما لم تعتمدا صيغاً نظرية جاهزة لا سوفيتية ولا سواها، وفي الحالتين كان لكل منهما قائد كرماتي كبير تطور في معمعان النضال والتحديات مثلها ترك بصماته الدامغة. لقد قطعنا شوطاً طويلاً وبنظرهما أشواط أطول، الأولى لترسيخ وجودها، والثانية لإحراز قفزات تنموية.

وإذن أضافت الثورة الكوبية نظرية البؤرة للتراث النظري ووصفها المفكر الفرنسي التوسير (نظرية الممارسة) فالثورة البوليفارية أضافت الجديد أيضاً وهي تقود معركتها للبرهنة على أن سلطة يسارية فائزة عن طريق الانتقال السلمي قادرة على الاستمرار.

"السلطة هي الهدف المركزي لكل ثورة" (لينين)، وبعد الفوز بها تصبح أمام امتحان الوجود، ولهذا كتب لينين مقالته "هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة." أما المنظرون البرجوازيون فيشككون على الدوام بقدرة اليسار الماركسي على الحكم.

وأكثر من ذلك، فأثناء دراستي لعلم السياسة وتدريسي المحدود لهذا العلم، لاحظت أن مضامين نظرية التبعية التي صاغها منظرو رأسمالية الشمال تقوم على خلاصة مفادها "أنتم في عالم الجنوب الذي خضع للكولونيالية



مصاوبون بعجز بنيوي يمنعكم من التطور وليس أمامكم سوى تنفيذ توصيات البنك الدولي وصندوق الدولي ونصائح خبراء الشمال." وهذه النظرية أو الفرضية لم تنفك تُدرّس في الجامعات دون أن تأخذ بالحسبان النموذج الصيني ويقدر ما الهندي والماليزي والبرازيلي الذي زعزعها.

ومنذ أول حكومة اصطفى تشافيز شخصيات يسارية من خارج النخب التقليدية واستمر هذا النهج في زمانه وبعد رحيله. ويمكن القول أن اللون اليساري تعمق أكثر فأكثر، وكلمة ماو تسي تونغ حاسمة "احمر وكفو" أما إذا كان الأحمر غير كفو فهو سيأتي بالكوارث. "اذ لا يكفي أن تخلع لقب الطليعة على نفسك، إنما أن تعترف الجماهير بذلك" (لينين)، وهذا امتحان حقيقي لكل قيادة يسارية وسلطة يسارية.

وبعد الحكومة اليسارية نص دستور جديد على أن تملك الدولة الثروة النفطية. وفي إطار توطين النفط وضعت الدولة يدها على شركات النفط التي كانت تساهم بأقل من 5% في موازنة الدولة فأصبح النفط يساهم بعد التأميم بـ 70% من الموازنة، بما أثار غضب رأس المال المحلي والعالمي الذي دأب على سرقة الثروة النفطية واقتسام الغنائم. وكان على الحكومة التشايفية إحراز نجاحات تنمية واجتماعية في بلد تنيخ على صدره مصاعب وتحديات شتى.

كان ثمة نقص بمليون وحدة سكنية، فأنشأت الدولة 1.1 مليون شقة وزعتها على الذين يسكنون في البرايات والعراء بمساعدة شركات صينية. كان ثمة نقص مريع وإخلالات بنيوية في القطاع الصحي دون تأمينات تذكر، فأقيمت عشرات آلاف العيادات (بعثة الحي الفقير) بأطباء كوبيين وفنزويليين، الأمر الذي انعكس في ارتفاع متوسط الأعمار من 70 سنة إلى 73 سنة وهبوط معدلات وفيات الأطفال من 21 لكل ألف إلى 17 لكل ألف، فيما شمل التأمين الصحي قطاعات شعبية واسعة. وقانون الضمان الاجتماعي العضوي المرن ومتعدد القابليات الذي زاد من الفائدة لمن هم في سن التقاعد، وبدعم حكومي.

ولحاربة سوء التغذية تقوم الدولة بتأمين سلة غذائية بأسعار منخفضة تتراوح بين 30% - 50% من أسعار السوق لـ 60% من العوائل الفنزويلية. ومنذ 2006 كفل قانون الضمان الاجتماعي للنساء غير العاملات 80% من الحد الأدنى للأجور كما تأسيس بنك لتقديم قروض للنساء دون فائدة.

وفي حقل الصناعة ، لم تكتف الدولة بوضع يدها على صناعة النفط . بل واستثمرت الكثير لتصنيع مشتقات النفط وأنايب وحاويات النفط بدل الاكتفاء بتصدير النفط الخام كما كان الحال من قبل ، نكحوة تساعد على التخلص من التبعية، بل واستخدام عوائد النفط لدعم التعاونيات والمشاريع الإنتاجية والقطاع الصغير.

وكانت الخطة الاقتصادية مضاعفة الإنتاج الزراعي من 6% إلى 12%، غير أن ذلك لم يتحقق لأكثر من سبب، بما كلف البنك المركزي مليارات الدولارات سنوياً لتغطية أسعار الواردات الغذائية، في وقت تسارع القطاع التجاري ثلاث مرات. وما قيل عن التغلب على المرض الهولندي، أي تنمية قطاعات اقتصادية وإهمال قطاعات أخرى، حصد القليل من النتائج. بما يستدعي التعلم من التجربة التنموية الصينية المعروفة بالتوازن وكذا الكويية. لكن دون تجاهل الإصلاح الزراعي للملكية الأرض الذي وفر قطعة أرض لمئات آلاف العوائل وتأسيس عشرات آلاف التعاونيات الزراعية بإدارة من التعاونيين أنفسهم. وغيرغوري وليبرت يستخدم رقم 200 ألف تعاونية تضم أكثر من مليون مواطن، وسحب ذلك على التعاونيات الصناعية للإنتاج البضاعي، ودعم كل ذلك من الدولة.

و على صعيد المدارس البوليفارية فقد انتشرت في طول وعرض البلاد مع تقديم ثلاثة وجبات مجانية، علاوة على الأنشطة الرياضية والثقافية، بما أدى الى تقلص ظاهرة التسرب التي كانت طاغية في العهد السابق، إضافة لمدارس محو الامية للكبار، وصولاً الى (ربط التعليم بالعملية الإنتاجية) كما جاء في الدستور وتطوير المنهاج التعليمي على قاعدة (التطبيق و الدمج) وانشاء الجامعة البوليفارية التي اسست فروعها في ارجاء البلاد.

ثمّة منجزات ملهوسة في حقل التعليم لكنها منجزات بحاجة لمزيد من المنجزات في زمن القفزات العلمية وتسارع الدورة العلمية، ودون قفزات علمية يتعذر إحراز قفزات تنموية.

وقد لخص الشاعر علي بريميرا هذه العملية الضخمة للثورة البوليفارية بالقول "دعونا نصنع التاريخ، ابحث عن الروح الكفاحية الداخلية لتحويل العالم" منسجما مع كلمات ماركس "الفلسفات القديمة فسرت العالم بينما مطلوب تغييره"

اما على صعيد الديمقراطية و السياسة الخارجية فهذا اتطرق له باقتضاب في العنوان التالي:

## لماذا ناصبت الإدارة الأمريكية الثورة البوليفارية العداء؟

يستوثق كتيب (الانقلاب باللغة الإنجليزية) دور المخابرات الامريكية و الايدي الصهيونية و اليمين البرجوازي الفنزويلي في تشجيع الضباط الذين انقلبوا على الرئيس هوجو تشافيز 2002 . وهذه الايام يصرح كل من بولتون مستشار الامن القومي الامريكي و وزير الخارجية بومبيو ورئيسها ترامب ، و كأن فنزويلا مستعمرة امريكية ( على مادورو تسليم السلطة وان الشرعية الوحيدة للمعارض غوايدو و ان لا شرعية لمادورو و انتخابات ايار الرئاسية ، كما اعفاء العسكريين من اي عقاب اذا دعموا غوايدو ، و هنالك اتصالات امريكية مع ضباط كبار فنزويليين لدفعهم للانشقاق و الاطاحة بمادورو ) . و الاتحاد الاوروي بدوره منح مادورو مدة اسبوع لاجراء انتخابات برلمانية او انه سيعترف بغوايدو رئيسا شرعيا ومع مجموعه لا تينية منح مادورو ثلاثة اشهر لاجراء انتخابات عامة ، و تحت عنوان المساعدات الانسانية الامريكية تم ضبط اسلحة مهربة ، و اطلاق تهديدات امريكية سافره بالتدخل العسكري في تناغم مع تهديدات غوايدو . و كل يوم نتحفنا وسائل الاعلام بمعزوفات على نفس المنوال .

و يمكن تلخيص اسباب ذلك بالاتي :

1. اطاحت الثورة البوليفارية بالشريحة الطبقيه اليمينية المرتبطة بالراسمال العالمي . فهذه الشريحة كانت تحكم بالوكالة وهي تابعة تماما للاحتكارات الراسمالية و امت النفط و سارت في مشروع تنموي استقلالي حرر ثروات فنزويلا من نهب الحلف غير المقدس ( الراسمال المحلي و العالمي ) .
2. سارت الثورة البوفيارية في خيار مناقض للعمولة الراسمالية المتوحشة و نظرية الليبرالية الجديدة ، و تمردت على وصفات البنك الدولي و صندوق النقد الدولي و نظرية التبعية و "جمهوريات الموز" و الحديقة الخلفية لامريكا " وجعلت من الدولة المسؤول الاول عن التنمية و المسؤوليات الاجتماعية بما شكل صفقة قوية " لليبرالية الجديدة " ناهيكم انها وطدت علاقاتها مع الحكومات اليسارية في القارة اللاتينية و في المقدمة جزيرة الحرية كوبا كما مع روسيا و الصين و ايران تعريزا لسيادتها الوطنية و مناهضة لاحادية القطبية ، و وقعت تحالفا مع كوبا و بوليفيا مناهض للعمولة الامريكية، يحرکہا المشروع الكبير الذي بدأه بوليفار ، دون ان ننسى مواقفها الراسخة ضد غزو امريكا لافغانستان و العراق و مخططات تقسيم و تدمير سوريا ، و تجريم السياسات الاستعمارية الاسرائيلية في فلسطين .

وحسي هنا استقطاع جزء يسير من خطاب تشافيز في الامم المتحدة حول فلسطين عام 2011 ( ان حل الصراع في الشرق الاوسط يتطلب بالضرورة الانصاف و العدالة للشعب الفلسطيني ... ان الصهيونية تستخدم الالاسامية للابتزاز ... لقد تحول من عانى من الهولوكوست الى جلاذ الذي تمارسه الدولة الصهيونية ... لا يجوز ان نقف مكتوفي الايدي و نحن نشاهد الوحشية الصهيونية وهي تمارس الابارتهايد على الشعب الفلسطيني ... لنقرأ الوثيقة المعروفة بوعده بلفور التي منحت اليهود وطناً قومياً في فلسطين و تجاهلت قصداً وجود و ارادة سكانها .. لقد تفاقمت ماساة الشعب الفلسطيني عندما جرى طرده من اراضيه عام 1948 الذي جاء في اعقاب القرار المشؤوم و غير الشرعي 181 الذي اوصى بتقسيم فلسطين الى دولة يهودية على 56 % و دولة عربية ... منذئذ واصلت الصهيونية استراتيجيتها الاجرامية ضد الشعب الفلسطيني ... لا يمكن ان تقتصر حقوق الشعب الفلسطيني على حكم ذاتي محدود و بلا عودة اللاجئين الى ديارهم بناء على القرار 194 ... هذه الارض اسمها فلسطين و ستبقى فلسطين و عاشت فلسطين حرة مستقلة ذات سيادة ، و بكلمات الشاعر الفلسطيني محمود درويش ( على هذه الارض ما يستحق الحياة ) .

دلوني على زعيم عرب يحمل هذه الرؤية و ما عدد القيادات الفلسطينية التي ما برحت تمسك بها ؟ غير ان تشافيز يتشبث بمقولة ماركس ( اياكم و التنازل النظري ، اياكم و المساومة على المبادئ ) .

3. دور فنزويلا في منظمة اوپيك. ففيما تستهدف الضغوط الامريكية من خلال السعودية وسواها زيادة الانتاج بغية تخفيض سعر برميل النفط لضرب الاقتصاد الروسي و الايراني و الفنزويلي و الجزائري ، و تعظيم ربحية الشركات الامريكية ، كانت الحكومة الفنزويلية تنشط لعدم اغراق سوق النفط و رفع سعر البرميل ، في تناغم مع الروس .

و العولمة المتأمركة كما الهيمنة الامريكية لا تعترفان بسيادة الدول و حقها بثرواتها ، و ما تعترفان به فقط هو ان العالم سوق واحدة تحت نعال الاحتكارات المعولمة و الاملاءات الامريكية .

و يكاد السلاح الاقتصادي اليوم ، من حصار و عقوبات ، ان يكون السلاح الاول الذي تستخدمه ادارة ترامب لفرض هيمنتها و استنزاف البلدان التي تمرد عليها او تنافسها . ولا يهم هنا ان يموت عشرات الملايين جوعاً او لنقص الدواء ! و ما علينا سوى استذكار النموذج العراقي .

4. الديمقراطية التشاركية التي انتهجتها الثورة البوليفارية بديلا للديموقراطية التمثيلية الغربية . اذ لاكتنفي الديمقراطية التشاركية باجراء انتخابات عامة ، انما تذهب لتعزيز دور الشعب في اقرار سياسات الدولة و اجراء استفتاءات واقامة مجالس محلية ورقابة اجتماعية و جمعيات مواطنة و مشاركة واسعة للمجتمع المدني في مؤسسات الدولة ، وصولا الى الاحتكام الى الشارع .

صحيح ان هذه الصيرورة قيد التبلور ولكنها لا تنسجم مع الطبعة الغربية ( انتخابات برلمانية كل اربعة اعوام لتجديد سيطرة راس المال ) حسب التعبير الماركسي .

وعندما تحالفت عشرات الاحزاب ( 40 حزب و تجمع ) في الانتخابات البرلمانية منذ عامين ضد الحزب الاشتراكي الحاكم فازت باغلبية برلمانية .

وقد اتاحت لي الفرصة من خلال السفير الحالي ماهر ان اكتب رسالة للقيادة البوليفارية ، بعض ما جاء فيها ( ليس علينا ان نحصر تفكيرنا بالخيار البرجوازي البرلماني . لهم ديموقراطيتهم و لنا ديموقراطيتنا . وقد اسس لينين المجالس الشعبية تطورا لكونونة باريس ، ولنذهب لهذا الخيار باجراء انتخابات من القاعدة الى القمة تنتهي بمجلس عام هو اعلى من البرلمان ، و لهذه المجالس ان تحاسب و تعزل ممن انتخبها ، فذلك اكثر ديموقراطية من الالية البرلمانية البرجوازية ... ان معركة طبقية يدور رحاها . وكلمات كاسترو مرشدة ( نغرق الجزيرة في البحر ولا نسلها للامبرياليين )

ولاحقا جرى انتخابات رئاسية وسلطات محلية وبلدية وجمعية تأسيسية ، وكانت المشاركة عارمة و الفوز كاسحا اما المعارضة فقد انقسمت بين مشارك و مقاطع .

ولافت تماما ان ينتخب البرلمان غوايدو رئيسا وهو الذي تربى في احضان ودورات المنظمات غير الحكومية الممولة امريكا واوروبيا ، اما الانكى من ذلك فهو اعترافه انه نسق مع الامريكان للسيطرة على السلطة .

طبعلا لا يمكن تجاهل حجم التأييد الجماهيري له ، اما ان يذهب الى حد التلويح باستدعاء تدخل عسكري خارجي ، فهذا يتجاوز كل المحاذير . انه يبشر بغزو خارجي و حرب اهلية . وغير معروف لماذا لم ترفع جهة قانونية دعوى لمقاضاته . و امس الاثنين اطلق الرئيس مادورو اكبر مناورات عسكرية في تاريخ فنزويلا .

كيف يمكن قطع الطريق على احتمالية التدخل العسكري الامريكى؟

الذي يتحكم في البيت الابيض هو اليمين المحافظ، بل اكثر الرؤس تطرفا . وبعد هزيمة المشروع الامريكى في سوريا والعراق ولبنان ( حرب 2006 ) و فشله في افغانستان و تراجع النفوذ الامريكى في عدد من العواصم العربية ، من الطبيعي ان تلتفت ادارة ترامب للقارة اللاتينية . وجاء فوز الرئيس اليميني المتشدد في الانتخابات البرازيلية الذي فاز بنحو 55 % من الاصوات و المعارض حداد ب 45 % بما مجموعه 47 مليون صوت ( بصرف النظر عن التفاصيل ) ، ليفتح شهية ترامب . فمساحة البرازيل اكثر من نصف القارة اللاتينية وعدد سكانها يصل الثلث ، اما فوز اليسار في المكسيك فهو لا يعادل خسارته في البرازيل .

اما فنزويلا فهي في عداد " الهبة الكبرى " التي تحظى باكبر احتياط نفطي في العالم ، ناهيك عن ثروتها الجوفية من الذهب وسواه التي يسيل لها لعاب الاحتكارات الامريكية .

و عودة امريكا لتتحكم بفنزويلا كما كان عليه الحال قبل الثورة البوليفارية يسلم امريكا بورقتين رابحتين في الصراع الجيوسياسي العالمي مع الروس والصينيين . هذا الصراع الذي تنامت وتيرته في الاشهر و الاعوام الاخيرة .

لم تتردد ادارة المحافظين الجدد في اجتياح العراق و تغذية التناقضات المذهبية و الطائفية و العرقية و دعم الارهاب الاكثر دموية و انغلاقا باعتراف هيلاري كلينتون . اما رايس وزيرة الخارجية الاسبق فقد اعتبرت الحرب الاسرائيلية على لبنان 2006 نقطة الانطلاق لشرق اوسط جديد . وفي الحالتين كان الهدف اللاحق سوريا و ايران و في المحصلة تصفية القضية الفلسطينية .

كان الدمار هائلا و يفوق الخيال، غير ان النتائج جاءت معاكسة . اذ يسجل محور المقاومة انتصارات و طيدة تؤهله ان يكون اللاعب الاول في رسم مستقبل الاقليم .

والتقارير الاستراتيجية الامريكية تنظر للشرق الاوسط كربع واحد ، وهي لا تعبأ بحجم الدمار وموت البشر ( انه ثمن الحرب ) وما تعبا به ان تكون خسائر امريكا قليلة و على انقراض الدمار و الرماد تبسط هيمنتها . حتى دون استصدار قرار من مجلس الامن . فما يسمى القانون الدولي و الشرعية الدولية هما اخر اهتمامتها . ولثلا يطول الحديث ، حسبنا الاشارة ان الجيش العراقي قاتل ببسالة و تضحية عالية ، ولكنه لم يصد في حرب تقليدية قوات الغزو .

اما كوبا ، كما اسلفنا اعلاه ، فقد استعدت على نحو مغاير ، وهي الخبيرة في حرب العصابات . ذلك ان الجيش الامريكي هو اقوى جيش في العالم ، و جيش نظامي في عالم الجنوب لا يستطيع الانتصار عليه . اما كعب اخيل الجيش الامريكي و مقتله فهو حرب العصابات . هذا ما اكدته التجربة الفيتنامية . اما التجربة حديثة العهد فهي اشبه بالخيال ، عندما نصبت مجموعات بالسلاح الفردي كميناً للجيش الامريكي في الصومال فإصطادت 12 جندياً ، ففشلت عملية ( اعادة الامل ) . فقائد قبلي هو عيديد بامكانات اكثر من متواضعة اسقط مخطط اعظم دولة استعمارية في التاريخ ( لها السيطرة على البر و البحر و الجو ) د. سمير امين .

يسعى المخطط الامريكي في فنزويلا ، حالياً ، لشق صفوف الجيش كتوتئة لتكرار النموذج العراقي واشعال حرب اهلية . اصاب لينين عندما كتب ( الحزب قلعة لا تقتحم الا من الداخل ) وهذا حال اي سلطة تحررية وسيادية . فاتجاه الضربة هو بث الفرقة في صفوف الجيش الفنزويلي والاتكاء على المرتهين والمرهين على السيد الاجنبي " لغزو البلاد . اما الهدف الابعد فهو الثروات الفنزويلية وكسب جولة للانقضاء على التحولات اليسارية التقدمية في القارة اللاتينية بما لذلك من ابعاد استراتيجية على مستوى العالم .

وتأسيساً عليه ، يمكن تخيل العوامل التالية لمنع الغزو والحرب الاهلية:

1. حماية وحدة الجيش خلف الرئيس مادورو . وهذا تحصيل حاصل حتى اللحظة وان كانت الامبريالية لن تكف عن محاولات استدراج ضباط نرجسين يملحون بالسلطة .
2. تعزيز استعدادات اللجان الشعبية البوليفارية وضبطها فلا تقع في مصيدة استفزازات حركة المعارضة ، فمن مصلحة المعارضة توريث النظام وانصاره في اعمال عنيفة تسعى لدق اسفين في اوساط الشعب .

3. توسيع قاعدة الحكم باوسع ائتلاف يساري، فالقوى التقدمية لا تنحصر في الحزب الاشتراكي الموحد، وصولا الى توسيع قاعدة الثورة. فهناك اوساط واسعة ترفض الغزو الخارجي والحرب الاهلية .

4. ما ان تلتقط الثورة انفاسها، هي مطالبة بتجريد اليمين الراسمالي التابع من مصدر قوته ، اي القاعدة الاقتصادية . والمستهدف هنا هو النخب الراسمالية الكبرى التي تستأثر بثروات هائلة وتتلعب بالاسواق وتحجب السلع عن الجماهير، أي ليس الشرائح الوسطى والصغيرة.

وعطفا على ذلك اطلاق ايدي القضاء لملاحقة الفساد والمفسدين فحركة تطهير البلاد من الفساد والمفسدين لم تستكمل و اليمين المعادي المتغلغل في أجهزة الدولة.

وبالتالي الوقوف جديا امام اخفاق التنمية الزراعية وبقدر ما التنمية الصناعية. فدون اقتصاد انتاجي، وبلغة ادم سميث في كتابه (ثروة الامم) ن- ب - ن لا يمكن تركيم الفائض.

بينما الفائض هو الذي سيفسح في المجال المزيد من الاستثمارات والتنمية. وسواء كان الاقتصاد راسماليا او اشتراكيا عليه احرار فائض و تركيم، و الفارق هو في طابع ملكية وسائل الانتاج و توزيع المنتج.

ومنذ زمن انشأ ماركس (الاشتراكية مرهونة بتطور قوى الانتاج) اي العلوم والتكنولوجيا وادوات العمل ومهارات و انتاجية قوة العمل، اي ينبغي تطوير قوى الانتاج ودون ذلك يمكن بناء اقتصاد تعاوني واجتماعي اما اقتصاد اشتراكي فلا.

(الحزب يخطئ كالفرد تماما) لينين (وللثورات الظاهرة اخطاء ايضا) هوثي منه، وفي مقدمة ذلك التخبطات البيروقراطية و عدم الكفاءة.

والمهم تصويب الاخطاء ومنع تحويلها لخنجر في ايدي القوى المتامرة على الثورة. فالثورة البوليفارية امام امتحان تاريخي.

كتبت عندما رحل القائد هوجو تشافيز ، وكنت حينها في سجون الاستعمار الاسرائيلي ( رحل شقيتي الاكبر ضمير الثورة العالمية في اللحظة الراهنة ) ففنزويلا البوليفارية اليوم هي في الخندق الاممي ، و بكلمات الشاعر

علي بريمير



(لن ابقى في البيت / انا ذاهب للقتال / هيا نصعد الجبال ... وطنك فتزويلا ينتظر الكثير من تصميمك)

اما غيفارا فكتب (لا يهمني اين ومتى اموت. ما يهمني ان يبقى الثوار منتصبين يملأون الارض ضجيجا، فلا ينام العالم بكل ثقله على اجساد البأسين و الفقراء و المظلومين).

## هل الميادين منصة لمشروع تنويري مناهض للهيمنة والاستنقاع؟

أحتفاء بربيعها

ليس جديدا القول أن اربع مؤسسات اعلامية غربية تهيمن على الاعلام العالمي، هي اسوشيتد برس ويونيتد برس ورويتر والوكالة الفرنسية، وانها امبراطورية تنتج وتتحكم ب 90% من الاخبار ومعظم المجلات والبرامج المتلفزة والافلام وتزود اعلام الدول قاطبة وراسمالها يناهز تريليونات من الدولارات.

فالراسمال الاحتكاري المعولم لا يستحوذ على معظم الاقتصاد العالمي بل وايضا على معظم امتدادات المجتمع المدني بما فيه الاعلام والمؤسسة الاكاديمية والتنظيمات المجتمعية، الا من تحرر من هذه الهيمنة بالمفهوم الغرامشي. والعولمة تستخدم البطيركية ومخلفات القرون الوسطى بمفهوم التوسير وبورديو ونخب طبقية في بلدان خضعت للكولونيالية، اي الجنوب كما جاء في مقاربة فرانز فانون ( معذبو الارض).

والعولمة الراسمالية المتوحشة تحاول صياغة وتسخير العالم بما يخدم مصالح واطماع 1% من البشرية. ولئن كتب ماركس ان " الراسمالية تكذب اذا كانت ربحيتها 10% وتقتل اذا كانت 50% وتشعل حربا اذا كانت 100% " فهي اليوم ذهبت لمديات ابعد الى درجة ان يعيش 2 مليار نسمة اي نحو 25% من البشرية دون خط الفقر و900 مليون يشربون مياه ملوثة حسب تقارير الامم المتحدة، وبطالة تفترس اكثر من نصف مليار نسمة فيما درجة حرارة الارض ترتفع بدأب بما يهدد 30% من نباتات الكرة الارضية ناهيك عن تلوث الهواء واتساع ثغرة الاوزون التي اصبحت بمساحة فرنسا.

ويقوم الاعلام الراسمالي المهيمن من صحافة مقروءة ومسموعة ومرئية وسوشال ميديا وافلام بتزيين الصورة وان العالم بقيادة الليبرالية الجديدة وادواتها سينعم بالخير العميم والاستهلاكية والحريات الفردية، على أن يمثل الجنوب لوصفات الشمال ودون ذلك لا فرصة للجنوب " المتوحش، العنيف، الكذاب، الكسول الذي لا ينتج والمسعود جنسيا" فرويد، للتخلص من التخلف والجهل والاستبداد.

والاقليم العربي، نحو 400 مليون نسمة خضع كما الجنوب للكولونيالية الغربية. وقد عرفت اهم اقاليم الجنوب سيما القومية الصينية والقومية الهندية والقارة اللاتينية بما فيها البرازيل وجنوب افريقيا بعد تحررها من الابرتهاد قفزات في كافة الميادين، في العقود الاخيرة. ويكفي التذكير ان العرب ينتجون 2 تريليون دولار سنويا نصفها من عائدات النفط والغاز فيما البرازيل اكثر من 200 مليون نسمة بقليل تنتج ذلك دون نفط ناهيكم ان الوطن العربي لم ينفك يخضع لتجزئة سايكس بيكو ومحوطة للمركز الامبريالي، فيما فلسطين مستباحة من قبل عنصرية اقصائية حجرتها في ملزمة المرحلة الكولونيالية والاقتلاع.

ولاسباب عديدة لم يتوقف الهجوم الامبريالي المكثف على المنطقة العربية ، وقد اعاد انتاج نفسه باشكال جديدة، لتغذية الصراعات البينية والبنوية وصولا الى الاحتراب المذهبي وتفكيك غير دولة عربية.

وفيما يغادر الجنوب مخلفات القرون الوسطى واثار الحقبة الكولونيالية بهذا القدر او ذاك، سائرا في طريق الحداثة والتحديث، يتم سكب الزيت على تراكيب البنى التقليدية العربية وطبعاتها الاكثر دموية لمحاصرة واستنزاف ميكانيزمات الحداثة. ومن جديد تحاصر " الصحراء الخضراء" دون ان يخجل الاعلام الاصفر من الترويج لشعارات البيعة والاتوقراطية المتخلفة والزبائنية والخطاب الذي يعظم الهويات الجزئية ويناهض المواطنة المتساوية والهويات الجمعية بما يعزز من علاقات التبعية للمركز الامبريالي ويصلب الواقع على تخوم ما قبل الثورة الصناعية بينما المجتمعات المتطورة انتقلت الى الثورة التقنية ومن شعار " حرية، اخاء ، مساواة" الى مواطنة قارية وحقوق انسان عالمية.

وبعد ان استنفد المشروع القطري العربي نزاعته التقدمية، شاخ وتعفن، حيث تفاقمت تناقضاته الداخلية وزادت معضلاته على كل الصعد، بما شكل توطئة لانفجار المشهد العربي حيث تحالفت العوامل الداخلية مع العوامل الخارجية. وجاءت ردود الفعل متباينة.

البداية كانت فلسطين، التي ذهبت قيادتها باتجاه اوسلو بما استولد حراكا داخليا وتحولات في الخارطة السياسية، واسلوب فظ في التعاطي مع التناقضات الداخلية والنظرة للاخر افضت فيما افضت الى انقسام عمودي لا تنفع معه كل وصفات راب الصدع التي تنطلق من تفكير انكاري وتبسيطي يتجاهل محركات

الانقسام ولا يذهب للبحث عن قواسم مشتركة ، وما اكثرها، معتصما بعقل نمطي واملائي ينتمي لمرحلة سابقة .

وانتفاض مصر وانتفاض تونس اللذان انجزا خطوات كبيرة دون ان يتحولا لثورة تطيح بطبقات الحكم القديمة وعلاقات الانتاج القديمة، وصعود قوى اجتماعية جديدة وارساء علاقات انتاج جديدة ، فاصبح المجتمع مريضا بلغة غرامشي وان كانت الجدلية الحيوية مستمرة في البلدين في اطار صيرورة لم تبلغ نهاياتها الواضحة بعد، مستذكرين ان الثورة الفرنسية 1789 لم تبلغ مستقرها الا بعد عشرة اعوام.

اما في العراق وليبيا وسوريا ، فالصورة كانت ارتدادية وتدميرية قياسا بما كان عليه الحال قبل سنوات التحول، وكان للتدخلات الخارجية وطئتها الثقيلة وباتت اكثر فاعلية في كثير من الاحيان توالد عن ذلك مكونات تكفيرية بلغ عنفها مقاييس هوليدوية وما كانت عليه قبائل الفايكنج في شمال اوروبا قبل الف عام، وشيء من هذا القبيل في اليمن بعد التدخل السعودي ، دون اغفال التراجيدية الانسانية المصاحبة التي لا تقل عن التراجيدية السياسية وتصل حد تدمير الذات، لتاتي سوريا كمرآة مقعرة تتجمع فيها صراعات محلية واقليمية ودولية، من شأنها ان تترك بصمات على مستقبل سوريا والمنطقة باسرها، اخذين بالحسبان اختلال ميزان القوى لجهة دمشق وحلفائها بعد الدخول الروسي.

في هذا الخضم العاصف ولدت "الميادين" منذ خمسة اعوام. وشخصيا سمعت عنها في سنوات اعتقالي الاداري الاخير، دون ان اشاهدها، ذلك ان مصلحة سجون الاحتلال لا تسمح للاسرى بالتقاط هذه القناة.

وكفلسطيني عرف الكثير من الاحلام مثلها عرف الكثير من صدمات الحياة ايضا، ومنها المراهنة على "القاهر والظافر" لتحرير فلسطين فحلت هزيمة 67، وعلى قيادات فلسطينية، ولم اكن بعيدا عنها، ولكنها قادت المركب إلى المآل الحالي، وعلى "الجزيرة" كمشروع حضاري بلغة الراحل الكبير هيكل، فاختزلتها السياسة وعلى الامة العربية العظيمة التي اثبتت عبقرية تاريخية صامدة في وجه استهدافات على امتداد قرون، ولكن لتتكرر بانوراما هدم كل محاولة تراكية منذ العهد العباسي مرورا بصلاح الدين ومحمد علي وعبد الناصر، فان خلف يهدم ما بناه السلف.

وارث عظيم نفاخر به وبعراقته دون ان نفلح في توظيفه لانتاج عود ثقاب او الورق الذي يطبع عليه هذا الارث، ودون ان نعي اننا كعرب سائرون نحو مزيد من المحوطة والنهبية والاذلال ان لم نتج علما وصناعه ولن يفيدنا سيل الشعاراتية التمجيدية التي لم تقو على بناء القوى الاجتماعية الحاملة للفكر النهضوي للكواكبي ومحمد عبده والافغاني وصولا الى المقاربات التي تمسك بالمشروع القومي وحلقاته المركزية ولكنها تحاصر بداب فكرا وبشرا الى درجة وسم حزب يتجاوز حدوده الوطنية لتادية دور عربي معمد بالدماء والتضحيات بالارهاب !! ناهيكم عن احلال الايمان محل الفعل الانتاجي وتغليب النقل على العقل في دورة علمية عالمية تتضاعف فيها النظريات العلمية كل ستة اعوام دون ان نسهم فيها باي شئ يذكر . كل ذلك وسواه عطل ميكانيزمات الوثبة التاريخية التي عرفتها اوروبا منذ قرنين واليابان منذ قرن والقوميتين الصينية والهندية في العقود الاخيرة .

ودائما يتلازم القصور الذاتي مع العامل الكولونيالي الامبريالي الخارجي الذي تجلى مؤخرا في العولمة المتوحشة لقطع سياق التطور الطبيعي وتكريس التفتت والمحوطة ونهب الثروات وتهميش البشر صناع التغيير .

ومع ذلك ثمة ثغرات ، فاللوحة ليست قائمة تماما، ذلك ان الشئ يستولد نقيضه . ففيما كان يقطن المدينة العربية في بدايات القرن العشرين 3% من السكان يقطنها اليوم اكثر من 25 % وفيما لم يكن ثمة جامعات تقريبا ، تحتضن قاعات الجامعات نحو 6 مليون طالب/ة بصرف النظر عن الطابع التلقيني وندرة البحث العلمي، وهناك ايضا بدايات مجتمع مدني اثبت فاعليته على نحو خاص في تونس .

ومنذ نصف قرن اندلعت الثورة الجزائرية وعرفت مصر والمشرق العربي مدا قوميا احد اركانه المقاومة الفلسطينية، اما الاكثر اشراقا فهو تحرير الجنوب اللبناني، اذ لم تعد قوة لبنان في ضعفه، وما تنشره الصحافة العبرية عن القدرة الصاروخية لحزب الله الذي تعتبره هيئة اركانها الخطر الاول، وفشل الجهود الدؤوبة لمعسكر طويل عريض لاسقاط دمشق، وتقدم ملحوظ في تكوين طبقات معاصرة وثقافة معاصرة هي مجبرة في التحليل الاخير على السير في طريق التنمية المستقلة والسيادة والديمقراطية في شقيها السياسي والاجتماعي، وهذا لا يكون الا بتجاوز القطرية الى القومية التحررية المتدرجة .

وثمة ارهاصات في التقارب بين دمشق وبغداد، والممارسة الفعلية لحزب الله، والتسليح المصري للواء حفتر في ليبيا وما يستولده الخطر الداعشي على عواصم عربية .

في هذه اللوحة المركبة، ما ذكر اعلاه او لم يذكر، يشكل خلفية لميلاد فضائية الميادين وغير الميادين. وقيمة اي جهد سواء كان منهجيا او غير منهجي، "موقعي او جبهتي عام" غرامشي، وطني في قطر او قومي على امتداد الساحة العربية، يتمحور في الحساب الاخلاقي العملي - سينوزا، اي في طابع تأثيره وحجم تأثيره، في تاسيس مشروع تحريري نهضوي قومي يتجاوز المرحلة الحالية ويرسي مداميك مرحلة جديدة سبقتنا اليها امم اخرى. والمسألة ليست اخلاقية فقط، بان يتبارى الناس للتضحية والتشبث بقيم العدالة والكرامة. بل سياسية من الطراز الاول، بان تخدم هذه التضحيات الاهداف الكبرى من خلال الفاعلية - ماركس، والقدرة على حماية المنجزات واحراز المزيد بما تقتضيه من الاطاحة بالتكلس والشيخوخة والاخلالات التي تعيق التحرر من المحوطة وتجزئة المجزا والاختفاق التاريخي والدولة القطرية العاجزة عن بناء مواطنه وتميحه وحرريات

"السياسة هي الصراع الطبقي والقومي" لينين، اما تدمير السياسة بمفهومها المعاصر فهو العودة للقبائلية والمذهبية والاستقواء بالاعداء وشل ارادة الناس ولكيما تفعل السياسة فعلها هي مشروطة بتوافر الادوات القادرة على الصراع بما يناقض ولع 99% يؤيدون الزعيم وفوزه بالتزكية.

### أهمية الميادين:

من ناحية الاختصاص انني كاتب ودكتور علوم سياسية وغير مؤهل لتقييم فضائية بحجم الميادين وما اسوقه هو ما استشعره وحسب.

اجرؤ على القول ان الميادين تصطف في خندق مختلف، اجل خندق وليس مجرد حلقة نقاش في صالون اكاديمي او سياسي تقليدي. انه خندق مواجهة وليس اعلاما محايدا هذا التعبير الليبرالي المزيف والاجوف. ذلك انه ليس ثمة اعلام محايد ولا ايديولوجية محايدة ولا سياسة ( ممارسة مجتمعية شاملة ) ماركس محايدة، ولكنها اعلام مبني على معطيات حقيقية بل المعطيات الحقيقية المقررة، وليس رماديا ياخذ من الحقيقة وعكسها، ياخذ الهوامش وينأى عن الاساسيات واحيانا كاذب تماما. اعلام في جوهره منفصل عن المخططات المعادية ومنحاز للقضايا العادلة، اعلام يخدم الخير العام - غرامشي، وليس النخب الحاكمة المرتبطة بالهيمنة العالمية.

هذا من ناحية الجوهر اي من ناحية الصفه الاساس التي تميز ماهية الميادين.

وهي رواية نجاح ، بل نجاح عاصف، ففي خمسة اعوام باتت القناة الاكثر مشاهدة عربيا حسب احد الابحاث اي انها لا تلوك نفسها ولا تخلع على نفسها لقب الطليعة دون اعتراف الجماهير بها - لينين. فالجمهرة على مستوى المثقف او المواطن العادي يشاهدها ويتابع تقاريرها وبرامجها وبذلك فقد تجاوزت اهم اخلاطات المحاولات النهضوية منذ قرن ويزيد اي الانعزالية، هذه الانعزالية التي جعلت المحاولات تلد ميتة او ماتت بعد حين دون ان تترك بصمات تذكر لانها اولا غردت بعيدا عن الكلثة التاريخية - غرامشي ، القادرة على التغيير وافتقدت القيادة النظرية الحقيقية - لينين.

اما من الناحية المهنية والابداعية ، فكما يبدو انها ارست معايير جديدة للفضائيات وباتت معيارا للمقارنة، بما كشف عن عيوب غيرها وفي ذات الوقت تحفيزها لتخطي ذاتها اي لم " نعد في الهم سواء" وهذا مستوى العرب ، فالميادين قالت بصوت تطبيقي مرتفع هنا الورده فارقص هنا، اننا قادرون على الارتقاء بمستوى ادائنا وابداعنا، فهي ليست صوتا ثوريا يستر عجزه بثوريته، ومضمونه المتخشب بتخلفه.

وهذا ما كان ليتحقق لولا قبضة من الاعلاميين والاعلاميات الموهوبين والمجتهدين المتمين بشغف لمهنتهم وجديتهم التي تستجيب لمتطلبات التحدي اليومي بمثابرة، فليس ثمة بطولة فردية في هذه القناة وليس ثمة نشاز ايضا، فالجميع يتكامل في سيمفونية جماعية تسع للفرد والمزايا الافرادية، في ضفر مدهش بما يعيدنا لمقاربات مكارنكو عن الفرد والجماعة، وعن التكرار والتجاوز، فثلا ديمنا نصيف التي يتماهى فيها جمال الشام شكلا وموضوعا بما تتميز به من حيوية ودقة تقارير وتحليل، رغم التبدل السريع لمفردات الواقع وسامي كليبو بما يتمتع به من كاريزما متدفقة واختيار موفق لموضوعاته وكال الطويل متعدد الابعاد الذي يسد ثغرات تصعب على غيره وزاهي وهبة المثقف بغنى الذي يجمع المهارة الصحفية والقدرة على استخراج افضل ما لدى ضيوفه، وزينب الصفار المدهشة التي تذهب بالمشاهد/ه الى مديات واسعة ومنتقاه بذكاء وضياء التي لا تبخل في تحضير برنامجها وتوسيع رقعة ضيوفها ولينا التي توحد ثنائية متناقضة من الحزم والرقه والاصغاء والتفاعل وتكون مدججة بحجج نظرية ومعلومات تتفوق على اهل الاختصاص، وما هذه الرسالة التي تصل للعالم من خلال وفاء وعبير نعمة وريحان التي تنسف مقولات فرويد عن الشرق ( المتخلف والعنيف والجاهل والكذاب

والنساء فيه جوارى) فهن منتجات ومثقفات وعصريات الواحده بثلاث في حقل الفكر والابداع بما يتجاوز المحلي الى العالمي.

والدكتور زكريا في أ ل م وبرنامج حرر عقلك اللذان يحثان ويحرضان ويخترقان بديهيات نمطية ان لم يتم نقدها لا يمكن الانطلاق للامام بما يتطلبه ذلك من منطق وعلم وتعمل في الارث والعقل معا ، شكرا جزيلا.

وهناك راما باسئلتها الهاحة المشعة ولناشاهين مراسلة غره التي اخترقت طبقات المجتمع التقليدي الجبري و تؤدي وظيفتها بتصميم ولانا الهادئة كلماء القراح ولكنها تغوص بعيدا وبرنامج اجراس المشرق المنفتح المنصف الثري الذي يبرز مكونات الهوية العربية ويعزز تلاحمها.

وبرنامج كلمة حرة لجورج جالاوي الراقي في مداخلاته وعناوينه وكدرس ايضا، فالفكر له الكلمة العليا دون صراخ وشتائم وحرائق لا تضيف شيئا لا على مستوى الوعي ولا على مستوى التربية دون ان انسى البرنامج الرياضي الذي يتالق شبابا فوارا ورونقا.

ويمكن الاستنتاج ان العلاقة ديمقراطية بين الاداره والبرامج واهم اركانها المبادرة واطلاق اجنحتها وهذا ملحوظ" فالبشر قادرون على ادارة شؤونهم" كتب منذ قرنين جون ستيوارت مل، بديلا للتراتبية المستبده التي كانت احد اهم ميكانيزمات تهميش الجماهير سواء من قبل النظم او من قبل العديد من الزعماء السياسيين الفاشلين، فالتاريخ في النهاية مبادرة جماعية ودون مبادرات ناجحة لا يمكن كسر ملزمة الاستنقاع التي يغطس فيها العرب منذ زمن غير قصير.

طبعا هناك ادارة وهناك مختصون تقنيون ... ولكن الرأي لا يشاهدهم وان كان يحس بهم ومن البديهي ان يقف في مقدمتهم استراتيجي يتقن حرفته الاستاذغسان بن جدو الذي احرز ماثرة " بتوأمة" الميادين مع تسور وقد لاحظت من خلال لقاءي مع السفير الفنزويلي في رام الله آثار ذلك.

اما الخاصية التي لا يجوز القفز عنها فهي تنوع برامج وموضوعات واتساع قماشة قناة الميادين من نشرات الاخبار بعيدا عن التسلسل الممجوج , الذي ييدا بالزعيم ومكالماته وتعزياته مرورا، بالتحليلات السياسية والعسكرية والندوات والبرامج الثقافية والاقتصادية .... وقراءات ابداعية للكاريكاتور وفلسطين هنا منزلتها الخاصة ولا اظن ان ثمة فرصة لاي دور عربي لنظام او مؤسسة ان لم يدخل من البوابة الفلسطينية.



ويمكن الاستطرد اكثر سيما في ابراز سياسة الميادين بانها فضائية الصحوه ومناهضة الهيمنه العولميه والتشدد الديني الدموي والانفتاح بعيدا عن النمذجة الايدولوجية الخشبية.

فهل يوجد فضائية عربية لديها مثل هذا التميز؟؟؟

سالني صديق شاركني مسيرة الكفاح طويلا : الا تعتقد ان الميادين صورة مكرره من الجزيرة ؟ ذلك انني نشرت في الذكرى العاشرة للجزيرة مقالة من حلقتين عندما كانت " مشروع حضاري" وقبل ان تذهب الى ما ذهبت اليه/ علما ان مكتبها في فلسطين حافظ على دأبه . اجبت: البشر يصنعون حياتهم وخياراتهم ومن ينطلق من الخندق التحريري بمفهوم فرانزفانون ولو جزئيا يحمه خياره، فليس كل الناس سواء، وهناك مثقف السلطان الشمولي وهناك مثقف الكتلة التاريخية التقدمية بكلمات غرامشي، والميادين اختارت طريقها وهي براكسيس تبني وتبني في جدلية صاعدة وتقييم خيارها يقوم على المعطيات لا على الهواجس. ولكيما تكون مقالي فعالة اكثر سوف اختتمها باقتراح عناوين ومساحات اضافية على الميادين:

1- العنوان الفلسفي الذي يتصل بطريقة التفكير اي استضافة اهل اختصاص وانتاج معرفي للاجابه عن سؤال كيف؟ كيف انتج هؤلاء ابداعهم .. ما هي ادواتهم وما صلتها بالواقع وما وظيفة انتاجهم

...

2- العنوان العلمي الذي يتابع اخر النظريات العملية والانجازات المعرفية في حقول البيولوجيا والاقتصاد والاعلام والسياسة والجيولوجيا والفنون والميكانيكا والفيزياء وعلم النفس ... فهذه العلوم تقفز قفزات سريعة وهذا كله مغيب عن مدارسنا وجامعاتنا وبطبيعة الحال عن الوعي الاجتماعي العربي اجمالا وهذا العنوان يمكن ان يدعم العنوان الاول فالعلم الجزئي يترابط مع علم العلوم اي الفلسفة.

3- عنوان تجارب، ماذا يحدث في الصين، الهند، القارة اللاتينية اي في الجنوب، فهي نصف البشريه وتقف على قدميها وتنهض خلافا لكل نظريات التبعية التي لم تنفك المؤسسة الاكاديمية الغربية تروجها، انتم عجزة، خذوا بنصائحنا، تكنولوجيايتنا، توجيهات البنك الدولي، ودون ذلك لن تروا الحداثة' وها هي الحياة قلت كلمتها وفي النهاية لا نعترف الا بالتاريخ وعلم التاريخ - ماركس فهو يزودنا بالدروس - كيسنجر.

وهذه التجارب كبيرة وهي متباينة ولكنها مفيدة للعقل العربي.

4- عنوان اجتماعي يتناول القضايا بعمق وتحليل، احياء العمال والمهمشين والعاطلين عن العمل والقطاع غير الرسمي واوضاع المرأة العربية وميكانيزمات قهرها اي غالبية العرب، ناهيكم عن قضايا الشباب، هؤلاء الذين اشعلوا انتفاضة في تونس واخرى في مصر وقبلهما في فلسطين اواخر عام 1987، فهم قوة التغيير، وتخصيص مساحة اكبر لمصر، لما هو تحت السطح حيث يصنع التاريخ بلغة ابن خلدون، فتاريخيا نهض العرب ثلاث مرات، في بدايات الدعوة الاسلامية التي انطلقت من الجزيرة العربية قبل نحو اربعة عشر قرنا ومحاوله محمد علي في اواسط القرن التاسع عشر وتجربة عبد الناصر التي اسقطتها هزيمة 67 والرده الساداتية، وشبه الجزيرة العربية غير مؤهلة اليوم للنهوض بالعرب فكل رصيدها هو النفط وعوائده التي يذهب ثلثها للبنوك والسلع الغربية (تصريح ل احمد زكي يماني) وسوريا والعراق يمران بازمة مهلكة ولم ترسمان طريق الخروج منها بعد، وان تقهقرت المخططات والقوى المعادية وان كان لسوريا خصوصية مضاعفة، فهي المرآة المقعرة وعلى ما تذهب اليه سيكون اثار دامغه على مستقبل بلاد الشام والعرب. و بالتالي لا يبقى سوى مصر التي تشكل ربع العرب وفيها مؤسسات ومكونات طبقية واقتصادية تصل نصف دولة بما يفوق احوال العرب ومن هنا تأتي اهمية متابعة جدلية مصر والاصطفاف مع عناصرها ونوياتها التي تسعى لتجاوز وضعيتها الراهنة. فالمرحلة انتقالية ويمكن ان تذهب مصر في شتى الاتجاهات بناء على حركة التناقضات بين قواها، وقد يمر وقت طويل الى ان تكتشف القيادة الحالية، أو من يليها، ان لا منقذ خارجي لها في المشروعات الكبرى ولا مهرب من الاعتماد على الذات وتغيير الفلسفة الاقتصادية باتجاه الطريقة اللاتينية والصينية، اما رهان غورباتشوف على التكنولوجيا الغربية فقد سقط وكان احد العوامل الرئيسة في سقوط الاتحاد السوفيتي وتفكك سبيكة الدولة وارتداد النظام ومن هنا تستدعي الضرورة نشر وعي انتقادي بعيدا عن الليبرالية الجديدة واملاءات الاحتكارات المعولة.

ولم الحظ، من وجهة نظري، فضائية اكثر حصافة ورزانة من فضائية الميادين في تناول الموضوعات المصرية اذ نات بنفسها عن "اليسروية المغامرة" التي تطلق احكاما مطلقة وترى الجزء وتنسى الكل، دون ان ترى محاولات ضرب الدولة او تحويلها لدولة فاشلة. وفي نفس الوقت فهي لا تطبل ولا تزمز للنظام .

تمر مصر بمرحلة انتقالية وهذه لها قوانينها الموضوعية وخصائصها المتصلة بملبوسيتها ومثل هذه المرحلة مر بها عبد الناصر بين 52 - 56 وتشافيز في سنوات حكمه الاولى في فنزويلا وايضا المسيرة الفلسطينية ولكن باتجاه معاكس بما اوصلها للمال التراجيدي الحالي وفي المرحلة الانتقالية يتم حل التناقضات بما يدفع العربية للامام باتجاه تقدمي او تدمير الذات لزمان يتفاوت بين تجربة واخرى.

والرهان الاجمل على الجدليه في مصر وليس على الحكم المرتبك والملتبس الذي لم تتضح وجهته الأساس بعد. وبطبيعة الحالي مصر غير مؤهلة في ظل أوضاعها الحالية ان تقود العرب.

وما اجمل ان تكون ورشة عمل يشارك فيها اهل فكر وخبرة على اتصال بالواقع والوقائع لتقديم مقاربات تتجاوز التحليل السياسي وتذهب لمديات ما يعتمل تحت السطح انحيازا لتجاوز اللحظة الانتقالية باتجاه السير للامام الذي يحتضن اجابات تعالج المعضلات ومساائل التنمية المستقلة والقضايا الطبقية والديمقراطية والمرأة والشباب والدور العربي والتحالف مع القوى الصاعدة عالميا كسرا لاحادية القطبية وهيمنة الامبريالية الجديدة - روبرت بيل.

واخيرا هل ثمة مبالغة بالقول ان الميادين غدت مدرسة رغم قصر عمرها؟ فهي بعد ان رفعت معايير العمل الاعلامي وراكت ما راكت بوتائر سريعة وخطفت انظار وعقول المشاهدين يليق ان تبدأ بالتهيؤ لتأسيس مركز اكاديمي لتدريس الاعلام من موقع التجربة لا من موقع الهذر النظري الذي تصدره المدرسة الغربية للجنوب.

زار وفد قيادي فلسطيني فيتنام عام 1989 وسأل: ماذا ستفعلون بواجتكم للتكنولوجيا فيما يترنح الاتحاد السوفيتي؟ كان الجواب خطواتنا الاقتصادية تلامس واقعنا وما نحتاجه تكنولوجيا متوسطة وهذه نحصل عليها من اسواق عديدة اي الانطلاق من الملبوس، ومن خلال تدريسي المحدود ومساعدتي للطلبة في غير حقل لاحظت ان نسبة لا تقل عن 80% من مقررات الاقتصاد والسياسة وعلم النفس بلا فائدة ومكانها الوحيد سل المهملات!

وختاما ثمة شخصية تاريخية اي تركت بصماتها النائمة والمشرفة على صفحات التاريخ، وليس جمععات جوفاء، انه فيدل كاسترو والقصة طويلة والهدف ليس الاحتفاء به بل توثيق ما امكن من مسيرته، اي تجربة الثورة

الكوبية بالصوت والصورة والجغرافيا والكهوف وصمودها وانجازاتها واخطائها، انه في وضع صحي لا يساعد على التحدث طويلا، وهذا كان حال الدكتور جورج حبش في اواخر حياته غير ان الصحافي الفرنسي جورج مالدينو تأقلم مع شروطه الصحية وعلى امتداد ثلاثة اشهر التقاه يوميا لمدة ساعة تقريبا الى ان صدر كتابه بالفرنسية الثوريون لا يموتون ابدا ووصل الخبر للحكيم بينما كان في الانعاش المكثف ورغم طابعه الصحفي حيث تفادى الحكيم التحليلات الاستطراذية، غير ان الكتاب كان اضافة نوعية امتزج مع مجالدة زوجته وعائلته لاصداره بالعربية بما صاحب ذلك من تعقيدات.

والصحافية الامريكية سنو ذهبت لجبال الصين ثلاثة اعوام وكانت شاهد على حياة الثوار والمعارك وانشات كتاب استثنائي نجم احمر فوق الصين والأديب الفلسطيني ابراهيم نصر الله قرأ الكثير تمهيدا لروايته قناديل ملك الجليل، والأديبة المصرية رضوى عاشور ذهبت لبلاد الأندلس وتفحصت الزمان والمكان توطئة لروايتها ثلاثية غرناطة، والأديب المصري يوسف زيدان بذل جهودا كبيرة وبحثا دؤوبا تمهيدا لروايته الرائعة عزازيل وهذا حال فيلم تشي من جزئين، فالتوثيق يفتح فضاءات ويحفظ ذاكره والتاريخ الذي لا يكتب ينسى.

اتوقف هنا وسوف اعود للكتابة حول الميادين مرة اخرى.

# الفصل السابع:

## في الثقافة

## هل ثمة ثقافة شعبية نقدية فلسطينية؟

مقدمة

قام المفكر الفرنسي كلوكهون باحصاء اكثر من 160 تعريفا للثقافة وتعدد التعريفات وتباينها يشمل عادة ايه مسالة سيولوجية. والشئ الجلي ان الثقافة عضوية اجتماعية وركن ركين في التشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية وهي غامضة بلغة موران، ودون الاسهاب، حسبنا الذهاب لغرامشي " ينبغي ان تتحول الثقافة لممارسة فلسفية". والفلسفات عديدة ولكن كحصولة ثمة فلسفة تغييرية تسعى لتجاوز الواقع وفلسفات تركزية للواقع وثالثة ماضوية تحلم بالعودة للماضي ، بصرف النظر عن اية تقاطعات محتملة بين هذه الفلسفات.

والفلسفة افكار كبرى تقول او لا تقول بوحدة الكون واحتكامه لقوانين موضوعية وتناقض ماهياته وحركتها ' وولادة الجديد سواء في الطبيعة وبصورة اكثر في المجتمع مع قدرة البشر على صنع حياتهم ومستقبلهم . وهي قد تنطلق او لا تنطلق من مقولة لوكاش " هناك علم تاريخي دياكتيكي وحيد وموحد لتطور المجتمع ككل " وبالتالي علينا ان نكون دياكتيكيين - كاسترو. ولم يكن صدفة ان يكتب ادوارد سعيد ان الثقافات متمازجة كثيرا ومراحل التاريخ متداخلة.

وان جاز القول ان الفلسفة هي علم العلوم الذي يسترشد به صناع الايدولوجيا المكونة من نظريات ورؤى اقتصادية - سياسية - اجتماعية - ثقافية اخلاقية تتماهى وتتناغم مع فلسفاتنا . والايدولوجيا ترتبط بالصراع الطبقي - القاموس الفلسفي ، ولينين لخص بالقول ( هناك ايدولوجيتان اشتراكية ورأسمالية) ولكن ما ينبغي اضافته ان هناك ايدولوجية ما قبل الثورة الصناعية والمرحلة الرأسمالية ايضا , كما الابعاد الايدولوجية المعبرة عن الصراع التحرري للجنوب عن الشمال سواء في مرحلة الكولونيالية او التبعية والهيمنة والعولمة المتوحشة , بما يشمله ذلك من تطلعات للتحرر من التبعية والعنصرية والبطيركية الذكورية .وهنا يمكننا ان نستحضر رؤية فرائز فانون التحريرية في معذبو الارض كما سعيد في الاستشراق وبيل هوكس بمزجها الاستلابات بما فيها

الاضهاد العنصري للسود. وعربيا اوجز مهدي عامل ان الفكر العربي السائد هو البرجوازي الكولونيالي التابع والتوفيق مع الفكر التقليدي السلفي الذي يمتد في بعض طبقاته الى الجبرية والتكفيرية الى درجة رفض الحق بالتفكير والاختيار والمواطنة وتأجيج المذهبية الدموية والنظرات المنغلقة التي ترفض التطور.

ولئن قال هيجل فيلسوف الديالكتيك ان التاريخ اوسع من الواقع فقد اخفق حين اعتبر ان الدولة القومية البرجوازية نهاية التاريخ فلا نهاية للتاريخ ليأتي منظور ماركس بان السياسة هي ممارسة مجتمعية شاملة مباشرة بالثورة الاشتراكية التي تجاوزت الرأسمالية دون ان يشهد ارهاصاتها وبعض منجزاتها وانكساراتها.

ومنذ زمن النيوليبرالية في سبعينات القرن الماضي وميلتون فريدمان وصولا للعولمة الرأسمالية المتوحشة يجري التشديد على الفردية والاستهلاكية وانسحاب دور الدولة وتعظيم النموذج الغربي وحرية السوق بما يصاحب ذلك من بعد نظري وعملي ( لضرب العمل الجماعي وتمشيم اليوتوبيا) سعد الله ونوس، الى درجة ان يقول بريجنسكي مستشار الامن القومي في عهد كارتر لا داعي ان تفكروا فامريكا تفكر لكم ولا داعي ان تنتجوا فامريكا تنتج لكم، بما هواشد بطشا من نظريات التبعية ونهب المحيط والتشكيك بقدراته على النهوض.

ان تعدد الاستلابات استولد المزيد من الازمات واشدها وطاة في الاعوام الاخيرة الازمة الاقتصادية العالمية 2008 والتي كبدت العالم اكثر من 30 تريليون دولار وحيث اصبح اليوم 2 مليار نسمة دون خط الفقر و900 مليون يشربون مياه ملوثة وبطالة ناهزت 600 مليون نسمة و30 احتكار يسيطرون على 70 % من السوق العالمية (هيكل). ونحو تسعة اشخاص يستحوذون بما يملك نصف البشريه ,حسب اوكسفام, وعشرات الحروب المحلية و50 مليون لاجئ وهجوم منظم على هويات وثقافات الشعوب وشبكات تجسس على العالم من خلال الشبكة العنكبوتية وادواتها المتنوعة.

هذا كله مقدمة لاستيلاء ارادة جمعية لتجاوز المشهد التراجيدي المتكسر ذلك "ان تشاؤم العقل لا ينفي تفاؤل الارادة" (غرامشي)، "ولطالما كانت الظروف مجافية" (غيفارا)، ومحبطة غير ان الارادة الانسانية تجتري العجائب وقادرة على التجاوز، وحسبنا تذكر ما كان عليه العالم في سنوات الحرب العالمية الثانية التي حصدت 47 مليون نسمة وامريكا الجنوبية في زمن العسكرتارية والصين التي كانت نسبة الامية فيها 99% قبل انتصار الثورة 1949، فالبشر ينتجون ارادة وينتجون ثقافة في مسيرتهم البطولية بل "والوضع البطولي هو

الاكثر ملائمة للإنتاج الغني" (هيجل) والابداع عموما وفي غمرة اقتحام السماء يقوم الانسان المبدع بتغيير نفسه وتغيير الظروف في ان (مكسيم غوركي)، اي براكسيس بلغة غرامشي.

وفي خندق العملية التغييرية التجاوزية التحريرية يتوضع المثقف العضوي، مثقف الكّلة التاريخية التقدمية ذلك ان تشكيل وعي جماعي يستلزم مبادرات وشروط (غرامشي).

وفلسطينا يتعين التذكير بمقولة الدكتور دراج (تنزع الثقافة الفلسطينية الى الانطفاء حين تقيم فصلا بين اسئلة الثقافة والقضايا الفلسطينية الوطنية الفعلية) والتوسير يستكمل ذلك بالقول ان انفصال المثقف عن السلطة يتطلب انفصاله عن السلطة وعن اجهزتها الايديولوجية، منسجما مع محمود امين العالم (لا يوجد من المثقفين خارج السلطة او خارج كّلها اللهم هؤلاء الذين يتناقضون معها فكريا ويناضلون سياسيا لتغييرها)، بما يشكل عوده بمعنى من المعاني الى ابي ذر الغفاري الذي رفض ان يتولى العراق ومقولته (هذه رشوة) ومات ولم يترك ارثا لزوجته سوى بحشته!

ومثقفو البنية الفوقية التقدميون مثقفو الخير العام انما ينتجون ابداعاتهم ارتباطا بالعملية الصراعية بين الكّلة التاريخية التقدمية والكّلة التاريخية المرتبطة بالسلطة مصدر الاستلابات، فهم جزء حيوي من العملية الصراعية وما ينتجونه بمثابة الاسمنت الذي يخلق تلاحما وتبصيرا لقوى التغيير الثوري من خلال عملية حوارية - باولو فريري، وبعضهم يتقدم الصفوف في دور سياسي قيادي.

### الثقافة النقدية؟

ان القيمة الحقيقية للفلسفة النقدية والايديولوجيا النقدية والثقافة النقدية ان تنتشر وتغلغل في الوعي الاجتماعي ودون ذلك لن تكون سوى ثقافة صالونات وتصاب بالعزلة والتبليس. فهي مستقاة من الواقع وتعود للواقع تستقرئ التناقضات وحركتها وتعي وتصف بجانب الكّلة التاريخية التقدمية في سعي لاكسابها سلاح نظري يعزز تلاحمها وترباطها.



وان تكون نقدية يعني ان تنطلق من منظور تحريري شامل. نقدي للاستعمار الاقتلاعي وخطابه العنصري , نقدي للهيمنة الامبريالية ومشروعها النبي المعادي , نقدي للشراخ الاستغلالية المتساوقة والمتهنة وثقافتها البرجوازية الكولونيالية المتصالحة مع الفكر التقليدي القومي الذي يفتح نوافذه لمخلفات القرون الوسطى وما قبلها والحجر على العقل والذي يرفض المواطنه وحق الاختيار ويغذي الاستهلاك بعيدا عن محركات الانتاج.

ونقد البطيركية القهرية للهراة وطاقاتها وحقوقها وصولا الى تعنيفها واختزالها فيخترل الشعب ولا ينهض , اذ ليس ثمة شعب ينهض دون نهوض النساء . وتقاس حرية الشعوب بقدر تحرر النساء فيها - لينين، ونقد تدويت الاستشراق- ادوارد سعيد والتماهي مع العدو - باولو فريري وما ينتج من استدخال للهيمنة وتشكيك بالقضايا العادلة وقدرة الشعب على الانتصار.نقد لفقدان الثقة بالذات و فقدان الامل و تبرير اليأس ..... .

ليس ثمة ضفاف للثقافة النقدية فالحياة متغيرة وهي تواكب المتغيرات محافظة على خندقها السجالي وهي دائمة التطور بمنطق هيجل + ماركس =أ+ب وولادة ج وهي تستولد مثقفيا الذين يدركون دورهم في جدلية دائمة بين المثقف والثقافة والواقع والمتغيرات وهذا يستدعي اول ما يستدعي (التحرر من ربق الترسيمات والنماذج وان يكون الفكر مشتق من الواقع وتناقضاته ) - مهدي عامل ، اي ان تكون الثقافة ابداعية وترتبط بالملبوس ، تحليل ملبوس للواقع الملبوس - لينين وهي منحازة للخندق التقدمي الذي يسير للامام ولا تساووم القهر و الخطأ و الفشل و الفساد .

وبخلاف السياسة التي تنطلق من النسبي ( اشتباك ام تفاوض ، نضال ثوري او براغماتي ، تحالف او اقتراق، تاكتيك هجومي ام تراجعى)، فالثقافة تنكئ على المطلق فهي منحازة للعدالة والحرية وليس نصف عدالة او نصف حرية، للحقوق وليس لنصف الحقوق للكرامة وليس لدرجة من الكرامة . ولانهاء الاستغلال والهيمنة وليس لاحراز بعض الانجازات , لحق العقل والتفكير وليس لمكسب جزئي ومساومة على الاجزاء الاخرى .... الخ، فهي مع الحرية والجمال والمعرفة وحب الوطن والديمقراطية والشجاعة والتضحية وضد كل الاستلابات والتحرر العام من اجل ان يكون الانسان انسانا ليس في التفكير بل وفي المعيشة وفي الحياة ايضا - ماركس . وهي تشمل فيما تشمل حقول الادب والاعلام والفن من سينما وغناء ومسرح وموسيقى ورسم ونحت وتطريز وطعام وقيم و... سواء كانت ثورية ام رجعية ام محافظة.

وفي زمن العولمة (تقوم العولمة الثقافية بتعزيز سيطرة المركز الامبريالي على الاطراف اي على العالم) - تشومسكي (حيث يتمكن الاقوياء من فرض الديكتاتورية الانسانية التي تفترس الضعفاء بذريعة التبادل الحر وحرية السوق) - جارودي , انطلاقا من رؤيتها الاستشراقية ( نمط من الاسقاط الغربي على الشرق وارادة السيطرة عليه) ايدوارد سعيد . اي سيطرة ونهب الشمال للجنوب مستخدمة اليات عديدة بما فيها الياتها الثقافية حيث هناك اربعة مؤسسات اعلامية اسوشيتد برس ويونيتد برس الامريكيتان ورويتر البريطانية والوكالة الفرنسية تسيطر على 90 % من المادة الاخبارية في العالم وتزود الاف الصحف والمجلات بالتقارير والاف محطات التلفزة والاذاعة بالبرامج والافلام والتقارير ولا يبقى بمعزل عنها الا المناهضون للامبريالية الجديدة - روبرت بيل ، الذين اكتسبوا وعيا انتقاديا خلال ممارسة النضال ( , فالاضطهاد يعمل على تدجين الناس) - باولو فيري (فالانخراط في العملية النضالية يحررهم) - فرانز فانون ذلك (ان الجهل والنحول والامبالاة هي نتاج مباشر لمجمل الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) - فيري.

تديلا على اهمية الجبهة الثقافية كتب المسرحي سعد الله ونوس (من المستحيل تدمير شعب استطاع ان ينجو بثقافته ... ان الدفاع عن الثقافة الوطنية هو دفاع عن وجود الامة) ذلك ان الجبهة الثقافية تتناول اسباب الواقع وتحليله والتفكير في الحلول والبدائل، انها تؤمن الاساس الفكري المنهجي لوعي الماضي والحاضر والمستقبل - الدكتور حبش، واذاف يمكن التغلب على هزيمة عسكرية ويمكن التغلب على هزيمة سياسية ام الهزيمة الثقافية فهي امر واقسى.

فالثقافة الفلسطينية الوطنية حامل وحامي للهوية الوطنية والمشروع التحرري برمته، وهي سجال دائم مع الثقافة المعادية وهي التي تسوغ الرواية الفلسطينية في مواجهة الرواية النقيضة، ولان الفكر يحدد السياسة تحسم - الدكتور حبش (لا حركة ثورية دون نظرية ثورية - لينين) ومن هنا نتأتى خطورة تهميش الثقافة التحررية والمتقف الوطني، وقد حذر غالب هلسا (لم تكتف م.ت.ف باستبعاد الانتلجنسيا الفلسطينية والعربية بل اشاعت جوا معاديا للثقافة) فيما ذهب الدكتور انيس صايغ مدير مركز الابحاث الفلسطينية للقول - (القائد الفلسطيني يرى في المؤسسة الفلسطينية ملكيته ويتعامل مع مركز الابحاث كدكان)، بينما يمكن ان يكون الثقافي والسياسي في فلسطين متكاملان ومتماهيان وايضا يمكن ان يرشد الثقافي السياسي وان يتسلح السياسي

يخزون ثقافي وان يجتذب الثقافي للخدق السياسي وهذا لاحظناه في التجربة البلشفية حيث كانت القيادة الثورية سياسية ومثقفة في آن ونسبها القيادة الفيتنامية والقيادة الكوبية.

غير ان الخلل في العقل السياسي العربي قديم بما دفع المعري للقول (يسوسون الامور يغير عقل فينفذ امرهم ويقال ساسة) وهذا اضعف السياسي الذي يستحوذ عليه العمل اليومي ومؤامرات الذبح العسكري والسياسي وهموم النضال التي لا تنتهي سيما وان معارك المسيرة الوطنية ما ان تنتهي تبدا من جديد في ظروف مجافية دون قدرة على الانتقال من مرحلة الدفاع الاستراتيجي الى مرحلة التوازن الاستراتيجي او الهجوم الاستراتيجي. كان يتطلب الامر تجميع القوى السياسية والثقافية وتوتير العقل السياسي - الثقافي الى ابعد الحدود لمضاعفة طاقته وابداعه وحكمته غير ان الاخلالات البنيوية والنزعة الزعاماتية والاستزلامية والتباينات التي تذهب للامسك بالثانوي دون الرئيسي في غير محطة بددت الكثير من الكمون واستنزفت الكثير من الطاقات وان لم تخل المسيرة من فصول مضيئة ومواقف ضفرت بالجميع في خندق واحد.

### عوامل لها اسقاطاتها على الثقافة الفلسطينية:

1) الموروث وهو ثقيل الوطاة وليس مجرد مخلفات القرون الوسطى او الماضي بل لم تفك ثقافة الماضي تستوي على الحاضر فيما الوعي الحدائوي محدود الانتشار، فهوية الامس لا تنحصر في النصوص المقدسة وانما تذهب لمراحل سبقت المعتقدات الدينية وصاحبت المعتقدات الدينية وكل من يتبصر سيولوجيا الثقافة يلاحظ مقولات ومفردات ترد للعهد الكنعاني والاموري ومقولات ومفردات اخرى ارتبطت بالازمان الفرعونية والفارسية والاغريقية والرومانية التي تناوبت على فلسطين لمدة تزيد على الف عام ناهيك عن الديانات الثلاثة سيما في جانبها العقدي واقاصيصها وطقوسها وعباداتها وبشكل اخص الدين الاسلامي الاكثر نفوذا، وقد تعاضم تأثيره مع صعود الحركات الاسلامية في العقدين الاخيرين. فبصمات الامس كثيفة كما تنوعها وتباينها ذلك ان التراث مرتبط بالسياق التاريخي، وهذا السياق لا يتحرك خارج الزمان والمكان، بل ان التراث ذاكرة للزمان والمكان الفلسطينيين في تداخلهما مع زمان ومكان ما يحيط بفلسطين، فالجغرافيا الفلسطينية التي تمتد من البحر الى النهر ومن الصحراء الى الساحل الفنيقي، ورغم ولاية فلسطين كوحدة ادارية في الزمن

الروماني لم تنفصل وانما توائمت مع محيطها وصولا الى تحرك حدودها، توسيعا او تقليصا، في الزمن العربي الاسلامي، ولكن في اطار هذا الزمن، سياسة واقتصادا وثقافة واجتماعا. لقد حملت سمات وطنية وعربية في ان.

(2) تجليات الكولونيالية العنصرية وبشكل اخص ما تعرض له الشعب الفلسطيني من تطهير عرقي وازياع قسري عن دياره عام 1948 واستعمار عسكري اقتلاعي عام 1967 وما نتج عن ذلك من عملية صراعية بين المشروع التحرري الفلسطيني ونقيضه وارتباط الثقافة الفلسطينية المعاصرة بهذا الصراع من اعلام وادب وفن وسينما وقيم ورؤى، وكانت الثقافة جزء بنيوي من المشروع التحرري ومدافع قوي عن الهوية والتطلعات وحامل للرواية الفلسطينية وعدالة القضية التي وصفها رئيس اتحاد الكتاب التركي في اواخر الثمانينات، (اتم اعدل قضية على الارض فالمرأة الفلسطينية هي الوحيدة التي تزغرد على استشهاد ابنها).

وبطبيعة الحال غلب الطابع السياسي والانضباط لقيم الجماعة وكادت تتماهى الحرية الفردية في الاهداف والمعاناة الجمعية وتمهيش ما عداها في وقت اتسعت فيه الحرية الفردية والقضايا الانسانية على حساب الهم الجماعي في مرحلة اوسلو والتمويل الاجنبي الانجوزي وهجوم الثقافة المعولمة.

ومن جانب اخر كان للاقتلاع والاستعمار اسقاطات دامغة على الثقافة الفلسطينية من ناحية تبديد الترميم الحدائوي في حيفا ويافا من مسرح ونقابات وبدايات رسمية ومواطنة، حيث حلت تل اييب التي كانت مجرد حي في يافا محل يافا التي اصبحت حيا في تل اييب وما صاحب ذلك من تشتيت وفقدان مركز مديني للترميم الثقافي الحدائوي وان لم يمنع ذلك ظهور ادباء وشعراء وفنانين واهل فكر ارتبط معظمهم بالحركات اليسارية الماركسية سواء على ارض الوطن او في المنافي دون اغفال منعكسات غياب مركز تراكمي واستقلال من جهة وتمويل اجنبي واستزلام من جهة اخرى وكذا مؤامرات الذبح العسكري والسياسي للمقاومة المسلحة وعجز العرب عن حماية فلسطين وشعب فلسطين وما اصاب البعد القومي من خدوش من جهة ثالثة.

لقد اصبح الوطن بندقية في لوحات اسماعيل شموط وذاكره في روايات غسان كنفاني ورموز في شعر محمود درويش وحلم عودة لدى المبدعين والمقاومين وثوب مطرز وثورة حجارة لدى الكثيرين وجذرية طبقية غير

مساومة للمتهملين والفاستدين في لوحات ناجي العلي وحارس للهوية ومناهض للتطبيع والاختزالية و انجاز للابداع لدى فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية ومدرستها.

(3) العصرنة وثقافة الراهن، فالمبدع انما هو ابن زمانه في التحليل الاخير و الزمان الفلسطيني لا يتخلله الامس فقط بل والحاضر ايضا ومن هنا كانت ابرز الاسماء الثقافية منتمية للحاضر والحادثة في حقول الادب والشعر والموسيقى والسياسة والاقتصاد والسينما فلاً المشهد الشعر الحر تجاوزا للشعر العمودي وانتجت الرواية وظهر الراديو والتلفزيون والفرق الغنائية والادائية التي لم تحبس نفسها في الفلكلور، والمعاهد الموسيقية والمسرحية ودارسو السينما والخراج وانتاج مئات الافلام الوثائقية والدرامية في حقل المقاومة وحقول المجتمع الاخرى.

(4) وانتشرت الجامعات في الأراضي المحتلة عام 67 منذ اواسط السبعينات التي يدرس فيها اكثر من 250 الف طالب وطالبة مختلف العلوم الحديثة بصرف النظر عن منهجها التلقيني غير المرتبط في معظمه بقضايا الحياة والتنمية والتحرر الوطني الامر الذي ينسحب على المدرسة ايضا والعلوم التي ينتجها الغرب اسوة بوسائل الاعلام التي يهيمن عليها في ارتباطها بالراسمال الاحتكاري المعولم انما تستبيح المؤسسة الاكاديمية الفلسطينية ووسائل الاعلام وصولا الى التمويل الغربي الذي ينفذ الى شرايين الكثير من مبادرات المجتمع المدني الفلسطيني والمنشطات الثقافية رسمية وغير رسمية. ولئن كانت المسحة التقليدية من بنى ثقافية واقتصادية واجتماعية هي الغالبة غير ان المظهر الحداثوي نافذ ايضا وصاحب قرار في كثير من القطاعات والمحطات. فالانتماء الوطني - القومي هو الاقوى وحرية التفكير والحق في الاختيار بكسران صدفة مصادرة العقل والقوالب المتوارثة وفرص المراة في التعليم والعمل وشق طريقها في الحياة هي حركة موضوعية ولم يعد حشرها في البيت امر مجدي او ممكن وهذا حال العمران والبناء واللباس والطعام واماكن الاجتماع والترفيه والتنظيم التي اقلعت بعيدا عن نمط القرية الصغيرة او التقسيمات العشائرية او التجمعات البدوية وما صاحبها من امية شبه شاملة كانت سائدة على امتداد قرون. ثم تحولات برجوازية ثقافة واقتصادا واجتماعا وبنى طبقية رغم اقتلاع الشعب الفلسطيني من وطنه وتشتته وارتباط معظمه باقتصاد ليس اقتصاده دون نسيان شامات الفكر اليساري في صفوفه سواء في منظوراته التحررية او التطبيقية.

ثقافة مناهضة للكولونيالية، مناهضة للاستغلال الطبقي، مناهضة للعقل الجبري، مناهضة للبطيركية، مناهضة للقرون الوسطى، مناهضة للفشل، مناهضة للفساد والمفسدين والكوزموبوليتيه؟

يمكن القول بحزم ان كافة مظهرات الثقافة الفلسطينية دابت على مناهضة الكولونيالية وروايتها سواء في انتاجها الاكاديمي كمجلد الدكتوراة بيان نويهض الحوت فلسطين منذ فجر التاريخ ومجلد الدكتور الياس شوفاني الموجز السياسي لتاريخ فلسطين وما قبلهما الكثير، اما اوجه الثقافة الاخرى من ادب وشعر واغنية وفكر سياسي فهي كلها تجمع على شيخ واحد في مناهضتها الكولونيالية وممارسات الاحتلال.

لكن يصلح هنا استدعاء كتاب عودة الوعي لتوفيق الحكيم الذي طالب في السبعينات بفتح ملفات الثقافة المصرية من زاوية منظوره اما في حالتنا الفلسطينية فينبغي فتح ملفات الثقافة الفلسطينية منذ اوسلو حيث طرا تحولين كبيرين كان لهما اسقاطاتهما على الوعي الفلسطيني:

(1) اختزال الخارطة والوطن والتنظير لذلك وتغطيس الناس في وهم الدولة فيما تستباح فلسطين شعبا وارضا ويحقق الاستيطان الكولونيالي وثبات وتهود العاصمة وهنا انقسمت الثقافة الفلسطينية بين اصوات مبررة لهذا البرنامج السياسي واصوات اكثر مناهضة له والكفه راجحة بوضوح للمتمسكين بوحدة التاريخ والجغرافيا دون الخضوع لميزان القوى ومعطياته السياسية المؤقتة دون نسيان اسقاطات الليبرالية الجديدة وتغذية الفردية السلبية والاستهلاكية والانهار بالنموذج الغربي وتأثيرات ذلك على الوعي الفلسطيني.

(2) تعاظم حضور الاسلام السياسي سياسة وثقافة الى درجة الاقتراب من نصف الخارطة في مختلف التجمعات الفلسطينية يحيط به بيئة ثقافية محافظة ماضوية وبالتالي تراجعت المنظورات الحداثوية عن المواطن وحرية التفكير والعصرنة والاجتهاد وباتت محاصرة في اوساط تضيق قاعدتها بداب رغم فاعلية نخبها من المنتمين للطبقة الوسطى وبقدر اقل الاوساط الشعبية المتأثرة بالرؤى اليسارية.

كانت البنية الفوقية متقدمة على البنية التحتية ما قبل اوسلو اما بعدئذ فتوافقت البنية الفوقية والبنية التحتية التقليدية القائمة على الانتاج الصغير والفلاحي والامتدادات العائلية الى درجة ان يشتغل 93% من العاملين في الصناعة في مشروعات تضم 1-9 عمال فقط فيما نسبة البطالة في اوساط النساء الجامعيات هي الاعلى

ونرى تفشيا للمظاهر التقليدية سلوكا ولباسا وطقوسا في البيئات المحسوبة على المنحازين للمعاصرة وفي كل مكان في الشارع والجامعة والحى والقرية وازقة المخيم بالعودة الى رموز ما قبل الحداثة وتراجع اغاني الثورة (لا جهوية ولا طائفية)

وبعض المجازفة النظرية. ذلك ان الفقرة التالية غير مستقاة من اجاث وهي مجرد انطباعات مسنودة ببعض الاحداثيات وحسب، ان الثقافة الفلسطينية موزعة اليوم على:

1- ثقافة يمينية وطنية وهي خليط من النظرات القومية والليبرالية والكوزموبوليتية المرتبطة بالعوالم

2- ثقافة يمينية دينية سواء اسلامية او مسيحية

3- ثقافة يسارية او نصف يسارية

4- ثقافة القرون الوسطى والانحرافات والجبرية المتطرفة

وتشهد الانحرطة الثقافية حراكا فهي ليست استاتيكية ولكل ثقافة نخبها ومنظوماتها اما الاكثر قوة فهي الاولى والثانية فيما الاكثر انتشارا هي الاخيرة دون نسيان التداخلات هنا وهناك.

اما الانحرطة السياسية فهي موزعة بين تيار الدولتين والاعتراف وتيار التحرير وعدم الاعتراف والدولة الديمقراطية وتيار العودة والدولة والتيار الاول مماسس وله اجهزته وسلطته وموازنته وهذا حال الثالث، اما الثاني فهو الاكثر فقرا ومأسسة مع الانتباه للتقاطعات فيما بينهما، ويجوز القول ان الانحرطتين السياسية والثقافية هما خارطتين انتقاليتين وغير مستقرتين لا في الرؤى ولا في القاعدة الاجتماعية ولا في البرنامج السياسي.

(3) لا شك ان الثقافة الطبقية المناهضة للاستغلال والفساد والتخلف هي الطاغية فالوعي الاجتماعي الفلسطيني والسيكولوجية الاجتماعية الفلسطينية مشحونتان بالعدالة ومناوئتان للفساد والمنتفعين وشغوفتان بتنمية الريف وتامين فرص عمل وتحسين الاجور والخدمات الطيبة، وفي كل مكان يلهج الاهالي بنقد مناهج التعليم وتلقينيتها وانفصالها عن الحياة وما يلقيه ذلك من اعباء على العائلة، ولكن كل ذلك يفترق

للاساق ويفتقد للرؤية البرنامجية ويفتقد للقوى الوازنة القادرة على تحويل ذلك الى مشروع مجتمعي . انها شظايا وعي ومزق ساخطة ولا تدري من اين تؤكل الكتف .يشنت الوعي والجمهرة العمل السياسي المنقسم على نفسه والاستزلامي والعفوي الذي يقع بين العائلة والحزب الحديث ممزوجا بينى سياسية طائفية وعشائرية وثقافة مختزلة وسطحية . والتشوش هنا سيد الموقف . فمن يناهض الاستغلال قد يكون مناهض لحرية العقل في نفس الوقت والذي يتألم لنسب البطالة العالية لا يفهم الصلة بالشرائح البرجوازية والسلطوية الفاقدة لرؤية تنموية انتاجية وتساوقها مع الليبرالية الجديدة والذي لا يكف عن اتهام الفاسدين والمبالغة في ذلك لا يرى العلاقة البنوية بالسلطة القضائية وصلاحتها والية تشكيلها وتغويل السياسي عليها وهكذا دواليك. اي ليس ثمة رؤية برنامجية بنوية تعكس بنوية المجتمع , وبالتالي فالوعي في مجمله تجزيئي واقرب للملاحظة الشخصية باستثناء العناصر الاكثر طلائعية ووعيا انتقاديا.

(4) بالنسبة للعقل الجبري والموروث يمكن القول ان الوعي الفلسطيني ينطوي على ثنائية متناقضة .فالتعليم من جهة سيما في الجامعات الفلسطينية تغلب عليه النظريات المعاصرة كما ان سعي الشعب الفلسطيني لتحرير الوطن حمل معه الكثير من الافكار التحررية عن حرية الاختيار والتعددية والديمقراطية والمساواة والحلم بمجتمع عادل الامر الذي تكرر في القانون الاساسي وفي غابة البنادق وصيغة م.ت.ف وواقع التنوع الفصائلي . فلا احد بل ومتعذر تماما ان يقوم فصيل بابادة او ازاحة الفصائل الاخرى رغم اية محاولات للهيمنة والاقصائية ومحاصرة وتجويع المثقفين التقديين وحرمانهم من العمل والتحرير اليومي عليهم , فيزان القوى كما ان غالبية الثقافة الفلسطينية لا تسيران بهذا الاتجاه كما ان تنامي مبادرات المجتمع المدني بصرف النظر عن كل ما يقال فيها وعنهما وتضم اكثر من 2000 مؤسسة ومركز في أراضي 67 يشكل قاعدة ضغط مناهض للاحادية والديكتاتورية. ورياح العصر تصب في نفس الطاحونة ايضا ,ومن الجانب الاخر هناك موروث ثقيل الوطاة ويمكن القول ليس مخلفات القرون الوسطى حسب التعبير الماركسي بل القرون الوسطى حاضرة وبقوة اقتصادية واجتماعيا وثقافيا تغذيها حياة اللجوء والازدحام والفقر والقهر بما يقود الى تذويت الاستكانة للتخلف والقهر وعدم الاعتماد على النفس لتغيير الظروف والبحث عن حلول سماوية في تراجع واضح عن الارث الرشدي ومنهجية العقلية والسببية الواقعية لابن خلدون وبطبيعة الحال عن منطق ارسطو ( السبب والنتيجة) واغلاق المؤسسات المحافظة ابوابها في وجه الراي الاخر وثقافة فئوية مستشرية , لكن ايضا ثمة اجتهادات لدى جمهرة الناس وفي اوساط المدرسة النصية عن



رفض القعود والتشجيع على العمل وما يتردد في اوساط جيل الطفولة وجيل الشباب عن الحرية ,  
ويمكن القول ان التاريخ الفلسطيني منذ العهد الكنعاني والغزوات المتلاحقة وصولا الى العهد العربي نهاية  
بالقرن العشرين لم يشهد طبقات متطرفة وكان اقرب للهرونة والتعايش بين نماذج متباينة.

اما الابداع باشكاله سيما في حقل الادب والشعر والرسم فهي على دينامية وقوة دفع يستحيل محاصرتها وهذا  
حال الموسيقى والوان الرقص الادائي في العقدين الاخيرين وذات الشيء في الفكر السياسي ونظريات التنمية  
والعلوم الاجتماعية والتطلعات الديمقراطية.

بيد ان الخلل الاكبر هو عدم القدرة على انتاج علوم من جهة وعلوم تتحول لقوة اقتصادية وصناعة حديثة من  
جهة اخرى وهذا خلل عربي عموما الشيء الذي يجعل الثقافة العصرية بالوانها دون اساس اقتصادي - طبقي  
متين، وفضل نموذج على هذا الصعيد هو مدينة رام الله التي تقطر المشروع الحدائوي في الاراضي الفلسطينية  
وكذا مدينة الناصرة. ولذلك عوامل عديدة اهمها الاقتلاع والتطهير العقي عام 1948 واستعمار الضفة وغزة  
عام 67. ان محدودية الصناعة الفلسطينية ومحوطتها وفقر البنى الطبقية المعاصرة سيما الطبقة البرجوازية والطبقة  
العاملة وتبعثرهما وطغيان القطاع الخدمي المفتت كلها تحاصر البناء الفوقي الحدائي وتستنزف ديناميته.

(5) البطيركية اي قهر الرجال للهراة وتغطية ذلك نظريا وايدولوجيا ,والوعي الفلسطيني مر هنا بمرحلتين ،  
مرحلة صعود فصائل م.ت.ف فارتفعت اسهم المنظورات الداعية لمشاركة المرأة وتحريرها ومساواتها وما  
صاحب ذلك من انخراط نسوي في فصائل المقاومة واطرها النسوية وهذه العملية شملت النخب والقوى  
الفاعلة مع تسرب هذه الروح لبعض الاوساط الشعبية دون الوصول لعمق الجماهير . ومرحلة اوسلو حيث  
تقهقر دور وثقافة هذه القوى فانكشفت هذه المنظورات وان انحازت لها بعض الاوساط الليبرالية من  
المحدرين من الطبقة الوسطى التي اتسعت على نحو ملحوظ ارتباطا باتساع القاعدة الجامعية والمنظمات  
غير الحكومية الممولة اجنبيا والقطاع الاعلامي والفني. وتساعدت في مرحلة اوسلو البطيركية السافرة  
ليس بتعنيف المرأة الذي وصل حد ان يذهب سنويا نحو مئة امرأة ضحية القتل على خلفية الشرف وارتفاع  
تعدد الزوجات من 4% الى 7% وارتفاع نسبة البطالة في اوساط المتعلقات وخريجات الجامعات عكس  
ما كان عليه الحال قبل اوسلو والانكى من ذلك التعبئة المنظمة ضد حق المرأة في اختيار لباسها وتفكيرها  
وما تقوله بعض المراكز النسوية عن تنامي الزواج المدبر والمبكر.

هذا على مستوى الثقافة الجماهيرية اما على صعيد القانون والقوى الفاعلة فالمرأة احرزت تقدما ملحوظا الامر الذي انعكس على تمثيلها في المجالس المنتخبة والتي تصل 20% تقريبا ونسبة اعلى في النقابات المهنية واكثر من 55% في الجامعات مع تبلور نخب نسوية هنا وهناك. ولئن كان العمل هو مفتاح تحرر المرأة فنسبة المرأة في قوة العمل في الضفة وغزة بالكاد تصل 18% علما انها تصل 25% في القطاع الحكومي مع تراجع واضح للجهود المنهجية المثابر الذي يصب في طاحونة المساواة في الانسانية والاجر والاحتراف بخصوصية المرأة ومناسباتها أسوة بالعمال كانعكاس لتراجع وزن وثقافة القوى اليسارية على نحو أخص. وأخيرا ليس مبالغا القول ان ثمة انزياحات باتجاهات اكثر يمينية وماضوية في الثقافة الفلسطينية على وجه العموم والتي وصلت مرافئ الحب الذي بات فقيرا وأكثر عملية دون ثراء وجداني واقرب الى التشيؤ والتسليع الذي كتب عنه ماركس بما يعكس احدى تفسيرات شعر محمود درويش (ان نظرت ورائك لن تبصري غير منفي / لنذهب كما نحن انسانة حرة / وصديقا وفيا لنياتها)

أما صرخة شمعون بيريس (على المثقفين العرب اعادة صياغة المفاهيم) فلم تحرز الا النزر اليسير ثقافيا اما سياسيا فقد احرزت الكثير الى درجة ضرب الرواية الفلسطينية والتشكيك بجدوى النضال وقدرة الشعب وبث اجواء تطعن المجتمعة وتعزز اللهم نفسي اي ترويح (ما بحك جلدك غير ظفرك) و(صباح الخير يا جاري انت في حالك وانا في حالي) وليس (يد واحدة لا تصفق) (والله مع الجماعة). وهذا افضى الى العودة للكواكبي بالتجرؤ على الحاكم وليس (اطيعوا اولوا الامر منكم) فقدسية القيادة لم تعد كما كانت قبل اوسلو، واحد تمظهرات ذلك ان تايد فتح في غزة اعلى من تايد حماس بينما تايد حماس في الضفة اعلى من تايد فتح حسب احد الاستطلاعات ناهيكم عن انفضاض معظم القاعدة اليسارية عن قيادتها ونصف الشعب عن كل الخارطة السياسية.

وبكلمة ختامية ان المشهد الثقافي الفلسطيني في غاية التركيب وغمادجه عديدة ومتناقضة يجمعها سمة مشتركة انها انتقالية ومتحولة ارتباطا بالتحويلات الجارية في الشعب الفلسطيني وهذا المشهد بحاجة لبعض الوقت كيما يتوالد فيه وعنه متغيرات تظهر الاتجاه القائد والمركزي . ولئن كان العامل الاقتصادي هو الاكثر تأثيرا في التاريخ حيث يترابط مع العامل الطبقي والاجتماعي ويتوافق مع العامل الثقافي ( البنية التحتية والبنية الفوقية)

فالعامل الاكثر تأثيرا في الصيرورة الفلسطينية هو السياسي وما ينتج عنه وسيكون لهذا العامل اكبر الاثر سواء في الصراع من اجل اهدافه التحررية او لما يمكن ان تذهب اليه المركبات السياسية الفلسطينية.

فالمشهد السياسي والمشهد الثقافي متحايثان ويتبادلان التاثر والتاثير غير ان الاكثر فاعلية منهما هو العامل السياسي وليس اكثر تدليلا رمزيا على ذلك من استمهاد ابرز المثقفين غسان كنفاني، ناجي العلي، ماجد ابو شرار، ومن قبلهم نوح ابراهيم وعبد الرحيم محمود وغيرهم، فانقطع مدادهم الابداعي.

واخيرا يبقى السؤال: ما هو المشروع الثقافي المطلوب فلسطينيا في المستقبل المنظور، المشروع الذي من شأنه دفع وتحريض الحياة الفلسطينية للمضي قدما للامام والسير تراكميا دون الارتداد للوراء؟ هذا ما يستحق وقفة اخرى.

## نبضة في أسئلة الثقافة

هل الثقافة ابداع فردي أم وظيفة اجتماعية؟

هذا السؤال ليس جديداً، وهو من الجزالة والغنى بحيث يكاد يعدم إمكانية الإجابة عنه في سطور قليلة. لكن حسبنا طرق الباب، او القاء ضوء على مساحة صاحبة بالغموض والتباينات.

منذ أرسطو (الفن تعبير ذاتي) إلى ماركس وأيضاً "وظيفة اجتماعية" والجدلية لا تكف عن تجديد نفسها، يتفاوت فيها فهم المنظورين من جهة والاجتهاد الطليق من جهة أخرى. فالأسئلة المفتوحة ليس لها اجابات جامدة، هنا وكفى.

ولأن كل شيء مكون من متناقضات، ليس ثمة فصل كلي بين ارسطو وماركس. اي ان لدى المثقف حس فردي ومزايا فردية وتعبير فردي، ولكنه ايضا ابن زمانه وقضايا عصره. انه لا يتحرك في فراغ. هو جمعي بالضرورة وفي خلفيته الثقافية شروط حياته وحياة المجتمع، بهذا العمق أو ذاك وبهذه الشمولية أو تلك.

ولهذا نجد بيكاسو رسم (غارنيكا) عن المذبحة التي تمت في تلكم البلدة الاسبانية، ونجد درويش نظم "مدح الظل العالمي" ملتصقاً بالمقاومة وبطولة بيروت، وهذا حال قصيدة (لا تصالح) لأمل دنقل ورواية "الأرض" لعبد الرحمن الشراوي "وعائد الى حيفا" لغسان كنفاني و"جمل المحامل" لسليمان منصور.

ويمكن القول أن اسئلة الثقافة وأسئلة السياسة متواشجتان في الواقع الفلسطيني، والخطر يكمن هنا من بعدين؛ اقضاء الثقافي من قبل السياسي المتحكم بالقرار والمال والسلطة، "لا أحد من القادة الفلسطينيين يتابع اصدارات مركز الدراسات الا الحكيم جورج حبش" (د. انيس صايغ)، وبالتالي عدم الدمج بين العقل الثقافي والعقل السياسي. والخطر الثاني هو تحويل الابداع لخطاب سياسي مباشر كسول وكأن اللوحة الفنية أو الفيلم، أو المطرزة أو الرقصة بيان سياسي سريع لا سياق ابداعي فيه ولا يذهب الى فضاءات جديدة تتماشى مع متطلبات تطويره.

أما عندما تحمل الثقافة البعدين، الابداعي والهّم العام متعدد المضامين، فهي بحق تجسر التناقض كما الماء المكون من اوكسجين وهيدروجين، ولكن بتركيبية اكثر تعقيدا وفائدة من العنصرين المنفصلين، ففي الطبيعة اعظم ابداع.

أليس شعار حمزاتوف ورواية ابراهيم نصر الله قناديل ملك الجليل وابداعات مارسيل خليفة واعمال فرقة الفنون الشعبية وصوت أبو عرب ... مزيجاً من البعدين؟

# جدلية الذاكرة والممارسة بين الاشتباك الميداني والانتفاض الشعبي

السياسة والثقافة وجهان لعملة واحدة

مقدمة:

لا شك أن الذاكرة الفلسطينية الجمعية محملة بخبرة الانتفاض الشعبي في أواخر الثمانينيات وخبرة السنوات الأولى للقرن الجديد واجتياح 2002، كما أن العناصر الأكثر جدية في ثقافتهم على إمام تجارب الثورات سيما انتفاضة موسكو 1905 وبافاريا 1919 وإيطاليا 1930 وبلغاريا 1944 والانتفاضة الإيرانية 1979.. واستخلاصاتها النظرية، وهي تميز جيداً استناداً إلى (علم التاريخ الوحيد الذي نعرفه ونعترف به) ماركس، أن خصائص متباينة لماهية كل من تظاهرة أو تحرك شعبي أو هبة أو انتفاضة أو ثورة.. فمثل هذه التوصيفات السياسية إنما اشتقت من ممارسة الشعوب وباتت جزء من علم السياسة الذي ازدهر في القرنين الأخيرين ارتباطاً بالثورة الصناعية والتحويلات الرأسمالية التي اكتسحت أوروبا.

ولئن كان افلاطون هو من وضع بدايات علم السياسة اتصالاً بالامبراطورية الاغريقية التي اكتسحت أوروبا والشرق حينذاك، فالعقد العاصف في فرنسا بين 1789- 1800 قد اغنى وبلور الكثير من المفاهيم والمصطلحات والمؤسسات.

ويمكن الزعم انه نشأ ما يشبه ميل في المشهد الفلسطيني ان تندفع الامور الى الصورة النمطية لما حصل في انتفاض 1987-1991، علماً أن التاريخ لا يكرر نفسه، ارتباطاً بمتغيراته التي توجب صيغاً جديدة لانعطافاته.

ما يدور مواجهة شبابية

انتشر عام 2015-2016 في عشرات المواقع في الضفة الفلسطينية وخمسة مواقع في قطاع غزة مواجهات شبابية مع نقاط التماس التي يتوضع فيها جنود الاحتلال والمستوطنين، ويقف في مقدمة المقدمة طلبة الجامعات والثانويين، أما في بيوت الغزاء وجنازات الشهداء فتشارك اوساط جماهيرية من مختلف الاجيال والطبقات، في حين يشارك "الشعب" بأسره في الاضراب الجماهيري سواء كان عاماً او محمداً، يضاف لذلك الاعمال التخريبية

لأفراد ومجموعات لجأت للعنف الشعبي ولماأ السلاح الناري. وتبين أن اكثر من ثلثي الذين استشهدوا من الفلسطينيين "30 حالة حتى اللحظة" واكثر من مئة اصيبوا بالرصاص الحي حينما كانوا يتظاهرون سلمياً او يلقون حجارة كتعبير عن غضبهم، فضلاً عن الذين استشهدوا اثناء عملية الطعن او الدهس.

والقاموس الفلسطيني يفهم الهبة حالة جماهيرية مؤقتة يصاحبها مواجهات متنوعة ومسيرات وتظاهرات، اما الانتفاضة فهي نهوض جماهيري عارم اوسع فضاءات واطول مدى تصحبه مطالب سياسية واضحة كانت في الانتفاض الكانوني 87 "الحرية والاستقلال" كشعار ناظم للحركة السياسية وموجه للضرورة الانتفاضية التي استمرت 4 اعوام واكثر فيها الركائز الخمسة "الميدانية \السياسية\ التنظيمية\الاقتصادية\ المعنية والثقافية" ترشدها برامج شهرية تصوغها لجان ميدانية ومستويات قيادية وتنفذها امتدادات تنظيمية وشعبية من كل المسيمات منتشرة في عموم الوطن المحتل عام 67 وباسناد من التجمعات الفلسطينية في كل مكان.

وفي المقابل جابهها الاحتلال باجراءات بطشية " منع تجول اكثر من 600 مرة\تكسير عظام\اطلاق نار، سقط اكثر من 2000 شهيد\اعتقالات واسعة شملت اكثر من 50 الف \ استهداف للعمية التعليمية بما لا يقل عن 50% من ايام الدراسة " وعقوبات تملأ مجلدات.

وكان الاضراب الجماهيري العام المظهر الاعم بمعدل 6-7 ايام شهريا يليه التظاهرات الحاشدة بمشاركة الالاف وعشرات الالاف في اهم المدن والقرى والخيمات ولجان حراسة ومقاومة شعبية في الارياف. وخطوط القتال. وجاء عصيان بيت ساحور نتويجاً لكل ذلك.

اما انتفاضة ال 2000 فقد غلب عليها المظهر المسلح والاعمال الاستشهادية فيما كان المظهر الجماهيري اقل حضوراً. وفعل فعله قانون " ترتقي الوسائل الحربية ارتباطاً بمستويات الصراع" وكان الاكثر قسوة اجتياح الضفة عام 2000 والاغتيال المأسس بقرار رسمي لأكثر من 500 ناشط فلسطيني، ناهيكم عن اضعافهم في المصادمات والتظاهرات واكثر من 550 حاجز عسكري مزقت الجسد الفلسطيني واثقلت على حياة الناس اليومية.

ولأن الشعب الفلسطيني يتمتع بمرونة عجيبة، يتأقلم مع كل الشروط من تكسير العظام الى الاجتياح. فهو تنطبق عليه المقولة الاوروبية "لديه عبقرية التاريخ" وهو لم يندثر رغم استباحته من قبل احتلالات متصله امتدت

اربعة الاف عام لم يعرف فيها سوى فترات قصيرة دون احتلال خارجي، اما الأمانة الصهيونية التي جاءت في وثائق الخارجية الاسرائيلية عام 1950 (سيتحول لغبار الارض) فقد سقطت شأن (أرض بلا شعب لشعب بلا ارض) وهو اليوم يناهز 13 مليون نسمة تجمعها هوية جماعية واهداف جمعية رغم دينامية اوسلو التفكيكية واختزالاتها للخارطة والحقوق وما نشأ من انقسامات السنوات الاخيرة.

وأحدى التجليات الساطعة على وحدة الشعب الاضراب الفلسطيني في 13\11 وتظاهرة سخنين الحاشدة، حيث تفاعلت جماهير 48 الى مستوى المشاركة والتخندق تزامناً مع تحركات الضفة وغزة وعلى نحو اسرع من السابق. ومن أكثر الملامح بهاء في المواجهات المحلية، أن الجيل الذي يتقدم الصفوف انما ولد في مرحلة اوسلو، فتبخرت كل محاولات تغطيسه في النزعات الاستهلاكية والاهتمامات التافهة. فانثقت جوهره الوطني واستعداداته مدفوعة الثمن متحديا غطرسة "العربي يخضع للقوة"

ولئن لم يستسلم الشعب في الضفة وغزة الذي لم يكن اكثر من ثلاثة ارباع مليون بعد 67، فلا ينبغي ان يتوقع أحد ان يستسلم وقد أصبح 5 ملايين. وهو إن لم يتصهين عندما كان 150 الف نسمة في 48 فقد باتت لديه كل ميكانزمات الصمود وحماية هويته بعد ان أصبح 1.5 مليون نسمة اليوم.

وثمة منظور استشرقي خاطئ بأنه (بالهراوة والتقتيل يستسلم الشعب) فالشعوب التحررية تنظر لتضحياتها كضريبة حرية مهما تعاضمت والشهداء هم زيت يزيد النار اشتعالاً، بخلافاً للاستعمار كمشروع ربحي، اذا تكبد خسائر يهزم. ولهذا انهزمت امريكا في فيتنام وقد بلغت خسائها 50 الف جندي، فيما بلغت خسائر الفيتناميون 2 مليون وانتصروا. وانهزمت امريكا في الصومال و خسائها اقل من 20 بينما خسائر الصوماليين بالالاف.

### فوارق هامّة بين انتفاضتي 1987 و 2000 والمواجهات الشعبية 2015

كان لانتفاضة 1987 قيادة مركزية بعدة مستويات وامتدادات في ارجاء الوطن وتخضع لقرار واحد وبرنامج نضالي واحد ومشاركة جماهيرية طاغية وقد غلب عليها النضال الشعبي باشكاله وبدرجة محدودة العمل النخبوي، وتقوم على خمسة ركائز راسخة.

اما عام 2000 فكانت دون قيادة مركزية وبرنامج واضح وقد طغى عليها المظهر الجماهيري لبعض الوقت اما المظهر النخبوي والاستشهادي فالفترات اطول. وكلاهما اتم بزخم وجرأة على اقتحام السماء.

وفي اللحظة الراهنة فمن الجلي أن الاشتباكات الشبابية 2015 محدودة في 60 ال 70 موقع من اصل 550 موقع بين مدينة وقرية ومخيم ولم تشارك فيها اوسع القطاعات الشعبية، اما اعمال العنف فطابعها فردي او مجموعات مبادرة دون توجيهات فصائلية تسدها، بل ونشطاء الفصائل رغم حضورهم فهم أقرب الى مبادرات قاعدية لديها ملاحظاتها النقدية على العديد من "القيادات"، اما شركائهم في الميدان فهم ينتمون للوطن ونظرتهم الاتهامية عالية وفي كل الاتجاهات.

### هل يمكن أن تتحول المواجهات الشبابية لانتفاض شعبي؟

اذا جاز الرسم البياني، فالمواجهات الحالية تتداخل فيها بعض ملامح الهبة بتددها في مواقع جديدة، وفيما لو استمرت هذه الدينامية على نطاق أوسع وبات طابعها جماهيري حينها تتحول لانتفاض شعبي. ولكن هذا مشروط بقدرتها على الصمود والاستمرار من جهة والانتشار من جهة أخرى، وان تبلور نواتها الشبابية الصلبة القادرة على اتخاذ القرار الانتفاضي ورسم خطواته المتلاحقة وتأمين متطلباته الميدانية المتنوعة، حينها ينتقل التناقض التنحري الى حالة استعصاء لا حل له الا بتحقيق اهداف سياسية. ودون خطابه و شعاراته فهذه الشروط لم تتوافر بعد، والتمنيات والرغبة لا تصنعان وحدهما تغييراً.

وكانت الامور تسير بهذا الاتجاه بجعل الانتفاضة الاولى في اواخر الثمانينات نمط حياة تنتقل من محطة نوعية لتأسيس مرحلة عليا تفضي الى استعصاء لا يزول الا بزوال الاحتلال، غير أن مدريد واوسلو قطع السياق دون أن يحقق هدف الاستقلال او مجرد حماية الارض التي كان 2% مصادراً في الضفة فاصبحت اليوم 7% ناهيك عن الجدار والاغوار.

لا ينبغي تبسيط الامور، فالغليان الراهن (أكد وحدة الشعب ورفض الاحتلال، وخلق حالة فوبيا وقلق لدى المحتلين، واعاد الامل للفلسطينيين، وكرس الوحدة الميدانية) ولكنه لم يصل مجرد السماح بزيارة الرباعية



الدولية كشاهد زور لا اكثر، ولكن زيارتها تأجلت لأسبوعين كونها تحمل صفة سياسية فيما مؤتمر هرتسليا تجاهل القضية الفلسطينية وهذا حال خطاب اوباما الاخير في الامم المتحدة.

## مخاطر تهدد المواجهات الشبابية

اضافة لبطش الاحتلال، فإن النضال قلعة لا تقتحم الا من الداخل وهنا ترتفع اصوات وتوجهات:

1- تدويل القضية الفلسطينية. وهذا خط يقوم على التظلم لمجلس الأمن ودول العالم ومنظمات الامم المتحدة.. وهذا خط صحيح طالما انه أحد الخيارات، اما أن يتحول لمسار يتعارض مع خيار الميدان ودون أن يتسلح بوزنٍ كافٍ لطرده المحتل، فحينها ينطوي على مخاطر. تغيير التدويل طريق طويل، وفي اي لحظة قد تقول حكومة نتنياهو لا على غرار قولها لا لمسي كيري عندما نشب خلاف تكتيكي في اطار التحالف الاستراتيجي.

ومرشحة الحزب الديمقراطي هيلاري كلينتون هي أكثر صداقة من اوباما الذي تقول الرسمية الاسرائيلية ( أنه أعطى اسرائيل اكثر من اي رئيس امريكي سابق) اما مرشح الحزب الجمهوري ترمب فهو وصفة توتر في الإقليم ويتناغم اكثر مع السياسات التوسعية لنتنياهو في المنطقة. وبالتالي ليس على الفلسطيني الا ان يمتشق صلبه على ظهره دفاعاً عن وجوده وحقوقه وكرامته.

2- استنساخ عبارة " تشكيل قيادة للانتفاضة" بألف شكل وشكل، وهذا معناه أن تتولى رموز فصائلية قيادة الحالة الميدانية.

والسؤال هنا: هل رفض الميدانيون ان يخرط هؤلاء في صفوفهم؟ الجواب كلا. اما اذا كان المقصود ان يمارسوا دور الاستدّة ، او ان يتقمصوا شخصية قيادات الداخل في الانتفاضة الكانونية 87 فهذا شيء اخر. ذلك أن زخم الفصائل وقياداتها التي كانت تتعرض للتشكيل والاستهداف حينذاك منحها الثقة الشعبية لتادية دور توجيهي هو جزء من دورها القيادي للانتفاضة.. اما اليوم فالحال ليس نفس الحال.

وفي حالة ان ينتحل البعض دوراً له باصدار بيانات ونداءات غير مسنودة بزخم ميداني، فهذا يعود بنتائج سلبية على الميدانيين ، بل ولا يصغون له.

### بين العفوية والوعي

أحد مزايا " الوعي" هو الحفاظ على استمرار النهوض، اما العفوية فهي تنتفخ وتبدد بسرعة. وان استمرار المواجهة الميدانية اسبوعين دليل على أن ثمة وعي يحركها: وعي على نحو مختلف لما حصل في اواخر الثمانينات حين شكلت قيادة الفصائل وكادراتها وائتلافاتها روح الوعي، اما اليوم فالعنصر الشبابي الذي "تستهن به العقلية التقليدية وبعض اوساط المثاقفين، فهو خارج الحساب بالنسبة لها، رغم أن هذا العنصر الشاب هو من خلع النظام التونسي والنظام المصري، وهو الذي يصنع الفعل الميداني، هو روح اللحظة الراهنة والركيزة الأهم.

طبعاً أن الميدان امام امتحان دفع كادراته الى مستوى المنظمين والضغط لاجتذاب اخرين من الخارطة السياسية. وتأمين الحضور الذي يوجب على المستويات التقليدية وتلبية مطالب الميدان. وفي "الزمن المكثف" لينين تبنى المهارات القيادية بسرعة. اذ يمكن ان يراكم الناشط في يوم ما يراكمه في شهر في الزمن العادي.

وختاماً لقد وجد الشعب الفلسطيني ليبقى، ولم تعد صالحة صرخة غوالداماير، "أين هو الشعب الفلسطيني؟" ولديه ما يكفي من طاقات وتطلعات واستعدادات لبلوغ اهدافه (والزمن عامل العوامل) دوريه، ففيه تراكم شروط الانتصار.

ولا تسير العمليات الثورية في التاريخ حسب كاتالوج واحد وصناعها يرسمون مكوناتها وخط سيرها. وبعد أن جرب الشعب الفلسطيني عقدين ويزيد من المفاوضات "غير المجدية" ها هو يجترح مساراً جديداً، وعلى اقل تقدير يرسم علامة على الطريق.



## □ أين تتجه السفينة الفلسطينية في ضوء صفقة القرن وفوز نتياهو؟

محاضرة ارتجالية في المحكمة العثمانية - رام الله

يمكن القول أن صفقة القرن وسياسة نتياهو شيء واحد، فلا سياسة أمريكية إلا السياسة الإسرائيلية: والصفقة ليست محصورة بفلسطين فقط، بل إنها تشمل الإقليم برمته، فهي تستهدف القضية الفلسطينية وحركة التحرر العربية، والقوى المناهضة للهيمنة الأمريكية في الإقليم.

حديثي على مستويين؛ ما أعلن من الصفقة وما رُشِّح عنها. فعلى التوالي، أعلن ترامب السيادة الإسرائيلية على القدس جميعها عاصمةً للكيان الصهيوني ونقل السفارة إليها. وأعلن كوشنير أن لا دولة فلسطينية ولا عودة للاجئين. وثمة جهود دؤوبة لتجوير وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين تمهيداً لإنهاء خدماتها، بل وألغت الولايات المتحدة مساعداتها للوكالة، والبالغة سنوياً 360 مليون دولار، من أصل موازنة سنوية للوكالة تبلغ 1,2 مليار دولار. وتتردد بين الوقت والآخر نغمة أن الولايات المتحدة تسعى لإيجاد آلية بديلة للوكالة تراعي الجانب الإنساني، ولكنها تشطب الجانب السياسي، حيث للاجئين الفلسطينيين 90% من الأراضي التي احتلت عام 1948 حسب الوثائق البريطانية.

كما نشهد حزمة إجراءات ضاغطة على الحركة الأسيرة الفلسطينية، أجل حزمة وليس مجرد إجراء واحد، لما تمثله الحركة الأسيرة من خندق مُتقدّم في النضال الفلسطيني.

ومن جانب آخر، ما يعلنه برنامج حزب الليكود الذي يتزعمه نتياهو، ويقول بسيادة إسرائيلية واحدة من البحر إلى النهر، وهناك من هو على يمين الليكود. وهذا موقف برنامجي تقليدي عمره عشرات السنوات وبناء عليه يفوز في الانتخابات، بل وأعضاء الليكود في الكنيست لم يصوتوا لاتفاق أوسلو. وما يجري في النقب من تطهير عرقي لأربعين تجمع بدوي فلسطيني، وسياسة دؤوبة لتفريغ ما أمكن من أهالي القدس المحتلة، "فبند التطهير العرقي على جدول أعمال القيادة الإسرائيلية"، كتب البروفيسور ايلان بابيه في كتابه التطهير العرقي.

وهذه الأيام ترطن الصحافة بالتحضير لورشة اقتصادية في البحرين هي الشق الاقتصادي من صفقة القرن، والارقام تشير إلى إغراء مالي ما بين 10 - 30 مليار دولار.

هذا على صعيد فلسطيني، أما على صعيد عربي وإقليمي، فأعلن ترامب عن بسط السيادة الإسرائيلية على الجولان، وإن كان قد صرَّح بنيته سحب القوات الأمريكية من سوريا، فهو يتلَّكاً ويتراجع عن ذلك. مثلما أرسل بوارجه الحربيَّة وحاملات الطائرات إلى الخليج، ويلوِّح يومياً بإمكانية توجيه ضربة عسكريَّة لإيران، فيما يشدِّد العقوبات الاقتصادية عليها. مما كان له آثار على الشعب الإيراني واحتياطات الدولة. والهدف هنا واضح وقف المساعدات العسكريَّة الإيرانيَّة لقوى شعيبة في العراق وحزب الله وقطاع غرَّة، وتخلِّي إيران عن الصواريخ الباليستيَّة التي يصل مداها 2000 كم، بما يغطي القواعد العسكريَّة الأمريكيَّة في الشرق الأوسط ومدن الكيان الصهيونيِّ.

وما رنَّح، وهذا قد يكون صحيحاً أو نصف صحيح، بأنَّه يمكن الوصول لترتيبات إدارية لأحياء فلسطينيَّة في القدس الشرقيَّة تحت السيادة الاسرائيليَّة، ويمكن إيجاد صيغة لمدن الضفة الفلسطينيَّة في إطار كونفدراليَّة، ولكن دون إنسحاب أو سيادة. والملك يخشئ من الوطن البديل، إذ قد يتحول الأردن لقوة جذب للناس فهو أكثر استقراراً اقتصادياً وأمناً.

ويمكن مساومة سوريا بتسهيل عودة المهجَّرين والملف الكردي وملف إدلب وإعادة الإعمار في حال أن أدارت ظهرها لإيران وحزب الله، وبالتالي انكفائها داخل حدودها.

ومن الممكن مساومة إيران ورفع العقوبات إذا انصاعت للإملاءات الأمريكيَّة، بأن تُصبح بحيرة أمريكيَّة، كما كان الحال أيام الشاه، فتحاصر روسيا من الجنوب وتقطع طريق الحرير الصينيَّة التي تمر عبر أراضيها وموانئها. ومن المتوقع أن تمر هذه الطريق في 70 دولة تبدأ بالصين وأواسط آسيا، وعبر إيران إلى شمال إفريقيا، من سلك حديد وموانئ ومنشآت، الأمر الذي يؤمِّن تفوقاً للاقتصاد الصيني على الاقتصاد الأمريكي في غضون عقد أو أكثر كما تشير الصحافة الأمريكيَّة.

والعملاقان الأمريكي والصيني مزودان بأسلحة نوويَّة، والصين تشهد صعوداً في مشروعها التنموي الضخم، فيما الولايات المتحدة لم تتحرر من آثار أزمة 2008، وكلاهما ينتج أكثر من 21 تريليون دولار، والصين يقودها حزب شيوعي، أما الولايات المتحدة فتقودها الاحتكارات الرأسمالية، وعليه فما هي فرص الولايات المتحدة للهيمنة على العالم؟! والهيمنة خاصيَّة بنويَّة للرأسماليَّة الأمريكيَّة، خصوصاً وهي تشهد علاقات متناميَّة بين بكين وموسكو.

وتأسيساً، إنّ مجلة الصفقة تدور بالمفرّق وإن لم يُعلن عنها رسمياً بالجملة. وهي قابلة لتحريك جزئي هنا وهناك، ولكن جوهرها واحد هو استعادة الولايات المتحدة للبادرة في الصراع الجيوسياسي الإقليمي والصراع الاستراتيجي العالمي.

ماذا يعني الإعلان الرسمي المرتقب عن الصفقة؟ إنّ ما يدور هو تمهيد وتحضير، أمّا الإعلان فيعني تحويلها لمشروع سياسي ومسار سياسي يمضي على أقدام، وقوى متساوقة معه ومنخرطة فيه. وهذا يعني مضاعفة الضغط ومضاعفة الاغراءات، أي العصا والجزرة. وفي هذا السياق يجري الإعداد لنانو أمريكي - إسرائيلي - رجعي عربي. واتصالات أمريكية وغير أمريكية مع شخصيات نافذة وغير نافذة فلسطينياً، فلسطين أول المستهدفين بالتصفية.

قلنا أنّ أوسلو اتفاق استسلامي، أمّا الصفقة فهي تصفوية وتسعى لإزاحة فلسطين من الأجندة السياسية، أي أن لا يعود ثمة قضية فلسطينية وحقوق فلسطينية ونضال فلسطيني لزمان طويل على أقل تقدير، وهذا أخطر من إخراج الملف الفلسطيني من جدول أعمال الأمم المتحدة بعد عام 1953 لعقد ونصف تقريباً.

السؤال: ما هي فرص تمرير هذه الصفقة؟

هنا ثمة نقطتين منهجيتين:

- 1) إنّ الصفقة تستهدف محور المقاومة والإقليم، وبشكل أحصّ فلسطين، بما يجعل القضية الفلسطينية مرتبطة موضوعياً بالمحور. فهل يمكن أن تترابط بنويّاً، أي أن تكون جزءاً من محور المقاومة؟ هذا مرهون بالموقف الفلسطيني، لكن من الملاحظ أنّ فصائل فلسطينية أعلنت انحيازها لمحور المقاومة.
- 2) عدم نسيان أنّ الشرق الأوسط هو مُربّع واحد في مخططات البنتاغون والخارجية الأمريكية، من باكستان إلى المغرب العربي، وأنّ مساحته أقل من مساحة نصف روسيا، وعدد سكّانه أقل من نصف عدد سكّان الصين.

وعليه، أتوقع أن يستمر الحصار على غزة تحت مساعٍ إسرائيلية بالتخلي عن البندقية وإرادة القتال. وهذا حسب المنظور الديني "حلم إبليس بالجنة"، فغزة ميادة لشيء واحد وخيار واحد، هو المواجهة مهما بلغ الحصار التجويعي. وأية قراءة أخرى هي واهمة. وقد صمد القطاع في ثلاثة حروب في عقد واحد دون أن تحصد العدوانية الاستعمارية أيّاً من أهدافها؛ فلم تسقط ولم تبدل سلطة غزّة، ولم تُغلق الأنفاق ولا وقف إطلاق

الصواريخ، بل وتعترف وسائل الإعلام الإسرائيلية بتعاضد المقدرة العسكرية للمقاومة في غزة، من كورنيت وطائرات مُسيّرة تطلق صواريخ على الدبابات. فغزة المحاصرة والمجوعة - والتي أغلق النظام المصري أكثر من 1800 نفق فيها كانت تؤمن 70% من حاجات القطاع، ويتوافق هذا مع استمرار إغلاق بوابة رفح الدولية - بات لديها قوة ردع ما. وهنا تتباين رؤية نتنياهو عن رؤية ليبرمان، فالأخير يسعى لاجتياح غزة، والأول يُدرك حجم الثمن الذي يمكن أن يدفعه الإسرائيلي.

ومن المرجح أن يستمر الضغط السياسي والمالي على السلطة في الضفة إلى أن تتساق مع الصفقة، وهذا لن يكون، فالكل الفلسطيني كما السلطة في رام الله يقولون لا للصفقة. ومسار أوسلو وصل نهايته، فلا دولة ولا حكومة ذاتية ولا حتى مجرد وقف لسرقة الأرض الفلسطينية، والقدس الشرقية التي جرى توسيعها من 3% من مساحة الضفة الفلسطينية في العهد الأردني إلى 17%، جرى ضمها وفيها الآن أغلبية يهودية استعمارية والأحياء العربية محاصرة، ومعزولة، أما الأغوار فساحتها 27% من الضفة وقد أخرجها المفاوضات الاسرائيلي من طاولة البحث في مفاوضات التسعة أشهر، والجدار ابتلع 13% من مساحة الضفة وخزانات المياه الاستراتيجية، أي لم يبق ما يغري أية قيادة فلسطينية لا براغماتية ولا أيديولوجية، لا معتدلة ولا متشددة.

لقد انتهى زمن أن تكون المساعدات الخارجية للسلطة 30 - 50 % من الموازنة العامة، وزمن 2,6 مليار دولار من المساعدات عام 2013 و 2 مليار أخرى عام 2014، فهي لم تبلغ أكثر من 700 مليون عامي 2017 و 2018، أي ما يُعادل 12 - 13 % من الموازنة البالغة أكثر من 5 مليار، أما النسبة الأعظم فهي ضرائب، ناهيك أن مديونية السلطة تجاوزت 5,5 مليار دولار.

الضغط سوف يستمر على السلطة بهدف اختراقها وإرهاقها وتفكيك الإجماع الفلسطيني. وعلى الذين يصرون أن الشدة ستنتهي في غضون ثلاثة أشهر أن يعيدوا النظر في تفكيرهم، وأن يتبعوا سياسة تقشفية متعددة الأبعاد، وأن يوقفوا الموازنة التطويرية، وأن يعيدوا النظر في حجم الأجهزة الأمنية التي تستهلك أكثر من ثلث الموازنة، ناهيك عن متطلبات نحو 50 ألف مقاتل في غزة. - الصين دولة عظمى ولديها ثاني رصيد بعد ألمانيا بما يزيد عن 3,4 تريليون دولار، ومع ذلك قلّصت جيشها من 4,6 مليون إلى أقل من 3,5 مليون بعد تأمين فرص عمل -

وكما رشح عن محاضرة ألقاها بروفيسور أمريكي في العقيدة العسكرية عام 2013، أن الطور الرابع للحرب لا يتطلب الغزو العسكري وإنما إنهاك الدول، وبعدها وضع اليد على هذه الدول.

وما يجري هو إنهاك السلطين في الضفة وغزّة، وإنهاك الشعب في الداخل والخارج لخلق مُقدّمات التساوق مع الصفقة وأحد بنودها توطين شعبنا حيث هم.

إنّ الشعب الفلسطينيّ هو الكلمة الفصل فيما يخصّ الشق الفلسطينيّ من الصفقة. والأمور حتى اللحظة مُطمئنة، غير أنّ شعبنا غير مُحصّن ككل الشعوب، ولن نتوقف محاولات اختراقه، والعثور على نُخب وامتدادات تُحرّكها نزعاتها الزعاميّة والنفعيّة. فقد أورتنا مرحلة أوصلو خرائب كثيرة، وحن أوان قطف الثمار. وإجمالاً لدى الشعب مستويين في المواجهة:

(1) القوة السليبيّة، أن يقول لا. وأرغب أن أذكركم بحادثة حصلت عام 1988، عندما جاء جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكيّ الأسبق للقدس للفندق الأوريات هاوس، وفي نيّته اللقاء بوجهاء أو قادة فلسطينيين، غير أنّ القاعة كانت فارغة، فأوكل لوزير خارجية النرويج، حسب ذاكرتي، الذي قفز إلى تونس، وقال للراحل عرفات: "أنت تعرف أنّي صديق للفلسطينيين، كيف تتحدون المسعى الأمريكيّ؟ ما هي أوراق القوة بين يديك؟ أخشى أن تتكرر معكم تجربة الأرمين. ردّ أبو عمار: قوتي قلبي هذا، فدون توقعي لا شيء يمر، وهذا يُعتبر في علم السياسة الذي درسته ودرسته قليلاً "قوة سلبية" شأن الذي في الزنازين، فهو لا يحرك لسانه وحسب. ولكن لم يثبت أبو عمار على هذا الموقف للنهاية، وأتانا بأوسلو، التي تحوّلت من اتفاق إلى مرحلة، وما نتج عنها.

(2) القوة الإيجابية: أي الفعل والمناهضة. ولا يجب أن ننسى البنادق والصواريخ في غزّة، والكهون الهائل في الضفة والمحاولات هنا وهناك، وتملّح شعبنا في الـ48 وتراكم عوامل الاستعداد في الشتات، وخذق الحركة الأسيرة. فهذه القوة الإيجابية عرفها شعبنا على امتداد مسيرته الكفاحية منذ السنوات الأولى بعد هزيمة حزيران عام 1967، وتأكيد وجود شعبنا وهويته الكفاحية مروراً بمحطات كفاحه وأهمها حرب بيروت 1982، والانتفاضة الكبرى عام 1987، وحروب غزة، وما بينها وما بعدها. فشعبنا حي، ولولا ذلك لما أخفق أكثر من 60 مشروعاً سياسياً حاول تسوية أو تصفية القضية الفلسطينية.

ربما البعض يقول: كل هذا الكلام جيد، ولكن "مبادئ أوصلو" مرّت. وهذا صحيح، ولكن ذلك ما كان ليكون لولا توقيع القيادة الرسميّة للمنظمة. وهذا الشرط مفقود اليوم، مثلما انطوت صفحة التنظيم، القائد



والزعيم الأوحـد الذي يؤيده 65 - 70 % من الشعب وقواه المُقاتلة، فأكبر فصـيل اليوم وتحالفاته، أيّاً كان لا يصل 50% شعبياً أو مقاتلين وأجهزة أمنية. كما أنّ سلطة الحكم الذاتي باتت سلطتين متباعدتين. الآن ثمة رفض ثابت للصفقة، فالصفقة تأخذ كل شيء ولا تُعطي شيء.

إنّ أول عَقبَة هي الوطنيّة الفلسطينيّة العميقة في صدور وعقول وأفئدة الشعب. وهذا حال أي شعب آخر. وثاني عقبَة أنّ الشعب تواق للحرية في وطن حر. هذان العاملان أنتجا فصول "البطولة الإغريقية" على امتداد العقود التي واجهت مؤامرات الذبح السياسي والعسكريّ دون هوادة.

والعقبَة الثالثة هي الخارطة السياسيّة بإمكانياتها المتنوعة، سواء التي تتخذ موقفاً مناهضاً للسياسة الإمبرياليّة الأمريكيّة، أو التي راهنت عليها ربع قرن وأصبحت بصدمة (صفعة القرن). فلا أحد يثق بالولايات المتحدة ووعود أوباما بالدولة تجرّت، والتمرير الكلامي لبيكر عن "الحكومة الذاتية" تجرّ، وأوهام التسوية تجرّت. هذه عقبات جديّة وجوهريّة، ولاحقاً نتطرق لمحور المقاومة.

ولكن ماذا عن أوراق القوة في أيدي الصفقة؟

إنّها مشروع مسنود بدولة عُظمى بما لديها من إمكانيات على مُختلف الصعد، وتأثيرات على دول عديدة. وهي مشروع مسنود بإمكانات ماليّة، والإدارة الأمريكيّة لن تدفع شيئاً من خزينتها بل من خزائن التوابع، مثل مئات المليارات التي أُنفقت في الأزمة السورية أو اليمنية. والصفقة تخدم أهداف كبيرة إقليمية ودولية، بما يجعل الضخ فيها كبيراً أيضاً.

ولكننا نتساءل: هل سمعتم عن شعب باع وطنه ومستقبل أبنائه بالدولار؟ فما بالكُم بشعبنا المشحون بأحلام كُبرى وبحر من التضحيات؟

وعن الدولارات، لقد وعدت الولايات المتحدة وسواها بدفع 10 مليار لقاراضي في أفغانستان، و15 مليار لتسديد مديونيّة أوكرانيا لروسيا، وما حصلنا عليه هو النزر اليسير. فما بالكُم ومديونيّة الولايات المتحدة بلغت 22 تريليون دولار، ومديونيّة أوروبا 10 تريليون دولار، والسعوديّة تراجع رصيدها من 850 مليار دولار إلى أقل من النصف مع عجز سنوي رغم أنّها المنتج الثاني للنفط بعد الروسي، أي نحو 10 مليون برميل يومياً. وسلطة أوصلو تلقت الوعود بأن تحصل على نصف مليار في العام الأول ولكنها حصلت على 370 مليون حسب تصريح للدكتور نبيل شعث. وغزة وُعدت ب 5 مليار دولار لإعادة إعمار ما هدمته الترسانة العسكريّة،

تلقت أقل من النصف على امتداد سنوات، وهناك آلاف المنازل لم يتم إعادة إعمارها أو بناؤها بعد. وكما تعلمون أن المساعدات الأمريكية توقفت للسلطة والمنظمات غير الحكومية ووكالة العوث. فإدارة ترامب ليست بابا نويل، إنها تأخذ ولا تُعطي. وقد لاحظتم إهانات ترامب للعائلة الحاكمة في السعودية.

ولا ينبغي أن ننسى أن مركز الثقل الاقتصادي العالمي ينتقل اليوم لجنوب شرق آسيا، وبالتالي فعيون الولايات المتحدة مفتوحة على ما يدور هناك، لا سيما وأن نفوذها يتراجع في إقليم الشرق الأوسط. وهناك حرب بدأت ولن تنتهي بين الولايات المتحدة والصين، إنها الحرب الاقتصادية.

ومن جديد اسمحو لي أن أشير لأهم عاملين في مواجهة الصفقة:

(1) العامل الفلسطيني، أما أية اختراقات فهي لن تعدو مجرد نخب وهوامش دون ثقل قادر على تمرير مشروع سياسي. أي تكوين قاعدة وازنة متساوقة هو من باب التمنيّات، طالما أن قيادة فتح تقول لا، وقيادة حماس تقول لا. وهذا تحصيل حاصل، وإن كنت أؤيد مقولة لينين "الحزب قلعة لا تُقتحم إلا من الداخل"، والشعب قلعة لا تُقتحم إلا من الداخل.

(2) محور المقاومة الذي يخوض صراعاً حقيقياً لرسم مستقبل الإقليم، ويعتبر نفسه منتصراً في سوريا ولبنان وجزيرة وقطاعات واسعة في العراق واليمن، فضلاً عن طهران التي لديها قوة ردع وتحوض معركة وجود. بينما تكمل بالفشل المخطط الأمريكي - الصهيوني - العثماني - الخليجي في المنطقة، ولم يتبق لديه الكثير من الأوراق الميدانية.

وختاماً، قراءة في المستقبل القريب:

أتوقع نهوضاً وطنياً فلسطينياً عارماً ضد الصفقة، رغم كل ما يُقال عن الشريحة الطبقية التي تضم البيروقراطية السياسية والتي أفسدت الامتيازات والرواتب الخيالية وكرار النخب الكومبرادورية، وما تُشكّله أو شكّلتها الأجهزة الأمنية من إعاقة في المرحلة السابقة. إننا أمام مرحلة جديدة واصطفافات جديدة، وهذا يستدعي الرصد والإحاطة، واستخراج المواقف التحالفية بناء على ذلك.

بل وأتوقع أن يُفسح النهوض المجال، أو أن يؤسس الشروط لتجديد حركة التحرر الفلسطينية. فالنهوض هو المناخ للتجديد وليس عقد المؤتمرات التي تهيمن عليها فئة فاشلة تُعيد إنتاج فشلها كما ثبت منذ عقدين ويزيد.

وأستبعد ولادة فصائليّة جديدة، مجتمعا تقليدي ومُجزّأ، كما أنّ مصاعب أمنيّة وماليّة في الطريق، إنّ نشأ شيء جديد فهو مجرد هوامش مجاورة لحركة التحرر وليس تجديداً لها.

وتوقع أيضاً أن تنبري سوريا الجديدة لتبوء الصف الأمامي في إطلاق مشروع قومي نهضوي عربي، فهي مؤهلة أكثر من سواها اليوم بعد أن رححت كفتها في مواجهة الحرب الكونيّة - الدمويّة، وبالنظر لانتماؤها العربي الذي يسهل عليها التحرك في الساحة العربيّة، سيما وعلاقتها في مد تصاعدي مع العراق ولبنان، آخذين بالحسبان أنّ المشروع القطري العربي استنفذ طاقته التقدميّة منذ زمن، وكان أحد عوامل انفجار الأوضاع في الإقليم.

أما المطلوب فلسطينياً فهو:

(1) العودة لجوهر الصراع، بأنّه صراع وجود لا صراع حدود، وأنّ الحل هو دولة ديمقراطيّة في عموم فلسطين في إطار عربي بعيداً عن أوهام التسويّة.

(2) توحيد الإرادة الفلسطينيّة في شطري الوطن عام 67 و 48 والشتات. فقد كانت مسيرتنا الضرب بقبضة واحدة وعلينا أن نتعلم الضرب بكل القبضات دفعة واحدة ضمن خصائص تجمعات شعبنا، ولكن على قاعدة وحدة الشعب والأرض والمصير. وبالتالي الرهان على القوّة الصاعدة في المجتمع.

(3) الابتعاد عن مقولة النأي بالنفس أو "اللهم نفسي" فشعبنا وقضيتنا في المعمعان ونصادق من يصادقنا.

(4) على الجيل الشبابي دور خاص، إذ عليه أن يصنع مستقبله ومستقبل أطفاله، كما حاول جيلنا والجيل الذي سبقنا، فالشباب هم أول من يُبادر إلى التضحية" لينين.

إنّ الصفقة لا تترك خياراً آخر، فكل التجمعات وكل الأجيال والقضية بقضها وقضيضها في دائرة الاستهداف، ولا مهرب من تجاوز تسويّة أو سلو التي مهدت للصفقة. بل إنّ الوضع الفلسطيني الأزموي يُؤدّد إرادة التجاوز لا محالة. فمرحلة الأمس تلفظ أنفاسها الأخيرة وشعبنا أمام الولادة الثالثة بعد ولادة الفصائليّة الفدائيّة ارتباطاً بهزيمة حزيران 1967 وولادة الإسلام المقاوم ارتباطاً بالانتفاض الكانوني أواخر 1987.

وشكراً



د. أحمد قطامش، كاتب يساري له عدّة مؤلّفات، من بينها: التنظيم الثوريّ السريّ، التسوية الجارية إدارة أزمة، مداخل لصياغة البديل، الدولة الواحدة (ترجم إلى الإنجليزّيّة)، لن ألبس طربوشكم (ترجم إلى الإيطاليّة)، الرحلة (رواية) ومؤلّفات أخرى ومئات المقالات.

أمضى في سجون الاحتلال ثلاثة عشر عاماً ونصف العام، أكثر من ثلثها "معتقلاً إدارياً" وعاش طريداً لقوات الاحتلال سبعة عشر عاماً. حاصل على درجة الدكتوراة في العلوم السياسيّة. رئيس تحرير جريدة اتجاه سابقاً.